مكتبة الدراسات التاريخية
والعلاقات الدولية
٢

في
تاريخ العرب الحديث

تأليف

د. رأفت غنيمي الشيخ
كلية التربية - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى
١٩٧٥ م



دار الثقافة للطباعة والنشر
بالقاهرة

في
تاريخ العرب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر التاريخ العربى الحديث مجالا خصبا للدراسات العلمية بما يشتمل عليه من حركات ديناميكية حددت مسار الشعوب العربية على الأرض العربية . وإذا كان الإسلام قد أوجد منذ القرن السابع الميلادى حركة ديناميكيه ذات تأثير ثقافى كبير ودائم فى كل بلد وصل إليـــه مستندا إلى الدين الإسلامى كعقيدة ، واللغة العربية كوسيلة لنشر هذه العقيدة وحفظها ، فإن الشعوب العربية التى حملت الفكرة العربية مع العقيدة الإسلامية قد حافظت على جوهر الفكرة وأصل العقيدة .

وإذا كان بعض المؤرخين يعتبرون بداية التاريخ العربى الحديث بقدوم الأتراك العثمانيين إلى الأقطار العربية فاتحين ، بينما البعض الآخر يعتبر هذه البداية تأتى مع أوائل القرن التاسع عشر ، والبعض الثالث يرى أن بدايته تأتى فى منتصف القرن التاسع عشر .

وإذا كان بعض المؤرخين يعتبرون نهاية التاريخ العربى الحديث عند نهاية القرن التاسع عشر . والبعض الآخر يعتبر بداية الحرب العالمية الأولى نهاية منطقية للتاريخ العربى الحديث . والبعض الثالث يعتبر الحرب العالمية الثانية هى النهاية المنطقية للتاريخ العربى الحديث .

وإذا كان لكل فريق رأيه وعنده من الأدلة ماتؤيد هذا الرأى أو ذاك ، فإن الرأى عندنا هو أن التاريخ العربى الحديث يبدأ منذ دخول العثمانيين إلى الأرض العربية وينتهى مع نهاية الحرب العالمية الأولى ليبدأ التاريخ المعاصر ، ومن هذا المنطلق تقوم دراستنا للتاريخ العربى الحديث على النحو التالى . .

أولا : دراسة عامة عن الحكم العثمانى للاقطار العربية .

ثانياً : دراسة تمثيلية للحركات الإستقلالية فى بعض الأقطار العربية .

ثالثاً : دراسة تفصيلية للحركات السلفية فى الوطن العربى .

رابعاً : دراسة عن الصراع بين الشعوب العربية والأطماع الاستعمارية . .

وإنى إذ أسوق هذه الدراسة المتكاملة آمـــل أن يكون الله قد وفقنى فى عرضها العرض السليم ، راجياً من الله دوام التوفيق ؟

دكتور رأفت الشيخ
حلمية الزيتون ١٩٧٥
أكتوبر

الباب الأول

الوطن العربى تحت الحكم العثمانى

الفصل الأول : الزحف العثمانى نحو الوطن العربى

الفصل الثانى : نظم الحكم العثمانى فى الوطن العربى .

الفصـــل الأول

الزحف العثمانى نحو

الأقطار العربية

- موقع الوطن العربى .
- الوطن العربى قبيل قدوم العثمانيين .
- العلاقات العربية الأوروبية قبيل قدوم العثمانيين .
- أسباب الزحف العثمانى نحو الوطن العربى .

موقع الوطن العربى

الوطن العربى يشمل من الناحية الجغرافية تلك الأرض الممتدة من إيران شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا ، ومن البحر المتوسط شمالا إلى المحيط الهندى والبحر العربى ووسط أفريقيا جنوبا ، وهى مساحة كبيرة تقارب مساحة « القارة الاوروبية ، ولو اجتمعت الدول العربية كلها فى دولة واحدة لكانت الدولة الثانية فى العالم من حيث الامتداد بعد الاتحاد السوفيتى »[1]

ومن الامور الجديرة بالملاحظة بالنسبة لمساحة الوطن العربى وإمتداده أن هذه المساحة تمثل رقعة واحدة متصلة لاتكاد تفصل بينها فواصل طبيعية فلا يوجد داخلها بحار واسعة أو صحراوات شاسعة أو جبال مرتفعة ، كما أن حدود الوطن العربى مع غيره من الأقطار غير العربية حدود طبيعية سواء فى المشرق أو المغرب ، ففى المشرق البحر المتوسط والجبال من الشمال الغربى والمحيط الهندى وبحر العرب وخليج عمان من الجنوب والجنوب الشرقى ، وفى المغرب البحر المتوسط من الشمال والصحراء الكبرى وخط تقسيم المياه بين نهرى النيل والكنغو وهضبة البحيرات وهضبة الحبشة من الجنوب .

وتقع الارض العربية مناخيا بين المنطقة المعتدلة والمنطقة المدارية وتمتد من خط عرض ٤ درجة إلى خط عرض ٣٧ درجة شمالا ، وهذا الامتداد ليس عيبا أوله آثار سلبية بل على العكس من ذلك فإنه إمتياز للوطن العربى وآثاره إيجابية

---

(١) د . عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى ص٣٢

على نشاط السكان البشرى وتعدد الغلات الزراعية بما يساعد على التكامل بين أقطار الوطن العربى ويدفعها إلى الإرتباط والوحدة لمصلحة كل الاقطار .

وأما سكان الوطن العربى البالغ عددهم حوالى مائة مليون نسمة فإنهم يتميزون بتجانس عنصرى أى أنهم ينتمون إلى جنس واحد هو الجنس العربى الذى ينتمى إلى المجموعة الجنسية المعروفة بجنس البحر المتوسط ثلثهم تقريبا فى قارة آسيا والباقى فى قارة أفريقيا ، ولا يقلل من وحدة الجنس فى أقطار الوطن العربى وجود قلة زنجية جنوب السودان .

وقد حاول المستعمرون الأوروبيون أن يكرسوا فرقة وانقسام العرب وبعدهم عن بعضهم البعض بترويج الادعاءات غير الحقيقية والقائلة بوجود اختلاف جنسى بين العرب ، بأن أهل الشام فينيقيون وأهل العراق آشوريون والمصريون فراعنة والسودانيون أفارقة ، وأهل شمال أفريقيا بربر وهذه ادعاءات مغرضة لأنه ثابت علميا أن هذه الصفات التى ألصقت بالعرب هنا وهناك فى أقطار الوطن العربى إنما هى صفات ثقافية وليست صفات جنسية كما أنه من الثابت علمياً كذلك أن العرب جنس واحد ويرجعون إلى أصل واحد . .

ولعل الوحدة الثقافية التى تظلل أقطار الوطن العربى من أهم علاماته المميزة ذلك أن اللغة العربية هى لغة كل العرب فى الوطن العربى ، وهى اللغة السائدة فى مشرقه ومغربه ولا يقلل من سيادتها وجود لهجات محلية مشتقة من اللغة العربية ذاتها ، أو وجود لغة خاصة بالأقلية الكردية الموجودة فى شمال العراق وسوريا واللغة البربرية فى المغرب العربى التى تتحدث بها الأقلية البربرية فى المغرب ، واللغة الخاصة بالأقلية الزنجية فى جنوب السودان ، علماً بأن الأكراد والبربر يتكلمون اللغة العربية . .

وأما الدين الاسلامى الذى هو دين غالبية العرب فى الوطن العربى الذين تصل نسبتهم أكثر من ٩٠ ٪ من عدد سكان الوطن العربى ، فإنه يعتبر من عوامل

الوحدة الثقافية بين أقطار الوطن العربي ، ورغم وجود أقلية مسيحية وأقلية ضئيلة يهودية فان ارتباط المسيحية والاسلام ساعد على الوحدة العربية بين العرب في الوطن العربي الواحد .

ويشمل الوطن العربي جناحين أحدهما في آسيا والثاني في أفريقيا ، فأما الجناح الآسيوي فيضم ما عرف بمنطقة الهلال الخصيب ، ومنطقة المربع العربي ، والهلال الخصيب عبارة عن « قوس أو هلال يبدأ طرفه الشرقي في حوض دجلة والفرات أي العراق — النصف الشرقي من الهلال — ثم ينحرف إلى الغرب ليضم إليه سوريا ولبنان ، ثم ينحدر إلى الجنوب ليشمل فلسطين . وقد بقى النصف الغربي من الهلال قروناً عديدة يعرف باسم سوريا أو بلاد الشام إلى أن أزيلت وحدته بعد الحرب العالمية الأولى »[1] .

ووحدات الهلال الخصيب السياسية هي : العراق ، سوريا ، لبنان ، المملكة الأردنية الهاشمية (شرق الأردن) ، وفلسطين ، وأما المربع العربي فيشمل شبه الجزيرة العربية ويضم الوحدات السياسية التالية : المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية ، وجمهورية اليمن الديموقراطية ، ودولة الكويت ، وإمارة قطر ، ودولة البحرين ، ودولة الامارات العربية المتحدة (أو الساحل العماني أو المهادن) ثم سلطنة مسقط وعمان .

ويضم الجناح الأفريقي من الوطن العربي كل من جمهورية مصر العربية ، وجمهورية السودان الديموقراطية والجمهورية العربية الليبية ، والجمهورية التونسية والجمهورية الجزائرية الديموقراطية ، والمملكة المغربية ، والجمهورية الموريتانية الإسلامية ، وجمهورية الصومال .

وإذا كانت صورة الوطن العربي الراهنة بهذا التفتت والانقسام الذي كان

---

(1) د . محمد أنيس : الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ج

نتيجة لجهود وسياسة الاستعمار ، فقد كان هذا الوطن عند ظهور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية وعند تأسيس الدولة العربية الاسلامية قد تأثر فى القرن السابع الميلادى بحركة الاسلام الديناميكية وبالحركة العربية التى ظهرت بها قوة اللغة العربية التى رافقت الاسلام كدين فى إنتشاره السريع ، وقد أثرت الحركتان العربية والاسلامية على المجتمع العربى فى أنحاء الوطن العربى من القرن السابع الميلادى حتى الوقت الحاضر ، وظهر تأثيرهما فى جميع مرافق حيـــاة المواطن العربى .

وتعتبر حضارة الوطن العربى الإسلامية العربية خلاصة تفاعلات بين ثقافات واتجاهات وأجناس وشعوب مختلفة تآلفت وامتزجت فى ظل الخلافة الإسلامية التى ظهرت أولا فى شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الإسلام وانتشر فى أيام الخلفاء الراشدين ، ثم فى ظل دمشق عاصمة الامويين ، فبغداد عاصمة العباسيين ، ثم فى ظل القاهرة عاصمة آخر خلافة عربية .

وعلى الرغم من إنتقال مركز السلطة من مكة والمدينة المنورة إلى دمشق فبغداد فالقاهرة ، فقد وجدت وحدة مشتركة بين أقطار الوطن العربى كان أساسها كما ذكرنا وحدة الجنس والأرض والثقافة المتمثلة فى اللغة العربية والدين الاسلامى ، وكان قوام الوحدة الثقافية الاسلامية ثلاثة هى :

١ — الوحدة الروحية التى تجمع شعوب المنطقة العربية .

٢ — ارتباط السلطة الدينية بالسلطة الزمنية ، فقد كان الخليفة هو الزعيم السياسى إلى جانب كونه الزعيم الدينى للمسلمين .

٣ — شيوع مبادىء الإخاء والمساواة التى تحطم الحواجز بين الناس دون النظر إلى الجنس أو اللون ، وهذه المبادىء تستند إلى شرائع الدين الاسلامى .

ورغم أن الوطن العربى تعرض لانقسامات داخلية بعد ضعف الخلافة

العباسية حتى رأينا دويلات إسلامية تقوم هنا وهناك فى أنحاء الوطن العربى ولكنها لم تنفصل عن الخلافة الاسلامية ، كما لم يضع حكام هذه الدويلات أية قيود أو حواجز تحول دون إنتقال المواطن العربى من قطر لآخر أو تحول دون اتصال العرب فى المغرب بأخوتهم عرب المشرق ، بل استمر العرب وحدة شعبية وإن اختلفت حكوماتهم وتعددت دولهم ، فبلاد العرب لكل العرب .

الوطن العربى قبيل قدوم العثمانيين

وكانت ظروف الوطن العربى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى أى عند زحف العثمانيين نحو الوطن العربى على النحو التالى :

أولا : مصر والشام والحجاز تحت حكم سلاطين المماليك منذ انتهاء الدولة الأيوبية ووقوف المماليك ضد الخطر الصليبى فى الشام والخطر المغولى الذى دمر بغداد وقتل سكانها عام ١٢٥٨ م — ٦٥٦ هـ ، ولكن وحدة الشام ومصر تحت حكم المماليك استمرت بعد هزيمة المغول عام ١٢٦٠ م ٦٥٨ هـ فى عين جالوت حتى تم الزحف العثمانى واحتلال بلاد الشام ومصر .

ثانيا : العراق . بقيت العراق تحت سيطرة المغول منذ عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حتى خضعت لدولة الشاه إسماعيل الصفوى الشيعية التى أسسها فى إيران عام ١٥٠٠م وامتد بها إلى العراق عام ١٥٠٨ م وأخذ يبسط بها المذهب الشيعى .

ثالثا : الخليج العربى وتتكون أقطاره من مسقط وعمان وقطر والبحرين وإمارات الساحل المتصالح والكويت ، فقد كانت تسكنها قبائل عربية تعمل بالتجارة واستخراج اللؤلؤ والرعى ، وقد تعرض بعضها للاحتلال من قبل البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر مثل البحرين ودولة هرمز التى كانت دولة مزدهرة مقرها على شاطىء الخليج وتضم الجزيرة المواجهة والتى تحمل نفس الإسم ، أما عمان فقد كانت أكثر مناطق الخليج تنظيما سياسياً بسبب وجود

إمامة الخوارج الأباضية بجبال عمان بالداخل ، كما كانت أقرب إلى المجتمعات الحضرية . وواضح من هذا أن أقطار الخليج العربى كانت تحكمها التنظيمات القبلية حتى أوائل القرن السادس عشر وهو الوقت الذى بدأ فيه الزحف العثمانى على أقطار الوطن العربى .

رابعاً : اليمن والجنوب العربى . كان الأئمة الزيديون يحكمون اليمن ويعترفون لدولة المماليك فى مصر بالسيادة عليهم شأنهم فى ذلك شأن أشراف مكة الذين يحكمون الحجاز ، وأما الجنوب العربى - وهى حضرموت وعدن - فكانت تابعة لليمن ولم تنفصل عنها قبل قدوم العثمانيين إلى اليمن .

خامساً : نجد والإحساء . هذه المنطقة تمثل أكبر قسم من شبه الجزيرة العربية ، وكانت تخضع لتنظيمات قبلية طبقاً للقبائل التى تسكن تلك الجهات .

سادساً . السودان . فقد كان انتشار الاسلام فيه أيام حكم المماليك لمصر دافعاً لكى تعيش القبائل السودانية فى ظل الولاء للمماليك ، ولكن السودان لم يكن موحدا ولم يكن الحكم فيه مركزيا حتى قامت دولة الفونج الإسلامية عام ١٥٢٢م وحاولت توحيد وادى النيل فى دولة إسلامية عربية بعد أن تعددت دوله وممالكه .

سابعاً : ليبيا : كانت ليبيا تعيش فى ظل دويلات صغيرة متعاقبة حتى احتلها الاسبان عام ١٥١٠ م ثم أهداها الاسبان إلى فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مركزاً لنشاطهم الصليبى والقرصنة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، عام ١٥٢٥ م . وقد ظل فرسان القديس يوحنا فى ليبيا حتى طردهم منها العثمانيون عام ٥٥١ م .

ثامناً : تونس كانت تحكمها الدولة الحفصية من عام ١٢٢٨ — ١٥٣٤م وقد امتد سلطانها فى بعض فترات التاريخ شرقا إلى طرابلس ، وحكمها أكثر من عشرين أميراً من الأسرة الحفصية ، وقد امتدت الدولة إلى الأندلس أيضا فى بعض فترات التاريخ .

تاسعاً : الجزائر . حكمها أمراء أسرة بنو عبد الوديد الذين اتخذوا من تلمسان مركزا لدولتهم فى الجزائر ، وهم من أهل البلاد المتحضرين وبلغ عدد من تولى الحكم منهم عشرة أمراء ، بين عام ١٢٣٥ — ١٤٠٠ م ، حتى سقطت فى يد المسيحيين الاسبان .

عاشراً : مراكش . حكمها أمراء بنى واطس ومركزهم فاس من عام ١٤٧٠ — ١٥٥٠ م ووقفوا يواجهون المسيحيين الاسبان ، ويواجهون الاسرة الشريفة فى مراكش حتى ظهر الأسطول التركى فى البحر المتوسط أمام الشواطىء المغربية .

ولنا أن نتساءل عن طبيعة العلاقات العربية الأوروبية قبيل زحف العثمانيين على أقطار الوطن العربى ؟ — إن الإجابة على هذا التساؤل يجب أن تشمل بيان نشاط كل من البندقية وجنوة ، وأسبانيا وفرسان القديس يوحنا والبرتغال إلى جانب إبراز آثار الغزو الصليبى للاقطار العربية .

فيما يتعلق بكل من البندقية وجنوة فقد كانتا حريصتين على إقامة علاقات طيبة وسلمية مع أقطار الوطن العربى فى أفريقيا الشمالية وفى آسيا باعتبار هذه الاقطار تطل على البحر المتوسط وهى طريق التجارة مع الهند ، وكلا البلدين — البندقية وجنوة — تركز نشاطها فى التجارة ، ولذلك نجدهما تتنافسان الفوز بالعلاقات الأقوى والأحسن مع أقطار الوطن العربى وخاصة مصر قلب هذا الوطن وبها أقصر طريق إلى الهند .

وفيما يتعلق بأسبانيا فإن هناك تاريخ بعيد منذ الفتح العربى للاندلس وإقامة الدولة الاموية هناك ثم الدويلات المنقسمة على نفسها أمام تزايد القوى المسيحية واتحادها حتى تم إجلاء آخر وجود إسلامى من أسبانيا عام ١٤٩٢ م وعندئذ اتخذت أسبانيا سياسة صليبية انتقاما للمد العربى الإسلامى فى أراضيها وعملت أساطيل الأسبان على مهاجمة السواحل العربية فى شمال أفريقيا بل واحتلال بعض هذه الأقطار كما سبق أن ذكرت ، وقد استمرت العلاقات الأسبانية العربية متوترة وغير طيبة وحتى مجىء العثمانيين إلى الأقطـــار العربية وصدامهم مع الاسبان .

وفيما يتصل بفرسان القديس يوحنا، فقد كانوا بقايا الغزو الصليبى لفلسطين ولما تم طردهم منها انتقلوا إلى جزيرة رودس وبقوا بها يهددون أقطار المشرق العربى حتى طردهم الاتراك العثمانيون منها فانتقلوا إلى جزيرة مالطة ومنها مارسوا نشاطا صليبيا بالتعرض لسفن وسواحل الاقطار العربية الإسلامية فى شمال أفريقيا ووصل الأمر إلى احتلالهم لطرابلس عام ١٥٣٥م حتى طردهم منها الاتراك العثمانيون عند مجيئهم إلى طرابلس عام ١٥٥١ م .

وأما ما يتعلق بالبرتغال فكانت تشارك الاسبان عداءهم للعرب والمسلمين وتشارك أسبانيا أيضا فى ضرورة إتباع أسلوب صليبى ضد الاقطار العربية والإسلامية، ومن ثم اتجهت البرتغال إلى أعمال الكشف الجغرافى المرتبط بمحاربة المسلمين أينما وجدو ، فلما نجح البرتغاليون فى الوصول إلى مياه الهند اصطدموا بالمسلمين العرب بزعامة سلطنة المماليك فى مصر والشام وكانت الهزيمة للجانب العربى عام ١٥٠٩ م أمام بومباى فيما عرف بمعركة ديو البحرية ، ومن ثم استولت البرتغال على جزيرة هرمز المتحكمة فى مدخل الخليج العربى ، وجزائر البحرين فى الخليج ، وأخذت تهدد وتقعب سفن العرب والمسلمين العاملين فى الهند والشرق الاقصى لحرمانهم من أن يكون لهم نشاط ينافسهم فى هذه الجهات التى احتكروها لانفسهم .

وفيما يتعلق بآثار الغزو الصليبى فانه يمكن القول بأنه نظراً لفشل الغزو الصليبى لفلسطين بطرد الصليبيين على يد العرب المسلمين، لم تنته الروح الصليبية الاوروبية ضد أقطار الوطن العربى ، بل يمكن القول أن هذه الروح كانت المحرك للمشروعات الاستعمارية الاوروبية فى أقطار الوطن العربى لا فى القرن التاسع عشر فقط بل قبل ذلك وبعد ذلك وإلى الآن باعتبار أن الحركة الصليبية هى فى واقع الامر حركة استعمارية اتخذت من الدين ستارا لتحقيق أهدافها الاستغلالية .

أسباب الزحف العثمانى نحو الوطن العربى

ولنا أن نتساءل أيضا عن حقيقة الزحف العثمانى وأسبابه نحو أقطار الوطن العربى ؟ وللاجابة على هذا التساؤل نقول أن بناء الدولة العثمانية الفتية كان أوروبيا حيث انطلقت من شبه جزيرة آسيا الصغرى وأنقضت على الدولة البيزنطية الهرمة المتاخمة لها فى البلقان . وأخذت تهزمها فى كل الميادين حتى فتحت القسطنطينية واستولت عليها واكتسحت شبه جزيرة البلقان . ولم يتوقف العثمانيون فى زحفهم إلا بعد أن وصلوا إلى أبواب فينا عاصمة النمسا . وكانت أقطار الوطن العربى والإسلامى تنظر إلى انتصارات العثمانيين وفتوحاتهم على حساب الدولة البيزنطية نظرة ملؤها الاحترام والحماس والتأييد فى الوقت الذى جعلت هذه الانتصارات العثمانيين ينظرون إلى انفسهم نظرة حماة الدين الإسلامى والدول الإسلامية .

ولكن الدولة العثمانية بعد أن زادت فى التوسع غربا توقف الزحف أوكاد وفى مقابل ذلك وجدناها تتجه شرقا وتزحف نحو أقطار الوطن العربى ليستولى عليها . فما الذى دفع الدولة العثمانية إلى الاستيلاء على الأقطار العربية .

- هل ان الدولة العثمانية قد وصلت إلى درجة التشبع فى فتوحاتها فى أوروبا ولم يعد أمامها فى نهمها للفتوحات سوى أقطار الوطن العربى. أوبعبارة أخرى أن الدولة العثمانية قد وصلت إلى أقصى مدى فى الغرب يمكن أن تصل إليه ولا يمكنها تجاوز هذا المدى فإذ أرادت التوسع فليس أمامها الشرق ؟

- أو هل كان السبب هو رغبة الدولة العثمانية السنية المذهب فى الوقوف أمام خطر الصفويين الشيعة فى إيران الراغبين فى السيطرة على العالم الإسلامى ؟

. أو هل كان الدافع هو اتجاه الدولة العثمانية الفتية والقوية التصدى لأطماع البرتغال فى البحر الأحمر والخليج العربى ومداخلها وإيقاف التهديدات والأخطار البرتغالية الموجهة ضد الأقطار العربية الإسلامية ، وذلك بعد أن فشلت دولة المماليك فى مصر والشام فى القضاء على التهديدات والأخطار البرتغالية .

. أو هل كان الدافع هو رغبة العثمانيين فى شن حملات لتأديب الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط والذين يهددون نشاط الأسطول العثمانى فى هذا البحر كما يهددون أمن وسلامة الأقطار العربية الإسلامية المطلة على هذا البحر وخاصة فى شمال أفريقيا .

. أو هل كان الدافع لهذا الاتجاه العثمانى هو الأطماع لدى سلاطين آل عثمان فى تكوين امبراطورية مترامية الأطراف حول البحر المتوسط تجعل من هذا البحر بحيرة عثمانية ؟

وهذه الدوافع على كثرتها هى فى واقع الأمر من استنتاجات المؤرخين ، ومن ثم تعددت ، ولهذا وجب علينا أن نناقشها قبل أن نسجل رأينا حول الدافع الذى جعل العثمانيين يزحفون نحو الأقطار العربية . .

بالنسبة للدافع الأول فنحن لانستطيع أن نغفل أن الفتوحات العثمانية استمرت فى أوروبا فى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم حتى وصلت إلى أسوار فينا عام ١٥٢٩ م إلا أننا فى نفس الوقت لا يمكن أن نغفل أن الدولة العثمانية وعاصمتها الآستانة لم يكن فى مقدورها أن تتوغل أكثر من هذا . فلكل دولة مدى معين فى التوسع ودولة مركزها الآستانة من المعقول أن يقف مداها عند المجر ، (١)

---

(١) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٠٠

وفيما يتصل بالدافع الثانى الذى يرجع اتجاه العثمانيين نحو الشرق إلى التصدى لأطماع الصفويين الشيعة ، فإن المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى Toynbee على رأس المؤرخين القائلين به ، ولا يقلل من هـذا الرأى كون السلطان سليم عند انتصاره على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران عام ١٥١٤ ودخوله عاصمة الدوله الصفوية تبريز واستيلائه على مناطق العراق الشمالية ، أنه لم يشأ أن يستمر فى زحفه داخل إيران وعاد إلى عاصمة ملكه لأن « اختلاف المذاهب بين العثمانيين السنيين والإيرانيين الشيعة جعل العثمانيين لا يرحبون بالسيطرة على إيران خوفا من عدم استتباب الامور لهم فيها » (٢)

وفيما يتعلق بالدافع الثالث والرابع والخاصين برغبة العثمانيين فى الوقوف أمام الخطر الاستعمارى الاوروبى من ناحيـة البرتغال والأسبان وفرسان القديس يوحنا فاننا نعتبر هذا الدافع نتيجة وليس سبباً لاتجاه العثمانيين نحو أقطار الوطن العربى وأن كنا يجب أن نذكر أن العثمانيين هم الذين طردوا فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس وساقوهم أمامهم حتى استقروا فى جزيرة مالطـة .

أما بالنسبة للدافع الأخير والخاص برغبة سلاطين آل عثمان فى تكوين امبراطورية مترامية الأطراف ، فإنه رغم أنه من المحتمل أن يكون السلطان سليم قد تطلع إلى أن يضم إلى ملكه الاراضى المقدسة فى الحجاز ، إلا أن فكرة ضم الشام ومصر ثم بقية البلاد العربية لم تكن فى ذهنه وفى مخططه ولكن الظروف هى التى أدت إلى حدوث هذا الضم فقد قال السلطان سليم للسلطان طومانباى بعد انكسار الاخير ووقوعه فى قبضه الأول مانصه . والله ماكان قصدى أذيتك ، ونويت الرجوع من حلب ، ولو أطعتنى من الاول وجعلت

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٤١ .

السكة والخطبة باسمى ماجئت لك ولادست أرضك » .[1] ولكن الهزائم التى حاقت بسلاطين المماليك أطمعت السلطان سليم فى احتلال ممتلكاتهم فى الشام ومصر والحجاز ، ومن ثم أغرته انتصاراته ليواصل فتح بقية الأقطار العربية . .

والرأى عندى هو أنه لا يمنع من أن تكون معظم هذه الدوافع أو كلها مسئولة مسئولية مشتركة عن اتجاه الدولة العثمانية إلى الشرق والتوسع بالاستيلاء على الأقطار العربية ، وإذا كانت ظروف الدولة العثمانية القوية قد هيئات لها التوسع ، فإن ظروف الوطن العربى قد سهلت على الدولة العثمانية تحقيق اتجاهها للتوسع . .

كانت العراق وإيران قد عانت من الدمار والفوضى نتيجة الإغارات المغولية المدمرة الشىء الكثير حتى استطاعت الدولة الصفوية فى أوائل القرن السادس عشر تكوين وحدة سياسية من العراق وإيران على أساس دينى شيعى يعادى المذهب السنى الذى تدين به الدولة العثمانية الفتية بانتصاراتها على الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) فى الغرب .

وإذا كانت مصر والشام قد نجتا من الإغارات المغولية المخربة بواسطة سلاطين المماليك ، إلا أن دولة المماليك رغم ضخامتها - حيث كان لها السيادة على الحجاز إلى جانب مصر والشام - كانت فى أوائل القرن السادس عشر قد وصلت إلى حالة من الإعياء الشديد بسبب تحول تجارة الهند والشرق الأقصى عن طريق مصر والبحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وبسبب حروب المماليك المستمرة وبصفة خاصة ضد الزحف البرتغالى على منافذ البحار العربية الجنوبية وليس أدل على ضعف المماليك من هزيمتهم أمام البرتغاليين فى مياه الهند فيما عرف

---

(١) ابن زنبل أحمد الرمال : آخرة المماليك فى مصر ص ١٣٦ .

بمعركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ م ولذلك كانت مقاومتهم للزحف العثمانى نحو الشام ومصر مقاومة غير عنيدة بل كانت قوتهم مفككه .

أما أقطار الوطن العربى فى شمال أفريقيا ليبيا وتونس والجزائر فقد دخلت فى حظيرة الدولة العثمانية دون مقاومة من سكانها بل برغبة من بعض أهلها التخلص من تهديدات الدولة الأسبانية المسيحية وتهديدات فرسان القديس يوحنا القراصنة بل ورغبة من مواطنى هذه الأقطار العربية فى أن تقضى الدولة العثمانية الإسلامية الفتية على السيطرة المسيحية فى مياه هذه الأقطار العربية وبعض شواطئها . وقد سارعت الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على أقطار الوطن العربى فى المغرب حتى تحكم الحلقة حول البحر المتوسط وتكتمل السلسلة العربية من الأقطار الداخلة فى حوزة السلطنة العثمانية .

حدث إذن زحف واستيلاء عثمانى على الأقطار العربية نتيجة توفر عوامل أو ظروف هيأت لهذا الزحف والإستيلاء سواء فى داخل الدولة العثمانية أو فى أقطار الوطن العربى وقد استمر هذا الاستيلاء طوال أربعة قرون تعرضت فيها الأقطار العربية لتطورات وعوامل داخلية وخارجية كقيام حركات استقلالية فى أنحاء الوطن العربى ، وظهور حركات سلفية اصطدم بعضها بالدولة العثمانية ، إلى جانب الثورات المحلية ضد الحكم العثمانى ، بالإضافة إلى الزحف الاستعمارى الاوروبى على أجزاء من الوطن العربى التى هى ولايات عثمانية .

وأما المدة التى بقيت فيها أقطار الوطن العربى خاضعة للحكم العثمانى ، فانه رغم أن السيطرة العثمانية استمرت لمدة أربعة قرون كما ذكرت إلا أن استمرار هذه السيطرة طوال هذه القرون الاربعة حدثت فى أقطار دون أخرى وأعنى فى الأقطار التى لم تتعرض لغزوات إستعمارية أوروبية والتى بقيت تحت السيطرة العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

وتفصيل ذلك أن الشام بأقسامه الأربعة المعروفة حاليا وأعنى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، والعراق والحجاز ومعظم شبه الجزيرة العربية بقيت تحت السيطرة العثمانية طوال القرون الأربعة من أوائل القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن العشرين . وأما مصر فقد بقيت تحت السيطرة العثمانية مع مشاركة مملوكية فى الحكم منذ عام ١٥١٧م حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر وبقيت بها ثلاث سنوات من ١٧٩٨ - ١٨٠١ م حيث فصلت مصر عن الدولة العثمانية ، ثم عادت مصر ولاية عثمانية وإن ظهر بها محمد على منذ عام ١٨٠٥ م فى حركة قصد بها الاستقلال الذاتى مع التبعية للدولة العثمانية ، واستمرت أسرة محمد على تحكم مصر حتى حدث الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ م ولكنه لم يغير من علاقة مصر بتركيا حتى عام ١٩١٤ م عندما أعلنت إنجلترة حمايتها على مصر وفصلها عن تركيا تأديباً لتركيا بسبب انضمامها إلى ألمانيا ضد إنجلترة وحلفائها فى الحرب العالمية الأولى . وما جرى على مصر انسحب على السودان الذى دخل تحت سيادة الدولة العثمانية منذ أن فتحه محمد على فى العشرينات من القرن التاسع عشر .

وأما ليبيا فقد ظلت تحكمها تركيا منذ عام ١٥٥١ م حتى حدثت بها حركة أحمد القرمانلى ذات الاستقلال الذاتى عام ١٧١١ م وإلى عام ١٨٣٥ م ، ثم عادت ليبيا تحت الحكم المباشر للدولة العثمانية حتى احتلتها إيطاليا عام ١٩١١م فأنهت السيادة العثمانية على ليبيا .

وأما تونس فقد بقيت ولاية عثمانية منذ عام ١٥٣٤ م وفى القرن السابع عشر شهدت تونس حركات إستقلالية وراثية تدين بالتبعية للدولة العثمانية كالأسرة المرادية والأسرة الحسينية حتى حدث الغزو الفرنسى لتونس عام ١٨٨١م وأما الجزائر فكانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية منذ عام ١٥١٨ م ولكنها

استمرت تدين بتبعية إسمية للسلطنة العثمانية بل كانت الجزائر تملك حق عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى السلطان ، وظل هذا الوضع قائما فى الجزائر حتى احتلتها فرنسا عام ١٨٣٠ م .ورغم أن الاتراك لم يستولوا على مراكش ، إلا أنه منذ وجودهم فى الجزائر أخذوا يتدخلون ضد الأشراف العلويين حكام مراكش من ١٦٥٤ — ١٨٣٠ م كما أخذوا يحرضون أعداء الأشراف العلويين للثورة ، ولكن تدخلاتهم وتحريضاتهم لم تؤد إلى استيلاء الاتراك العثمانيين على مراكش ، ومن ثم بقيت مراكش غير خاضعة للحكم العثمانى حتى احتلتها فرنسا عام ١٩١٢ م .

الفصل الثانى

نظم الحكم العثمانى فى الوطن العربى

- مقدمة
- إيجابيات الحكم العثمانى
- سلبيات الحكم العثمانى

مقدمة

خضعت الاقطار العربية للحكم العثمانى بتنظيماته التى وضعها سلاطين آل عثمان وبصفة خاصة سليمان بن سليم الاول الذى عرف بسليمان القانونى رغم أن الاقطار العربية التى خضعت للحكم العثمانى وتنظيماته وفى مقدمة هذه الاقطار مصر بطبيعة الحال كانت أكثر تحضرا من الدولة العثمانية ، ويرجع المؤرخون هذه التنظيمات العثمانية إلى تأثيرات عوامل متعددة هى :

أولا : بيئة الأتراك العثمانيين (١) الأصلية فى وسط آسيا التى أثرت على ثقافة الأتراك بصفة خاصة ، وخاصة اللغة والعادات والتقاليد القبلية وإن كنا يجب أن نوضح أن تأثير هذا العامل ضعف واستمر فى الضعف مع مرور الزمن ومع بناء الدولة واتساعها فى أوروبا وفى الأقطار العربية وتأثر الأتراك بالبيزنطيين والعرب وثقافاتهم .

ثانيا : الحضارة الفارسية وما اشتملت عليه من مظاهر الفخامة والتبجيل والإحترام للسلاطين إلى جانب التنظيمات الإدارية والسياسية فى الدولة فضلا عن اعتبار أصحاب الملل — أى غير المسلمين — مستقلين بأمورهم الداخلية ، كل ذلك وجد طريقه إلى نظم الحكم العثمانى إما عن طريق الدولة السلجوقية فى فارس أو عن طريق العرب الذين تأثروا بالحضارة الفارسية أو عن طريق

(١) الاتراك العثمانيون إحدى قبائل الأتراك العديدة سواء التى بقيت فى بيئتها فى أواسط آسيا أو رحلت إلى آسيا الصغرى ، وهذه القبيلة تنسب إلى عثمان مؤسس الدولة فى هضبة الاناضول بآسيا الصغرى

الدولة البيزنطية التى جاورت السلاجقة واحتكت بهم ، وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا حول الطريق الذى سلكته الحضارة الفارسية إلى تنظيمات الحكم العثمانى ، وإذا كانوا قد اختلفوا فى مدى تأثير الحضارة الفارسية فى العثمانيين فمالاشك فيه أن هناك تأثيراً حضارياً فارسيا فى التنظيمات العثمانية وإن كانت بمرورها قد صهرت هذا التأثير الفارسى مع غيره من تأثيرات لدى العثمانيين وأصبحت تكون سلوكا عثمانيا . .

ثالثا : تأثيرات العرب الدينية واللغوية فى مجالات التعليم ومجالات العبادة والقضاء والإفتاء ، ويرجع بعض المؤرخين ماجبلت عليه التنظيمات العثمانية من جمود وتحفظ إلى التأثيرات العربية التقليدية ، ولكن هؤلاء المؤرخين يسرفون فى ذلك وينسون أن تأثيرات بيئة وسط آسيا الرعوية القبلية وتأثيرات الحضارة الفارسية لها دورها الأكبر فى التحفظ والتمسك بالتقاليد ومقاومة كل الحركات التقدمية فى المجتمع العثمانى . .

رابعا : تأثيرات البيزنطيين على التنظيمات العثمانية خاصة فى النواحى الإدارية والضرائبية ومظاهر العظمة والأبهة فى البلاط إلى جانب تمتع الأجانب بإمتيازات محددة تتفق مع نظام الدولة . . كل ذلك يفسر كثيرا من التنظيمات العثمانية . .

كان العرب يشكلون الجزء الإسلامى الأكبر فى مجموعة ولايات الدولة العثمانية وبهذا كانوا أكثر الولايات العثمانية تأثراً بالتنظيمات العثمانية ، إيجابيا وسلبيا وكان العرب ينظرون إلى الدولة العثمانية قبل اتجاهها الشرقى نظرة إكبار وفخار لما كسبته للمسلمين من فتوحات فى بلاد الروم ، كما ظل العرب بعد خضوعهم للحكم العثمانى ينظرون إلى العثمانيين باعتبارهم حماة للدين الإسلامى بل وباعتبارهم المحافظين على الخلافة الإسلامية . وقد تأثر العرب بنظم الحكم العثمانى على النحو الآتى : —

ايجابيات الحكم العثمانى

يمكننا أن نحدد التأثيرات الإيجابية للتنظيمات العثمانية فى الحكم على الأقطار العربية فيما يلى :

أولا : إن سيطرة العثمانيين على أقطار الوطن العربى قد وحد هذه الأقطار فى إطار سياسى واحد بعد أن كانت كيانات متنافرة وتكاد تكون متباعدة بين بعضها البعض منذ أن سقطت الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة العباسية وظهور زعامات طامعة فى الحكم فى أنحاء العالم العربى ، وبصفه خاصة بعد أن تعرضت بغداد لتدعيم المغول الشامل فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى الموافق منتصف القرن السابع الهجرى .

ورغم أن هذه الوحدة السياسية قد حققت استقرارا نسبياً فى أقطار الوطن العربى ، فقد فرضت جموداً وعزلة على نشاط العرب فى مجالات السياسة والإقتصاد والثقافة ، ولم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم فى هذه المجالات ، بل تسبب العثمانيون فى قتل النشاط الإقتصادى المزدهر فى معظم أقطار الوطن العربى . ففى مصر مثلا نقل السلطان سليم الأول إلى العاصمة العثمانية عند رحيله من مصر عام ١٥١٨ م أكثر ما فى القلعة وما فى منازل السلاطين والأمراء من الذخائر والنفائس والكتب ، كما أخذوا ما كان من ذلك فى المساجد والأربطة والزوايا ، حتى أعمدة الرخام ،[1] ولقد ذكر الجبرتى أنه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة .

محمود الشرقاوى مصر فى القرن التاسع عشر ص١٠

ثانيا : يعتقد بعض المؤرخين أن السيطرة التركية على أقطار الوطن العربى قد وقفت أمام خطر الصفويين الشيعة للسيطرة على العالم العربى السنى خاصة وأن الشاه إسماعيل الصفوى غزا العراق عام ١٥٠٨ بحجة ضم مزارات الشيعة فى النجف الأشرف وكربلاء وهى الأماكن التى لها تقدير واحترام كبيرين عند الشيعة فى كل أنحاء العالم الإسلامى. ونحن نتفق مع هذا الرأى حيث أن الصفويين استمالوا بعض الرعايا العثمانيين فى الأناضول لاعتناق مذهب شيعى فوضوى عرف باسم « قزل باش » أى الرأس الأحمر ، كخطورة للقضاء على المذهب السنى فى الدولة العثمانية ، ولا نستبعد أنه إذا نجح الصفويون فى ذلك بنشر مذهبهم فى الدولة العثمانية وسيطروا عليها أن يتجهوا إلى الشام ومصر لفرض سيطرتهم ومذهبهم عليها .

ثالثا : استطاع العثمانيون وقف توغل البرتغاليين فى البحار العربية ، من البحر الأحمر والخليج العربى بعد أن عجز المماليك وحلفاؤهم العرب من المغاربة وغيرهم عن الوقوف أمام تهديدات البرتغال لأقطار الوطن العربى ، فكما علمنا انهزم التحالف المملوكى العربى أمام البرتغاليين فى ديو أمام بومباى عام ١٥٠٢ م . ولكن يجب أن ندرك أن العثمانيين لم يستطيعوا طرد البرتغاليين من المنطقة العربية ، ويجب أن ندرك أيضاً أن العثمانيين بوقفتهم هذه أمام البرتغاليين قد فرضوا حمايتهم على أقطار الوطن العربى ضد الأطماع الاستعمارية الأوروبية حتى أواخر القرن الثامن عشر عندما بدأ الضعف يدب فى كيان الدولة العثمانية ذاتها .

رابعا : استطاع العثمانيون ملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردوهم من من ليبيا عام ١٥٥١ م بعد أن سبق لهم أن طردوهم من جزيرة رودس التى انتقلوا إليها بعد طردهم من فلسطين على زمن سلاطين المماليك فى مصر والشام ،

كما استطاع العثمانيون كسر شوكة الأسبان فى حوض البحر المتوسط الغربى . وفرضوا حمايتهم على أقطار الوطن العربى فى الشمال الافريقى ووقفوا ضد تهديدات الأسبان وفرسان القديس يوحنا للاقطار العربية فى شمال أفريقيا .

خامساً : فرضت الدولة العثمانية أثناء صدامها مع البرتغاليين حول مداخل البحار العربية تقليدا جديدا يقضى بمنع دخول المراكب المسيحية فى البحر الاحمر بحجة أنه يطل على الاماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز . وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر (1) . وهذا التقليد قد أفاد أقطار الوطن العربى ومنع الدول الاستعمارية الاوروبية من تحقيق أطماعها فى العالم العربى .

سادساً : استفادت لشعوب الأمة العربية الإسلامية من الحكم العثمانى المسلم فى تقوية الحياة الدينية الإسلامية . ذلك أن الحكام الأتراك حافظوا على مشاركة الشعوب العربية الإسلامية فى الاحتفـــالات الدينيـة ومراعاة الشرائع الإسلامية وكل ذلك انعكس على تأكيد القيم والمبادىء الدينية فى نفوس العرب المسلمين .

وكان الاتصال بين العرب فى موسم الحج أو التعليم بالجامع الازهر وغيره من المساجد التى ادت دورا دينيا وتعليميا من عوامل ترابط العرب المسلمين واتصالهم الوثيق بعضهم ببعض وتأصيل القيم الدينية فى نفوسهم خاصة أن التعليم كان جوهره دينيا ، وكان يؤدى وظيفة اجتماعية بما يضفيه على المتعلم من مركز أدبى واجتماعى ومادى . وبقى مثلا فى مصر نفوذ العلماء لدى السلطات الحاكمة التركية والمملوكية وإقبال هذه السلطات على تشجيع العلماء من رصد أوقاف معينة على بعض المعاهد وحضور الكثير من الأمراء والمماليك دروس العلماء فى المدارس والمجالس الخاصة ،

(1) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص١٢٨ .

ومنحهم الهدايا والمنح للعلماء من وقت لآخر . كذلك كان السلطان العثمانى يهدى رجال الأزهر الكثير من الهدايا أو يأمر بمرتبات تصرف من الضربخانة - دار سك النقود - وكان يجارى السلطان العثمانى فى ذلك سلطان المغرب ولاسيما السلطان محمد فى القرن الثامن عشر ، (١) .

سابعاً : استفادت أقطار الوطن العربى من سياسة الدول الأوروبية وعلى رأسها انجلترة الداعية إلى المحافظة على الدولة العثمانية وممتلكاتها حتى القرن التاسع عشر ومن ثم تمتعت أقطار الوطن العربى بالحماية العثمانية ، وان كنا يجب أن ننبه إلى أن هذه الحماية كان ثمنها عزلة الشعوب العربية عن التيارات السياسية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية فى أوروبا .

ثامناً : استفادت الشعوب العربية من كون الحكم العثمانى للأقطار العربية كان حكما غير مباشر ، حيث لم يتدخل العثمانيون لتغيير البناء الإجتماعى والإقتصادى السائد فى العالم العربى قبل القرن السادس عشر ، ومن ثم احتفظ العرب تحت الحكم العثمانى بمؤسساتهم السابقة ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم . وليس أدل على ذلك أن العثمانيين أبقوا على التقسيم الشائع فى المجتمعات العربية الإسلامية إلى طبقات : رجال السيف ، ورجال القلم ، والتجار ، وأصحاب الحرف ، وأهل الذمة ، والعبيد . كما أبقوا على انتظام أصحاب الحرف فى طوائف لكل منها شيخ ينظم شئون العاملين فيها ويكون حلقة الاتصال بينهم وبين رجال الحكومة ونتيجة للحكم العثمانى غير المباشر ، ونتيجة لبقاء التراث العربى بعيدا عن تدخل التنظيمات العثمانية ، فقد استفاد العرب فى بقاء الفكرة القومية ومقوماتها فى نفوسهم إلى أن تهيأت لها الظروف فى أوائل القرن العشرين لتنطلق إلى مجال الإعلان والتحرك نحو الوجود والتحقيق .

*

(١) د . محمد أنيس . أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ج ٣ ص ١١٠٨

كما يمكن لنا تحديد التأثيرات السلبية للحكم العثمانى على أقطار الوطن العربى فى النقاط التالية : —

أولا : فهم العثمانيين لوظائف الدولة ومسئولياتها نحو رعاياها ، ذلك أن هذا الفهم كان يقوم على أن مهمة الدولة ومسئولياتها تتمثل فى ثلاثة أمور فقط هى :

١ — الدفاع عن الولايات ضد أية أعتداءات خارجية ، وهذا يستلزم وجود قوات عثمانية تدافع عن البلاد أو تشارك فى مواجهة الدول المعادية للسلطنة كما تحافظ على الأمن والنظام فى البلاد ، فمهمتها عسكرية بوليسية فى آن واحد لكى تضمن بقاء الولايات تدين بالتبعية للسلطنة العثمانية . وبطبيعة الحال فالقوات التى وجدت بالولايات العربية لم تكن عربية بل كانت عثمانية بتشكيلاتها مما أفقد المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم عن حماية بلادهم والدفاع عنها .

٢ — تحصيل الأموال الأميرية (الضرائب) على تنوعها . ثم توزيعها على وجوهها المختلفة عن طريق إدارة مالية . وأهم وجوه انفاق هذه الأموال هو إرسال الجزية السنوية للسلطان التى تعرف بالميرى إلى جانب الهدايا السنوية وفى المناسبات المتعددة كمناسبة صدور فرمان بالولاية أو إنعام سلطانى بلقب .. الخ ولم يكن ذلك يتطلب أكثر من الإشراف على الموظفين الذين يجمعون الضرائب والملتزمين ولا يهم مايقع على الرعايا من ظلم أو إجحاف .

٣ — الفصل فى الخصومات بين الناس ، وهذا يستلزم من الدولة إقامة نظام قضائى حسب ما تقضى به الشريعة الإسلامية ، وهذا أمر له اهمية عند السلطان العثمانى باعتباره خليفة المسلمين فى نفس الوقت .

ولم يكن فهم العثمانيين لوظائف الدولة ومسئولياتها يدرك أن هناك أمورا

أخرى على درجة من الأهمية تدخل فى وظائف الدولة مثل التعليم والصحة والتنمية الإقتصادية والرعاية الإجتماعية ، ولذلك فقد تركت الدولة العثمانية هذه الأمور للأفراد والهيئات تقوم بالصرف عليها باعتبارها خارجة عن مسئولياتها التى حددتها الأنظمة الموضوعة .

فاذا احتاج الناس إلى تعليم أبنائهم عهدوا بهم إلى بعض من يحسنونه أو قد لا يحسنونه ، وإذا احتاجوا إلى علاج من مرض بحثوا عنه عند بعض الأدعياء وأما الزراعة فتسير على مألوف ما اعتاده الفلاحون المصريون الذين يخضعون للملتزمين، فى الوقت الذى تركت أمور الصناعة فى يد أصحاب الحرف ينظمونها فى طوائفهم ويتوارثون العمل فيها خلفا عن سلف ، وأما التجارة فقد خضعت لتأثيرات الامتيازات التى منحت للاوروبيين فى الولايات العربية فى مجال التجارة وغيرها من المجالات . كل ذلك يجرى دون تدخل من الدولة العثمانية لترسم سياسة ، بل إن ترك هذه المجالات قد أدى إلى حدوث انهيار اقتصادى وفوضى سياسية وتأخر اجتماعى وعزلة ثقافية حلت بالوطن العربى .

ثانيا : نظرة العثمانيين إلى المجتمع وتقسيمه إلى طبقتين متميزتين هما :

١ ــ الطبقة الحاكمة التركية التى كونت داخل مجتمعات أقطار الوطن العربى ارستقراطية حاكمة منعزلة عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسها بذاتيتها ، وكانت هذه الطبقة التركية تستمد كيانها من القوة العثمانية ، وكانت حريصة على عدم الاختلاط بالشعوب العربية باعتبارهم - العرب - أدنى مرتبة ووظيفتهم خدمة الطبقة الحاكمة .

٢ ــ الرعايا العرب فى بلادهم الخاضعة للحكم العثمانى بتصوراته وفهمه . وعلى الرعايا خدمة الحكام ومدهم بما يحتاجون إليه ، كما كان على الرعايا تنظيم أمورهم الحياتية حسب مألوف ما اعتادوه قبل مجىء العثمانيين ، فاستمرت

الطوائف الحرفية تؤدى دورها المعتاد تحت إشراف مشايخ الطوائف ، وبقيت الطوائف الاجتماعية بمكانتها دون تدخل العثمانيين كأهل الذمة ، وأصحاب القلم أى العلماء . وغيرهم ..

ولا شك أن هذه النظرة العثمانية القاصرة نحو تقسيم المجتمع قد تركت تأثيرات سلبية على المجتمعات العربية أدت إلى عدم شعور المواطن العربى بالولاء للدولة العثمانية بل أحس كل مواطن بولائه لوطنه وقطره العربى الذى ولد فيه ، ولعل هذه التأثيرات السلبية تفسر لنا ضآلة تأثير الحكم العثمانى فى أقطار الوطن العربى رغم السنوات الطويلة التى خضعت فيها الأقطار العربية للحكم العثمانى .

« وهنا تبدو الفروق واضحة بين سياسة العثمانيين وبين سياسة العرب حين انطلقوا من قلب الجزيرة العربية فى موجات بشرية متلاحقة ، فاتحين مبشرين برسالة الإسلام والعروبة فقد اقترب العرب من سكان البلاد الأصليين منذ نهاية القرن الثانى ومطلع القرن الثالث للهجرة[1] » .

ثالثاً : الشك وعدم الثقة فى ممثلى السلطنة العثمانية فى الولايات العربية ، وكانت نتيجة ذلك أن الوالى وهو الذى ينوب عن السلطان فى حكم الولاية والذى كان يشعر بالشك فى تصرفاته ويخضع لرقابة من قوى عثمانية أخرى فى الولاية كقادة الفرق العثمانية المعروفة بالأوجاقات ، والكتخدا وهو وكيل الوالى ، إلى جانب ما نصت عليه التنظيمات العثمانية من تقصير مدة حكم الوالى خوفاً من استقلاله بالولاية ، وعدم جمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يده ، وجعل تعيين القاضى والكتخدا بل والدفتردار المسئول عن الأمور المالية فى يد السلطان لا فى يد الوالى .. كل ذلك يجعل الوالى يشعر بعدم الاستقرار وعدم الاطمئنان لبقائه فى

(1) د. عبد العزيز الشناوى : من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة جـ ٢. ص ٦٦٨ .

الولاية فلا يرتبط بولايته ولا بمشروعات يفكر فى إنجازها فى الولاية ، وإنما ينحصر تفكيره فى جمع أكبر قدر من الأموال لنفسه يحتفظ بها عند عزله من منصبه .

ثم إن عدم الثقة فى الوالى أدت إلى تقسيم السلطة بينه وبين قادة الفرق العثمانية والعصبيات المحلية ، مما أدى إلى التشاحن والخلافات بين أطراف السلطة الثلاث وبالتالى تحملت الشعوب العربية نتائج هذه الخلافات .

رابعاً : الرجعية وعدم التجديد ، كانت السياسة التى جرى عليها الحكم العثمانى فى البلاد العربية ذلك أننا رأينا الحكم العثمانى يبقى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فى المجتمعات العربية كما كانت قبل الغزو العثمانى للأقطار العربية ، بل أننا نرى أن مجموعة القوانين التى وضعت فى عهد سلاطين آل عثمان الأول سليم وسليمان قد بقيت نافذة المفعول وأساسا سار عليه السلاطين الذين خلفوا أصحاب القوانين وواضعيها وهذا دليل على أن الدولة العثمانية لم تكن ترحب كثيرا بأى تجديد فى نظم الحكم السائدة أو فى عادات الناس وتنظيماتهم الاجتماعية ..

وإذا كانت المجتمعات العربية قد استفادت من السياسة الرجعية العثمانية ، فى أنها حافظت على التراث العربى ، إلا أن هذه السياسة قد أدت مع طول المدة التى بقيت فيها المجتمعات العربية تحت السيطرة العثمانية إلى تخلف الأقطار العربية فكريا واقتصاديا واجتماعيا إلى جانب التخلف السياسى ..

خامساً : الطابع العسكرى للحكم العثمانى فى الأقطار العربية ، الذى تمثل فى اعتبار الجيش العثمانى أداة للحرب وأداة للحكم معا ، باعتبار أن الجيش العثمانى غزا وسيطر وفتح اقطار الوطن العربى ، ومن ثم يتفرع منه أداة الحكم فى الولايات .. ولا شك أن ذلك له تأثيره السلبى الخطير على الجيش نفسه الذى

يبتعد بذلك عن وظيفته الأصلية وهى الدفاع عن البلاد ، وعلى العرب الذين يخضعون لحكم عسكرى يبعدهم عن حياتهم المدنية ويقاسون خشونة وغلظة الحكام العسكريين الأتراك ..

سادساً : سوء الإدارة العثمانية التى تجلت فى الاهتمام بالمدن والبلاد الواقعة على سواحل البحار والطرق الرئيسية دون الاهتمام بالمناطق الصحراوية والريفية والنائية من أقطار الوطن العربى ، رغم أن هذه المناطق تمثل الجانب الأكبر من الأقطار العربية ، وتركها العثمانيون فى يد رؤساء القبائل والعائلات يدبرون أمرها بما تعودوه من أساليب الحرب القبلية ، ولا عجب فى ذلك فقد كان العثمانيون يهتمون بالأقطار العربية التى تدر عليهم أموالا أكثر من غيرها ، فقد كان اهتمامهم بمصر مثلا أكثر بكثير من اهتمامهم بليبيا أو اليمن .

سابعاً : إعطاء الأوروبيين امتيازات اقتصادية وثقافية ودينية فى الأقطار العربية، مما أدى إلى فتح الأقطار العربية للنفوذ الاستعمارى الأوربى الذى مارس نشاطه التجارى والتعليمى فى ظل هذه الامتيازات بإنشاء البنوك والوكالات التجارية والمدارس والكنائس ، والادعاء برعاية المسيحيين ، مما كان له أثره الخطير على أقطار الوطن العربى أدى فى النهاية إلى تحقيق الأطماع الاستعمارية الأوروبية عندما حانت الفرصة بضعف الدولة العثمانية وتفككها ..

ثامناً : فرض العزلة على الوطن العربى، وحرمان الشعوب العربية من الاتصال بالحضارة الأوروبية الناهضة بدعوى الخوف على الأقطار العربية من أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية، وإذا كانت الأقطار العربية قد استفادت حقيقة بقائها بعيدة عن أطماع الدول الأوروبية قرابة ثلاثة قرون تحت الحكم العثمانى أى إلى أواخر القرن الثامن عشر ، فإن العزلة التى عاشتها الأقطار العربية قد جعلتها تتخلف مئات من السنين عن الأقطار الأوروبية الناهضة بل وسلبتها ثقتها فى

نفسها وفى قدرتها على استعادة مجدها الأول كدولة موحدة كبرى فى منطقة الشرق الأوسط سبقت حضارتها المزدهرة الحضارة الأوروبية الناهضة فى القرن التاسع عشر، ومع ذلك فالقطر الذى تهيأت له فرصة يكسر فيها نطاق العزلة المفروضة عليه استطاع أن يبنى نفسه فى المجالات المختلفة على أسس حديثة، ومصر فى مطلع القرن التاسع عشر على يد محمد على خير دليل ذلك ..

«وقد ساعد على سلبية الحكم العثمانى فى المجتمعات العربية أن العثمانيين لم لهم رصيد حضارى يقدموه للحياة العلمية فى مصر — وفى غيرها من الولايات العربية — فلم يتعلم المصريون — وغيرهم من العرب — اللغة التركية، ولم يدخلوا اللغة التركية فى الكتاتيب»[1] .

---

(١) د. محمد أنيس : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة جـ ٣ ص ١١٠٧.

الباب الثانى

الحركات الاستقلالية فى

الوطن العربى

مقدمة

أختلف المؤرخون حول أسباب وطبيعة الحركات الاستقلالية التى قامت هنا وهناك فى أنحاء الوطن العربى، وأختلفوا حول تسميتها هل هى حركات انفصالية تسعى إلى إعلان الاستقلال الكامل عن الدولة العثمانية أم أنها مجرد رغبة للحكم الذاتى فى ظل السيادة العثمانية ..

فيذكر بعض المؤرخين أن أسباب هذه الحركات إنما ترجع إلى ظلم الولاة الاتراك وثقل وطأة الحكم التركى ورجاله على الشعوب العربية مما دفع بالبعض إلى استغلال ضيق الشعوب العربية وإظهار الرغبة فى التصدى للمظالم الواقعة على الشعوب العربية من أجل مساندته لارتقاء كرسى الولاية ..

ويذكر البعض الآخر أن أسباب هذه الحركات الاستقلالية إنما هى راجعة أصلا إلى نزعات فردية ومطامع شخصية تتصل برغبة أصحابها فى السيطرة على إقليم من الاقاليم العربية لتحقيق مكاسب مادية والحصول على سلطة كاملة تحقق له أملا أو حلما راوده منذ صغره كما فى حالة المماليك ..

وأما عن طبيعة هذه الحركات فيذكر البعض أنها كانت تركية رغم قيامها فى ولايات عربية باعتبار أن معظم القائمين بها أتراك يعملون فى خدمة الدولة العثمانية وطمعوا فى حكم ورائى طويل، بينما يذكر بعض المؤرخين أنه مع التسليم بذلك فانه كانت هناك حركات عربيه كثورات القبائل العربية فى الولايات العربية ضد الحكم التركى وثورات دروز لبنان كالامير المعنى فخر الدين بجبل لبنان ،

وحركة الشيخ ظاهر العمر فى جنوب سوريا وهذا فى نظرهم دليل على حيوية الشعب العربى وعدم استسلامه لسلبيات الحكم التركى ..

والرأى عندى أنه لا يمنع أن تكون الحركات الاستقلالية فى الوطن العربى ترجع إلى وجود نزعات شخصية ومطامع فردية عند بعض الموظفين الأتراك فى الأقطار العربية ، وترجع أيضا إلى فساد أنظمة الحكم العثمانى بصفة خاصة فى القرن الثامن عشر الذى شهد انهيارا للتوازن الذى حرص على وجوده السلطان سليمان القانونى فى تشريعات الحكم بين الوالى من ناحية والعصبيات المحلية والأوجاقات العثمانية من ناحية أخرى ..

كما أننا نؤيد الرأى القائل بأنه رغم ثورات القبائل العربية وظهور زعامات عربية كالشيخ ظاهر العمر والأمير فخر الدين المعنى وغيرهما فان قادة أغلب الحركات الاستقلالية كانوا من العنصر التركى الراغبين فى حكم ذاتى وراثى فى أسراتهم تحت السيادة العثمانية ، وهذا ما جعل الشعوب العربية لا تعضد هذه الحركات بل طالبت السلطان العثمانى عندما فسدت الأمور فى ظل هذه الحركات بعزل أصحابها ، كما سنرى فى ليبيا فى ظل حكم الأسرة القرمانلية .

ولم تكن سياسة الدولة العثمانية حيال هذه الحركات سوى تعبير عن الافلاس الذى أصاب الحكم العثمانى ، فكانت تلجأ إلى إرسال الحملات العسكرية للقضاء على ثورات القبائل العربية ، وإذا فشلت فى ذلك لجأت إلى سياسة تغيير الباشوات أو تضطر إلى تثبيت الباشا لمدة طويلة وتقبل حكم أسرته وراثيا إذا أثبت أفراد الأسرة طاعة وخضوعا وقدموا الأموال اللازمة للسلطان ورجال دولته ..

ونتيجة لذلك قامت أسر حاكمة فى بعض الولايات العربية مثل حكم الأسرة القرمانلية فى إيالة طرابلس الغرب (ليبيا) ، وحكم آل العظم فى الشام وحكم

أسرة حسن باشا والمماليك في العراق، وحكم أسرة محمد على فى مصر وحكم الأسرة الحسينية فى تونس ..

كما قامت حركات فردية متعددة تحمل مشروعات ذات طابع انفصالى عن الدولة العثمانية مثل حركة الأمير فخر الدين المعنى الدرزى بجبل لبنان، وحركة الشيخ ظاهر العمر فى فلسطين وجنوب سوريا، وحركة على بك الكبير فى مصر.

وهذه أمثلة للحركات الاستقلالية فى أقطار الوطن العربى تحت الحكم العثمانى نسوقها لنتعرف من خلالها على تاريخ هذه الأقطار الخاضعة للسيادة العثمانية، وسوف نسوقها حسب ترتيب حدوثها زمنيا، ولكن يجب أن نلاحظ أن معظم هذه الحركات حدثت فى القرن الثامن عشر وهو القرن الذى شهد انهيار التنظيمات العثمانية بصورة أفضت إلى حدوث مثل هذه الحركات ..

الفصل الثالث

الأسرة المعنية فى لبنان

- لبنان .
- الأمير فخر الدين الأول .
- الأمير فخر الدين الثانى .
- الأسرة الشهابية .
- لبنان بعد الشهابيين .

لبنان

لبنان ذلك القطر العربى المستقل تحت اسم الجمهورية اللبنانية الآن كان عند الزحف العثمانى على أقطار الوطن العربى عبارة عن قضاء من أقضية بلاد الشام، وقد قسم الحكم العثمانى بلاد الشام إلى ثلاثة باشويات هى :

١ — باشوية الشام ومقرها دمشق وتضم معظم بلاد الشام .

٢ — باشوية حلب وتشمل شمال سوريا .

٣ — باشوية طرابلس (فى لبنان) وتشمل الساحل .

ولبنان له وضع جغرافى وتاريخى خاص ، ذلك أن ثلثى أراضيه عبارة عن جبال عالية بينها وديان تتصف بالعمق والضيق ، كما أن السهول الواقعة بين الجبال نجدها محدودة الامتداد فى الغرب حيث تكاد الجبال أن تصل إلى مياه البحر المتوسط ، فيما عدا سهل البقاع الخصيب الذى يفصله عن البحر جبال عالية تجعل الأمطار التى تسقط عليه قليلة إلى حد ما .

وعلى هذا نجد أن الجبال والوديان التى تتخللها حيث تكثر الأمطار ذات موارد أكثر من السهول الداخلية ، وينتج عن ذلك تركز السكان حيث تتوفر الموارد ، على أن الشرائط الطبيعيـــة وحدها لا تكفى لتعليل التكاثف البشرى الشديد فى الجبال اللبنانية ، بل هناك الأسباب التاريخية والطائفية التى حملت الدروز الموارنة على الاعتصام بالمرتفعات الآمنة حفاظاً على كيانهم[1] .

وسكان لبنان لهم وضعهم الخاص من حيث تركيبهم الاجتماعى والدينى إلا

---

(١) د . عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى ص ٥٦

أن فكرة العروبة عندهم تتجلى فى منازع الشعب ومشاعره أكثر مما تتجلى فى النصوص التشريعية والاحكام الدستورية ، إن إيمان الشعب اللبنانى بثقافته العربية وحرصه على القيام واجباته نحو إخوانه فى الأقطار العربية لا يقلان عن إيمانه بالحقيقة اللبنانية[1] .

وإذا كان العثمانيون قد استولوا على لبنان عام ١٥١٦ م بالإضافة إلى المناطق الجبلية من سوريا وفلسطين ، فان وضع لبنان الخاص كان يستدعى من الدولة العثمانية تعاملا خاصا ، ذلك أنه كان هناك تركيب اجتماعى يقسم السكان إلى قيسية ويمنية ، وتركيب دينى يقسمهم إلى مسلمين ومسيحيين ، بل كان التقسيم الدينى أكثر تفصيلا فوجدنا بين المسلمين دروزا ، وسنيين ، وشيعة ، ووجدنا بين المسيحيين موارنة كاثوليك وأرثوذكس وغيرهم ، وإذا كان الحكم العثمانى لم يفهم طبيعة الشعب فى لبنان ومن ثم جهل بكيفية حكمه الحكم السليم فلا عجب أن نرى لبنان يكون أول قطر عربى يثور ضد الحكم العثمانى بعد أن تم فتح الاقطار العربية وخضوعها للدولة العثمانية .

الامير فخر الدين الاول

عهد السلطان سليم الأول العثمانى بأمر لبنان والمناطق الجبلية فى سوريا وفلسطين إلى الأمير فخر الدين المعنى الدرزى الأول الذى ينتمى إلى الأسرة المعنية ـ من الدروز فى لبنان ـ مقابل أن يعترف هذا الأمير بالسيادة العثمانية ويقدم للدولة فى استانبول الجزية السنوية ، ومعها دلائل خضوعه لها .

إلا أن اشتطاط الدولة العثمانية فى طلباتها قد دفع الأمير فخر الدين إلى أن يعلن العصيان ضد الدولة ويثير القبائل فى لبنان مما عجل بالصدام بين الدولة العثمانية التى هالها أن يخرج عن طاعتها حاكم معين من قبلها يحكم باسمها ويخضع لها وبين

(١) د . جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام ص ١٣ .

الأمير فخر الدين ، وقد ظل هذا الصراع بين الطرفين طويلا والحرب فيه سجال بين الجانبين حتى انتهت حياة الأمير عام ١٥٤٤ م فى بلاط باشا الشام بدمشق .

ولكن موت الأمير فخر الدين لم ينه الصراع بين الأسرة المعنية والدولة العثمانية إذ واصل إبنه قرقاس الكفاح ضد حملات التنكيل التركية التى أرسلت لإبادة الدروز ومن والاهم من أهل البنان ، ولكن قرقاس لقى حتفه عام ١٥٨٥ م مع كثيرين من زعماء لبنان وقادته أثناء حرب القوات التركية الكبيرة التى نزلت إلى لبنان للتنكيل بأهله .

الامير فخر الدين الثانى

لم يكن مقتل قرقاس فى ساحة المعركة ضد الأتراك نهاية الصراع بين الطرفين لأن إبنه فخر الدين الثانى تولى الزعامة من بعده ، وبالتالى واصل الصراع ضد الأتراك . وقد امتاز هذا الأمير بالحنكة السياسيه ، فرغم أنه كان درزياً إلا أنه كان يتقنع بقناع المسيحية أمام المسيحيين ، ويدعى الانتماء للمسلمين السنيين أمامهم وذلك لكسب ود كل هؤلاء وليستطيع تحقيق أهدافه .

بدأ الأمير فخر الدين الثانى زعامته عام ١٥٩٠ م ، فأخذ يبث عيونه فى الآستانة وعند كبار الزعماء وقصور الباشوات ، وذلك لكى يقف على أسرار الجميع ومن ثم يستطيع تدبير المؤامرات للتخلص من منافسيه ومعارضيه وليوقع الفرقة فى صفوف أعدائه ، وقد كانت صفاته هذه سببا فى أن اعتبره بعض المؤرخين تلميذا مخلصاً لمكيا فيلى الأديب الإيطالى صاحب كتاب الأمير .

ورغم أن الأمير فخر الدين الثانى كان قد شارك جان بلاط الكردى الثورة على الباب العالى منذ سنة ١٦٠٣م ولكن الدولة لم تتعرض له حتى بعد هزيمة جان بلاط بل تركت إليه حكم البلاد الواقعة فى حوزته لقاء جزية سنوية يدفعها[1]

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥٣

وكانت مهارته هي سبب موقف الباب العالى الودى منه ، ذلك أنه بعث للسلطان العثمانى بجزية ضخمة وأعلن إن كل مايغتنمه فى حروبه سيتقاسمه مع الباب العالى فكانت النتيجة كما رأينا موافقة السلطان على تعيينه والياً على جبال لبنان والمناطق الساحلية التابعة له وعلى قسم كبير من سوريا وفلسطين .

ولكن الامير فخر الدين الثانى لم يكن ليقبل الاستمرار فى الخضوع للدولة العثمانية وعول على طرح سيادتها عليه جانبا حتى ولو استدعى الامر إلى تحالفه مع الدول الاجنبية المسيحية ، لذلك وجدنا الامير يشرع فى الثورة على تركيا عام ١٦١٣ م بعد أن أعد جيشاً كبيراً وقوى حصون بلاده وتفاوض مع دوق تسكانيا الذى عمرت نفسه روح المغامرة ويبغى فتح أسواق جديدة لتجارة فلورنسا[1] ، كما تفاوض فخر الدين مع أسبانيا ومع بابا روما من أجل مساندته فى حربه ضد الدولة العثمانية .

وكان فخر الدين قد استولى على بعلبك عام ١٦١٠ وأخذ يهدد دمشق ذاتها بالاحتلال مما دفع العثمانيين إلى إرسال حملة عسكرية كبيرة نزلت فى لبنان وأجبرت فخر الدين على الفرار من لبنان إلى إيطاليا حيث مكث هناك خمس سنوات فى ضيافة كوسموس الاول بن فرديناند حاكم تسكانيا ، وأخذ وهو مقيم عنده يحثه على تكوين حملة صليبية جديدة لاحتلال فلسطين وطرد الاتراك من بلاد الشام ولكن كوسموس لم يبد تحمسا لهذا المشروع وقد أظهر فخر الدين أثناء مقامه فى تسكانيا من دلائل البذخ والظهور بمظهر الاثرياء جداً مما جعل النفوس تتأثر بشخصيته ومظهره .

وكان عداء الامير فخر الدين الثانى لتركيا من الشدة بحيث أنه سعى إلى تكوين حلف مع فرنسا والبابوية وفرسان القديس يوحنا فى مالطة وأسبانيا

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

وفلورنسا فى إيطاليا العمل ضد الدولة العثمانية ، إلا أن الظروف الدولية لم تكن تسمح بتكوين هذا الحلف .

وكان الأمير فخر الدين الثانى قدحاول لكسب تأييد هذه القوى الأوروبية أن يظهر بمظهر الزعيم صاحب النفوذ الكبير الذى أتى لينال مساعدة أوروبا المسيحية على استرداد البقاع المقدسة فى مقابل مساعدته ـ خاصة فى البحر ـ على الاستقلال من حكم الترك . ولكن أوروبا المسيحية لم تتحمس للمشروع التحمس الكافى ، وخشى البابا أن لا يجدى المشروع إلا فى إثارة غضب الترك ودفعهم الى الانتقام من رعاياهم المسيحيين (1) .

وفى عام ١٦١٨ م عاد الأمير فخر الدين الثانى الى لبنان بعد أن عفا عنه السلطان العثمانى الجديد عثمان الثانى ، ليجد أمه الحكيمة "نسب" فى أثناء غيبته استمرت تدافع عن بلاده باسم حفيده أحمد على ضد باشا دمشق(2) . الا أن الأمير فخر الدين اعترف بالأمير الجديد ولكنه تولى العمل الفعلى فى الإمارة حيث اندفع فى العمل على فرنجة بلاده وأخذ يعمل على تطوير اقتصادياتها ، وتنظيم بيروت بما يقربها من المدن الأوروبية ، واهتم بالتعليم وحرص على ارسال عدد من الشباب اللبنانيين للتعليم فى إيطاليا ، وشجع الأوروبيين على دراسة اللغة العربية وآدابها .

ولم يكن الأمير فخر الدين الثانى ليقبل الخضوع لحكم الثانى حتى ولو كان هذا الحكم صاحب الفضل عليه بإعادته الى بلده ، ولذلك رأيناه يعلن راية الثورة ضد الدولة العثمانية مرة أخرى عام ١٦٣١ م وزحف الى أن استولى على

---

(1) د . أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٤١ .

(2) كارل بروكلمان : نفس المرجع السابق . ص ٥٤ .

الساحل السورى حتى مدينة أنطاكية . ورفض السماح لجيش من جيوش السلطان حشد لحرب فارس أن يقضى فصل الشتاء فى دياره وطرد هذا الجيش بقوة السلاح[1] .

وفى عام ١٦٣٣ م أرسلت الدولة العثمانية قوات بحرية الى لبنان وكلفت باشوات الشام الزحف براً الى لبنان ضد الأمير فخر الدين وابنه الأمير على ، والتقى الطرفان فى ١٥ نوفمبر فى معركة فاصلة دارت فيها الدائرة على المعنيين وقتل فيها الأمير على واستسلم بعدها الأمير فخر الدين الى العثمانيين فأرسل الى استانبول حيث أعدم عام ١٦٣٥ م واما الامارة المعنية فقد دمرت ونهبت ممتلكاته .

عادت السيطرة التركية كاملة على لبنان بعد انهيار امارة الأمير فخر الدين الثانى ، وحتى تحكم الدولة العثمانية سيطرتها على لبنان وعلى الدورز بصفة خاصة فان العثمانيين أنشأوا عام ١٦٦٠ م إيالة رابعة تتكون من المناطق الساحلية التى كانت تابعة لإيالة الشام ، ومهمة هذه الإيالة الجديدة مراقبة دروز لبنان والموارنة وإخماد الثورة من جانبهم بالإستعانة بإيالة طرابلس[2] .

وكانت سيطرة الأتراك عنيفة على لبنان قضت على ما اجتهد فيه الأمير فخر الدين لإقامته فى إمارته . فقد كان لبنان فى حكومة فخر الدين المعنى يتنسم حرية الحكم ريثما جاءت جيوش الترك[3] . ولكن المقاومة استمرت ضد الأتراك طوال القرن السابع عشر، واتسم الصراع بدخول فريق منافس للمعنيين

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٢) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٥٤ .

(٣) د . زكى المحاسنى وآخرون : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ص ٤٩٣ .

فى لبنان، ذلك أن الأسرة المعنية وتنسب إلى القيسية وتلقبت بالحرقادت الصراع ضد أسرة علم الدين اليمنية الملقبة بالبيض المؤيدين من الاتراك .

وحتى عام ١٦٩٧ م استمر الصراع بين الاسرتين القيسية واليمنية كانت الغلبة فى كثير من الأحيان للقيسية ، وكان يستتبع تغلبها توطيد سلطتها فى لبنان وإعادة مجدها القديم حتى إذا انقرضت الأسرة المعنية فى ذلك العام استمرت القيسية بزعامة أسرة درزية أخرى هى الأسرة الشهابية .

الأسرة الشهابية

تسلم الأمير الدرزى بشير الشهابى الأول السلطة فى لبنان ولكنه ووجه عام ١٦٩٨ م بثورة قام بها المتاولة الشيعة الذين يسكنون المنطقة الجبلية بين بحر الجليل وصيدا بزعامة شيخ يمنى . ولكن الامير الدرزى بشير الاول وكان من القيسية تحالف مع باشا صيدا وباشا طرابلس وأخضع ثورة المتاولة، وعين الشيخ ظاهر فى صفد وهو ينتمى إلى أسرة قيسية تدعى بنو زيدان[1] .

ولكن الصراع لم يتوقف بين الأسرة الشهابية وبين الدولة العثمانية التى كانت كثيراً ما تلجأ فى صراعها إلى استخدام اليمنيين فى هذا الصراع ، وإذا كان التحالف العثمانى اليمنى قد نجح عام ١٧١٠ م فى الإطاحة بالأمير حيدر الشهابى، فإن الشهابيين لم يستسلموا وتمكنوا فى العام التالى من القضاء على كافة زعماء أسرة علم الدين اليمنية مما دفع الأتراك إلى التخلى عن معاداة الأسرة الشهابية والتدخل فى شئون لبنان الداخلية لمدة طويلة .

حتى إذا تسلم القيادة بشير الثانى فى أواخر القرن الثامن عشر ١٧٨٥ م عمل على وضع جميع لبنان تحت سلطته ودخل فى صراع مع أحمد باشا الجزار حاكم

(١) د. محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث المعاصر ص ٦١ .

عكا (إيالة صيدا) المنتصر على حملة نابليون عام ١٧٩٩ م ، ووقف الباب العالى مؤيداً لبشير الثانى ضد استفحال نفوذ أحمد الجزار ، ومنح بشير الثانى حكم مناطق البقاع والجبل الشرقى وجبيل وصيدا ، وأصبحت تبعية بشير الثانى للسلطان العثمانى مباشرة بدلا من تبعيته لباشوية عكا وواليها الجزار .

وكان ذلك مثار خلاف وصراع بين الرجلين حتى توفى الجزار عام ١٨٠٤ م ، فأخذ بشير الثانى يعمل لإصلاح الأحوال فى لبنان ويضع السلطة كاملة فى يده بقوة مستخدما العنف والبطش بالانقساميين الطائفيين ، ورغم ذلك اتسم حكمه بطابع التقدم . وجنى آثار النهضة الاقتصادية فى عهده بالعيش فى ترف تجلى فى قصره المسمى بيت الدين الذى يعتبر ذا شهرة معمارية فى لبنان .

وقد استطاع بشير الثانى بالخديعة حينا وبالحرب حينا وبالمهادنة حينا آخر أن يستقطب القوى المتنافرة فى لبنان ، فمع أنه كان مسلما درزيا بصفة رسمية إلا أن هذا لم يمنعه أن يظهر أمام الموارنة بأنه مسيحى وأن يدعى اعتناقه الديانة المسيحية حتى يضمن ولاء الموارنة وخضوعهم له فى ظل وحدة لبنان .

ومنذ عام ١٨٢٠ م بدأت متاعب بشير الثانى بسبب مطالب باشا عكا الكثيرة التى دفعت اللبنانيين إلى الثورة حتى هرب بشير الثـــانى إلى مصر عام ١٨٢٢م ، وكان هروبه سببا فى ظهور أسرة درزية أخرى برئاسة الشيخ جنبلاط، حتى إذا نجح محمد على فى الحصول على عفو من السلطان العثمانى لبشير الثانى ، عاد إلى لبنان كحليف لمحمد على عام ١٨٣١ م وبقى إلى ١٨٤٠ عندما غادر لبنان للمرة الأخيرة .

لبنان بعد الشهابيين

استمر لبنان يعيش جوا من الانقسامات والطائفية حتى ثارت فتنة دينية عام ١٨٦٠ م بين الدروز والموارنة كانت نتيجتها مذبحة لكلا الطرفين شملت صيدا وحاصبيا وراشيا ودير القمر وزحلة إلى جانب عدد كبير من القرى المجاورة لبيروت ، وامتدت المذابح إلى سوريا ، ويرجع المؤرخون هذه المذابح إلى مؤامرات لعب فيها الدور الأول القنصل الفرنسى فى بيروت .

وكانت هذه المذابح دافعا لكى يعلن الإمبراطور الفرنسى نابليون الثالث أنه سوف يتدخل لإيقاف المذبحة بحجة أن فرنسا تحمى الموارنة الكاثوليك ، وبالفعل نزلت قوات فرنسية فى أواخر أغسطس ١٨٦٠ م إلى ميناء بيروت ولكن بعد أن التزمت فرنسا أمام انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا وتركيا بأن الاحتلال مؤقت لن يتجاوز ستة شهور ولن يزيد عدد الجيش الفرنسى عن ١٢ ألف جندى، وظل هذا الجيش حتى ٥ يونيو ١٨٦١م عندما جلا عن لبنان تحت ضغط الدول الأوروبية .

ونتيجة لهذه المذابح وتداخل الدول فى أمور لبنان فقد وضعت لجنة دولية فى يونيو ١٨٦١ م نظاما أساسيا جديدا لحكم لبنان جعل بمقتضاه جبل لبنان منطقة تحكم حكما ذاتيا تحت رئاسة حاكم مسيحى يخضع للباب العالى مباشرة ، وبالتالى يختاره السلطان العثمانى ويعينه وعرف باسم المتصرف يساعده مجلس إدارى مكون من ١٢ عضوا عضوان من كل طائفة من الطوائف الدينية الكبيرة الست وهى : الدروز ، والمارونيين ، السنيين ، الشيعة ، الروم الأرثوذكس ، الروم الكاثوليك .

وقد اعتبر النظام الاساسى منذ عام ١٨٦٤ م وحتى عام ١٩١٤ م دستورا دائما بعد أن صادقت عليه الدول الكبرى وهى انجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا وتركيا، فى عام ١٨٦٤ م، وإن كانت عدة تعديلات طفيفة قد أدخلت عليه كإنشاء منطقة مارونية أخرى وتعديل عدد ممثلى الطوائف فى المجلس الإدارى المعاون للمتصرف.

الفصـــل الرابع

اسرة حسن باشا والمماليك

فى العراق

. أحوال العراق منذ الفتح العثمانى :
. أسرة حسن باشا .
. العلاقات بين المماليك والدول الأجنبية .
. العراق بعد حكم المماليك .

أحوال العراق منذ الفتح العثمانى

كان العراق قد سقط فى يد الصفويين[1] عام ١٥٠٨م وهم شيعة ، وصادف هذا تطلع العثمانيين إلى الشرق بعد أن اتسعت فتوحاتها فى الغرب — فى أوروبا عبر البلقان — ووصلت إلى مداها ، ومن هنا حدث الصدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة على أرض العراق عام ١٥١٤م ، وكانت العراق بذلك أول قطر عربى تدخله القوات العثمانية غازية .

وكان سقوط العراق فى يد الصفويين على يد زعيمهم الشاه إسماعيل الصفوى الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة فى إيران والذى استمر فى الحكم من ١٥٠٠ إلى ١٥٢٤م . ويذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ البريطانى توينبى Togobee أن الشاه إسماعيل الصفوى مسئول عن تحول العثمانيين فى فتوحاتهم نحو الأقطار العربية وهو التحول الذى أدى إلى صدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة ، وذلك بمحاولات إسماعيل إثارة العثمانيين بشتى الطرق .

ورغم انتصار القوات العثمانية بقيادة سليم على القوات الصفوية بقيادة إسماعيل

---

(١) ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين صاحب طريقة صوفية فى أردبيل بأذربيجان من بين عدة طرق صوفية انتشرت هناك أثناء الاضطراب الذى عم إيران والعراق عقب سقوط دولة المغول الكبرى . وقد أصبح لهذه الحركة قوات عسكرية تتخذ لباسا للرأس عبارة عن تاج أحمر ذا اثنى عشر ذؤابة كناية عن الاثنى عشر إماما ، ولهذا أطلق عليهم العثمانيون « قزل باش » أى الرءوس الحمراء د. محمد أنيس .

فى سهل جالديران عام ١٥١٤ ودخول السلطان سليم إلى العاصمة الصفوية تبريز واستيلائه على أموال وكنوز الشاه ونسائه ، فإن هذا الانتصار لم ينه العداء بين الفريقين ، بل استمر طويلا وكان العراق ميدانا للصراع والمعارك بين الطرفين؛ مما جعل العراق موزعا توزيعا متوازنا بين السنة والشيعة .

« ورغم حملة سليم لم يخضع العراق كله للحكم العثمانى ، بل خضع شماله فقط فى الموصل ودياربكر ، وحتى فى هذه المناطق لم يكن الحكم العثمانى مستقرا كل الاستقرار . أما العراق الأوسط والجنوبى فقد ظل فى يد الإيرانيين »(١) وكان هذا الانقسام من أسباب استمرار الصراع بين الأتراك العثمانيين والصفويين ، واستفاد المغامرون وقبائل الأكراد وحكام الولايات التركية المجاورة للدولتين من هذا الصراع لمصالحهم الشخصية، وفى عام١٥٢٣ قاد السلطان سليمان العثمانى حملة عسكرية استولى فيها على بغداد وانضمت البصرة آنذاك إلى العثمانيين طواعية، وبذلك أصبح العراق كله تقريبا خاضعا للدولة العثمانية حتى عام ١٦٢٣ عندما أعاد الصفويون الكرة واستولوا عليه وبقوا به لمدة خمس سنوات إلى أن قاد السلطان العثمانى مراد حملة عسكرية عام ١٦٣٨ استولى بها على العراق وأعاده إلى حظيرة الدولة العثمانية .

ولم تكن حملة مراد على العراق آخر مراحل الصراع بين الايرانيين والعثمانيين حول العراق ، إذ أنه بعد سقوط الأسرة الصفوية فى إيران على يد نادر شاه عام ١٧٣٢م حاول هذا الشاه الجديد الاستيلاء على العراق ولكنه فشل ، ثم أعاد الكرة من عام ١٧٤٣ إلى عام١٧٤٧م عندما توفى نادرشاه ، وعقدت بين إيران وتركيا معاهدة حددت الحدود التقليدية بين الدولتين مع دخول العراق فى حوزة

---

(١) د. محمد أنيس: الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٨ .

الدولة العثمانية، وبهذه المعاهدة انتهت فترة الصراع الطويلة بين الإيرانيين والعثمانيين والتى كان العراق ميدانها .

« مما يجب الإشارة إليه أن البصرة كان لها وضع خاص، فقد استولى عليها الفرس — الصفويون — أولا فى سنة ١٦٩٧ ثم تركوها بعد عامين ، ثم أغار عليها نادرشاه عام ١٧٤ م ثم ارتدعنها[1]، وكانت البصرة بحكم موقعها على شط العرب على رأس الخليج مصدر اهتمام الدول الاوروبية ، وقد استفـــادت العشائر العربية هناك من هذا الاهتمام إلى جانب استفادتها من الصراع الإيرانى العثمانى.

أسرة حسن باشا

وفى ظل الصراع الإيرانى العثمانى حول العراق كانت حاجة الدولة العثمانية إلى إقرار الأمور فى العراق دافعا لكى تظهر أسرة حاكمة تحكم العراق منذ أوائل القرن الثامن عشر وتستمر حتى عام ١٨٣١م . هذه الأسرة هى أسرة حسن باشا الذى تعين فى عام ١٧٠٤م ، وقد نجح حسن فى إخضاع القبائل العربية المتمردة حتى لم يعد فى استطاعة الباب العالى أن يستغنى عن خدماته »[2] .

ظل حسن باشا فى الحكم متخذا من بغداد مقرا له ونادرا ما كانت كل أقاليم العراق تخضع لحكمه ، إذ كانت الموصل والبصرة كثيرا ما يعلن حكامهما عدم خضوعهما لباشوية بغداد ، وبقى حسن باشا فى الحكم حتى عام ١٧٣٤م حيث خلفه أبنه أحمد فى الباشوية .

---

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٣٠ .

(٢) د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٥٠ .

وكان حسن باشا ومن بعده أبنه أحمد قد نجحا فى البقاء فى الباشوية بسبب تكوين قوة عسكرية من المماليك تحت إمرة كل منهما ، وكان لهؤلاء المماليك منزلة كبيرة عند حسن باشا وأحمد باشا بسبب دورهم فى القضاء على الثورات المستمرة للقبائل العربية، مما دفع أحمد باشا إلى اتخاذ قائد الفرقة المملوكية كتخدا له – أى وكيلا أو نائبا – وزوجه من أبنته ويدعى سليمان أغا .

وعندما توفى أحمد باشا عام ١٧٤٧م وكان سليمان أغا يقوم بحملة عسكرية فى البصرة حاولت الدولة العثمانية إنهاء حكم هذه الأسرة وإعادة العراق إلى الحكم العثمانى المباشر ولكن جند الانكشارية فى بغداد رفضوا قبول الباشا الجديد الذى أرسله السلطان العثمانى، وزحف سليمان أغا من البصرة ودخل بغداد بالقوة وأعلن أنه الباشا الشرعى ، وطلب من السلطان العثمانى إصدار فرمان بذلك ، وقد ساعده على بلوغ هدفه تقديمه الهدايا وحاجة الدولة العثمانية إلى استمرار استقرار الأمور فى العراق على الحدود مع إيران، فى نفس الوقت الذى كانت قد عقدت فيه معاهدة بين إيران وتركيا لانهاء النزاع بينهما .

وبصدور فرمان من السلطان العثمانى بولاية سليمان أغا عام ١٧٤٩م تبدأ سلسلة الباشوات المماليك فى العراق التى استمرت حتى عام ١٨٣١م . ولكن مما تجدر الإشارة إليه أن الدولة العثمانية حاولت أكثر من مرة إنهاء حكم المماليك فى العراق ولكن محاولاتها لم تكن تستمر حتى يعود الباشوات المماليك إلى الحكم مرة أخرى . ومن أمثلة ذلك سليمان باشا الكبير (بويوق سليمان) زعيم المماليك الذى ساعدته شركة الهند الشرقية فى تولية باشوية بغداد وبقى بها من ١٧٨٠ إلى ١٨٠٢م .

ومما يذكر حول تولية سليمان الكبير أن المقيم البريطانى فى بغداد وسّط

سفهر دولته فى الأستانة لصالح الباشا ، فأثاب الباشا الشركة الانجليزية على ذلك بالرعاية والعطف اللذين أسبغهما عليها وعلى نشاطها فى العراق فى مدى عشرين عاما وقد أجابته الشركة إلى ما طلبه فى سنة ١٧٨٢م من سلاح وعتاد فجلبتهما له من بومباى ، ثم أردفت ذلك بعدد من المدربين الإنجليز جاءت بهم من الهند »[1].

وكان آخر الباشوات المماليك وأعظمهم فى العراق هو داود باشا الذى حكم من عام ١٨١٧ إلى ١٨٣١م .

وكان داود باشا من جورجيا وبيع فى طفولته إلى سليمان باشا الكبير ، وقد استطاع بمهارته وتعلمه أن يصبح مستشارا لسليمان باشا ثم زوجا لابنته ، وبعد وفاة سليمان باشا غُضب عليه وعمل معلما بأحد مساجد بغداد فكون علاقات مع رجال الدين وأفراد الشعب العراقى إلى جانب تكوينه أتباعا من المماليك . وهذه القوى ساعدته على ارتقاء الولاية .

وقد حكم داود باشا العراق حكما مطلقا لمدة ١٤ سنة، وكان يعاصر محمد على فى مصر وقد قلده فى سياسته القائمة على تركيز السلطة فى يده واحتكار تجارة الاستيراد والتصدير ، وزراعة أصناف جديدة من المحصولات كالقطن وقصب السكر ، وقد أدى تنفيذه لسياسة تمركز السلطة فى يده إلى خوض معارك طويلة ضد القبائل العربية وضد أكراد شمال العراق، وإذا كان قد استطاع إخماد ثورات القبائل العربية فإن إخضاع الأكراد قد أدى به إلى الصدام مع الإيرانيين الذين يؤيدون الأكراد ضد داود باشا .

وقد كان العداء بين داود باشا والإيرانيين عنيفا انقلب أثره المدمر على

---

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم : مرجع سبق ذكره ص ٢٣٢ .

الإيرانيين الشيعة المقيمين بالعراق والمصالح الايرانية فى العراق ، وأنتهى هذا العداء بتوقيع صلح أرضروم فى مارس ١٨٢٣ م الذى أنهى اجراءات داود ضد الإيرانيين فى العراق وأعاد منطقة كردستان إلى الحكم التركى .

وفى عهده ساءت العلاقة بينه وبين الانجليز ، وعندما صدر الأمر بحل فرق الانكشارية عام ١٨٢٦ م وأخذ الباشا يدرب جيشا جديدا رفض الانجليز مساعدته فى تدريب هذا الجيش وإمداده بالضباط والفنيين والأسلحة ، مما اضطر الباشا إلى استخدام ضابطين من فرنسا لتدريب جيشه وأنشأ بعض المصانع الحربية التى عهد بالإشراف عليها لخبير سويسرى ، وفى عهد داود باشا « بدأ الحديث عن فتح مواصلات سريعة بين أوروبا والهند عن طريق الفرات ، وذلك باستخدام السفن التجارية فى دجلة والفرات ، وأتى إلى العراق جماعة من الفنيين الانجليز لعمل مسح لهذا الطريق والوقوف على مدى إمكانياته »(1) .

وبسبب صدام داود باشا بالانجليز كاد له هؤلاء فى البلاط العثمانى وبسبب هزيمة الاتراك فى حربهم ضد روسيا عامى ١٨٢٨/١٨٢٩ م وفرض غرامة حربية كبيرة عليهم يدفعونها للروس طلب السلطان محمود الثانى مساهمة باشواته فى دفع هذه الغرامة ، ولكن داود باشا رفض دفع أية أموال بل وقتل المبعوث التركى الذى وصل إلى بغداد فى ديسمبر ١٨٣٠ م مما جعل الباب العالى يعلن تمرد داود باشا ويرسل جيشا لمحاربته .

أرسل السلطان محمود الثانى عام ١٨٣١ م قوة عسكرية عثمانية إلى العراق دخلت بغداد — التى كانت تعانى من انتشار مرض الطاعون بها - ولم يستطع داود المقاومة بل استسلم للقوة حيث نفى إلى الجزيرة العربية حيث عمل شيخا للحرم النبوى فى المدينة المنورة إلى أن مات هناك ، وبنفيه أنتهت أسرة حسن باشا

---

(1) نفس المصدر ص ٢٣٤ .

والمماليك فى العراق ليعود الحكم العثمانى المباشر إلى هذا القطر العربى الذى كان أول قطر عربى تغزوه القوات العثمانية .

العلاقات بين المماليك والدول الاجنبية

ونتساءل قبل الاسترسال فى الحديث عن الحكم العثمانى فى العراق بعد سقوط اسرة حسن باشا والمماليك فى العراق ، ماذا كانت علاقات هذه الأسرة بالدول الأجنبية لقد كان الاهتمام الانجليزى بالعراق سببه اتخاذ الخليج والعراق وشمال بلاد الشام طريقا للمواصلات السريعة بين لندن والسلطات البريطانية فى الهند . هذا إلى جانب الأهمية العسكرية للخليج العربى بالنسبة للهند ، وإن كان هذا الإهتمام العسكرى لم يظهر بشكل واضح إلا بعد الحملة الفرنسية على مصر »[1] .

وكانت انجلترا فى سبيل ذلك قد تحالفت مع إيران على طرد البرتغاليين من الخليج (من هرمز) وورثت الامبراطورية الهولندية من جزر الهند الشرقية ، وفى الوقت الذى كان الانجليز يبدون اهتمامهم بالعراق كانت أسرة حسن باشا والمماليك تحكم ذلك القطر العربى فى ظل تبعية اسمية السلطان العثمانى بينما ينفردون بالحكم فى العراق ويدعمون استقلالهم الفعلى عن الدولة العثمانية ، وهم فى ذلك فى حاجة إلى تأييد دولة أجنبية قوية ضد محاولات السلطنة العثمانية انهاء حكمهم وضد شاهات إيران للاغارة على ملكهم . وكانت انجلترا هى تلك الدولة الأجنبية التى سارعت إلى تأييد هؤلاء الباشوات .

وقد احتلت التجارة الانجليزية فى العراق وإيران الاهتمام الأكبر عند انجلترا ، وكان « شركة الهند الشرقية البريطانية تعد وكالتها التى أنشأتها بالبصرة عام ١٦٤٣ م مركز تجارتها الرئيسى ، ولكنها لم تنشىء لها تمثيلا فى بغداد إلا فى سنة ١٧٥٥ م وجعلته أولا تابعا للبصرة[2] وقد شجع الحكومة البريطانية على

---

(١) د . محمد أنيس ، الشرق العربى ص ٩٩ .

(٢) د . أحمد عزت عبد الكريم . مرجع سبق ذكره ص ٢٣٢ .

إنشاء هذه الوكالة ماتمتع به العراق من استقرار وإصلاح فى عهد الباشوات المماليك الذين كانوا فى حاجة إلى علاقات طيبة مع الانجليز .

وكان هذا التقارب بين الباشوات المماليك والانجليز لمصلحة الطرفين ، ففى الوقت الذى أيد الانجليز الباشوات المماليك أمام أطماع شاهات إيران وأمام محاولات السلطان العثمانى إنهاء سيطرة الباشوات المماليك على العراق ، رضى هؤلاء الباشوات « بتطبيق قاعدة الامتيازات التى كانت تمنحها الدولة العثمانية للأوروبيين وهى ٣٪ الأمر الذى أدى إلى نشـــاط التجارة البريطانية فى الخليج العربى »[1] .

ولكن العلاقات الطيبة بين الطرفين شابها فتور بل وعداء ، فبعد أن أصبح فى بغداد مقيم بريطانى ثابت أصبح له اختصاصات قنصلية عام١٨٠٢ وأصبحت بغداد منذ هذا التاريخ القاعدة الأولى للنفوذ الانجليزى فى العراق بعد أن كانت البصرة تحتل هذه المكانة ، وعلى الرغم من أن الباشا استمر يرعى المصالح البريطانية فى العراق ويقدم التسهيلات للرعايا البريطانيين حتى فى وجود حالة حرب بين انجلترا والدولة العثمانية عام ١٨٠٧ م .

رغم كل ذلك فقد اتخذ داود باشا آخر الباشوت المماليك منذ عام ١٨١٧ موقفا عدائيا من النشاط الانجليزى الذى كان على قمته القنصل الانجليزى جيمس ريتش Rich منذ عام ١٨٠٨ م . ويبدو أن نشاط القنصل المتزايد واتصالاته الواسعة مع الموظفين الأتراك والاشراف وشيوخ البادية قد أثار « مخاوف داود باشا حتى أنه لم يتورع عن أن يعلن فى عام ١٨٢٠ أنه لاتوجد حقوق أوروبية فى بغداد . وأردف ذلك بزيادة الرسوم الجمركية على البضائع البريطانية وأصبح دواد باشا واثقا أنه لن يستطيع الاعتماد على شركة الهند الشرقية أو

---

(١) د . محمد أنيس : الشرق العربى ص ١٠٠ .

السفارة البريطانية فى الآستانة ، بل أخذت هذه السفارة على عاتقها أن تكيد لداود باشا فى الدوائر العثمانية حتى نهاية حكمه عام ١٨٣١ م[١] .

وعلى الرغم من أن العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية كانت فى مجملها علاقات طيبة وودية ، إلا أنه بالنسبة للعراق فى عهد أسرة حسن باشا والباشوات المماليك لم تستطع فرنسا أن تنافس بريطانيا فى هذه الولاية العثمانية ، ورغم أنه كان لفرنسا قنصل فى البصرة إلا أن المصالح الفرنسية فى العراق لم تكن كبيرة ، وكان الوكلاء الفرنسيون لا يلقون رعاية ولا اهتماما من السلطات الحاكمة بسبب ماعرف عن إنهيار النفوذ الفرنسى فى الهند ، وانعدام أى نفوذلهم فى الخليج[٢] . ومع ذلك ورغم اعتقال الفرنسيين فى جميع أنحاء الدولة العثمانيين ومنها العراق عقب غزو بونابرت لمصر عام ١٧٩٨ م إلا أن باشوات العراق استخدموا بعض الفرنسيين ، فقد استخدم سليمان باشا طبيبا فرنسيا واستخدم داود باشا ضابطا فرنسيا أيضاً لتدريب جيشه بعد أن اختلف مع انجلترا كما سبق أن ذكرت .

ومما يجب الإشارة إليه أنه رغم فشل الحملة الفرنسية على مصر بقيادة بونابرت فقد استمرت سياسة محاربة المصالح البريطانية فى الهند من أسس تحركات الامبراطور نابليون الأول ، حيث وضع خطة منذ عام ١٨٠٥ م لإنزال قوات فرنسية فى لبنان تزحف عبر العراق عن طريق وادى نهر الفرات إلى الخليج .

ولتحقيق هذه الخطة اتفق رجال الامبراطور الفرنسى مع حافظ على باشا الوالى التركى الذى استولى على السلطة فى العراق بعد موت سليمان باشا الكبير عام ١٨٠٢ م لقاء أن تقدم فرنسا مساعدات فنية ومعدات حربية لاعداد وحدة عسكرية نظامية على النسق الاوروبى ، وقد ساعدت هذه القوة العسكرية سليمان

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : مرجع سابق ص ٢٢٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٣٢ .

الصغير (كوجوك) ابن أخى حافظ باشا - الذى أغتيل عام ١٨٠٧ م للسيطرة على الأمور فى العراق ، كما ساعدته فرنسا لدى الباب العالى فى الاعتراف بسليمان الصغير واليا على العراق ، ولكنه عزل عام ١٨١٠ بتأثير الإنجليز بسبب صداقته للفرنسيين .

العراق بعد حكم المماليك

عاش العراق بعد حكم المماليك تابعا تبعية كاملة للدولة العثمانية ، وحرص الولاة الذين حكموه باسم السلطان العثمانى من عام ١٨٣١ إلى ١٩١٤ م على إخضاع العراق للحكومة المركزية باستانبول والقضاء على آثار استقلال العراق الذى عمل له الباشوات المماليك ، وقد أدت سياستهم هذه إلى أن تصبح سلطتهم على العراق وهمية وضعيفة عجزت عن القضاء على القبائل العربية المتحاربة فيما بينها أو المحاربة للباشوات للاتراك ، وهذه القبائل ساندها محمد على والى مصر الذى كان يطمع فى ضم العراق إلى الكتلة العربية التى حرص على إقامتها فى هذه المنطقة بعد أن ضم بلاد الشام والحجاز والسودان إلى مصر بصفة خاصة .

وكانت سلطة الباشوات الأتراك ضعيفة أيضا فى مواجهة أكراد شمال العراق الذين يؤيدهم شاها إيران ، وقد استمرت الحرب دائرة بين الباشوات الأتراك وبين الأكراد من عام ١٨٣١ إلى عام ١٨٤٢م حتى عقدت فى مايو عام ١٨٤٢ معاهدة أرضروم الثانية بين تركيا وإيران . حددت الحدود بين الدولتين تنازلت بمقتضاها إيران عن السليمانية ومناطق أخرى مقابل تنازل تركيا لإيران عن الساحل الأيسر لشط العرب ومناطق أخرى ، ولكن هذه المعاهدة لم تنه الانتفاضات الكردية ضد الحكم التركى المباشر الذى بقيت سلطته وهمية

وطبقا لمنشور التنظيمات الخيرية الذى صدر فى يونيه ١٨٥٦ م انقسم العراق « إلى ثلاثة إيالات : ولاية بغداد ، وولاية البصرة التى أنشئت عام ١٨٠٤ ، وولاية الموصل التى أنشئت عام ١٨٧٩ م »[1] وأعادت هذه التنظيمات تنظيم جهاز الدولة ولكنها لم تنه إساءات الموظفين وابتزازهم الاموال لمصالحهم الخاصة .

وقد شهدت العراق عهدا من الإصلاح فى عهد ولاية مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٤) حيث شمل الإصلاح نواحى متعددة كالتعليم و نظام الحجر الصحى ، ومع ذلك بقى نظام « الطابو »[2] . أو إدارة تسجيل الاراضى ، من أهم الأعمال التى تمت على يد مدحت باشا وهو نظام كان يهدف إلى استقرار القبائل فى الأراضى الزراعية[3] . هذا إلى جانب اهتمامه بربط العراق بحريا بكل من استانبول ولندن بعد أن فتحت قناة السويس للملاحه العالمية ، وغير ذلك من مشروعات المواصلات لربط أجزاء العراق بعضها ببعض وربطها مع سوريا وتركيا ، وإدخال الخدمة العسكرية ، ولكن هذه المشروعات لم يقدر لها التنفيذ حيث نقل مدحت باشا عام ١٨٧١ إلى أدرنة .

---

(1) Longrigg. Iraq 1900—1950, p. 10.

وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث تأليف لونجرج ، د . محمد أنيس الشرق العربى ص ١٣ .

(٢) يعنى الطابو قيام إدارة التسجيلات ببيع أراضى الحكومة بأقساط صغيرة سهلة الدفع ومنح هذا الحق بصفة خاصة لشيوخ القبائل بحيث تسع قطعة الأرض القبيلة التى يتولون رئاستها وقد أدى هذا النظام إلى أن أصبح الكثير من شيوخ القبائل ملاكا زراعيين وإقطاعيين كبارا .

(٣) د. محمد أنيس : الشرق العربى ص ١٣١ .

وقد استمر الوضع غير مستقر فى العراق بسبب إنقسام العراق إلى سنة وشيعة استغله سلاطين آل عثمان لبقاء نفوذهم فى العراق مع محاباة للسنة العراقيين ، وانقسام العراق إلى عرب وأكراد على استعداد للثورة مستمدين التأييد من قوى خارجية ، وانقسام العراق إلى حضر وبادية مع اختلاف التكوين الثقـــافى والاجتماعى بين سكان المدن والقبائل والعشائر العربية المتمسكة بتقاليدها البدوية الراسخة فى القدم .

حاول الولاة الأتراك اقتفاء أثر مدحت باشا ولكنهم فشلوا فى تحقيق أية برامج إصلاحية فى العراق وذلك لانشغال الدولة بأحداثها الداخلية المتمثلة فى الصراع بين السلاطين وبين العثمانيين الجدد (يكى عثمانلر) وهم جماعة من الضباط الأتراك والموظفين والمثقفين الأحرار ، ذلك الصراع الذى انتهى بحدوث إنقلاب مايو عام ١٨٧٦ ضد السلطان عبد العزيز ، وانقلاب أغسطس من نفس العام ضد مراد الخامس وكانت نتيجته المناداة بعبد الحميد سلطانا فى ظل دستور وضعه مدحت باشا الذى اختاره السلطان وزيرا . ثم انقلاب عبد الحميد عام ١٨٧٧ م ضد الدستور ونفى مدحت باشا .

وترك العراق نهبا لأطماع الدول الأوروبية وصراعها ، فبينما حصل الألمان على مد خط سكة حديد بين برلين إلى بغداد ، وقفت انجلترا أمام هذا المشروع لأنه يهدد المصالح البريطانية فى العراق والخليج والهند ، وحصلت إنجلترا على احتكار التجارة مع العراق ، واحتكار نقل البضائع بين العراق وانجلترا .

استمر الوضع فى العراق على هذا النحو فى ظل حكم السلطان عبد الحميد الذى حاول التأثير فى الأقطار العربية عن طريق الترويج لفكرة الجامعة الاسلامية التى تعيد له السيطرة الكاملة على تلك الأقطار لتقف ضد النفوذ الأجنبى المتزايد فى ولايات الدولة وخاصة الولايات العربية .

استمر هذا الوضع حتى ثورة ١٩٠٨ بقيادة جماعة الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة ضد استبداد السلطان عبد الحميد ، ورغم فرح العراقيين وبقية العرب بهذه الثورة ومؤازرة العرب للقائمين بها ، إلا أن العراقيين شاركوا مع إخوتهم العرب فى تشكيل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة التتريك التى اتبعتها حكومة الاتحاديين والمعادية للعروبة . . تلك الجمعيات التى كانت مقدمات لصدام بين العرب والأتراك فى الحرب العالمية الأولى انتهت بانحسار الحكم التركى عن العراق وغيره من أقطار المشرق العربى .



الفصل الخامس

الأسرة الحسينية فى تونس

- تونس قبل الأسرة الحسينية .
- الأسرة الحسينية .
- تونس بعد الأسرة الحسينية .

تونس قبل الأسرة الحسينية

كان اتجاه الدولة العثمانية إلى بسط نفوذها فى أقطار الشمال الافريقى مما يكمل سلسلة الفتوحات العثمانية فى المشرق العربى ، وفى نفس الوقت لإحكام الحلقة حول البحر المتوسط، بالإضافة إلى مطاردة الأسطول الاسبانى وفرسان القديس يوحنا الذين طردهم العثمانيون من جزيرة رودس واستقروا فى جزيرة مالطة، مطاردة هؤلاء بسبب إغاراتهم الصليبية ضد الأقطار الإسلامية فى شمال أفريقيا .

وإذا كان النفوذ العثمانى قد وجد طريقه إلى الجزائر باعلان خير الدين بار باروسا عام ١٩١٨م ولاءه للسلطان سليم الأول الذى سارع بالانعام عليه بلقب بك وتعيينه « بجلربك » أى أمير الأمراء . فإن النفوذ العثمانى قد وجد طريقه إلى تونس عام ١٥٧٤م بانتصار سنان باشا قائد الأسطول التركى على التحالف الصليبى المكون من فرسان القديس يوحنا وأسبانيا والبندقيه .

ومنذ عام ١٥٧٤م صارت تونس باشوية عثمانية خاضعة مباشرة للسلطان العثمانى ، وطبق عليها نظام الحكم الذى وضعته الدولة العثمانية لحكم ولاياتها ، وكان إلى جانب الباشا وقادة الفرق العثمانية — الانكشارية — ورؤساء القرصان، قوة أخرى لها مكانتها وهى سلطة أغوات القوات غير النظامية الذين عرفوا بالدايات حتى تغير الاسم عام ١٧٠٥ إلى لقب الباى .

ومنذ عام ١٦١٢م إلى ١٧٠٢م حكمت تونس أسرة البايات المعروفين بالأسرة المرادية نسبة إلى مؤسسها الأول المعروف باسم مراد بك الذى حكم من

١٦١٢ – ١٦٣١م ، وتلاه ابنه حموده من ١٦٣١ – ١٦٥٩م الذى استطاع إقرار الأمور فى تونس بالقضاء على ثورات القبائل العربية وصدهجمات فرسان القديس يوحنا على السواحل التونسية .

وخلف حمودة بك مراد بك الثانى من ١٦٥٩ – ١٦٧٥م الذى اشتهر بقسوته ، ولكنه ترك أبناءه بعده يتصارعون مع عمهم على منصب الباى حتى انتهت الأسرة المرادية عام ١٧٠٢م بقتل جميع أفرادها على يد أغا إبراهيم .

وعادت تونس إلى الحكم المباشر العثمانى حتى استطاع زعيم الفرسان الأغا حسين بن على أن يستغل فترة الفوضى والخلاف التى أعقبت إنتهاء حكم الأسرة المرادية ، والتنازع على السلطة فتحبب إلى أهل البلاد وإلى بعض قادة الجند حتى نادوا به بايا على تونس عام ١٧٠٥م ، ولكنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذى يقبل أن يعيش تحت رحمة قوى أخرى يمكنها أن تعزله متى شاءت .

الأسرة الحسينية

استطاع حسين بن على مؤسس الأسرة الحسينية أن يجعل حكمه فى تونس وراثيا منذ عام ١٧١٠م واستمرت الأسرة تحكم حتى حدث الاحتلال الفرنسى لتونس عام ١٨٨١م ، وقدعمل مؤسس الأسرة على المحافظة على الحكم الوراثى ووقف ضد كل تدخل من دايات الجزائر أو من الدول الاوروبية ، وضمن فى تونس عهدا من الأمن والاستقرار والتقدم الاقتصادى ، والازدهار العمرانى وتعاون مع الدول الأوروبية على قدم المساواة بعقد المعاهدات التجارية التى تدر دخلا لبلده ورواجا لأهلها .

وتوالى أفراد هذه الأسرة على الحكم كان منهم محمد بك بن حسين مؤسس الأسرة الذى حكم لمدة ثلاث سنوات من ١٧٢٦ – ١٧٢٩م ، وخلفه أخوه على بك

الذى حكم فترة طويلة من ١٧٢٩ — ١٧٨٢م والذى شهد عهده سلاما مع الدول الاوروبية خاصة انجلترا وفرنسا، كما شهد استقراراً للأمور فى تونس، وخلفه حموده بك بن على من ١٧٨٢ — ١٨١٤م الذى استطاع حل فرق الانكشارية وتشتيت أفرادها بتأييد التونسيين، كما استطاع إنهاء العلاقة الخاصة التى تربط تونس بالجزائر، وواصل سياسة عقد المعاهدات التجارية والسياسية مع الدول الاوروبية، كما واصل سياسة مؤسس الأسرة فى الناحية العمرانية.

وخلف حمودة بك بن على الباى محمود بن محمد بك من ١٨١٤ — ١٨٢٤م، وبعده حسين بك من ١٨٢٤ — ١٨٣٥م، الذى واجه التنافس الانجليزى الفرنسى للاستئثار بالنفوذ الاعلى فى تونس، كما شارك أسطول الباى حسين بك فى معركة نوارين البحرية ببلاد اليونان ودمر هناك مع الأسطولين التركى والمصرى وذلك استجابة منه لطلب السلطان العثمانى، كما أنه حفاظا على كرسى الحكم وعلى تونس وقف موقف الحياد من الغزو الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠م.

وجاء للحكم الباى أحمد من ١٨٣٧ — ١٨٥٥م فى وقت تعيش فيه تونس أزمة مالية وقوة عسكرية ضعيفة بعد تحطم الأسطول التونسى فى نوارين دون تعويض من السلطان العثمانى، ولذلك وجدنا الباى يستسلم لنفوذ الدول الاوروبية الكبرى وخاصة انجلترا وفرنسا، فظهرت المدارس والكنائس الاجنبية، ومع ذلك ظل مستعدا للاعتراف بالسيادة العثمانية، بل ولم يتقاعس عن المشاركة فى حرب القرم فى صف السلطان العثمانى.

وجاء بعده الباى محمد الصادق الذى استمر فى الخضوع للنفوذ بصفة خاصة حتى زادت الامتيازات الفرنسية فى تونس بصورة كبيرة وإن كانت المصالح الإيطالية فى تونس قد وجدت طريقها هى الاخرى للانتشار فى تلك البلاد، ولا غرو فى ذلك

فكلا الدولتين كانتا تطمعان فى الاستيلاء على تونس بل وتتنافسان على ذلك تنافسا حاداً .

ولكن الباى فى نفس الوقت استمر يبدى اعترافه بالسيادة العثمانية على تونس ، بل ويساهم فى الحرب التركية الروسية عام ١٨٧٧م بتقديم مساعدات غذائية للقوات التركية المحاربة ، وفى نفس الوقت كان يبدى قلقه من الأطماع الفرنسية والإيطالية السافرة لاحتلال تونس .

وجاء بعد محمد الصادق الباى محمود الذى حكم من ١٨٦٤م إلى مجىء الاحتلال الفرنسى عام ١٨٨١م ، الذى اشتهر عهده بأزمة مالية أدت إلى تدخل انجليزى فرنسى فى شئون تونس الداخلية أفضى فى النهاية بالاحتلال الفرنسى .

وإذا كان الحكم فى الأسرة الحسينية كان حكما وراثيا فانه كان لأكبر أفراد الأسرة ، ولم يكن ليصبح سارى المفعول إلا بعد صدور فرمان من السلطان العثمانى بتعيين الباى الجديد، ونظراً لموقع تونس بل والجزائر فى مواجهة أوروبا كانت الفرمانات السلطانية تسمح للبايات وللدايات فى الجزائر بعقد المعاهدات التجارية والمالية بما يدعم الاستقلال المالى لهذه الولايات .

وكان الباى هو رئيس الدولة، وبالتالى فهو قائد عام القوات المسلحة، وإن كان الباى يستعين بوزراء فى تصريف الشئون الداخلية، وإن كان يقلل من سلطة الوزراء وجود امتيازات ضخمة للأجانب أدت إلى خراب البلاد الاقتصادى بسبب تهرب الأجانب من المساهمة فى الاقتصاد التونسى رغم ضخامة ما يمتلكونه فى تونس من أملاك واسعة ، وبسبب مقاومتهم لكل إصلاح مالى أو دستورى والاحتماء بالقناصل وعدم المثول أمام القضاء الوطنى .

تونس بعد الأسرة الحسينية

كان احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ مقدمة طبيعية لاحتلالها لتونس

وقد حاول بايات تونس كسب ود فرنسا لتأجيل الاحتلال الفرنسى لبلادهم من ذلك أن الباى حسين الذى حكم من ١٨٢٤ إلى ١٨٣٥ م سارع إلى القنصل الفرنسى ماثيودلسبس ليبدى له موافقته على مافعلته فرنسا بمجارته ، ويبدى إستعداده لتموين جنود الحملة باللحوم اللازمة ، بل أرسل رجلا من خاصته إلى الجنرال بورمون Bourmont — قائد حملة الاحتلال الفرنسية للجزائر — ليهنئه بالنصر الذى كسبه(١) .

ومن ذلك الحين عاش بايات تونس تحت تهديد وخوف من إحتلال فرنسى مرتقب ، ولذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام المطالب الفرنسية المتزايدة التى أدت إلى مزيد من الامتيازات الفرنسية فى تونس فى مجالات السياسة والاقتصاد بل وحتى فى النواحى الروحية كاجبار الباى على بناء كنائس وإقامة تماثيل للقديسين كتمثال القديس لويس . وكان نتيجة هذه الامتيازات أن ارتبكت أحوال البلاد السياسية والاقتصادية ، وكان نتيجة لهذا الارتباك تدخل أجنبى للاشراف على الشئون المالية لتونس .

ونتيجة لضعف البايات وتخاذل تركيا ، وزيادة إمتيازات فرنسا ، أن فتح باب التدخل والتنافس الأجنبى فى تونس بصورة وضعت البلاد تحت إشراف دولى على الأقل من الناحية المالية ، ذلك أن إنجلترا لم تــكن لتقبل إمتداد النفوذ الفرنسى من الجزائر إلى تونس ، كما أن إيطاليا تطمح منذ زمن طويل أن تحذو فى تونس حذو فرنسا فى الجزائر ، وإن كانت لم تجرؤ على أن تخطو خطوة حاسمة فى هــــذا السبيل خشية أن تخلق بذلك أزمة

---

(١) د. زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث ص ١٨٣ .

دولية[1] .

وانتهى الامر بتونس إلى الوقوع تحت الإحتلال الفرنسى ، الذى حدث بصورة تدريجية فزحفت القوات الفرنسية من الجزائر إلى الاراضى التونسية بحجة تأديب بعض القبائل التى تعرضت للمصالح الفرنسية ، ولم تفرض الحماية الفرنسية مباشرة ، وإنما فرضت على الباى عقد معاهدة يضع نفسه تحت وصاية فرنسا مع بقائه فى كرسى الحكم مسلوب السلطة .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٧٢٩ .

الفصل السادس

الأسرة القرمانلية

- أحوال ليبيا قبل القرمانليين .
- أحمد القرمانلى .
- محمد القرمانلى .
- على القرمانلى الأول .
- أحمد القرمانلى الثانى .
- يوسف القرمانلى .
- على القرمانلى الثانى .
- تقييم للحكم القرمانلى .
- العصر العثمانى الأخير .



احوال ليبيا قبل القرمانليين

استولى الأسبان على طرابلس الغرب (ليبيا) عام ٥١٠، وإستمروا بها حتى عام ١٥٣٥ حينما تنازلت عنها أسبانيا لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مقرا لهم بعد أن طردهم الاتراك العثمانيون من جزيرة رودس ، والذين كانوا — كما كان الأسبان — يشنون حربا صليبية ضد الأقطار الإسلامية العربية المطلة على البحر المتوسط . وقد ظل فرسان القديس يوحنا يحتلون طرابلس حتى عام ١٥٥١ عندما قدم الأتراك العثمانيون وأخذوها منهم بناء على استنجاد بعض أهلها بهذه القوة الإسلامية الفتية وأعنى قوة الاتراك العثمانيين .

ورغم أن الاسبان ثم فرسان القديس يوحنا لم يستولوا على كل ليبيا وإقتصر إستيلاؤهم على مدينة طرابلس وماجاورها ، فإن هذه المدينة قد ونبعت أهميتها من إتصالها بمصر وموقعها الجغرافى على طريق الحج العظمى من المغرب إلى مكة ثم من الطرق التجارية بين أفريقيا وأوروبا ، فمن طرابلس كان هنالك طريق بحرى قصير نسبيا - ولهذا فهو أمين - إلى أوربا مارا بجزيرة مالطة ثم صقلية [1] إلى جانب طرق القوافل التى تربط طرابلس بالأقاليم الافريقية عبر الصحراء الكبرى .

كانت هذه الظروف دافعا للأسبان ثم فرسان القديس يوحنا للاستيلاء على

---

(١) ريتشارد توللى : عشر سنوات فى بلاط طرابلس ص ٨ .

طرابلس والبقاء بها ، كما كان من أسباب هذا الاستيلاء أيضا ، أن أهلها بعد دخولهم فى طاعة الموحدين كثرت أموالهم وتجاراتهم واطمأنوا ولم يشتغلوا بالحرب حتى لم تكن لهم به خبرة »[1] .

وكان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل إكمال الحلقة فى أملاك الدولة العثمانية بعد استيلائهم على العراق ومصر والشام فى أوائل القرن السادس عشر ، وبعد أن إمتد نفوذهم بصفة فعلية على الجزائر عام ١٨ : ١ م ولذلك كان مجيئهم إلى طرابلس الغرب أمراً طبيعيا يتسق مع تطور الحوادث التى مرت بأقطار الوطن العربى الذى أخذت أجزاؤه تخضع للقوة العثمانية الواحدة بعد الأخرى .

كما كان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل قمة الصراع البحرى بين الاسطول العثمانى وأساطيل الدول الأوروبية المنافسة المتمثلة فى الأسطول الاسبانى ، وأسطول فرسان القديس يوحنا تلك الاساطيل التى مارست نشاطا صليبيا ضد الأراضى العربية الإسلامية .

إستمر تسلط فرسان القديس يوحنا على طرابلس حتى وصول حملة عسكرية عثمانية بقيادة « سنان باشا » قائد الأسطول التركى إلى طرابلس فى ١٢ شعبان ٩٥٨ هـ الموافق ١٦ أغسطس ١٥٥١ م ، ومن هذا التاريخ أصبحت طرابلس الغرب ولاية عثمانية كغيرها من الولايات العثمانية فى الوطن العربى الكبير .

إستمر الحكم العثمانى المباشر لليبيا من ١٥٥١ م حتى عام ١٧١١ م فيما عرف بالعصر العثمانى الأول الذى انتهى ليبدأ حكم الأسرة القرمانلية ، وقد عاشت ليبيا أثناء هذا العصر وبصفة خاصة أواخر القرن السادس عشر وطوال

---

(١) ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب ص ٩٢ .

القرن السابع عشر تعانى من الفوضى الشاملة التى حلت بالبلاد نتيجة سوء الحكم والإدارة وقيام الثورات الشعبية فى مختلف أنحاء البلاد ، والفتن بين جند الانكشارية والقولوغلية[1] الذين انصرفوا عن مهمتهم الأصلية وهى الدفاع عن البلاد إلى مهمة أخرى سعوا من ورائها إلى الكسب والشهرة وهى عزل الولاة أو الثورة عليهم والسلب والنهب من الأهالى ، وتولية من يشاءون فى منصب الولاية حتى وجدنا ترزيا يتولى منصب الولاية « لمدة سبعة أشهر عام ١٠٩١ هـ » يدعى إبراهيم الترزى[2] ووجدنا بائعا للقهوة هو عثمان القهوجى يتولى الولاية لمدة ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، وقد وصفه ابن غلبون[3] بأنه « كان يطبخ القهوة بسوق الترك » ويصفه أحمد النائب[4] بأنه « كان فظاذا جفاء وغلظة ، عاجزا عن القيام بأعباء الولاية ، بايعه الجند فى الليلة التى خلعوا فيها سلفه محمد الإمام عام ١١١٢ هـ » .

وقد تولى حكم ليبيا فى أوائل القرن الثامن عشر من ١٧٠١ إلى ١٧١١م تسعة ولاة انصرف الكثير منهم — كغيرهم من الولاة الذين سبقوهم — إلى الاشتغال

---

(١) القولوغلية أو القول أوغلية طبقة إجتماعية جديدة نتجت من أن درغوت باشا ثانى الولاة الأتراك أحضر معه عدة آلاف من جند الانكشارية ، وبمرور الزمن اختلطت بالأهالى وتناسلت فتكونت طبقة القول أوغلية التى كانت قليلة العدد فى أول الأمر ثم سرعان ما تكاثرت وزاد نفوذها بما حصلوا عليه من إمتيازات عسكرية ومالية . .

(٢) طاهر الزاوى : ولاة طرابلس ص ٢٠٤

(٣) ابن غلبون : مرجع ذكرى ص ٧٠

(٤) أحمد النائب : المنهل العذب

بمصالحهم الشخصية دون القيام بأى عمل للقضاء على حالة الفوضى التى كانت تعم البلاد ، وكانت هذه الحالة تستلزم وجود شخصية قوية تستفيد من هذه الحالة لتظهر أمام الناس كمنقذ من هذه الحالة التى تعانى منها البلاد .

ويمكن أن نلخص الظروف التى عاشتها ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) أثناء العصر العثمانى الاول والتى أدت فى النهاية إلى ارتقاء أحمد القرمانلى للحكم فى طرابلس واليا فيما يلى :

أولا : « موقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية وبعدها عن الآستانة ، وعدم تصور الحكومات العثمانية المتعاقبة لحقيقة الوضع فيها[1] جعل هذه الولاية لاتأخذ من إهتمام الدولة العثمانية الشىء الكثير ، هذا إلى جانب أن هذه الولاية لم تكن تدر أموالا كثيرة على الدولة ، ولذلك لم يكن لولاية طرابلس الغرب ولاشعبها صوت مسموع عند الباب العالى .

ثانيا : رغبة الحكومة العثمانية فى بقاء ليبيا ولاية عثمانية أدى إلى « عدم إبقاء الوالى فى مركزه لفترة طويلة مخافة أن يستقل بالبلاد مما أدى إلى أن جميع الولاة الذين تولوا حكم البلاد لم تكن لهم سياسة واضحة ومحددة فى إستغلال الأراضى الزراعية أو تشجيع الصناعات المحلية أو التجارة الداخلية والخارجية كما لم تكن لهم سياسة معينة فى نشر التعليم والعناية بالصحة ، ولم تكن هذه السياسة العثمانية خاصة بولاية طرابلس الغرب فقط بل كانت سياسة عامة[2] » خضعت لها كل الولايات العربية .

ثالثا : سعة رقعة البلاد وقلة عدد السكان فيها وانعدام المواصلات وبطء ،

---

(١) محمد مصطفى بازامه : بداية المأساة أو التمهيد السياسى للاحتلال الإيطالى ص ٣٠ .

(٢) د . رأفت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ص٢٤ .

الحركة كل ذلك أخر سيطرة العثمانيين على كل ليبيا بل أدى إلى أن تكاد سيطرة الوالى العثمانى تقتصر على المدن الساحلية فقط ، بينما البلاد الداخلية لا تخضع لهذه السيطرة ، وكثيرا ما أعلنت الثورة عليها ، ولقد ظهرت ثورات كثيرة من الليبيين ضد هذه السيطرة وصعب على الولاه إخضاعها .

رابعا : التمسك باحتلال ليبيا واستمرار هذا الاحتلال كهدف استراتيجى يسهم فى تأكيد سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط ومعظم البلاد المطلة عليه وخصوصا فى قارتى آسيا وأفريقيا ، وقد أستدعى هذا أن جاء احتلالهم لطرابلس قاصرا على الساحل دون النظر كثيرا للداخل ، بل أن اخضاع فزان وبرقة جاء متأخرا بعد احتلال طرابلس بسنوات كثيرة ، ونتيجة لذلك انحدرت هيبة الوالى والدولة وكثرت الفتن المتلاحقة وثورات القبائل[1] ، فى الدواخل .

خامسا : كان اهتمام الدولة العثمانية بولاية طرابلس الغرب عسكريا أكثر منه مدنيا واقتصرت عناية بعض الولاة على بعض المدن الساحلية ، ولذلك لم تنتعش البلاد فى أيامهم ، بل بالعكس تجمدت حيث كانت مما جعلها مسرحا للفوضى وسوء الحكم ، كما تميز هذا العصر العثمانى الأول بسياسة المحافظة على الوضع القائم كما هو دون تغيير ، والحرص على استمرار بقاء البلاد تدين بالولاء للسلطان العثمانى ، وقد دفع هذا الحرص الولاة على عدم إدخال تغييرات أساسية فى نظم البلاد الداخلية ولا فى حياة أهلها .

أحمد القرمانلى

أدى ضعف الدولة العثمانية وانهيار تنظيمات الحكم العثمانية فى أوائل القرن

---

(١) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٢٤ .

الثامن عشر إلى استثناء الكثيرين من قادة الجند أو زعماء العصبيات المحلية بالسلطة المحلية فى بلادهم ، ومن بين هؤلاء كان أحمد القرمانلى ، وهو « أحمد بن يوسف ابن محمود بن مصطفى القرمانلى نسبة إلى القبيل (القبيله) المشهور بأرمن الاناضول، كان أبوه عاملا وبعده ولى خليل باشا — والى طرابلس الغرب — ابنه أحمد القرمانلى محل أبيه على ساحل المنشية[1] » .

وكان أحمد القرمانلى سليل أسرة تركية جاء مؤسسها الاول كأحد جنود القائد التركى درغوت باشا فى عام ١٥٥٣ إلى طرابلس وتزوج زوجة عربية ليبية، ثم تدرج أفراد هذه الأسرة فى المناصب المختلفة فى ولاية طرابلس الغرب حتى تولى أحمد عمالة المنشية — وهى ضاحية من ضواحى مدينة طرابلس تقع على الساحل — من قبل الوالى . ويذكر المؤرخون أن اسم قرمانلى يرجع إلى انتماء الاسرة إلى بلدة قرمانيا الواقعة جنوبى هضبة الاناضول بآسيا الصغرى ، فهو تركى الأصل »[2] .

كان أحمد طموحا واسع الحيلة ولذلك وقف موقف المتفرج من الخلافات التى كانت قائمة بين الباشا والديوان وجند الإنكشارية والقول أوغلية ، وأظهر أنه لا ينحاز لأى فريق ، وأنه الشخصية التى يمكن لها السيطرة على الموقف، وذلك حتى يفوز برضاء الجميع ، وكان موقفه حكيما إذ كفى نفسه شر الانغماس فى هذا الصراع مؤقتا حتى يضعف أطراف الصراع فيسهل أمامه طريق الوصول إلى كرسى الولاية .

وقد استطاع أحمد بهذه السياسة أن « يستقطب كثيرا من جند الانكشارية

---

(١) ابن غلبون : مرجع سبق ذكره ص ١٩٠ .
(٢) حسن محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١٨٠ .

وأعضاء الديوان بل ومعظم أعيان طرابلس ، وأن يؤثر فيهم حتى أجمعوا على توليته واليا على طرابلس الغرب[1] وكانت « بيعته على يد أهل البلدين الساحل والمنشية ضحوة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة عام ١١٢٣ هـ »[2] وقد كان أخلص المؤيدين له « طوائف القراوغلية وعرب الجبل[3] ، وكان عمره آنذاك خمس وعشرون سنة .

كان على أحمد القرمانلي لكى يحصل على فرمان سلطانى بتثبيته فى ولاية طرابلس الغرب واستقرار الأمور له فيها ولذريته من بعده أن يتخلص من الأخطار والصعوبات التى واجهته منذ اليوم الأول .

كانت الصعوبات التى واجهت أحمد القرمانلى تتمثل فى الداخل والخارج ، أما الصعوبات الداخلية فكانت التخلص من الضباط الانكشارية الطامعين فى الحكم والراغبين فى بقاء أمر تولية الولاة بأيديهم ، وقد استطاع أحمد القرمانلى تدبير مذبحة لهؤلاء الضباط فى منزله الريفى قرب ضريح سيدى الهانى بالمنشية بعد أن أقام حفلة كبيرة لحوالى ثلاثمائة ضابط من قادة جند الانكشارية الذين يخشى انقلابهم عليه ، وبعد الحفل ذبحهم رجاله .

وكان أعيان طرابلس الذين ساهموا فى اختياره واليا عليهم فقد ظل يلاطفهم ويتودد إليهم حتى حصل على فرمان من السلطان بتثبيته فى ولاية طرابلس الغرب ، وحتى تخلص من بقية الصعوبات التى واجهته ، ثم أهمل مشورتهم ونسى تأييدهم له وتصرف كحاكم مطلق لا يقبل حتى شفاعتهم .

---

(١) د. رأفت : مرجع سبق ذكره ص ٣٨ .

(٢) ابن غلبون : مرجع سبق ذكره ص ١٦١ .

(٣) أحمد الدجانى : أحاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ ص ٢٥ .

وكان على أحمد القرمانلى كذلك التخلص من الفتن والثورات الداخلية حتى تستقر له الأمور ، ولذلك بدأ منذ توليته فى استئصال بذور الثورات فأخمد كل محاولة لإثارة التمرد والفتن وأعدم كل من ارتكب جرما وكل من تآمر ضده ، وقد قضى بقسوة على ثورات أهالى تاجوراء وترهونة ومسلاتة وغيرهم حتى دانت له البلاد واستتب له الأمر . «وكانت هذه الثورات كافية للقضاء على الأسرة القرمانلية ولكن من حسن حظ أحمد باشا أنها لم تقم فى وقت واحد ولا فى مكان واحد ، لذلك سهل عليه القضاء عليها حتى استقرت له الأحوال وصفت له الأمور فانصرف إلى العناية بالاصلاحات »(1) .

وكانت الصعوبات الخارجية التى واجهت أحمد القرمانلى قد تمثلت فى سعى أحمد لتثبيت نفسه فى الولاية ومواجهة الدول الأجنبية، أما علاقة أحمد بالسلطان العثمانى فقد تأزمت بسبب اختيار أهل طرابلس لأحمد واليا على البلاد فى ٢٧ يوليو ١٧١١ وهو اختيار يغضب السلطان الذى شعر بأنه مفروض عليه من قوى لا تملك حق الاختيار ، وزاد العلاقة سوءا مقاومة أحمد القرمانلى للباشا المعين بفرمان سلطانى وهو خليل باشا ، وقتله فى معركة انتصر فيها أحمد عند مدينة صبراتة قرب الحدود مع تونس .

وحاول أحمد القرمانلى استرضاء السلطان فأرسل وفدا من أهالى طرابلس إلى الآستانة بعد مقتل خليل باشا لشرح ما حدث والمطالبة بفرمان يثبت أحمد القرمانلى واليا على طرابلس الغرب، وحمل الوفد معه هدايا ثمينة، كما نظم مظاهرات علنية احتفالا بانتصار السلطان ضد بطرس الأكبر(2) ، قيصر روسيا فى الحرب الدائرة بين الطرفين .

---

(١) حسن محمود : مرجع سبق ذكره ص ١٨٥ .

(٢) أحمد الدجانى : مرجع سبق ذكره ص ٢٦ .

وعندما أرسل السلطان أحمد الثالث مبعوثا خاصا للتحقيق فى مقتل الوالى المعين خليل باشا، استقبله أحمد القرمانلى «بمزيد من الاعتناء وبالغ فى تعظيمه وإكرامه»[1]. وأنهى المبعوث مهمته دون أن يقابل أحدا من الناس أو قادة الجند فى طرابلس وعاد محملا بالهدايا لنفسه وللسلطان ، وتابع أحمد سياسة إرسال الهدايا للسلطان حتى أصدر له فرمانا بالولاية .

وكانت علاقات أحمد القرمانلى مع الدول الاوربية تتسم بالعداء بسبب سياسته البحرية القائمة على توجيه سفن الأسطول التى بناها لمهاجمة سفن الدول الاوروبية فى عرض البحر المتوسط . وفرض على هذه الدول دفع إتاوات تنظمها معاهدات نظير عدم تعرض سفن أسطوله لسفنهم وتجارتهم وكانت معظم الدول الاوروبية تخضع لشروطه ضمانا لسلامة سفنهم ، وكانت كل من «انجلترا وهولندا[2] » من أوائل الدول الاوروبية التى سارعت إلى دفع الجزية المعتادة لقاء عدم الاعتداء على سفنها العاملة فى البحر المتوسط .

وقد اهتم أحمد القرمانلى بالاسطول فأعاد له شهرته القديمة التى كانت له أيام «سنان باشا» و «درغوت باشا» ، وقد أعلن الجهاد ضد السفن الاوروبية فيما عدا السفن التى تعهدت بلادها بدفع الاتاوه السنوية له ، «وقد كسب من وراء مهاجمة ــ والتهديد بمهاجمة ــ السفن الاوروبية الاموال والغنائم الكثيرة[3]» ، وقد أدى تهديده للسفن الاوروبية إلى القاء الرعب فى قلوب الاوروبيين من القوة البحرية فى عهده ، «كما ضمن عدم مهاجمة الشواطىء الليبية بواسطة السفن

---

(1) أحمد النائب . مرجع سبق ذكره .

(2) د. زاهر رياض . شمال أفريقيا فى العصر الحديث ص ١٠٥ .

(3) د. حسن محمود . مرجع سبق ذكره ص ١٨٢ .

الأوروبية (١) .

ويؤثر عن أحمد القرمانلي أنه كان يتولى بنفسه قيادة الجند للقضاء على الفتن والثورات الداخلية ، وقد استطاع أن يستعيد السيطرة على إقليم فزان الذى كان بعيدا عن السيطرة الكاملة للحكم التركى ، وبضم إقليم فزان تحت سيطرته فتحت طرق التجارة عبر الصحراء من أفريقيا وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الافريقية فى جنوب وغرب القارة ، وكانت هذه القوافل ثلاث ، الأولى تتجه جنوبا عبر واحة فزان إلى بحيرة تشاد ، والثانية تنعطف جنوبا غربا عبر غدامس وغات إلى تمبكتوا الأسطورية ، والثالثة تسير جنوبا شرقا عبر واحة الجفرة ثم سوا كن وزيلا zella إلى وادای ودارفور الغنى بخصبه وثرواته(٢) . واستفادت الولاية كثيرا من دخل تجـــارة القوافل ، وانتعشت أحوال أهل البلاد الاقتصادية ، فضلا عن أن هذه التجارة كانت مصدرا لزيادة أموال خزينة الباشا .

ونتيجة لتوفر الأموال فى خزينة الباشا أخذ يتجه للانشاءات ولتعمير البلاد فأنشأ جامعه المشهور عام ١٧٣٧ — على منوال الولاة الأتراك الذين سبقوه — على أنقاض المسجد الذى كان عمرو بن العاص قد أسسه عند فتح مدينة طرابلس ، وألحق أحمد باشا بمسجده ، مدرسة أوقف عليها الأوقاف الكثيرة وهى التى لازالت قائمة للآن تحت اسم كلية أحمد باشا(٣) . كما أنشأ القلاع والحصون وضمن تزويد مدينة طرابلس وميناءها بمورد ماء عذب دائم .

---

(١) د . رأفت الشيخ : مرجع سبق ذكره ص ٣٩
(٢) ريتشارد توللى : مرجع سبق ذكره ص ٨
(٣) طاهر الزاوى : معجم البلدان الليبية ص ٣٠٢

حكم أحمد باشا القرمانلى ولاية طرابلس الغرب ٣٤ عاما من ١٧١١ إلى ١٧٤٥ م أستطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القرمانلية فى ليبيا ، وتأكيد السيطرة القرمانلية على كل أنحاء البلاد بما حقق وحدتها ، وبعد أن تخلص من قادة جند الانكشارية المناوئين له والفتن والثورات الداخلية إتجه لاصلاح أحوال البلاد وإستعان بأعيان البلاد فى جمع الأموال اللازمة للصرف على مشروعاته الإصلاحية وفى إرسال الهدايا للسلطان العثمانى حتى يضمن بقاءه فى الولاية بل وليحصل منه على فرمان بجعل ولاية طرابلس الغرب وراثية لبنيه من بعده .

ويذكر المؤرخون أن عهد أحمد القرمانلى كان « أحسن عهود الأسرة القرمانلية بل وأحسن العهد التركى كله »(١) وذلك إستنادا إلى أعماله وصفاته فانه مثلا قد واتخذ جمعية علمية لحسم النوازل والمحاكمات الشرعية ، وكان لين العريكة يؤثر العدل والانصاف »(٢) وأنه « هو الذى أسس قوانين الدولة وأحيا رسوما دائرة من قواعدها »(٣) .

محمد القرمانلى :

توفى أحمد باشا القرمانلى كما تذكر أكثر المصادر منتحرا عام ١١٥٨ هـ الموافق ١٧٤٥ م وخلفه ابنه محمد « بفرمان عالى الشأن ولم تظهر خلال مدته منافشة داخلية بما مهده والده »(٤) لأنه كان يتمتع بسمعة طيبة فأجمع الناس

---

(١) طاهر الزاوى : ولاة طرابلس ص ٢٢٣
(٢) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره ص ٣٢٥
(٣) ابن غلبون : مرجع سبق ذكره
(٤) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره

عليه رغم أنه لم يكن أكبر أولاد أحمد القرمانلى وكان الابن الأكبر يدعى محمود ولكنه لم تكن له صفات محمد الشخصية ولاخبرته بأمور الحكم التى خبرها محمد فى حياة أبيه .

ورث محمد القرمانلى حكم البلاد الليبية بعد أن استقر أمرها وزادت إيراداتها وأصبحت مهابة الجانب من الدول الاوروبية ، ولكنه كان حريصا على بقاء العلاقات الطيبة بين طرابلس الغرب وكل من فرنسا وإنجلترا ، وإن كان قد إهتم بالأسطول وبدأ به نشاطا ضد السفن الاوروبية التى ليس بينه وبينها إتفاقات فأقلق ذلك الدولة البحرية بصفة خاصة وأسرعت إلى عقد المعاهدات معه لتأمن شره ، فتم عقد معاهدة مع حكومة النمسا عام ١٧٤٩ م ، ومع الدانمرك فى شهر فبراير من نفس السنة ومع إنجلترا عام ١٧٥١ ، ومع فرنسا فى مايو ١٧٥٢ م ، وكانت معاهدات الدول الضعيفة مثل النمسا والدانمرك وغيرها تنص على تدفع هذه الدول جزية معلومة للباشا ، وأما الدول القوية — كانجلترا وفرنسا — فكانت تمارس الضغط على باشا طرابلس وتقوم بتظاهرات عنيفة فى ميناء المدينة ، وأما الباشا فكان يعرف كيف يفرق بين هذين النوعين من الدول فيتقبل هدايا النوع الأول بثقة . ويقدم الترضيات للنوع الثانى [1] .

وكانت هذه المعاهدات تتم دون استئذان الباب العالى ، ويصف أحمد النائب عمليات أسطول الباشا بقوله : وكان أمراء الأساطيل أصحاب شجاعة وإقدام ، وكانوا يهجمون بمراكبهم على الاعداء بسواحل البحر الابيض فيقتلون ويسلبون » ويضيف النائب معلقا على عقد الاتفاقية بين الباشا وإنجلترا أن « عقد هذه المعاهدة جاء بعد ضغط من إنجلترا نتيجة استمرار الغزوات التى قام بها أسطول طرابلس

---

(١) أحمد الدجانى : مرجع سبق ذكره ص ٣٤

فى تلك الفترة » (١) .

والواقع أنه « إذا كان عقد مثل هذه المعاهدات يعطينا فكرة صادقة عن مدى تطور القوة البحرية الليبية ومركزها فى البحر الأبيض المتوسط فانه كذلك يرينا مدى ما وصلت إليه ولاية ليبيا من استقلال ومظهر للسيادة الخارجية إذ أن هذه المعاهدة التى عقدت بين ليبيا وإنجلترا — وغيرها — تمت بدون علم السلطان » (٢) .

وإذا كان محمد القرمانلى حريصا على احترام المعاهدات المبرمة بين الولاية وبين الدول الأوروبية وأعلن ذلك أمام قناصل الدول الأوروبية الذين توجهوا إليه للتهنئة بولايته ويقدموا له الهدايا فى أيام حكمه الاولى خوفا من نتائج الصدام بالدول الاوروبية الكبرى ، إلا أن اعضاء الديوان مارسوا ضغطا لكى يستجيب لاستمرار أعمال الغزو والقرصنة ضد السفن الأوروبية بدعوى الجهاد الإسلامى ضد المسيحيين وقد استطاع الباشا « بصعوبة وبعد معارضة شديدة الحصول من الديوان على استثناء لسفن فرنسا وانجلترا » (٣) . وان كان هذا الاستثناء لم يتحقق بالكامل بسبب قيام قادة السفن الطرابلسية بمهاجمة السفن الفرنسية مما أوقع الباشا فى خلاف مع فرنسا وعندما حاول استرضاءها ثار عليه ضد الانكشارية وخاصة من الآلبان والآرناؤوط المغامرين .

ولم تخل فترة حكم محمد القرمانلى من ثورات وفتن شهدتها البلاد مثل فتنة أحمد ابن حسن كيخيا صهر الباشا وإخوته ، ومؤامرة الالبان والارناؤوط لخلع الباشا ،

---

(١) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره

(٢) مصطفى بعيو : فى تاريخ لوبيا ص ١٠٠

(٣) رودلف ميكاكى : طرابلس الغرب تحت أسرة القرمانلى . تعريب طه فوزى .

وثورات درنة وغريان ، وإذا كان الباشا قد نجح بالفعل في إخماد هذه الثورات والمؤمرات إلا أنه كان من نتيجة ذلك فقدان الباشا لخيرة جنوده المخلصين مما اضطره إلى استدعاء وتجنيد بضع مئات من الجند الانكشارية من مدينة أزمير التركية، كما كان من نتيجة ذلك أعتلال صحته بسبب جهوده للتخلص من الثورات والمؤامرات المناوئة له وبسبب وإدمانه شرب الخمر فاضطربت حياته ، وتوفى يوم ٢٤ من يوليو ١٧٥٤ وله من العمر ٤٥ سنة ، ودفن إلى جانب والده بمقبرة جامع أحمد باشا »(١) .

على القرمانلى الأول

تولى على القرمانلى حكم الولاية وعمره ثلاث وعشرون سنة بعد فترة حكم أبيه التى دامت تسع سنوات والتى شهدت مظاهر الضعف بسبب تعدد الفتن والمؤامرات ، وقد ادرك قادة الانكشارية حداثة الوالى الجديد فالتفوا حوله وأمسكوا بزمام السلطة الفعلية فى البلاد ، ومارسوا سياسة مهاجمة سفن الدول الأوروبية مما أفسد العلاقات بين الولاية والدول الأوروبية ونتج عن ذلك تعرض مدينة طرابلس لقصف من مدافع السفن الأوروبية .

كما نتج عن الصدام بين الولاية والدول الأوروبية حدوث احتكاك بين سفن الولاية وبين سفن جمهورية البندقية المؤيدة من قبل انجلترا وفرنسا كان سببه أن وغنمت عسكر الانكشارية سفينتين من سفن تجار جمهورية البلنسيان (البندقية) فطلب قنصلها استردادهما من على باشا ولم يتيسر له لإصرار العساكر وضعف نفوذه فيهم . فاتفق أن أحد ضباط طرابلس قدم بأسطوله إلى أحد مرامى البلنسيان غازيا فبرز إليه أسطولها وتواقعوا فقتل الضابط وبعض الطائفة وأسر الأسطول ، فلما سمعت العساكر لاذوا بالانقيـــاد وانعقد الصلح بين الحكومتين وجرت

---

(١) رودلف ميكاكى : مرجع سبق ذكره .

معاهدة ثانية » (١) .

ومع ذلك لم تتوقف عمليات مهاجمة الأسطول الطرابلسي لسفن الدول الأوروبية بسبب انتشار المجاعة والقحط منذ عام ١٧٦٧ بصفة خاصة ، وبسبب عجز الحكومة عن دفع مرتبات الجند ، بالاضافة إلى الثورات والفتن التى قامت هنا وهناك فى أنحاء البلاد التى ثارت بسبب الأساليب التعسفية التى لجأ إليها رجال الباشا فى جمع الأموال من القبائل .

وقد استحكم الضعف فى الولاية وساءت حالتها . وانحلت عرى الإيالة وأهمل على باشا التنسيقات العسكرية والتنظيمات السائرة ، وثقل عليه إعطاء مرتبات العساكر وعجز عن القيام بمهام الأمور فتتابع فرار العساكر ، وخلا الجو للأنذال ، حتى صار النهب والغصب بالسبل والأسواق علنا من غير مبالاة » (٢).

وقد وصف نائب قنصل فرنسا حال طرابلس فى اثناء حكم على باشا بقوله إن الباشا لا يحكم إلا رعايا متمردين ومناطق جدباء وأكد اسامن الاطلال والخرائب وان المدينة التى يقيم فيها ليس فيها إلا الخراب والدمار ، كما أن قصره ينهار من جميع جوانبه ، أما أسوار المدينة فعديمة الجدوى بسبب تهدمها فى كثير من الاجزاء ، وأما الحصون والبطاريات المعدة بمدافع قديمة وفاسدة فانها تتداعى كلما أطلقت لتحية البوارج الحربية التى تأتى لإلقاء مراسيها فى الميناء . وان سبع سنوات من القحط ضاعفت عدد الموتى والمهاجرين . ثم تفشى الطاعون فزادت هذه الكوارث وأصبحت طرابلس صحراء مقفرة » (٣) .

---

(١) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره .
(٢) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره
(٣) أحمد الدجانى : مرجع سبق ذكره ص٤٣

ويصف رودلفوميكاكى(١) حكم على باشا بقوله : وقد استسلم لليكجرية (الانكشارية) فسلبوه الإرادة ، وصاروا يحكمون البلد باسمه وليس له من الأمر شيء ، وفى أيامه سنة ١٧٦٧ أصيبت البلاد بقحط شديد وهاجر كثير من الناس إلى تونس ومصر ، وفى عهده سنة ٧٨ أصيبت طرابلس بطاعون أنتشر فى جميع القطر ومات من سكان المدينة وحدها سبعة وعشرون ألف شخص ، وكان عهده عهد قلاقل ولم يكن لديه من القوة مايؤهله للصمود أمامها .

كان لابد أن يتطلع أهل طرابلس الغرب إلى الآستانة لكى تنقذهم مما حل بهم فى عهد على باشا القرمانلى، وقد انتهزت السلطنة الفرصة حين عرض مغامر يدعى «على برغل» (٢) على السلطان سليم الثالث أن يحقق أمل السلطنة فى التخلص من حكم الاسرة القرمانلية وأن يكون له حكم طرابلس . وعرض أن يعد الحملة العسكرية التى سينهى بها حكم القرمانليين على نفقته الخاصة وتعهد باقرار النظام فى الولاية وبأن يدفع للسلطنة جزية سنوية .

ولما وافق السلطان سليم الثالث على طلب على برغل منحه فرمانا بتعيينه واليا على طرابلس ، وجمع على برغل مجموعة من المغامرين والمرتزقة عددهم ٤٠٠ رجل حملهم على ثمانية سفن صغيرة إلى طرابلس فوصلها فى ٢٩ يوليو ١٧٩٣ م ونزل هؤلاء الرجال إلى طرابلس وقرىء الفرمان فما كان من على القرمانلى واسرته إلا الهرب من طرابلس والالتجاء إلى تونس .

أما شخصية على برغل وسياسته فانه كما يذكر الجبرتى أصله من مماليك محمد

---

(١) رودلفوميكاكى : مرجع سبق ذكره

(٢) يذكر البعض أن كينة «برغل» تعنى بالتركية القمح المسلوق المكسر وقد اشتهر بها على لأنه كان يطعم البرغل بدلا من الارز .

باشا حاكم الجزائر ، وكان أهل طرابلس مترددين فى قبوله واليا عليهم « ثم إتفق رأى العموم بتمكين البلاد لعلى باشا برغل لأن عدم قبوله عين الخروج من طاعة أمير المؤمنين ونقض لبيعته وذلك شقاق وشقاوة الدارين والمياذ بالله تعالى ، مع أن دفع هذه الأساطيل — سفن على برغل — وعلى فرض محرهم وإزالتهم فلا يؤمن بأس السلطنة السنية [1]» .

وكان على برغل قاسيا متغطرسا كثيرا الأطماع ، وقد اتضحت صفاته هذه من أول أيامه بطرابلس ، إذ أنه « لما استولى على طرابلس أباحها لعسكره ، ففعلوا بها أقبح وأشنع من التمرلنكية (يقصد جنود تيمورلنك المغولى) — من النهب وهتك النساء والفسق والفجور ، وسبى حريم متوليها وأخذهن أسرى ، وفرض على أهل البلد وأخذ أموالهم[2] » .

وساءت علاقته برعايا وقناصل الدول الاوربية أيضا حتى طلب من القناصل تقبيل يده عند المثول بين يديه ولم يتخل عن طلبه هذا إلا تحت تهديد الأسطول البريطانى الذى دخل ميناء طرابلس مهددا . كما زادت وطأته على الناس حتى اصطدم بوالى تونس حموده باشا الذى ساعد القرمانليين على العودة إلى طرابلس ، وفى ليلة التاسع عشر من يناير ١١٩٥ ، بعد أن ظل واليا لمدة سنة وخمسة أشهر ، ذبح ما عنده من الرهائن والأسرى[3] ثم « نزل إلى المراكب بما جمعه من الأموال والذخائر ، وأخذ معه غلامين جميلين من أولاد الأعيان شبه رهائن وهرب إلى الاسكندرية

---

(١) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره
(٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
(٣) رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره

وحضر إلى مصر ، ونزل ضيفا عند مراد بك وأنزله فى قصر بالجيزة[1] » .

أحمد القرمانلى الثانى

كان لعلى القرمانلى ثلاثة أبناءهم حسن وأحمد ويوسف ، وفى أواخر عهد على القرمانلى فى طرابلس اختلف الأخـــوة الثلاثة وثار بينهم نزاع كان محركه أصغرهم يوسف الذى اتصف بالطمع والتهور ، وقد عانى الطرابلسيون من هذا النزاع وما نتج عنه ولما كان على القرمانلى يؤهل ابنه الأكبر حسن لولاية الحكم بعده فقد حقد عليه يوسف وقتله فى ٢٠ يوليو ١٧٩٠ م ، واستمر النزاع بين يوسف وأحمد حتى جاء على برغل إلى طرابلس وهرب القرمانليون إلى تونس.

بعد هرب على برغل إلى مصر عاد القرمانليون إلى طرابلس وتنازل على القرمانلى لابنه أحمد فى رجب سنة ١٢٠٩ هـ الموافق يناير ١٧٩٥ ، وكان أحمد هذا « سكيرا منهمكا فى ملذاته[2] »، ثم فى « أواسط شعبان — من العام التالى — خرج أحمد بك لناحية تاجوراء للخلاعة وزيارة الاولياء فيها على الرسم المعتاد فانتفضت عليه الأهالى باغراء أخيه يوسف ففر إلى مصراته ومنها إلى مالطة[3] ».

يوسف القرمانلى

نجح يوسف فى الوصول إلى كرسى الولاية أخيراً عام ١٧٩٦ م بعد أن قتل أخيه الأكبر وثار على أخيه الأوسط أحمد مستغلا إهماله شئون الحكم وانغماسه فى الملذات وأخذ يتقرب إلى الأهالى مبينا لهم أنه يستطيع إنقاذ البلاد من الفوضى التى تعيشها فى ظل أحمد القرمانلى إذا مكنوه من الولاية ..

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : مرجع سبق ذكره
(٢) رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره
(٣) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره

وقد لجأ أعيان طرابلس إلى باشا تونس وقنصل فرنسا فى طرابلس للتوسط عند السلطان العثمانى حتى يصدر فرمانا بتولية يوسف ، فوافق السلطان على تولية يوسف ، وله من العمر حوالى ثلاثين سنة ، وقد اعترف به أبوه على وأراد ابعاد أخيه الذى هرب فعرض عليه حكم بنى غازى ودرنه ولكن أحمد رفض هذا العرض وعاد إلى تونس عن طريق مالطة .

نظرا لما اتصف به يوسف من الشدة والبطش فقد كان المتوقع أن يمارس بطشه بصورة أكبر بعد أن اصبح الحاكم الوحيد والأعلى للبلاد ، إلا أن يوسف « ظهر بمظهر يخالف كل المخالفة المظهر الذى كان يبدو به ، فلم تعد توجد القسوة فى أعماله ، بل امتاز بصرامة عادلة كانت تشوبها كياسة لم يكن ينتظر توافرها فى أمير أفريقى »(١).

قضى يوسف سنوات حكمه الأولى فى التعامل مع ثلاثة قوى ، القوة الأولى جند الانكشارية والقول أو غلية ، والقوة الثانية القبائل العربية فى أقاليم ليبيا الداخلية ، والقوة الثالثة الدول الأوروبية باساطيلها وقناصلها المقيمين فى طرابلس .

أما بالنسبة للقوة الأولى فقد استطاع استخدامها لتحقيق أغراضه فى التخلص من الثورات الداخلية وفى ممارسة أعمال القرصنة البحرية ضد السفن الأوروبية، وكان يوسف يعتمد على مؤازارة بعض القبائل العربية فى ليبيا له مما منحه قوة فى تعامله مع جنده ، ولم يستطع هؤلاء الجند أن يكونوا خطرا عليه إلا بعد أن لجأ يوسف إلى الدعة والترف وأسرف فى الملذات وأهمل النشاط العسكرى.

وأما القوة الثانية وهى القبائل العربية فقد شعرت بأن عهدا جديدا قد بدأ وأحسن حالا من سابقة ، ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى ثار « أهل غريان

---

(١) رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره

بزعامة الشيخ عبد الوافى عام ١٨٠٣م ، وثار أحمد سيف النصر فى فزان عام ١٨٠٦ وتعرض لبعض سفن الاجانب كانت بمرسى سرت ، (١) إلى جانب ثورات غدامس ونالوت بالجبل الغربى وترهونة وسرت . « وعلى الرغم من أنه تمكن من القضاء على كل هذه الثورات بالشدة فانها هدت — من غير شك — كيان الدولة فى الوقت الذى كان على الباشا فيه أن ينصرف كلية إلى التغلب على مصاعبه الخارجية ، وقد تعددت بتعدد الدول الاوروبية » (٢).

وقد زلزلت الثورات الداخلية أركان الحكم فى طرابلس الغرب على عهد يوسف القرمانلى « وكان الناقمون من الاسرة القرمانلية كثيرا مايؤيدون الثوار هنا وهناك ، ولما كانت الخزينة خاوية لم يكن باستطاعة يوسف باشا أن يرسل جيوشه إلى مختلف الجهات لذلك كان كثيرا ما يلجأ إلى المهادنة ويعترف بالزعيم الثائر حاكما لمنطقة الثورة » (٣) .

عاصر يوسف القرمانلى أحداثا أوروبية وعربية . فماذا كان موقفه منها وماذا كان موقفه من الدول الأوروبية وخاصة أنه كان يحتاج إلى أموال كثيرة للصرف منها على مشروعاته وحملاته العسكرية ضد الثوار فى داخل ليبيا ؟.

لقد حدثت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م بعد سنتين من بداية حكمه فى طرابلس ، وتولى محمد على ولاية مصر عام ١٨٠٥ م ، وغزت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ م ، وحدث صدام حربى بين الباشا والولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب التنافس بين انجلترا وفرنسا حول ليبيا فكيف كانت علاقات الباشا وموقفه من كل هذه الأطراف ؟

---

(١) طاهر الزاوى : ولات طرابلس ص ٢٣١ .

(٢) د . حسن محمود : مرجع سبق ذكره ص ١٩٠ .

(٣) د . نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الإيطالى ص ٤٤ .

كانت علاقات يوسف باشا بفرنسا طيبة من البداية وهذا يفسر مساعدة يوسف للحملة الفرنسية على مصر ، وتلبية مطالب فرنسا أثناء صراعها مع انجلترا على النفوذ فى طرابلس ، فعندما احتل نابليون بونابرت مصر عام ١٧٩٨ م وبعد أن تم تدمير الأسطول الفرنسى فى أبى قير أراد نابليون أن يكون هناك اتصال برى بين الحملة فى مصر وبين فرنسا ، فكتب رسالة إلى القنصل الفرنسى فى طرابلس بتاريخ ٢٢ يناير ١٧٩٩ م يطلب منه فيها أن يتصل بيوسف باشا ويرتب معه أمر مرور الرجال والذخائر من فرنسا بطريق ليبيا ، وانتهى هذا الاتصال بعقد معاهدة بين يوسف باشا والقنصل الفرنسى عام ١٨٠١ م تؤمن لنابليون ما أراد »(١) .

وقد أستاءت انجلترا من هذا الاتفاق الذى يؤمن للحملة الفرنسية فى مصر سبل بقائها هناك خاصة وان يوسف باشا سمح للفرنسيين أن يتخذوا من ميناء درنة منفذا لتلقى الإمدادات المرسلة من فرنسا إلى جنود الحملة الفرنسية فى مصر، وأنه كذلك رفض السماح للسفن الانجليزية بالتردد على الموانى الليبية مما دفع انجلترا إلى فرض حصار بحرى تجارى شديد .

وقد استاءت تركيا أيضا من موقف يوسف باشا ، ذلك أن السلطان العثمانى أراد إخراج الفرنسيين من مصر بحملة عسكرية من اتجاهين أو جبهتين جبهة الشرق يتولاها حاكم دمشق وحاكم عكا الجزار لمهاجمة مصر بطريق فلسطين وسيناء ، وجبهة الغرب يتولاها يوسف باشا من ليبيا ، ولكن يوسف حاول استرضاء السلطان ولكنه حرص على بقاء علاقاته الطيبة مع فرنسا ، ومن ثم أخذ يعد جيشا بكثير من التمهل وأعلن أن الجيش لتحقيق مطلب السلطان العثمانى ، وفرض على الفرنسيين المقيمين بطرابلس الإقامة الجبرية فى منازلهم وذلك بالتفاهم مع قنصل فرنسا بطرابلس وقد أظهر يوسف للمبعوث العثمانى هذه الجهود حتى

---

(١) د . نقولا زيادة : مرجع سبق ذكره ص ٤٩

ينقلها للسلطان ، وتنفس يوسف الصعداء حين جلت الحملة الفرنسية عن مصر في أواخر عام ١٨٠١ م .

ورغم ذلك فقد ظل الصراع بين انجلترا وفرنسا حادا للتمتع بالنفوذ الاعلى في ليبيا ، ورغم أن فرنسا كانت تتمتع بصداقة يوسف باشا إلا أنه بعد ان استولى الفرنسيون على الجزائر عام ١٨٣٠ وأظهر الشعب الليبي استياءه من هذا الغزو تقدمت فرنسا بمطالب إلى يوسف باشا تدل على تشدد لايفسره سوى ضعف حكم يوسف وفساده ودعاوى المستعمرين وأباطيلهم ، وهذه المطالب تتلخص فيما يلي :

١ — يجب أن يقدم الباشا اعتذارا إلى القنصل الفرنسي « روسو » عن إهانة ألحقها به من قبل .

٢ — يجب أن يلغى الباشا كل الاحتكارات التجارية .

٣ — يجب أن يمتنع حالا عن استرقاق الاوروبيين .

٤ — لا يجوز للباشا أن يطلب من الدول الاوروبية أن تدفع مقررات أو هدايا .

٥ - لا يجوز للباشا أن يقوى أسطوله .

٦ — يتوجب على الباشا أن يدفع لفرنسا تعويضات حربية تمكن الحكومة الفرنسية من التعويض على رعاياها بسبب ما خسرته في ليبيا أو اقرضته لليبيا .

٧ — أن يكون لفرنسا حقوق الدولة الأفضل رعاية (١) .

وبسبب ضعف الباشا قبل هذه المطالب المهينة وعقد مع فرنسا معاهدة في أغسطس ١٨٣٠ م . ودفع لفرنسا مبلغ ٨٠٠ ألف فرنك فرنسي ومع ذلك فقد وقف القنصل الفرنسي عام ١٨٣٢ م إلى جوار علي باشا القرمانلي الثاني ابن يوسف

---

(١) د . نقولا زيادة : مرجع سبق ذكره ص ٤٩ .

الذى تنازل له والده عن الحكم تحت ضغط ظروف البلاد فى الوقت الذى كان القنصل الانجليزى يقف مع الساخطين على الأسرة القرمانلية والذين يتخذون من المنشية مقرا لهم .

وفى نطاق الصراع الانجليزى الفرنسى على النفوذ فى طرابلس تبنت انجلترا فى مؤتمرى فينا ١٨١٥ وإكس لاشابل ١٨١٩ م ، معارضة سياسة العدوان على السفن الأوروبية التى يقوم بها الأسطول الليبى ، وقد تم اتخاذ قرار بالرد على الموقف الليبى بالقوة ، وابلغ قادة الأسطولين الانجليزى والفرنسى هذا القرار ليوسف باشا بطرابلس الذى قبله . . ومع ذلك فانه عندما أراد يوسف تقوية أسطوله وطلب من القنصل الانجليزى المساعدة تقدمت له انجلترا بالمساعدة المطلوبة .

وأما علاقة الباشا بالولايات المتحدة الامريكية، فترجع إلى أن السفن الليبية تعرضت للسفن الأمريكية التجارية العاملة فى البحر المتوسط ، وأنذر يوسف باشا الولايات المتحدة عام ١٨٠٠م بأنها إذا لم تدفع كل سفينة جزية سنوية ، وهدية سنوية من الحكومة الامريكية فإن السفن الليبية سوف تهاجم السفن الامريكية وتسلبها ما تحمله . ولما لم يرد الرئيس الامريكى على إنذار يوسف باشا أخذت السفن الليبية تهاجم السفن الأمريكية مما دفع الرئيس الامريكى إلى تكليف بعض القطع البحرية الحربية الأمريكية بمعاقبة الباشا ، وبالفعل حاصرت هذه القطع ميناء طرابلس وأخذت تضربه بالقنابل ، ولكن حدث أن جنحت سفينة أمريكية تدعى فيلادلفيا على الشاطىء الليبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م فأسرها جنود يوسف باشا وأخذوا بحارتها البالغ عددهم ٣٠٠ أسرى .

ورفض يوسف باشا اطلاق سراح السفينة الأمريكية فيلادلفيا وبحارتها إلا إذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع مطالبه السابقة، ومن ثم اتجهت الولايات المتحدة

إلى أسلوب آخر تجبر به الباشا على إطلاق سراح السفينة وبحارتها ، وتولى هذه العملية القنصل الامريكى فى تونس ويدعى إيتون، ويروى دكتور نقولا زيادة[1] تفاصيل العملية بقوله .

وضع إيتون نصب عينيه ضرورة احتلال طرابلس، ولكنه أدرك أن الهجوم من البحر ليس ممكنا ، ولا يمكنه الهجوم برا من الغرب لأن باى تونس لا يسمح له بذلك ففكر بمهاجمة طرابلس من الشرق وفكر فى أن يقنع أحمد أحد القرمانليين الطامعين فى حكم ليبيا بأن يقود الحملة . وكان أحمد يومها فى مصر ، وقد وضع نفسه تحت تصرف أحد أمراء المماليك ،فذهب إيتون إلى مصر، واتصل بأحمد وأقنعه بموافقة الحملة ، وحصل له على إذن بمغادرة البلاد ، وقاد الحملة التى كان رجالها من البدو والمالطيين واليونان إلى درنة التى احتلها فى ٢٦ أبريل ١٨٠٤م . والظاهر أن يوسف باشا خشى العاقبة بعد سقوط درنة فقبل بالمفاوضة ورضى بأن يطلق سراح الأسرى الامريكيين مقابل ٦٠ ألف قرش بدل ٤٠٠ ألف قرش كان قد طلبها قبل ذلك ، أما أحمد فقد أعيد إلى الاسكندرية حيث ظل إلى حين وفاته سنة ١٨١١م .

وفى الوقت الذى كان يوسف القرمانلى يحكم ولاية طرابلس الغرب ظهر على مسرح الاحداث فى القطر المجاور — مصر — محمد على الوالى الذى اتبع نفس أسلوب أحمد القرمانلى مؤسس الأسرة فى طرابلس لارتقاء كرسى الولاية ، ولكن محمد على كان من الذكاء ما دفعه إلى اعداد كوادر فنية من المصريين لبناء البلاد بناء احديثا مستمرا بعكس ما فعله القرمانليون ، وفى الوقت الذى كان فيه محمد على يتجه إلى بلاد الشام لضمها إلى مصر عام ١٨٣٢ بعد أن اتسع ملكه فشمل الحجاز والسودان كان يوسف قد اضطر للتنازل عن الحكم لابنه على باشا الثانى عام ١٨٣٢م،

---

(١) د. نقولا زيادة : مرجع سبق ذكره ص ٤٧ .

وهناك رواية[1] تذكر أن محمد على كان قد فكر فى غزو برقة واستخلاصها من حكم يوسف القرمانلى المنهار وضمها إلى مصر ، ولكن هذه الرواية تحتاج إلى أدلة أكثر للتحقق من حقيقتها ، وإن كان محمد على عام ١٨٢٩ قد خضع لاغراء فرنسا لكى يحتل الجزائر ولم يثنه عن ذلك سوى خوفه من الصدام مع انجلترا ، مما يوحى بأنه كان له أطماع فى برقة كما تذكر الرواية المذكورة .

هكذا كانت حياة يوسف القرمانلى حيث يجد المؤرخ المنصف فى بداية حكمه « ما يفسح المجال للأمل فى الاصلاح ، حتى إذا ما قارب النهاية من سيرته وجد من الشناعات ما يبعث الحسرة فى النفوس ويفتح باب اليأس على مصراعيه ، ويرغمه على القول بأن عهد السيطرة التركية على ليبيا قد قعد بها عن اللحاق — فى التقدم

— بجارتيها مصر وتونس »[2] .

ذلك أن يوسف باشا « لما انتقل من طور الشبيبة إلى طور المشيب استهان بأهل الإيالة — ولاية طرابلس الغرب — وحملهم — بمقتضى ما كان له من إطلاق التصرف من مصاريف شهواته وألوان لذاته — أكثر من طاقتهم ، حتى آل الأمر إلى فاقته وفاقتهم ، وباع من أسطولها الحربى ، وسك مدافعها النحاس فلوسا ، وأرخى عنان التصرف لابنائه وأصهاره وقسم الإيالة بينهم ، فأرسلوا العمال من طرفهم ، وساءت سيرتهم ، وعظم ظلمهم ، واتخذوا طرقا للجباية وفق مصالحهم الذاتية ، وغير ذلك مما نقم من أعماله . وأذن بزواله . انهمك فى الملذات ومعاشرة المضحكين والصفاعين وسماع الالحان »[3] .

---

(١) ذكرها المؤرخ الليبى مصطفى بعيو فى محاضرة له بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية أثناء انعقاد ندوة المؤرخ الجبرتى فى أبريل ١٩٧٤م بالقاهرة .

(٢) طاهر الزاوى : مرجع سبق ذكره ص ٣٣٣ :

(٣) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره .

كما أن يوسف باشا اضطر إلى الاقتراض من الأجانب وإلى فرض الضرائب على الناس لكى يواجه الانفاق المتزايد على ملذاته وعلى حملاته العسكرية ضد الثوار ، ووجد قنصل الانجليز وقنصل فرنسا سبيلا إلى الدس ضده ، وتخلى عنه كثير من أنصاره ، ولم يجد سبيلا للخروج من هذا المأزق إلا التخلى عن الحكم ، وفى يوم ١٢ من أغسطس سنة ١٨٣٢ م الموافق ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ هـ عقد اجتماعا حضره أولاده ووزراؤه وأعيان البلاد وعلماؤها ، وقرر تنازله عن الحكم لابنه على ، وجعل ابنه إبراهيم وليا للعهد ، (١) .

على القرمانلى الثانى

ورث على الثانى الحكم ولكنه ورث معه ثورة عنيفة واضطرابات خطيرة أدت فى النهاية إلى القضاء على الاسرة القرمانلية فى ولاية طرابلس الغرب ، وقد ظل على فى الحكم من ١٨٣٢ إلى ١٨٣٥ م واجه فيها من الثورات والحروب الأهلية وعوامل القحط الشىء الكثير التى أدت إلى سقوط حكمه وأسرته معا .

وقد بذل على الثانى كل جهوده لاستتباب النظام والأمن فى البلاد ولكنه لم يوفق لأنه كان مكروها من المواطنين والجند على السواء بسبب قسوته من ناحية وبسبب المساوىء التى ورثها عن أسلافه من ناحية أخرى .

ورغم أن والده يوسف باشا تنازل له عن الحكم فى أغسطس ١٨٣٢ إلا أن الفرمان السلطانى لم يصله إلا فى العام التالى ١٨٣٣ بعد مرور اثنى عشر شهرا (من ربيع الآخر ١٢٤٨ إلى ربيع الآخر ١٢٤٩ هـ) ولكن الثوار من أهل البلاد أصروا على عدم الاعتراف بولايته ، ودامت الفتن والحروب الأهلية نحو العامين ،(٢).

---

(١) رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره .
(٢) أحمد النائب : مرجع سبق ذكره .

وفى أوائل شهر المحرم عام ١٢٥١ هـ الموافق ٢٦ مايو ١٨٣٥ م وصل إلى ميناء طرابلس اسطول عثمانى كبير يحمل نجيب باشا الوالى العثمانى الجديد الذى قرر السلطان إرساله إلى طرابلس الغرب لانهاء حكم الاسرة القرمانلية وإعادة الولاية إلى الحكم العثمانى المباشر ، وعندما رسا الاسطول فى الميناء دعى على باشا الثانى إلى سفينة القيادة فى ٢٨ مايو حيث كان ينتظره نجيب باشا الذى أخبره بفرمان السلطان بعزله وأنه يجب أن يذهب إلى الآستانة مركز السلطنة هو وأسرته ومن يريد أن يصحبه معه ، ثم نزل نجيب باشا تاركا على القرمانلى على السفينة وقرىء الفرمان على الناس الذى ينص كذلك على تعيين نجيب باشا واليا .

ويعلق أحمد النائب[1] على هذه الاحداث بقوله : وقتل محمد القرمانلى نفسه، وفر أخوه أحمد إلى مالطة ، وأرسل على القرمانلى إلى الآستانة ، وانقرض بيت آل القرمانلى وتفرقوا أيدى سبأ ، وحصل المنى ، والله يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ؛ وهذه ثمرة التصرف بالشهوات ، وغض الطرف عن الغوائل والآفات ، واستعمال الشدة فى موضع المداراة » .

تقييم للحكم القرمانلى

حكمت الاسرة القرمانلية ولاية طرابلس الغرب حكما وراثيا مدة مائة وأربعا وعشرين سنة (١٢٤) من ١٧١١ إلى ١٨٣٥ م (١٢٨ سنة هجرية من جمادى الآخر ١١٢٣ إلى المحرم ١٢٥١ هـ) حكم خلالها ستة من أمراء الاسرة ومع ذلك لم يستطيعوا الاحتفاظ بالبلاد لانه لم تكن لهم - شأنهم فى ذلك شأن الولاة الاتراك فى العصر العثمانى الاول - سياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والمحافظة عليها والاخذ بيدها ، كما حدث لمصر فى عهد محمد على الذى عاصر يوسف باشا وعلى باشا الثانى ، ولذلك لم تكد ولاية طرابلس الغرب تشعر بشىء

(١) نفس المصدر .

من الاستقرار فى بداية حكم الاسرة القرمانلية حتى عادت إلى حالة الفوضى الشاملة التى كانت عليها البلاد فى العصر العثمانى الأول .

وكانت السياسة الوحيدة التى حرص على اتباعها امراء الاسرة القرمانلية هى الحصول على الأموال بكل وسيلة للصرف منها على حياة البذخ التى كانوا يحيونها فى قصورهم الفخمة ، وكانت سياستهم هذه ذات شقين : الشق الأول فرض الضرائب على الناس واتخاذ الأساليب التعسفية فى جمعها على يد جند الانكشارية والقول أوغلية الذين كانوا من أدوات الأمراء القرمانليين فى حكم البلاد .

وأما الشق الثانى من سياسة الأمراء القرمانليين فى حكم ليبيا فكانت اتباع أسلوب القرصنة فى البحر المتوسط . حقيقة كان هذا الأسلوب سائدا فى تلك العصور فى البحر المتوسط ، ولكنه لم يكن أسلوب دول بل كان أسلوب أفراد وعصابات ، ولجوء الأمراء القرمانليين إلى المغالاة فى هذا الأسلوب ، وان كان فى البداية قد در عليهم الأموال الطائلة وأوقع الرعب فى قلوب الأوروبيين إلا أنه أدى فى النهاية إلى التحالف بين الدول الأوروبية ضد هذا العمل ومن يقوم به .

فقد قررت الدول الأوروبية فى مؤتمراتها - كما أشرت سابقا - محاربة أعمال القرصنة ولذلك وقفت من الولاية موقف العداء ، بل وحاولت كل دولة أوروبية أن تفرض على الولاية - أو اخر عهد الاسرة القرمانلية - الاتاوات والشروط كما كانت هى تفعل ذلك مع الدول الأوروبية . ولعل فشل يوسف باشا فى فرض سياسته البحرية على الولايات المتحدة ثم احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ م قد أدى إلى ضعف ليبيا بحريا بل وإلى القضاء على سيطرة الأسطول الليبى .

ونخلص من كل ذلك إلى أن ولاية طرابلس الغرب فى عصر الاسرة القرمانلية لم تستفد شيئا ذا بال نتيجة لتلك السياسة غير المرسومة ونتيجة استمرار الفوضى

والثورات والحرب الأهلية التى شهدتها البلاد والتى كان أهل الولاية ضحيتها الأولى اللهم إلا ما قام به مؤسس هـذه الاسرة أحمد باشا من إشراك بعض الوطنيين فى الجيش وفى إدارة البلاد ليستجلب محبة الناس ، وخاصة بعد أن جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وان كانت اللغة التركية لم تختف تماما ، إلا أن هذا العمل من جانبه كان سنة طيبة نسج على منوالها من جاء بعده من أبناء أسرته ، (١) .

العصر العثمانى الأخير

عاد الحكم العثمانى المباشر إلى ولاية طرابلس الغرب بانتهاء حكم الاسرة القرمانلية عام ١٨٣٥ م واستمر حتى عام ١٩١١ م عندما احتل الإيطاليون البلاد وأنهو الحكم التركى الذى حكم ليبيا ، ٣٦ سنة .

جاء هذا الحكم العثمانى المباشر وبعد أن ضاق المواطنون ذرعا بما ساد بلادهم من فتن واضطرابات حرمتهم الاستقرار المنشود لينصرفوا إلى حياتهم العادية ، وجاء — كما حدث فى منتصف القرن السادس عشر - بعد أن طلب بعض المواطنين من السلطان العثمانى تخليص البلاد من الفوضى والانقسامات التى حدثت فى عهد الاسرة القرمانلية وبصفة خاصة فى أواخر حكمها (٢).

وان كان بعض المواطنين فى الولاية قد شعروا بالفرح لمجىء الحكم العثمانى الذى أنهى السيطرة القرمانلية ، فان غالبية أهل الولاية نظروا إلى مجىء الولاة العثمانيين من استانبول نظرة شك وتردد حيث لم يقم نظراؤهم — قبل عصر الاسرة القرمانلية بما يرضى أهل الولاية من أعمال مفيدة تأخذ بيدهم إلى التقدم

---

(١) د . حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ص١٨٥

(٢) د . رأفت الشيخ : مرجع سبق ذكره ص ٤٤

والازدهار ، ولذلك سرعان ما ناصب أهل الولاية الدولة العثمانية العداء وأبوا الخضوع للسلطة الحاكمة ، لأن الحكم العثمانى عاد للبلاد وأعاد معه النظام الفاسد السابق ولم يحاول تغيير ما أدى إلى سخط الشعب قبلا .

لقد بقى العصر العثمانى الأخير فى ولاية طرابلس الغرب ما يقرب من سبعة وسبعين عاما تولى الحكم خلالها ثلاثة وثلاثون واليا تراوحت مدة ولاية بعضهم بين سنة وعدة شهور ، وكان أول هؤلاء الولاة هو رءوف باشا[1] الذى جاء بعد أن أنهى نجيب باشا حكم الاسرة القرمانلية واستبعدها إلى الآستانة وقد أبقى بطرابلس يوسف باشا الكبرسنة مع أفراد أسرته ، « وتوالى مجىء الولاة بعد رءوف باشا وكان كل منهم يأتى ولا يكاد يستقر حتى يصدر فرمان بعزله وبتولية غيره فى ولاية ليبيا ، ولذلك كان الوالى يسعى بمجرد وصوله إلى البلاد فى جمع أكبر مبالغ من المال ممكنة لأنه يعلم مسبقا أن بقـــاءه فى منصبه لوقت قصير » [2] .

لقد صرف الولاة العثمانيون كل وقتهم فى ولاية طرابلس الغرب فى محاولات مستمرة للقضاء على ثورات أهل البلاد ، تلك الثورات التى قامت فى معظم أنحاء الولاية فكان يتزعم الثورة فى مصراته « عثمان أغا » وفى « يفرن » بالجبل الغربى « غومة المحمودى » ، وفى فزان « عبد الجليل سيف النصر » ، وفى برقة « عادل » . ولم تكن هذه الثورات مجرد أعمال فردية بل كانت مظهرا لما طبعت عليه القبائل من حب للحرية وعدم الخضوع للسيطرة الأجنبية ، ونجحت هذه الثورات فى إجهاد سلطة الحكومة العثمانية فى الولاية وإضعافها ، وإن كانت هذه الثورات

---

(١) تذكر بعض المصادر اسمه محمد رائف . بدل رءوف

(٢) د . حسن محمود : مرجع سابق ص ١٩٢

قد فشلت فى تحقيق أملها وهو التخلص من العثمانيين وإقامة حكومة محلية من بين أهل البلاد فان ذلك يرجع إلى التنافس والصراع الذى كان يحدث بين زعماء هذه الثورات وجهلهم بالطرق الكفيلة بنجاحهم وتحقيق أهدافهم إلى جانب المجاعات التى كانت تصيب البلاد فتحد من هذه الثورات ومن ولاء النـــاس لها والتفافهم حولها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الولاية فى أثناء هذا العصر قد شهدت أحداثا لها دلالاتها منها ثورات قومية عام ١٨٨١ احتجاجا على الغزو الفرنسى لتونس وعام ١٨٨٢ ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وأن أهل الولاية كان ولاؤهم عربيا لا عثمانيا ، فعلى سبيل المثال « وعلى ماروى الرحالة الأوروبيون كان غومة المحمودى يعتبر أحد الناطقين باسم القومية العربية المقاومين للاحتلال التركى » (١) .

كما أن بعض الليبيين فكروا عندما قامت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٨٥٣ م رأوا أن « الفرصة سانحة لإعلان استقلال بلادهم عن السلطنة فاشترت بعض القبائل السلاح وطلب بعض الزعماء مساعدة فرنسا عن طريق قنصلها » (٢) ولئن كانت هذه الفكرة لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ فلأن يد الليبيين لم تجتمع كلها على هذه الفكرة ثم أنه حدث فى عهد السلطان عبد الحميد « أن طلبت الحكومة من الوالى تجريد الأهالى فى ولاية طرابلس الغرب - من السلاح وتفتيش الزوايا السنوسية لضبط ما عسى أن يوجد بها من أسلحة ، وكان ذلك من الأسباب التى دفعت السيد المهدى السنوسى إلى الانتقال من واحة الجغبوب إلى واحة الكفرة والإيغال فى الصحراء » (٣) .

---

(١) د . نقولا زيادة : مرجع سابق ص ٥٦ .

(٢) نفس المرجع ص : ٥٧

(٣) مصطفى بعيو : مرجع سابق ١٠٧ .

وإذا كانت الولاية قد لاقت الإهمال من جانب الدولة العثمانية وولاتها فى النواحى الاقتصادية والعمرانية ، ونواحى العدل ، فانها لاقت الاهمال فى نواحى الصحة والتعليم أيضا ، وصدق من قال « أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لا يشمون لها رائحة »[1] .

انتهت مأساة الحكم العثمانى لليبيا عام ١٩١١ لتبدأ مأساة الحكم الإيطالى البلاد الذى جاء نتيجة حتمية لسياسة الحكم العثمانى حتى صدق القول بأنه مامن بلاد عربية كانت الحكم العثمانى استطاعت ان تحكم نفسها بنفسها بعد انفصالها عنه ، بل انتقلت من حكم العثمانيين إلى حكم أجنبى آخر قبل أن تصل إلى الاستقلال »[2] .

---

(١) رحلة الحشائش إلى ليبيا ص ١٩٠ .

(٢) مصطفى بعيو : مرجع سابق ص ٦٥ .

الفصـــل السابع

آل العظم

في سـوريا

- سوريا قبل آل العظم .
- ظهور أسرة العظم .
- سوريا بعد آل العظم.

سوريا قبل آل العظم

لم يكن وقوع بلاد الشام في يد السلطان سليم الأول العثماني عام ١٥١٦ م إلا بداية لفترة من الحكم العثماني الطويل الذي يستمر لمدة أربعمائة سنة ظهرت خلالها مثالب التنظيمات العثمانية بما ساعد على قيام حركات ثورية وإستقلالية في أنحاء الشام، وإذا كانت الأسرة المعنية الدرزية قد بادرت برفع راية الثورة ضد الحكم العثماني إعتباراً من عام ١٥١٦ نفسه، فإن سوريا قد شهدت حركة أخرى وإن كانت حركة سلمية مع الدولة العثمانية، تمثلت في تولي آل العظم الحكم في سوريا لمدة بلغت ستين سنة، إلى جانب وقوع حركة إستقلالية ثالثة في جنوب سوريا هي حركة الشيخ ظاهر العمر ..

ولما كان لكل شيء أصل وسبب، فإن إرتقاء آل العظم للولاية في سوريا قد حدث بسبب توفر ظروف معينة إضطرت الدولة العثمانية إلى الاستعانة بأفراد هذه الأسرة لتولي مقاليد الحكم في إيالات سوريا، وهذه الظروف تمثلت فيما أصاب سوريا من فوضى واضطراب بعد أن كانت الحالة في بداية الحكم العثماني طيبة والأمن مستتب والحياة الاقتصادية نشطة ومستقرة.

ومصدر الفوضى التي أصابت سوريا كانت من المسئولين عن إستقرار الامن وأعني من القوات العسكرية المتمركزة هناك، سواء المحلية أو الوافدة من مركز الدولة العثمانية، وإذا كانت مدينة حلب قد شهدت طوال قرنين من الزمان تقريبا من بداية الحكم العثماني من الاستقرار والازدهار الاقتصادي حتى أصبحت أكبر وأهم المراكز التجارية في الليفانت بسبب وقوعها على الطرق المؤدية إلى

تركيا من ناحية والعراق من ناحية أخرى، فإن النزاع بين القوات المحلية فى المدينة والتى عرفت باسم الاسياد أو الاشراف[1] من ناحية وبين القوات الوافدة وأعنى الانكشارية ، أدى إلى تدهور النواحى الاقتصادية واضطراب نشاط السكان .

أما دمشق فقد كانت المدينة الكبرى فى الشام ذات الوضع التاريخى والأدبى والروحى ، فقد شهدت هى الأخرى منذ بداية الحكم العثمانى رخاء وإنتعاشا فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ، إلا أنها فى أوائل القرن الثامن عشر شهدت فترة من الفوضى والاضطراب أيضا بسبب النزاع بين الانكشارية السلطانية وهى القابقول وبين الانكشارية المحلية التى تسمى يردلية[2] .

وفى وسط هذا الاضطراب والفوضى التى انتشرت فى سوريا لجأ الباشوات العثمانيون إلى أساليب ساهمت فى إزدياد الفوضى خاصة فى زمن الباشوات الضعاف ، ذلك أن هؤلاء الباشوات لجئوا إلى استخدام جنود مرتزقة عرفوا بالمغاربة معظمهم من الجزائر والمغرب وتونس ، وآخرين من التركمان .

ولكن هؤلاء الجند كانوا عاملا جديدا فى الاضطراب ، وقد أدت الاضطرابات المتوالية وخصوصا فى حلب إلى إنهيار الزراعة ، فالرحالة الفرنسى فولنى VOLNEY يذكر فى سنة ١٧٨٥ م أن أكثر من ٣٢٠٠ قرية فى إيالة حلب كانت مسجلة أسماؤها فى سجلات الضرائب ، ولكن لم يبق منها ذلك العام أكثر من ٤٠٠ قرية ، أما بقية القرى فقد هجرها سكانها[3] .

---

(١) يدعون الانتساب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٢) د . محمد أنيس و د . حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٥٨ .

(٣) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٥٢ .

فى وسط هذا الاضطراب الذى حدث فى حلب لاقت دمشق فترة من الاضطراب حتى ظهرت أسرة حكمت هذه الإيالة لمصلحتها — أى مصلحة الأسرة — ولمصلحة الدولة العثمانية فى نفس الوقت ، بمعنى أن آل العظم سعوا إلى تولى باشوية دمشق — الشام — وأثبتوا أمام السلطان العثمانى أنهم جديرون بثقته — رغم كونهم عربا — لأن باشوات هذه الأسرة حققوا أمل السلطان ورغبته ..

كانت دمشق مثار إهتمام السلطان العثمانى باعتبارها تتحكم فى طريق الحجاج الآتين من تركيا ومن شمال سوريا ، وتأمين هؤلاء الحجاج فى الطريق أمر له أهميته عند السلطان العثمانى باعتباره حامى حمى الإسلام والمسلمين ، وتعرض الحجاج إلى سلب ونهب البدو فى طريق الحج عبر بلاد الشام إلى الحجاز مما يؤثر فى مركز السلطان الدينى باعتباره خليفة المسلمين .

وحرص السلطان العثمانى على سلامة الحج استدعى منه أن يعهد إلى باشا دمشق بقيادة حملة عسكرية لمرافقة قوافل الحجاج كل موسم لحمايتها من إغارات البدو ، وكثيرا ما كان هذا الباشا يحمل لقب أمير الحج ومن ثم يتولى إمدادهذه القوافل بما تحتاج إليه من مؤن ورعاية طوال عبورها أراضى بلاد الشام حتى الأراضى المقدسة ..

إذن إعتبر السلطان العثمانى حدوث اضطراب فى إيالة دمشق أمرا لا يمكن السكوت عليه ، ولكن ماذا يفعل ؟ .. من الطبيعى أن يلجأ إلى تغيير الولاة ، وعندما لجأ إلى هذا الحل لم يكن يتصور أن آل العظم الذين لجأ إليهم عام ١٧٢٤م سيضطر إلى تثبيتهم فى الباشوية رغما عن نظم الحكم العثمانية التى تحدد مدة قصيرة

للباشا فى الولاية ، ورغما عن أن تثبيت أسرة أمر يخشاه السلطان العثمانى .

ولنا فى تاريخ العراق فى أوائل القرن الثامن عشر — عام ١٧٠٤ م بصفة خاصة — دليلا على اضطرار السلطان العثمانى إلى مخالفة التنظيمات العثمانية وقبوله المرغم على تثبيت الحكام الذين يكونون أسرات وراثية فقد حكمت العراق أسرة حسن باشا حكما وراثيا ، فلا بأس أن تحكم أسرة العظم فى سوريا هى أيضا حكم وراثى .

إذن كانت إستعانة السلطان العثمانى بآل العظم على أمل أن ينتهى الاضطراب والقلق فى إيالة الشام — دمشق — ولقد استطاع آل العظم بالفعل ضمان الأمن والإستقرار فى الإيالة وبالتالى تثبيت السيادة العثمانية على الإيالة مما أدى إلى عدم استطاعة الدولة العثمانية الاستغناء عن خدمات هذه الأسرة ..

كان أول باشوات آل العظم هو إسماعيل باشا الذى نقل من باشوية صيدا إلى باشوية الشام — دمشق - عام ١٧٢٤ م كما ذكرنا . وإستطاع إسماعيل أن يخضع حركات التمرد فى دمشق ويعيد إلى المدينة نوعا من الاستقرار ، وإستمر ماسكا بزمام الأمور مستعينا بجنده من مماليك البوسنة والمغاربة حتى طرد هو نفسه من دمشق عام ١٧٣م[1] .

وتوالى أفراد أسرة العظم فى حكم باشوية الشام بل وتولى غيرها من باشويات الشام بعد إسماعيل العظم ، فنسمع عن سليمان باشا العظم الذى تولى باشوية الشام من عام ١٧٣٢ م إلى ١٧٤٢ م حتى توفى فى تلك السنة والأمور مستتبة فى الباشوية، وخلفه ابن أخيه أسعد باشا العظم الذى حكم حتى عام ١٧٥٦م تصدى خلال مدة حكمه الطويلة لمحاولات الخروج عليه من قبل اليردلية والدروز والطامعين فى الباشوية ..

---

(١) د. محمد أنيس و د. رجب حراز : المرجع السابق ص ٥٩ .

ذلك أن الفرقة العسكرية المعروفة باليرلية ثارت ضد أسعد باشا وكان يتزعمها الدفتر دار سيد فتح الله الذى كان رأس أسرة كبيرة فى دمشق ، ولكن أسعد استطاع عام ١٧٤٦ م أن يقبض على فتح الله وعلى عدد كبير من اليردلية وأن يقتلهم جميعاً (١). كما اصطدم بحسين باشا بن مكى الذى كان حاكما لصيدا واستطاع عام ١٧٥٦ انتزاع دمشق من أسعد باشا العظم .

وفى عهد أسعد باشا اتسع نفوذ أسرة العظم بتوالى أفرادها فى باشوية دمشق وباستقرار الأمور فى أيديهم وتولى أسعد نفسه إيالة حلب منذ عام ١٧٥٥ م ، إلى جانب أنه حصل على موافقة السلطان بتعيين أقاربه وأتباعه فى باشويات طرابلس وصيدا .

ورغم اتساع نفوذ آل العظم ، ورغم ضيق الدولة العثمانية من هذا الاتساع فقد أثبتت الاحداث أنهم أجدر بتأييد الدولة العثمانية ضد الخارجين عليهم ومن ثم فان دمشق شهدت فترة من الاضطراب منذ خروج أسعد العظم منها عام ١٧٥٦ م إلى أن تعين عثمان باشا العظم المعروف بعثمان الصادق عام ١٧٦١ م ، حدثت خلال الخمس سنوات هذه صدامات بين القابيقول من ناحية واليردلية وحلفاؤهم الدروز من ناحية أخرى ، كما تعرضت قوافل الحج لإغارات قبائل البدو .

وجاء تعيين عثمان باشا — الصادق — دليلا جديدا على اعتراف الدولة العثمانية بحاجتها لباشوات هذه الأسرة لضمان الأمن والاستقرار فى سوريا ، ذلك أنه منذ أوائل الثلاثينات من هذا القرن - الثامن عشر - ظهر على مسرح الاحداث فى جنوب سوريا رجل عربى طموح تواق إلى الحكم هو الشيخ ظاهر

---

(١) د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٥٣ .

العمر ، وكان ازدياد خطر ظاهر العمر فى إيالة صيدا قد أجبر السلطان على تأييد آل العظم فى باشوية دمشق وتعيين أقاربهم وأتباعهم فى إيالات صيدا وطرابلس وفى حلب أحيانا(١) .

ورغم أن عثمان باشا العظم فشل فى صد التحالف المملوكى — المصرى — الشامى أى تحالف جند على بك الكبير وجند الشيخ ظاهر العمر ، حتى دخل هؤلاء الجند دمشق نفسها عام ١٧٧١ م مما جعل الدولة العثمانية تعزل عثمان باشا وتعين باشا آخر مكانه ، فإن آل العظم عادوا إلى الحكم مرة أخرى فى دمشق فى شخص محمد باشا العظم عام ١٧٧٨ م الذى حكم حوالى عشرة سنوات حكما مستقرا بصورة سبق فيها غيره من الباشوات حتى صار محل تقدير أهل الإيالة .

سوريا بعد آل العظم

بانتهاء حكم آل العظم فى سوريا عام ١٧٨٦ م عادت الانقسامات والفتن فى الإيالة مما جعلها تفقد الأهمية التى كانت لها ، بل أن تصبح تابعة لإيالة صيدا خاصة بعد أن انتزع باشا صيدا أحمد الجزار إيالة دمشق وضمها إلى حكمه عام ١٧٩٠ م . وبتسلط الجزار على دمشق عاشت الإيالة أسوأ ما عرفته من حكم وحكام حتى عام ١٨٠٤ م . .

لقد كان من مظاهر سوء حكم أحمد الجزار فى دمشق فرض الضرائب الباهظة على الأهلين . وإنخفاض العملة ، وإسراف الباشا فى إراقة الدماء ، مما اضطر الكثيرين من أهالى البلاد إلى الهرب من دمشق إلى لبنان أو حلب فرارا من بطش الجزار وإرهاقه .

وخلف أحمد الجزار فى حكم جنوب سوريا قائد جيشه المسمى سليمان باشا ،

---

(١) د . محمد أنيس و د . رجب حراز : نفس المرجع ص ٦٠

أما فى دمشق فقد توالى على حكمها الباشوات مطيحا اللاحق منهم بالسابق ، فى الوقت الذى كان على هؤلاء الباشوات مواجهة المد الوهابى إلى بلاد الشام . واستمر الوضع على هذا النحو من عدم الاستقرار حتى اتجه إلى الأقطار الشامية عام ١٨٣١ م محمد على باشا وابنه إبراهيم باشا من مصر .

وبالجملة فقد كانت فترة حكم أسرة العظم فى سوريا فترة ذات فائدة لتلك البلاد ، وإن كانت تلك الأسرة دعمت السيطرة العثمانية على تلك الجهات ، فإن ذلك كان لفائدة مشتركة جنتها الأسرة وجنتها الدولة العثمانية كما جناهـا أهالى سوريا .

الفصل الثامن

حركة الشيخ ظاهر العمر في فلسطين

- إيالة صيدا
- ظاهر
- ظاهر والدولة العثمانية .
- ظاهر العمر وعلى بك الكبير .
- نهاية الشيخ ظاهر .
- ظاهر العمر والدول .
- تقييم حركة ظاهر .
- ماذا بعد ظاهر .

ايالة صيدا

خضعت بلاد الشام منذ دخول العثمانيين إليها فى أوائل القرن السادس عشر لنظم الحكم العثمانية ، وطبقا لهذه النظم فقد انقسمت بلاد الشـــام إلى ثلاث ولايات هى : ولاية[1] (إيالة) حلب وتضم مناطق شمال الشام ، وولاية طرابلس وتشمل بلاد وسط الشام ، وولاية دمشق[2] وتضم البلاد الجنوبية من سورية وكل فلسطين .

وقد ظل هذا التقسيم سارى المفعول حتى عام ١٦٦٠ م حيث أعيد تقسيم بلاد الشام إلى أربعة ولايات باضافة ولاية صيدا التى ضمت المناطق الساحلية لبلاد الشام ، وهذه الولايات تمتد من جسر نهر المعاملتين فى لبنان إلى حيفا بفلسطين لأن حيفا وبلاد حارثة ويافا وجبل نابلس وغزة فى فلسطين كانت تابعة لإيالة الشام الواسعة ، ومن ثم كانت إيالة صيدا ضيقة ضيق سيف البحر لا تتجاوز مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد لأن أكثر البلاد الداخلة بحدودها ولاسيما العالية فى الجبال كان الغالب فيها الحكم الاقطاعى حيث لم يكن للوزير يد إلا ما ندر[3] .

وكان الدافع أمام الدولة العثمانية لإنشاء ولاية رابعة ببلاد الشام عام ١٦٦٠م

---

(١) الولاية كالإيالة أو مشتقة منها (ميخائيل الصباغ) .
(٢) كانت تعرف أيضا باسم ولاية الشام .
(٣) ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيدانى ص ١٠ .

هي ولاية صيدا هو مراقبة الدروز والموارنة في لبنان وضمان عدم تجدد الثورات من قبل هؤلاء أو أولئك بعد التجربة المريرة التي مرت بها الدولة العثمانية في إخماد ثورة الأمير فخر الدين المعني الدرزي .

وحتى تحقق هذه الولاية الجديدة رسالتها في إخماد ثورات الدروز أو الموارنة فقد قضت التنظيمات العثمانية بأن تتعاون الولاية الجديدة (صيدا) مع ولاية طرابلس ، وتتعاون الولايتان الساحليتان مع ولاية دمشق باعتبارها أكبر ولايات بلاد الشام .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر اكتسبت ولاية صيدا مركزا خاصا بين ولايات الشام ، أى أصبحت أكثر مكانة بين ولايات بلاد الشام ، ويرجع ذلك إلى توفر عدة عوامل هي :

أولا : تجدد النزاع مع دروز لبنان .

ثانيا : تطلع البكوات المماليك في مصر إلى جنوب بلاد الشام .

ثالثا : نشاط الأوروبيين التجاري في صيدا[1] .

وكما هو معلوم في التنظيم العثماني لحكم الولايات ، كان يلي ولاية صيدا — شأنها شأن بقية الولايات — واليا وزيرا أو نائبا للسلطان كما كان يسمى — ، بيده السلطات العسكرية والمدنية (المالية والادارية والقضائية) ، وكان يلتزم الولاية من الباب العالي بمال معلوم مع هدية سنية من المال على وجه ثابت .

وكانت ولاية صيدا — كغيرها من الولايات — مقسمة إلى إقطاعيات يلتزم

---

(١) د . محمد أنيس : الشرق العربي — ص ٦١ .

كل مقاطعة منها شيخ من البيوت القديمة ذات الحيثية ، من الوالى رأسا أو من أمير أعظم منه نظير مبلغ معين من المال لايقبل الزيادة يقال له مال الميرى يدفعه الشيخ مع هدية مالية يقال لها عوائد[1]. وأصحاب المقاطعات لايدعون الباشا يتدخل فى شئون بلادهم ويقاومونه إذا حاول التدخل متحصنين فى حصونهم وجبالهم ومستندين إلى إتحاد كلمتهم . ذلك أن هؤلاء المشايخ كانوا يتحصنون فى قلاع قديمة من بقايا آثار الصليبيين بالجبال ، ويلتف حولهم رجال أشداء من عشائرهم ينفذون أوامر المشايخ ولايخرجون عليهم .

ونظراً لأن ولاية صيدا كانت فى نظر الدولة أقل أهمية من بقية ولايات الشام فلم يتواجد بها قوات عسكرية من أهل البلاد أو من الانكشارية وإنما إعتمد الولاة على قوات عسكرية من الأكراد والتركمان والأرناءوط ، ومن المغاربة ومن السودانيين وغيرهم ، وقد تشكلت هذه القوات فى وحدات متنوعة بتنوع مواطن ولهجات ولغات أصحابها .

وحيث أن هذه القوات مأجورة وغرباء عن أهل البلاد فلم يكن جنودها يتعاملون مع أهل البلاد إلا بوسائل السلب والنهب لمصلحتهم الخاصة ومصلحة الوالى الذى كان دائم السكوت عن أفعالهم وعدم إيقاف اعتداءاتهم المتكررة على الناس الذين ضجوا كثيرا بالشكوى منهم ، وبلغ ضيق الناس بأفعال هؤلاء الجند أن أصبحوا مضرب المثل الذى لايزال دارجا إلى اليوم بالقول بأن « فلان نظير عسكر الدولة ملحه على ذيله ، أى لاذمة له « ولاعهد ولايذكر الخبز ولا الملح بفيه [2]» .

---

(١) ميخائيل الصباغ : مرجع سبق ذكره ص ١١ .
(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

ظاهر

كانت أحوال بلاد الشام بصفة عامة وولاية صيدا بصفة خاصة على النحو الذى أوضحناه تهيء لرجل طموح مثل الشيخ ظاهر أن يعلن آماله وتطلعاته ويدافع عنها .. فمن هو ظاهر ؟ .

هو ظاهر عمر الزيدانى عربى الأصل من قبيلة عربية تدعى بنو زيدان أحد بطون قبيلة أكبر هى بنو أسد النازلة حول معرة[1] النعمان بين الشام وحلب ، وكان بنو زيدان يدعون أنهم من نسل زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ولم يكن يعرف من بنى زيدان سوى عمر والد ظاهر عندما أقامه الامير بشير شهاب الاول شيخا على بلاد صفد لانه - أى عمر - كان قيسيا نظيره ليغريه بالشيخ السابق الذى كان يمنيا[2] ، وقد تم ذلك عام ١٦٩٨ م وعمر له من العمر تسع سنوات.

ولد ظاهر فيما تروى أقرب المصادر إلى الدقة حوالى عام ١٦٨١ م ، وقد تأدب بالآداب العربية والثقافة الاسلامية حتى اشتهر بالأخلاق والرحمة مع الشجاعة والمهارة والذكاء ، وقد استطاع بحسن سمعته وتدبيره من أن يحصل من باشا صيدا على التزام طبرية فحكمها منذ عام ١٧٣٣ م بالعدل ووفر لاهلها الاستقرار والأمن .

وباستقرار ظاهر العمر فى طبرية أخذ يوسع التزامه بضم البلاد التى حولها

---

(١) معرة النعمان هى البادية الواقعة فى وسط سوريا الحالية .

(٢) ميخائيل الصباغ : مرجع سابق ص١٥ ، حدث هذا النزاع بين القبائل القيسية التى منها الشهابيين وعشيرة بنى زيدان ، والقبائل اليمنية ومنها عشيرة المتاولة الشيعة .

شيئا فشيئا بموافقة باشا صيدا الذى لم يكن يرفض طلبات ظاهر المدعمة بالهدايا، ولذلك أخذ ظاهر بسهولة ودون عقبات جميع البلاد التى حول طبرية ، وقد فرح أهل تلك البلاد بحكم ظاهر لما اشتهر به من العدل والرحمة وقدرته على حمايتهم من إغارات البدو وحملاتهم للسلب والنهب .

ونتيجة لصفات ظاهر هذه فقد ذاع صيته بين عرب فلسطين وأخذت وفود البلاد المختلفة تفد إليه وتطلب ولايته عليهم ، بل كثيرا ما كانوا يلجئون إليه ليرد عنهم ظلم حكامهم وملتزميهم ، مما أغار صدور هؤلاء الحكام والملتزمين ضد ظاهر وجعله هدفا لمؤامراتهم ، وتحالفوا مع الدولة العثمانية وباشوات ولايات الشام ضد ظاهر العمر عندما تأزمت الأمور بين الطرفين .

وقد اتبع ظاهر سياسة المسالمة أولا فى ضم البلاد الراغب فى ضمها إلى التزامه فإذا فشلت سياسة المسالمة لجأ إلى الحرب، وكان النجاح حليفه فى معظم الأحوال إن لم يكن كلها .. فقد استطاع مثلا عام ١٧٣٩ م أن يحصل على التزام صفد[1] من ملتزمها الذى يدعى محمد نافع بأن أخذ « يلاطفه ويحتال عليه بالوعد والوعيد إلى أن استنزله عنها وتولاها وأحضر تقريرا من وزير صيدا [2]» .

ومن ناحية أخرى اتجه ظاهر إلى المتاولة وهم قوم من الشيعة وبلادهم بلاد بشارة بين جبل الدروز (الشوف) وبلاد صفد، يريد أخذ بلادهم ، ولكنهم رفضوا التنازل عن بلادهم وأنذروه بالحرب ، فحاربهم وغلبهم بالمكر والخديعة وأخذ بلادهم عام ١٧٤٢ م وحصل على التزامها من باشا صيدا ، ثم تحالف ظاهر مع المتاولة انتظارا لصدامه مع الباشوات العثمانيين .

---

(١) كانت صفد حينئذ قلعة حصينة وقديمة

(٢) ميخائيل الصباغ : نفس المرجع ص ٣٨ .

يتجه لاتساع التزام ظاهر وقوة شوكته ، ونتيجة لإثاره الملتزمين القدامى لباشا صيدا ضد ظاهر ، فقد أخذت العلاقات تسوء بين ظاهر من ناحية وممثلى الدولة العثمانية من ناحية أخرى ، تلك العلاقات التى انتهت بالقضاء على ظاهر العمر نفسه وتفكك إمارته التى بناها طوال سنوات طويلة باللين تارة وبالحرب تارة أخرى .

كان المحك الاول بين ظاهر وباشا صيدا هو مدينة عكا التى أراد ظاهر أن أن يأخذ التزامها بحجة حمايتها من القراصنة المالطيين الذين كانوا يجوبون الحوض الشرقى للبحر المتوسط آنذاك ، إلا أن باشا صيدا رفض اعطائها لظاهر رغم العروض السخية التى عرضها عليه ظاهر بزيادة المال الميرى المقرر عليها ، فغضب ظاهر واستشار أخاه سعد الذى أشار إليه بأخذها عنوة .

وكان مما قال له سعد : لاتخف من غضب السلطان ، ماعليك بأس من السلطان إذا أخذتها وقمت له بمالها المقرر عليها لان العثمانى (السلطان) لا يسأل إن كان المتولى باشا من رجاله أو من أهل البلاد ، وعنده الأمر بالسواء بشرط أن مال الميرى يصل له تماما ، ثم من حيث أن صارت معك كل البلاد وأهلها يريدونك فلماذا تجعل بينك وبين اسلامبول [1] (عاصمة الدولة) واسطة وتتغرم للباشا عوائد ولاتها وتدفع للولاة عليها عوائدهم فكأنك بهذا تدفع مضاعفا عوائد الولاة . ونحن عملنا ذلك فى ابتداء أمرنا برضانا لنتولى البلاد بتقرير من الباشا لاننا كنا لانقدر على مخالفته وأما الآن فقد صرنا بحمد الله أقوياء ولا يقدر الباشا أن يقاومنا فارسل خذ عكا واقتل متسلمها واقطع عوائد ولاة البلاد التى تدفعها

---

(١) هو الاسم الذى عرفت به بعد فتحها على يد السلطان محمد الفاتح وهى تعنى مدينة الاسلام الحامية له من الأعداء .

للباشا فان رضى بذلك الباشا واقتصر على ميرى البلاد كان بذلك الخير وأن قصد الحرب والقتال معنا استعدينا له والنصر بيد الله يعطيه لمن يشاء [1] .

وهذه النصيحة التى نصح بها سعد أخاه ظاهر تدل على نوع الحكم العثمانى وطبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية والباشوات وبين هؤلاء الباشوات وبين الملتزمين أمثال ظاهر العمر .. فالدولة لها المال الميرى واستقرار البلاد واستمرار خضوعها للسيادة العثمانية ، والباشا له العوائد والاعتراف بسلطته والحصول على موافقته ، ولكن الدولة وكذلك الباشا يخشى من زيادة التزام أحد الملتزمين مخافة الخروج عن السيادة العثمانية وسلطة الباشا ، وهو ما أشار إليه سعد لأخيه ظاهر عندما حرضه على حرب باشا صيدا بعد أن قويت شوكة ظاهر بينما كان ظاهر فى البداية يسترضى الباشا ويقدم له الأموال الوفيرة ليحصل على موافقته .

وقد نفذ ظاهر نصيحة أخيه سعد فاقتحمت قواته عكا حوالى ١٧٤٤ م وقبضت القوات على متسلم المدينة وأرسل إلى ظاهر الذى أكرمه وأرسله إلى مولاه باشا صيدا ، ثم أن ظاهر انتقل إلى عكا واتخذها مقراً لحكمه . ولما وصل المتسلم إلى الباشا لم يقدر هذا أن يفعل شيئا لعدم قوته وصبر على ناره وصار يترصد الحوادث لظاهر وهو على حقد عظيم [2] .

وعندما استمر ظاهر العمر فى ضم بلاد أخرى مثل الناصرة وحيفا والبلاد المجاورة لها كتب باشا صيدا — محمد باشا العظم — إلى صهره سليمان باشا والى باشوية الشام — دمشق — يستعين به على ظاهر الذى ضم إلى التزامه أكثر بلاد الباشوية — باشوية صيدا — ومنع عن الباشا العوائد التى كانت ترد عليه من

(١) ميخائيل الصباغ : نفس المرجع ص٤٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٣ .

حكامها وملتزميها ولم يعد يصل إليه سوى المال الميرى المقرر عليها والواجب للسلطان .

فكتب سليمان باشا إلى السلطان العثمانى يطلب الموافقة على محاربة ظاهر العمر ، فلما وردت الموافقة قام كل من سليمان باشا ومحمد باشا العظم بحصار ظاهر فى طبرية لمدة ستة شهور ، ولكن ظاهر استطاع بالخديعة تارة وبالقتال تارة أخرى إنهاء الحصار المضروب عليه وهزيمة قوات سليمان باشا — الذى قتل هو نفسه فى المعركة — وصهره محمد باشا العظم ، وأتبع ذلك بأن أرسل ظاهر جيشا إلى صيدا طرد منها نائب الباشا ، واعلن توليه عليها وطلب من السلطان فرمانا بذلك ، وقد وافق السلطان بعد ان وصلته الهدايا الكثيرة والأموال الوفيرة من ظاهر على إعطاء ظاهر فرمانا بولاية صيدا والاقطاعيات التى كانت فى يده من بلاد قبل صدامه بسليمان باشا ومحمد باشا العظم .

وبذلك استقر لظاهر الامر فى تلك الجهات استقرارا مدعما بموافقة الدولة العثمانية ، وقد أخذ يدعم جيشه ليكون مستعدا للوقوف أمام خروج القبائل عن طاعته والوقوف أمام قوات الدولة العثمانية التى ساءها - رغم موافقتها على ولايته الحكم فى باشوية صيدا وغيرها من البلاد المجاورة . ان يقوم رجل مثل الشيخ ظاهر بالاستيلاء على أجزاء من أملاكها بالقوة . كما ان الشيخ ظاهر قد أعاد تحصين عكا بالاسوار والابراج منذ انتقل إليها وجعلها مقرا لحكمه .

لم تكن موافقة السلطان العثمانى على ولاية ظاهر لباشوية صيدا إلا عملا مؤقتا ريثما تستعد الدولة عن طريق رجالها للقضاء عليه ، حتى ان السلطان كلف أحد رجاله - عثمان باشا الصادق والى دمشق عام ١٧٦٠ م - أن يترصد الامور لظاهر ومتى أمكنته الفرصة يغتاله . لكن كان ظاهر قد أقام له بعض العيون لدى باب

الدولة فأخبروه عن ذلك وأخذ حذره (١) .

لذلك لم يلبث السلطان العثمانى أن أصدر أمرا لظاهر بالتخلى عن صيدا وتسليمها للوالى الجديد المدعو درويش باشا بن عثمان باشا الصادق والى دمشق فى الوقت الذى تولى محمد باشا الابن الثانى لعثمان باشا ولاية طرابلس ، ولما كان السلطان يدرك أن ظاهر لن يتخلى بسهولة عن صيدا فقد أصدر أمرا للباشوات الثلاثة . عثمان الصادق وولديه درويش باشا ومحمد باشا ومعهم باشا حلب وأمير الدروز بقتال ظاهر والقضاء عليه وعلى أسرته . كل ذلك ولما يمض وقت طويل على وصول الفرمان السلطانى للشيخ ظاهر بولاية صيدا والبلاد التى فى يده من بلاد صفد .

إلا أن ظاهر استطاع هزيمة القوات المتحالفة المعادية له هزيمة كبيرة كان من نتيجتها ضعف مركز عثمان باشا وولديه ، ثم تابع ظاهر انتصاراته بطرد درويش باشا من صيدا وتولية نائب عن ظاهر فيها بعد أن حصنها ظاهر ، ثم رجع ظاهر إلى عكا ظافرا منتصرا ، ومن هناك أخذ يوسع إمارته فضم كلا من يافا والقدس والخليل تلبية لطلبات أهلها ، وأرسل للدولة العثمانية يطلب موافقتها ، فاضطر السلطان العثمانى إلى إصدار فرمان بذلك نظير خمسمائة كيس من الأمــــوال دفعها ظاهر .

ظاهر العمر وعلى بك الكبير

بدأت صلة ظاهر العمر بعلى بك الكبير فى مصر حوالى عام ١٧٦٠ م عندما نفى على بك معلم دواوين مصر الذى يدعى ميخائيل الجمل والذى قدم إلى عكا ونزل فى ضيافة إبراهيم الصباغ وزير الشيخ ظاهر . وقد سر ظاهر ماسمعه من

---

(١) نفس المرجع ص ٦٦ .

أخبار مصر وأميرها على بك الذى جاهر بالعداء للدولة العثمانية والخروج من طاعتها .

انتهز ظاهر طلب ميخائيل الجمل شفاعته عند على بك لكى يعيده إلى وظيفته فى مصر ويرد عليه ماله الذى صادره منه ، لكى يقيم علاقة وثيقة مع على بك يستعين به على الدولة العثمانية خاصة أن عيونه فى إسلامبول كانوا يخبرونه بأن الحكومة العثمانية تحرض عثمان باشا والى الشام — دمشق — لاغتياله والقضاء عليه .

وقد كان قبول على بك شفاعة ظاهر فى ميخائيل الجمل بداية لعلاقة وثيقة بين الرجلين استمرت على قوتها حتى قضى عليهما ، وكان رد على بك مشجعا للشيخ ظاهر ، حيث حثه على الوقوف ضد مؤامرات الحكومة العثمانية وأن يكون حذرا من مكر رجالها ، وأبدى على بك استعداده لنجدة الشيخ ظاهر ومساعدته ضد باشا الشام عثمان باشا ، وكان ذلك سببا فى قوة عزيمة ظاهر .

وعندما علم ظاهر بأن الحكومة العثمانية أرسلت إلى عثمان باشا تحثه على أن يعد العدة من جديد للقضاء على ظاهر العمر ، أرسل إلى على بك فى مصر يشكو له من خيانة الدولة التى رغم محاولات استرضائها وكسب مودتها بدفع الأموال الكثيرة فإنها تثير ضده باشوات الشام لحربه وطرده من إمارته ، وختم رسالته لعلى بك برجاء أن يرسل له نجدة تساعده على وقف زحف عثمان باشا على يافا والقدس والخليل .

سارع على بك بارسال جيش مكون من حوالى أربعة آلاف جندى ليكون فى خدمة الشيخ ظاهر (1) ، ولما علم عثمان باشا بقدوم هذا الجيش المصرى انضمامه لجند فلسطين بقيادة الشيخ ظاهر ، ترك ميدان القتال وانسحب بجيشه وعاد مسرعا

---

(1) عبد الرحمن الجبرتى : المجلد الأول ص ٣٥٤ .

إلى دمشق وأنعم ظاهر على سناجق مصر وأرجعهم وأصحبهم بكتاب شكر إلى على بك يخبره بما وقع (١) وبذلك تخلص ظاهر مؤقتا من تهديدات عثمان باشا بفضل التعاون المصرى الفلسطينى .

ولكن الدولة العثمانية ورجالها فى الشام لم يتوقفوا عن المحاولات للقضاء على ظاهر العمر ، وفى نفس الوقت كان على بك فى مصر قد أغضبه كذلك موقف الدولة العثمانية منه ، ولذلك فقد أرسل جيشا بقيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب إلى الشام اجتمع مع جيش ظاهر العمر بقيادة ابنه على وذلك عام ١٧٧٢م ، واستطاع هذا الجيش المشترك أن يلحق الهزيمة بعثمان باشا وأن يطرده من دمشق، وبعد هذا الانتصار عاد محمد أبو الذهب إلى مصر ليقود ثورة ضد سيده على بك، فانتهز عثمان باشا الفرصة وعاد إلى دمشق ، ومن هناك أخذ يستجمع قواه ويعد قواته لخوض حرب فاصلة ضد ظاهر .

إلا أن عودة ظاهر إلى صيدا بعد أن استطاع بمشاركة الجيش المصرى طرد عثمان باشا من دمشق قد جعلته يفكر فى أخذ بيروت من الدروز انتقاما منهم بسبب تحالفهم مع عثمان باشا ضده ، وبالفعل استطاع ظاهر بمعاونة الأسطول الروسى العامل فى البحر المتوسط ، الاستيلاء على بيروت وطرد حاكمها من قبل الدولة العثمانية ويدعى أحمد باشا الجزار(٢) .

وفى عام ١٧٧٥م قام محمد أبو الذهب بعد أن تغلب على سيده على بك فى مصر

---

(١) ميخائيل الصباغ : نفس المرجع ص ١٠٥

(٢) كان الجزار سنجقا فى مصر فى عهد على بك الكبير ، ولكنه فر من مصر بعد أن غضب عليه على بك وجاء إلى لبنان وأقام فى حمى الأمير يوسف الشهابى الذى رأى منه كل دهاء وبأس فعينه نائبا عنه فى بيروت لكى يحصنها ويحميها من الروس الذين كانوا يعملون فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

عام ١٧٧٣م ، وبعد أن فر على بك إلى فلسطين ليستنجد بصديقه وحليفه الشيخ ظاهر العمر ضد محمد أبو الذهب وضد الدولة العثمانية، قام محمد أبو الذهب بحملته الثانية على فلسطين وهذه المرة باسمه ولتعقب سيده على بك ولتأييد سلطة الدولة في الشام والمساهمة مع باشا الشام فى القضاء على الشيخ ظاهر وقد تمكن أبو الذهب من الاستيلاء على الجزء الجنوبي من إمارة ظاهر ، ولكن أبو الذهب توفى فجأة فانسحب جيشه عائدا إلى مصر .

نهاية الشيخ ظاهر

كانت حملة محمد أبو الذهب على إمارة الشيخ ظاهر العمر بداية النهاية لحياة هذا الرجل بل ولإمارته أيضا ، فقد تلى ذلك أن أرسلت الدولة العثمانية حملة كبيرة بقيادة القبطان باشا[1] حاصر عكا واستولى عليها وطارد الشيخ ظاهر حتى قتل على يد قائد حرسه الخاص وهو مغربي خان سيده بالاتفاق مع رجال الدولة العثمانية ، وكان هذا القائد يدعى الدنكزلى ، وقد تم ذلك فى أغسطس عام ١٧٧٥م .

وكان حسن باشا قد جاء بتكليف من الحكومة العثمانية باجلاء ظاهر من عكا وإرغامه على قبول السيادة العثمانية أو مطاردته ، وقد أرسل حسن باشا إلى ظاهر الرسالة التالية :

« من بعد السلام طلبت أعلمك عن سبب حضورى والآن أعرفك كل شيء إيضاحا وهو حضورى بأوامر من الدولة العلية صانها رب البرية لكى استلم منك ميرى البلاد سبعة سنين المكسورة عندك وبعده آخذ رأسك واستلم البلاد . هذا هو سبب حضوري ، ولكن لكونى أعرف جيدا زودحلم ورأفة الدولة العليا وشفقتها على رعاياها سيما على من يكون مطيع إلى أوامرها ، فلذلك إن شئت

---

(١) هو قبطان البحر حسن باشا .

تدفع لي مال الميرى المكسور عندك وتسلمني مدينة عكا . وأنت تخرج إلى مواضعك القديمة . وأنا من رجوعي إلى الآستانة العليا أعرض عن طاعتك وقبولك للأوامر السلطانية ويخرج لك فرمان بالعفو تماما عن كل ماسلف منك وترجع إلى مدينتك كما كنت وبهذه الطريقة تكون صنت مالك وعرضك ورجالك وحفظ مقامك . ماذا وإلا أنا حاضر للمحاربة[1] » .

وتروى المصادر أن حسن باشا هذا عندما أحضر له الدنكزلي رأس ظاهر وضعها أمامه وسأل الدنكزلي عن بلده في المغرب ومدة خدمته لظاهر التي بلغت أربعين سنة كان موضع رعاية وعطف ظاهر غضب وقال : تأكل خبز إنسان أربعين سنة ودخلك منه هذا المقدار وتخضب سيفك بدمه . لينتقم الله مني إذا كنت لا أنتقم منك لظاهر ، ثم أمر من كان في حضرته من ملازميه فأخذوا الدنكزلي فخنقوه ورموه في البحر[2] .

وكان للشيخ ظاهر مكانته بين عرب الشام نظراً لما عرف عنه من البر والعناية بأهله وذويه وحاشيته وتحرى العدالة وإقامة الحد حتى على أهله وخاصته ، ونظرا لما اشتهر به من شجاعة وشرف النفس وفطنة وفراسة ، فهو عربي تجلت فيه صفات العربي الأصيل .. كما كان للشيخ ظاهر مكانته حتى بين أعدائه فنجد مثلا عثمان الصادق يخاطبه في رسالة بالعفو عنه بقوله عام ١٧٧٤ م : قدوة المشايخ الكرام . وعين أعيان العقلاء الفخام ، صاحب المقام المعتبر أخونا الشيخ ظاهر العمر . وجاء في مقدمة الفرمان السلطاني بالعفو عن الشيخ ظاهر إلى : قدوة الأماجد والأعيان الشيخ ظاهر العمر زيد قدره[3] » .

---

(١) ميخائيل الصباغ : الوثائق نفس المرجع ص ١٦٧

(٢) نفس المصدر ص ١٥٨

(٣) نفس المصدر ص ١٦٥

ظاهر العمر والدول

انطلاقا من كون حركة الشيخ ظاهر حركة استقلالية جاهرت بالعداء للدولة العثمانية وكان على صاحبها ــ ظاهر ــ أن يكون مستعدا دائما لملاقاة الدولة ورجالها باشوات الشام ، فكان عليه أن يتحالف مع الدول الأخرى وبصفة خاصة تلك التى تعادى الدولة العثمانية .

ومن هذا المنطلق كانت صلة الشيخ ظاهر بعلى بك الكبير فى مصر . وقدقوى هذه الصلة العداء المشترك للرجلين ضد الدولة العثمانية ، ذلك العداء الذى انتهى كما رأينا بالقضاء على الرجلين لصالح الدولة ، ومن هذا المنطلق كذلك تحالف ظاهر مع الأمير يوسف الشهابى أمير الدروز ، ومع روسيا وفرنسا واستعــــان بالأوروبيين تجاراً وغيرهم لتدعيم إمارته لتقف ندا للسلطنة العثمانية . .

لم يكن ظاهر العمر هو صاحب الفضل فى الاتصال مع الروس ، وإنما كان على بك الكبير فى مصر هو أول من تحالف مع الروس مقابل مساندته ضد الدولة العثمانية ، وقد استفاد ظاهر من الوجود الروسى فى البحر المتوسط ووجد فيه الروس حليفا يمكن الاعتماد عليه ، خاصة وأن العداء المستحكم والتقليدى بين روسيا والدولة العثمانية كان يدعو روسيا إلى تأييد الحركات الاستقلالية ضد الدولة العثمانية وتحريض الشعوب المحكومة من قبل العثمانيين ــ كاليونانيين ــ للثورة ضد الحكم العثمانى .

وقد استعان ظاهر وحليفه على بك بالأسطول الروسى الذى كان يقوده الكابتن « ريزو » أثناء الحملة على الشام فى رفع الحصار العثمانى عن صيدا وقد استولى الروس على بيروت وبقوا بها حوالى خمسة أشهر عام ١٧٧٢ م ثم غادروا السواحل الشامية بعد عقد الهدنة بين الروس والعثمانيين ، ولكنهم أى الروس

عادوا مرة أخرى لمساعدة الشيخ ظاهر ضد العثمانيين بعد انتهاء أجل الهدنة في يونيو ١٧٧٣ م وحاصر الأسطول الروسي بيروت لمدة ثلاث شهور .

وكانت عودة الروس هذه المرة بناء على دعوة من الشيخ ظاهر لتنفيذ وعودهم التي قطعوها على أنفسهم بمساندته ضد خصومه العثمانيين ، إلا أن الروس وجدوا هذه الدعوة فرصة سانحة للنهب وجمع المال تحت ستار تأييد ظاهر ، فأخذوا من الشيخ ظاهر مبلغا من المال لقاء ضرب خصومه من الساحل ، وأتت سفن روسية وضربت بيروت بالمدافع . ثم أخذوا ٦٠٠ كيس لقاء إمتناعهم عن نهب المدينة وبقوا خمسة أشهر (أكتوبر ١٧٧٣ — فبراير ١٧٧٤ م) حتى تسلموا ذلك القدر من المال ورفعوا علمهم فوق أبراج المدينة وعلقوا صورة إمبراطورتهم - أيا كاترينا - فوق بابها الرئيسي . ثم نقلوا وفدا من الدروز ليقدم للامبراطورة هدية من جياد الخيل[1] .

ولكن الأسطول الروسي غادر السواحل الشامية في عام ١٧٧٤ م بعد أن تم توقيع المعاهدة الروسية التركية للصلح المعروفة باسم « كجوك قينارجي » تاركين بذلك ظاهر حليفهم ليتلقى بمفرده ضربات الأتراك ، وذلك رغم أن ظاهر كان يعطي تسهيلات بحرية للروس في الموانى الشامية التي تحت سيطرته مثل عكا وصيدا وبيروت ، وكان وزيره إبراهيم الصباغ هو واسطة الاتصال بين ظاهر والكونت ألكسيس أورلوف قائد عام الأسطول الروسي في البحر المتوسط .

ولم يكن الوجود الروسي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وإغاراتهم على موانى الساحل الشامي في تأييدهم المتخاذل لظاهر العمر ولعلي بك الكبير في مصر

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في النهضات العربية الحديثة ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

من قبل إلا إضافة لعامل جديد لاضطراب التجارة الخارجية للشام ومصر مما كان له أثره الكبير في ضعف البلاد اقتصاديا .

وقد ساعدالوزير إبراهيم الصباغ سيده ظاهر في إقامة علاقات مع الأوروبيين، فحدث اتصال بين ظاهر العمر بفرسان القديس يوحنا الذين يتخذون من مالطة مقرا لهم منذ أن طردهم العثمانيون من جزيرة رودس ، وقد ذكر فولني أن بعض قراصنة مالطة هاجمت سفنا تركية ثم باعت ما نهبته في سوق عكا ، وهاجت الدوائر العثمانية ، ولكن ظاهر ادعى جهله بالحادث وأرسل بعض سفنه لمطاردة سفن القراصنة ، ولكنها اتصلت بها في عرض البحر بعيدا عن أعين الرقباء[1] .

ويرجع اتصال ظاهر العمر بفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يستخدمون أسلوب القرصنة ضد سفن الدولة العثمانية بصفة خاصة إلى ضيق ظاهر بمواقف الدولة العثمانية العدائي منه حتى بلغ به الأمر أن كتب إلى رئيس هؤلاء الفرسان يعرض عليه صداقته .

ومما تجب ملاحظته أن قراصنة مالطة والقراصنة اليونانيين تسببوا في تدهور تجارة المشرق العربي الخارجية ، وقد استمرت اعتداءاتهم على الساحل السورى من الاسكندرية حتى يافا ، وكانوا يحتمون بالعلم الروسى ويعتدون على السفن الاسلامية والمسيحية جميعا ، وظلوا سادرين في اعتداءاتهم حتى بعد عقد صلح كجوك قينارجى عام ١٧٧٤ م [2] .

وفي سبيل تأكيد استقلال ظاهر في إمارته فقد اتصل بفرنسا — كما فعل حليفه على بك في مصر — وكان يبدى علامات المودة نحو القنصل الفرنسى

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : نفس المرجع ص ٢٤٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٢١٥ .

والرعايا الفرنسيين ، ورغم ذلك نجد القنصل الفرنسى فى عام ١٧٧٢ م يدعو حكومته إلى إمداد الدولة العثمانية بعدة سفن حربية تساعدها على استعادة بلاد الشام الخاضعة لحكم ظاهر العمر حتى تستقر الأحوال فى تلك البلاد وتنتعش الحركة التجارية ويطمئن التجار الأجانب على أنفسهم وأموالهم ، ولكن الحكومة الفرنسية رفضت هذا الرأى تاركة للدولة العثمانية حرية الحركة والعمل فى ممتلكاتها بالأسلوب الذى ترغبه .

تقييم حركة ظاهر

كانت حركة الشيخ ظاهر العمر حركة استقلالية عربية فى الوطن العربى عن الدولة العثمانية ، وكان يمكن أن تكون العلاقة بين الشيخ ظاهر والدولة العثمانية علاقة طيبة وقوية لمصلحة عرب الشام لولا دسائس رجال الدولة العثمانية ومؤامراتهم التى لا تنتهى .

ورغم أن الشيخ ظاهر كان يسترضى هؤلاء الرجال بالهدايا والأموال المستمرة والكثيرة إلا أن المؤامرات والخطط كانت تدبر لإقصاء هذا الأمير العربى الذى أحيا الروح العربية بانتفاضته العربية الخالصة التى تجلت فيها صفات العروبة والرجال العرب المتحلين بالعدل والرحمة والمروءة والشجاعة وكل القيم العربية الأصيلة ، فى وقت ضاعت هذه القيم على يد رجال الدولة العثمانية وقادة جندها .

لقد جاهد ظاهر ضد قوى كثيرة : الأتراك العثمانيون فى مركز السلطنة ، والباشوات فى باشويات الشام والقبائل العربية فى بلاد الشام المناوئة له ، بل والأكثر إيلاما خروج أبنائه عليه خاصة على وعثمان واستعان وتحالف مع الدروز تارة ومع الماطليين والروس والفرنسيين وغيرهم تارة أخرى ، وكانت

صداقته لعلى بك الكبير صداقة مصير ،وكان ظاهر وفيا لأصدقائه مخلصا لحلفائه. وإذا كان الشيخ ظاهر قد اكتسب محبة أهله وعشيرته وسكان إمارته بما كان يتحلى به من صفات طيبة ، فقد أجبر أعداءه على إحترامه فى حياته بل وحتى عند وفاته .

ماذا بعد ظاهر

منح السلطان العثمانى أحمد الجزار — المملوك المصرى الهارب إلى الشام زمن على بك — باشوية صيدا عام ١٧٧٥ م جزاء خدماته الكبيرة لإخماد حركة الشيخ ظاهر العمر وتبع ذلك أن منحه السلطان ولايتى دمشق وطرابلس فأصبح بذلك الباشا الحقيقى والفعلى على سوريا كلها ، واتخذ عكا مركزا لأملاكه.

وقد عاشت البلاد ثورات متعددة ومتعاقبة نظرا لقسوة الجزار وشدته الدموية فى التعامل مع الناس ، واستمرت الثورات فى دمشق وبيروت وصيدا وغيرها من المدن الشامية حتى عام ١٧٩٨ م عندما عين السلطان العثمانى واليا آخر على دمشق .

ثم تعرضت البلاد لحملة نابليون من مصر منذ فبراير ١٧٩٩ م وقد سقطت البلاد ابتداء من العريش فغزة ويافا وحيفا دون مقاومة منظمة بسبب كراهية الأهالى للباشا التركى أحمد الجزار ، وإن كان الأهالى فى تلك المدن قد تحملوا عبء الدفاع عن مدنهم ضد الزحف الفرنسى .

وبعد مغادرة الفرنسيين فلسطين اشتدت سطوة أحمد الجزار الذى عزى إلى نفسه الانتصار ضد الفرنسيين ، ومن هذا المنطق تطلع إلى وضع سوريا بكاملها تحت سيطرته ، فاصطدم بالشهابيين الذين سيطروا على لبنان ، ولكن وفاته عام ١٨٠٤ قد أنهت أحلامه الواسعة . إلا أن سليمان باشا قائد جيش الجزار

استطاع أن يحكم جنوب سوريا لمدة خمسة عشر عاما من ١٨٠٤ — ١٨١٩م. بينما كانت دمشق ماتكاد تستقبل واليا جديدا حتى تودعه لتستقبل آخر أكثر منه قوة . .

استمر لبنان تحت حكم الشهابيين ، بينما خلف سليمان فى جنوب سوريا عبد الله باشا الذى أعاد إلى الأذهان حكم الجزار ، واستمر الوضع حتى جاء محمد على إلى بلاد الشام عام ١٨٣٣ م إلى عام ١٨٣٩ م ، وبعدها عادت بلاد الشام إلى الحكم العثمانى المباشر وتقطعت أوصالها مرة أخرى بعد أن تمتعت بالوحدة والرخاء على يد إبراهيم بن محمد على .

عاشت بلاد الشام فى ظل تنظيمات عثمانية جديدة ، ولكنها شهدت ثورات كثيرة فى شمال سوريا وفى لبنان وفى جنوب سوريا ، كما شهدت مذابح دموية بين الدروز والموارنة ، وشهدت تدخلا من الدول الأوروبية لتحقيق أطماعها فى تلك البلاد ، كما شهدت الخطط لإنشاء وطن اليهود فى فلسطين ، كما شهدت غزوا فرنسيا للبنان وسوريا .

الفصل التاسع

حركة علي بك الكبير في مصر

- أحوال مصر .
- علي بك
- علي بك واستقرار الأمور .
- علي بك والدولة العثمانية .
- علي بك والدول الأجنبية .
- تقييم حركة علي بك .
- مصر بعد علي بك .

احوال مصر

انطلاقا من نظام الحكم العثمانى فى مصر استمرت الخلافات بين هيئات الحكم الثلاث، ورأينا فى اوائل القرن الثامن عشر انهيار سلطة الباشا أمام سيطرة وقوة الاوجاقات العثمانية ، بينما عاشت مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر عهدا من سيطرة البكوات المماليك على مقدرات الامور فى الوقت الذى ضعفت فيه سلطة الباشا والاوجاقات العثمانية .

وكان مما زاد من قوة البكوات المماليك أن المماليك يشترون صغارا و يعتنقون الدين الإسلامى ويخضعون لتربية عسكرية قاسية ، بالإضافة إلى استمرار تدفقهم من خارج مصر ، وعدم إنصهارهم فى المجتمع المصرى ، وكل ذلك أدى إلى ان طوائف المماليك ظلت محتفظة بنقائها وذاتيتها الخاصة .

وكان منصب شيخ البلد وهو حاكم القاهرة أعلى المناصب التى يتقلدها البكوات المماليك حيث كان يتولاه زعيمهم وأكثرهم عصبية وأكبرهم قوة عسكرية ، يليه منصب أمير الحج ، كثيرا ما كان الخلاف يقع بين البكوات المماليك حول هذين المنصبين ، فاذا تولاه أحدهم أخذ فى التنكيل بمنافسيه وخصومه من البكوات المماليك ، وأغدق الهبات والوظائف على أنصاره ومؤيديه ، فعندما قتل حسين بيك القازوغلى المعروف بالصابونجى وتعين فى الرياسة بعده على بيك الكبير (عام ١١٧٢ هـ الموافق ٤ سبتمبر ١٧٥٨ — ٢٤ أغسطس ١٧٥٩ م) أحضر خشدا شينه [1] المنفيين واستقر أمرهم [2] .

---

(١) خشداشينه جمع خشداش أى زميل فى الرق .

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ص ٧١ .

واقد وصف الرحالة والكتاب الأجانب الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر أحوال مصر وما أصابها من اضطراب نتيجة الخلافات المملوكية فى غيبة الباشوات الأقوياء . وفى حال انحلال الأوجاقات العثمانية ، ورغم الخلافات بين البكوات المماليك إلا أنهم كانوا يتحدون ضد باشا لايرغبون وجوده فى القاهرة.فيروى الجبرتى فى عام ١١٧٤ه الموافق ١٣ أغسطس ١٧٦٠ إلى أغسطس ١٧٦١ م ، ان الباشا كان يدعى مصطفى باشا ، ويبدو أن البكوات المماليك كانوا عنه راضين ،حتى إذا عينت الدولة آخر العام واليا آخر يدعى « أحمد باشا كامل المعروف بصبطلان ، وكان ذا شهامة وقوة مراس فدقق فى الأحكام ، وصار يركب وينزل ويكشف على الأنبار والغلال ، فتعصب عليه الأمراء ، وأصعدوا مصطفى باشا المعزول ، وعرضوا فى شأنه إلى الدولة » [1] .

وإذا كان الشعب المصرى الذى يقع عليه عبء هذه الخلافات يثور هنا وهناك فى أنحاء مصر فقط عندما تمس حياته بصورة يهتز لها مفهوم العدل والحكم العادل عند المصريين ، فإن الحكومة العثمانية كانت تلجأ إلى عدة إجراءات عقابا للبكوات المماليك ، من أمثلتها إغلاق أسواق الرقيق فى المناطق المحيطة بالبحر الأسود وبصفة خاصة فى البلقان حتى تحرم البكوات المماليك من مصادر قوتهم العددية ، كما كانت الحكومة العثمانية تلجأ - وخاصة فى الأوقات التى لا تكون فيها مشغولة بحروب خارجية - إلى إرسال حملات تأديب إلى مصر يقابلها البكوات المماليك بالفرار إلى الصعيد ، ثم يعودون إلى القاهرة متى سحبت الحكومة العثمانية هذه الحملات .

ومن الطبيعى أن تتأثر أحوال المصريين بهذه الظروف ، فالزراعة مضطربة والتجارة كسدت ، والنواحى الثقافية تجمدت ، فى الوقت الذى زادت فيه سلطة

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : نفس المرجع ص ٧٢ .

شيخ البلد إلى حد الطغيان ، وفى الوقت الذى زادت فيه الضرائب على المصريين لمواجهة المشروعات الكبيرة التى يعمل شيخ البلد على تنفيذها ، ولمواجهة إغلاق أسواق الرقيق أمام البكوات المماليك باستخدام جنود مرتزقه من البدو والنوبيين واليونانيين الذين استخدموا فى الحرب بالمدافع التى اشتراها شيخ البلد .

على بك

ذكر المؤرخ الأوروبى ستافرو لانسبان Staforo Lanspan وكان معاصرا لعلى بك وعاشره وعمل له ، ان على بك ابن قسيس رومى ارثوذكس من قرية أماسيا فى الأناضول اسمه القسيس داود ، وأنه أى على بك ولد فى سنة ١٧٢٨ م ثم خطف فى الثالثة عشرة من عمره وبيع فى القاهرة ، وكان اسمه يوسف ، وأنه تزوج يونانية مسيحية أظهرت الاسلام وبقيت على دينها اسمها مريم [1] .

وكان على بك مملوكا لابراهيم كتخدا ، والاثنان من مماليك مصطفى كتخدا القازدغلى ولما بلغ على طور الشباب ظهرت شخصيته بكل مكوناتها من شجاعة وقوة وطموح وقسوة ، ثم تقلد الامارة والصنجقية بعد موت استاذة وسيده إبراهيم كتخدا عام ١١٦٨هـ(١٧٥٤ — ١٧٥٥ م)، ثم كان أميرا للحج وكبيرا للمماليك وشيخا للبلد فى عام ١١٧٧ هـ (١٧٦٣ م) .

وعرف على بك بأكثر من اسم ، فقد عرف بعلى بك القازدغلى ، و « جن على » و « بلوط قبن » أو « بلوقبطان » ، ثم عرف باسم على بك الكبير بعد ان اتسعت فتوحاته خارج مصر وذاع صيته . وقد مارس منازعات وحروب قاسيه بينه وبين خصومه ومنافسيه من البكوات المماليك ، وكان قوى المراس، شديد الشكيمة ، لا يرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى بديلا ، فما قال : أنا لا أتقلد

---

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر جـ٢ ص ٧٣ .

الإمارة إلا بسيفى لا بمعونة أحد » (١) .

أراد على بك أن يستخلص مصر لنفسه فقتل منافسيه من « الرؤساء والأقران وباقى الأعيان ، وفرق جمعهم فى القرى والبلدان ، وتتبعهم خنقا وقتلا ، وأبادهم فرعا وأصلا ، واستأصل كبار خشداشينه وقبيلته ، وأخرم القوانين الجسيمة ، والعوائد المرتبة ، وحارب كبار العربان » (٢) .

وقد استخدم فى ذلك الاعداد الكثيرة من المماليك الذين أشتراهم والجند الذين استخدمهم من جميع الأجناس ، وكان يطالع الكتب التى تحوى التاريخ والسير ويشيد بدولة المماليك فى مصر وبزعمائها مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وغيرهم ويفخر بانتسابه لهم . « وكان عظيم الهيبة ، فقد اتفق لأناس أن ماتوا فرقا من هيبته ، وكان صحيح الفراسة ، شديد الحذق ، ولا يحتاج فى التفهيم إلى ترجمان أو من يقرأ له الصكوك والوثائق ، بل يقرأها بنفسه » (٣) .

على بك واستقرار الأمور

واجه على بك مصاعب كثيرة من قوى متعددة فى مصر تعوقه عن تحقيق مشروعاته وعن التمتع بمصر دون منافس ، فلم يكد على بك يعتلى كرسى مشيخة البلد بالقاهرة عام ١٧٦٣ م حتى أضطره أعداؤه ومنافسوه إلى الفرار من القاهره إلى الصعيد تارة وإلى الحجاز تارة أخرى وإلى الشام طورا ثالثا ، حتى إذا عاد إلى منصبه عام ١٧٦٧ م انتقم من أعدائه وأنزل العقاب بمثيرى الفتن والاضطراب .

وكان على بك قد تخلص من عبد الرحمن كتخدا الذى كان أكبر منافس له ، بنفيه إلى الحجاز ، وقد اشتد ساعد على بك بعد استبعاد عبد الرحمن كتخدا

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٧ .

(٢) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٧ .

وأنصاره من القاهرة ، فأخذ يؤلب بعض البكوات على بعض حتى أضعف شوكة الأقوياء منهم ، وقد ارتجت مصر (القاهرة) فى ذلك اليوم « وخصوصا لخروج عبد الرحمن كتخدا ، فانه كان أعظم الجميع وكبيرهم وابن سيدهم . وله الصولة والكلمة والشهرة ، وكان له عزوة كبيرة ومماليك وأتباع وعساكر مغاربة وغيرهم حتى ظن الناس وقوع فتنه عظيمة فى ذلك اليوم ، فلم يحصل شىء من ذلك سوى ما نزل بالناس من البهتة والتعجب »[1] . وكان ذلك عام ١١٧٨ هـ (١ يوليو ١٧٦٤ الى ١٩ يونيو ١٧٦٥ م) .

كما تخلص على بك فى ١٨ ربيع الآخر ١١٨٢ هـ الموافق أول سبتمبر ١٧٦٨ م من صالح بيك بقتله ، وبذلك تخلص على بك من آخر سنجق كان منافسا له فى مشيخة البلد ، وقبل ذلك بشهرين كان على بك قد نفى عددا من البكوات المماليك إلى الصعيد ، وإلى الحجاز وإلى الفيوم .

وقد تابع على بك سياسته هذه بالقتل والنفى والمصادرة حتى وصفه الجبرتى بأنه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادىء ظهوره واقتدى به من بعده[2]. وقد استخدم على بك عددا من أتباعه أشهرهم محمد بك أبو الذهب . وأحمد الجزار الذى عرف بذلك بسبب ما أظهره من بطش وقسوة ضد بدو الدلتا الثائرين وهم الحبايبة بشرق ووسط الدلتا ، والهنادى بإقليم البحيرة .

وكان سويلم بن حبيب زعيم عرب الحبايبة بالشرقية والقليوبية قد نشر نفوذه وسيطرته على بلاد إقليمى الشرقية والقليوبية ، وقطع الطريق بين القاهرة والوجه البحرى ، فلما أرسل إليه على بك التجريدات انضم إلى عرب الهنادى بالبحيرة،

---

(١) نفس المرجع ص ٥٧

(٢) الجبرتى : نفس المرجع ص ٧٦ .

وانضم إليهم كذلك بعض أعداء على بك من البكوات المماليك واستولوا على الاقليم وقتلوا السنجق الموالى لعلى بك .

وقد أرسل على بك إلى إقليم البحيرة حملتين للقضاء على هذه الفتنة المضادة له، ونجحت حملات على بك فى القضاء على هؤلاء المناوئين، وحتى سويلم بن حبيب « قتلوه وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح .. واشتهر ذلك فارتفع الحرب من بين الفريقين ، وتفرق الهنادى وعرب الجزيرة والصوالحة وغيرهم وراحت كسرة على الجميع ، ولم يقم لهم قائم من ذلك اليوم »(١).

وبعد ان دانت بلاد الوجه البحرى لعلى بك تطلع إلى الوجه القبلى الذى كان سيده وزعيمه شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى ، « وبقدر ما كانت هيبة سويلم ابن حبيب فى الوجه البحرى تقوم على الرهبة من طغيانه وجوره ، كانت هيبة همام بن يوسف فى الوجه القبلى تقوم على الإعجاب بشهامته وتقرير مجموعة الصفات النادرة التى كونت شخصيته الفذة »(٢) . فلم يكن همام قاطع طريق أو طاغية بل كان مجيرا من يستجير به ويحمى من يطلب حماه ويمد بالمال والسلاح من يطلب منه المدد ، « ولم يكن على بك يخشى من ازدياد نفوذ همام واتساع أملاكه ، لأن همام لم يأت أمرا يخل بالامن ، بل كان حريصا على إرسال الميرى بانتظام ، كما كان يرسل بين الحين والآخر الهدايا للباشا العثمانى وشيخ البلد بالقاهرة ، وكذلك لكشاف الاقاليم الخاضعة لسلطته ، ولكن الذى ضايق على بك هو تحول الصعيد إلى وكر تنبت فيه الفتن ومورد يمد منافسيه على مشيخة البلد بالمؤن والعتاد والسلاح »(٣) .

---

(١) نفس المرجع ص٨٧ .

(٢) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ٤٨ .

(٣) د . السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ص ٢٥ .

استقر رأى على بك على ضرورة التخلص من همام ، فأرسل جيشا بقيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب ولكن همام صالح أبا الذهب على أن يكون له التزام البلاد جنوبى برديس، ثم عاد محمداً أبو الذهب إلى القاهرة فأرسل على بك إلى همام يذكره بأن الصلح يعتبر لاغيا إذا لم يطرد أعداء على بك من البلاد التى فى حوزته، فطلب منهم همام الخروج إلى أسيوط وتملكها ، وبالفعل ملكوا أسيوط بالقوة وتحصنوا بها وهرب من كان بها من أتباع على بك ، وكان ذلك فى صفر ١١٨٣ هـ يونيو ١٧٦٩ م ، فخرجت حملة أخرى بقيادة أبو الذهب وصلت إلى أسيوط والتحمت مع المتملكين أسيوط فى معركة ضارية انتهت بانتصار أبو الذهب وجيشه وتشتت أعدائه وانضمامهم الى عرب الهوارة فى الجنوب ، وفى الواقع « كانت معركة أسيوط من أحسم المواقع فى تاريخ على بك ، وهى التى أكدت له النصر ، فأصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع أنحاء مصر »(١) .

ولم يتوقف محمد بك أبو الذهب فى أسيوط ولكنه زحف جنوبا لملاقاة همام وعرب الهوارة ،واستطاع استمالة ابن عم همام ويدعى أبو عبد الله ، ومن ثم سار زحف الجيش إلى فرشوط دون مقاومة عنيدة ، حتى دخلها ليجد همام قد تركها ومات كمدا قرب إسنا، ومن ثم تملك الجيش فرشوط « ونهبوها وأخذوا جميع ما كان بدوائر همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأن لم تكن »(٢) . وخلصت مصر بوجهيها البحرى والقبلى لعلى بك وأتباعه .

---

(١) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٢ .

(٢) الجبرتى : المرجع ص ٨٩ .

فى الثانى من شهر جمادى الآخرة (٢٦ أكتوبر ١٧٦٧ م) كان على بك قد استطاع بحد السيف العودة إلى القاهرة من الصعيد الذى كان به مقيما هربا من خصومه الأقوى بالقاهرة، ثم طلع ومعه أتباعه إلى الديوان بالقلعة، وخلع الباشا على على بك واستقر فى مشيخة البلد كما كان، وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى إماراتهم، كما كانوا ونزلوا إلى بيوتهم. وثبت قدم على بك فى إمارة مصر ورئاستها فى هذه المرة، وظهر بعد ذلك الظهور التام، وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية، والبلاد الشامية، وقتل المتمردين وقطع المعاندين، وشتت شمل المنافقين، وخرق القواعد، وخرم العوائد، وأخرب البيوت القديمة، وأبطل الطرائق التى كانت مستقيمة[١].

وما كان يتم ذلك دون نزاع مع الدولة العثمانية ودون صدام مع الباشا العثمانى بالقاهرة، وإذا كانت الدولة العثمانية يهمها ألا ينفرد شخص بالأمور فى مصر وتقف أمام إزدياد سلطة البكوات المماليك، فقد كانت تعمل على إيقاد نار الفتنة بين البكوات حتى يقضوا على بعضهم البعض، وأما الباشا القائم بالولاية آنذاك (١٧٦٧ م) وهو محمد راقم باشا فقد كان هو الآخر يعضد خصوم على بك، ويساعد على إرسال حملة لمقاومته تحت رياسة حسين بك كشكش[٢] ويجمع لهذه الحملة المال. كما نجده يقابل على بك بعد انتصاره على جيش حسين

---

(١) نفس المرجع ص ٨٥

(٢) من زعماء المماليك المعادين لعلى بك، وكان قد فر إلى غزة، ومن هناك حيث مكث ثمانية شهور أعد جيشا من فرسان المماليك والدروز ومشاة المغاربة للزحف على مصر ومنازلة على بك.

بيك كشكش ويخلع عليه ويقره شيخا للبلد(١) » .

وكان على بك يدرك موقف الباشا محمد راقم ، وموقف الدولة العثمانية منه بعد أن دانت له الأمور فى مصر ، ولذلك فان على بك انتهز فرصة ضيق بعض أتباعه من تحركات الباشا حتى أصدر على بك أوامره لأنصاره بالتعامل مع الباشا بما يتفق مع تحركاته المشبوهة ، فأصبحوا وملكوا الابواب ، والرميلة ، والمحجر(٢) وحوالى القلعة وأمره بالنزول ، فنزل من باب الميدان إلى بيت أحمد بك كشك وأجلسوا عنده الحرسجية (٣) — وكان ذلك فى ١٧ رجب ١١٨٢ ﻫ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٧٦٨ م — وبعد أسبوعين تقلد على بك قائمقاميـــة عوضا عن الباشا (٥) » . وكان ذلك فى غرة شهر شعبان ١١٨٢ ﻫ الموافق ١١ ديسمبر ١٧٦٨ م .

وأما موقف على بك من الدولة العثمانية فقد تمثل فى أنه عندما وصل إلى القاهرة فى ٢٥ نوفمبر ١٧٦٨ م « أغا من الديار الرومية ، وعلى يده مرسوم بطلب عسكر للسفر ، فاجتمعوا بالديوان وقرأوا المرسوم(٤) » أدرك على بك مدى حاجة الدولة العثمانية لقوات إضافية تأتيها من مصر لتواجه الحرب التى شنتها روسيا ضدها وبصفة خاصة فى حوض الدانوب وشبه جزيرة البلقان ، فضرب

---

(١) حافظ عوض : فتح مصر الحديث ص ٢٩ .

(٢)، (٣) المقصود بالابواب أبواب القلعة ، والسيطرة على الجانب الغربى للقلعة (الرميلة) والجانب الشرقى (المحجر) ، وتعنى الحرسجيه رجال الحرس .

(٣) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٥ - ٨٦ .

(٤) نفس المرجع ص ٨٥ ، وتعبير الديار الرومية كناية عن مقر الدولة العثمانية .

على بك ضربته بعد وصول الرسول العثمانى بيومين بعزل الباشا وبعد أسبوعين أعلن نفسه قائمقاما عن الباشا أى قائما بعمل الباشا لخلو المنصب ممن يشغله .

وأتبع على بك ذلك بوسائل كسب المواقف فى كل زمان وهى تقديم الهدايا والأموال فجهز فى أوائل يناير ١٧٦٩ م رسول الدولة العثمانية بما يلزمه من دلائل التكريم والتقدير وصفها الجبرتى بقوله « فى تجمل زائد » لينقل إلى السلطان طلبات على بك الكبير فى أن يظل متوليا باشوية مصر فلا ترسل الدولة باشا من استانبول ، وأتبع ذلك أيضا فى الشهر التالى (فبراير) باعداد هدية حافلة تتضمن أموالا وخيولا مصرية للسلطان العثمانى ورجال دولته وأشفعها بمكاتبات منه لهم ومكاتبات من علماء مصر ومشايخها وعلى رأسهم الشيخ حسن الجبرتى ، وتمثلت طلبات على بك هذه المرة فى مكاتباته المطعمه بالهدايا والتى حملها الشيخ عبد الرحمن العريشى ومحمد أفندى البردلى ، فى أن على بك يطمع أن تكون له بلاد الشام إلى جانب مصر فيزداد ملكه ، وحجته فى ذلك أن عثمان العظم والى الشام يعادى على بك ويأوى المصريين الفارين من حكم على بك بل ويعاونهم للعودة إلى مصر وطرد على بك .

وكان على بك قد بدأ بالفعل منذ وصول رسول الدولة ، واستنادا إلى طلب الدولة العثمانية أو قل هى حجة استند إليها فى تجييش جيش يكون عدة على بك فى تحقيق مشروعاته الطموحة التى عبر عنها بضم الشام إلى مصر ، وكان إعداد هذا الجيش المطلوب بداية للصدام العلنى بين على بك والدولة العثمانية ، ذلك أن على بك قد أخذ فى إعداد جيش كبير بكل همة ونشاط أثارت مخاوف رجال الدولة العثمانية من احتمال أن يستخدم على بك هذا الجيش لتحقيق أهدافه بمعاونة الروسيا التى كانت جيوشها منتصرة على طول الخط ضد القوات العثمانية ، والتى — أى روسيا — كانت تشجع القوى المحلية فى الولايات التركية على الثورة ضد الحكم العثمانى .

وبناء على هذه الشكوك أرسلت الدولة العثمانية إلى رجالها بمصر أمراً بقتل على بك، ولم يكن على بك بغافل عن تحركات الدولة العثمانية ولا عن مدى التعارض مع أهدافه ومصالحها ، ولذلك فقد عرف بالأمر وكلف رجاله بقتل رسول الدولة العثمانية ، ثم جمع على بك المماليك وأعلن أمامهم أن الأوامر العثمانية تطلب « قتل جميع المماليك ، فإنه - أى على بك - استطاع أن يقتنص هذا الأمر وحامله »[1]. وكان على بك خطيباً مؤثراً استطاع أن يستميل الزعماء المماليك إلى صفه ، فلما ضمن ذلك أعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، وطلب منها عدم تعيين باشوات وإرسالهم إلى القاهرة .

ويشهد عام ١٧٦٩ م خطوات على بك الاستقلالية بمصر والتى كانت دلائل متتالية على تصاعد العداء بين على والدولة العثمانية ، ذلك أن على بك أتبع إعلان رفضه لقبول باشا من استانبول : منع الأموال (الميرى) المقررة سنويا على مصر من الوصول إلى الدولة العثمانية ، وضرب النقود فى مصر باسمه وعليها تاريخ استقلال مصر ١١٨٣ هـ : وأتبع ذلك بطرد كل من يظهر ميلا للدولة العثمانية من موظفى الدواوين .

واستمر على بك فى خطواته لتحقيق مشروعاته التوسعية وقد سار فى طريق العداء للدولة العثمانية شوطا بعيدا ، فتطلع إلى ضم الحجاز لتأمين الحج المصريين والمغاربة والسودانيين والشوام بما يعود على على بك بالشهرة والتقدير من كل هؤلاء ، وفى نفس الوقت ليحقق مشروعاته التوسعية ، وليعمل بمشورة صديقه كارلو روستى Garlo Rosetti تاجر البندقية المشهور لتحويل تجارة الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر فالسويس بدلا من مرورها عن طريق رأس الرجاء الصالح .

---

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص ٢ ص ٧٠

وكانت فكرة روستى دافعا لكى يركز على بك فى ضم بلاد الحجاز إلى ملكه على ميناء جدة « ليجعل منها مركزا للتجارة مع الهند ولمراقبة الملاحة فى البحر الاحمر فلما فتحها عزل واليها - العثمانى - الذى نصبته تركيا ، وجعل ولايتها لمملوك من أتباعه عرف فيما بعد باسم حسن بك الجداوى . »[1]

انتهز على بك فرصة الخلاف حول الشرافة فى الحجاز بين الشريف القائم بالحكم الشريف أحمد وابن عمه الشريف عبد الله الذى جاء إلى مصر واستنجد بعلى بك وقد « وافق ذلك غرضه الباطنى - كما يقول الجبرتى - وهو طمعه فى الإستيلاء على الممالك »[2] وبعد أن أعد على بك حملة لارسالها إلى الحجاز أنزلها فى السويس فى صفر ١١٨٤ هـ الموافق يونيو ١٧٧٠ م « فى تجمل زائد ، ومهيأ عظيم وسارى عسكرها محمد بيك أبو الدهب ، وصحبته حسن بيك ومصطفى بيك وخلافهم »[3] .

وقد نجح حسين على بك فى مهمته بالاستيلاء على الحجاز وإقصاء الشريف أحمد الموالى لتركيا وإحلال الشريف عبد الله الموالى لمصر ، « ونودى بعلى بيك فى الحرمين الشريفين : سلطان مصر ، وخاقان البحرين ، وذكر اسمه ولقبه هذا على منابر المساجد فى الحجاز كلها » .[2] وقد استغرقت هذه الحملة حوالى خمسة شهور من يونيو ١٧٠٠ م وهو تاريخ خروج الجيش من مصر إلى ٢٨ أكتوبر

---

(١) نفس المرجع : ص ٧١ . ولقب الجداوى أضيف إلى صاحبه بعد أن أصبح حاكما لجدة ، ولم يكن له هذا اللقب قبل ذلك . . . وذلك أمر شائع عند المماليك . .

(٢) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩

(٣) نفس المرجع ص ٩١

( ) محمود الشرقاوى : نفس المرجع ص ٧١

من نفس العام عندما عاد الجيش وعلى رأسه قائده محمد بك أبو الذهب « ودخل إلى مصر فى موكب عظيم ، وأتت إليه العلماء والأعيان للسلام وقصدته الشعراء بالقصائد والتهانى »[1] .

وقد شجع نجاح حملة الحجاز على بك فى أن يتطلع إلى إرسال حملة إلى بلاد الشام التى كانت آنذاك تعيش حركة مماثلة لحركة على بك بقيادة الشيخ ظاهر العمر . وهنا يثور سؤال هل كان على بك يتطلع إلى ضم الشام إلى ملكه وإقامة سلطنة قلبها مصر وجناحها الشرقى الحجاز وجناحها الشمالى سوريا أم كان تقدم جيوش على بك إلى الشام لنصرة صديقه الشيخ ظاهر العمر ضد الباشوات العثمانيين ؟ .

وإذا كان البعض يعتقد فى الرأى الأول القائل بأنه على بك كان يتطلع إلى توسيع ملكه بضم بلاد الشام ، والوصول إلى بلاد الأناضول والقسطنطينية عن طريق سوريا — كما ذكر كل من المؤرخ شارلرو[2] والجبرتى[2] كما قيل عن نابليون بونابرت ومحمد على فيما بعد . . وإذا كان البعض الآخر يعتقد فى الرأى الثانى القائل بأن تحرك جيش على بك إلى الشام كان بهدف مساعدة صديقه الشيخ ظاهر العمر . . فإن الرأى عندنا هو أن حملة على بك على الشام كانت لتحقيق هدفين الأول تأمين مصر من ناحية الشام بالقضاء - وبالتعاون مع الشيخ ظاهر الذى كان له نفس الهدف - على خطر الباشوات العثمانيين هناك ، حتى تبقى مصر فى مأمن من أى خطر عثمانى يأتى عن طريق الشام ، والهدف الثانى هو مساعدة حليفة الشيخ ظاهر ضد التهديد العثمانى بالقضاء على القوات العثمانية التى تتجمع

---

(١) الجبرتى نفس المرجع ص ٩١ .
(٢) د . السيد حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ص ٢٧ .

حول باشوات دمشق وحلب وطرابلس العثمانيين وبهذا القضاء يتسع سلطان على بك ويمتد نفوذه ليصل إلى بلاد الشام . .

فالوجود العثمانى المعادى فى بلاد الشام لحركة على بك الاستقلالية فى مصر وحركة الشيخ ظاهر العمر الانفصالية فى جنوب سوريا هو الدافع الحقيقى لأهداف على بك من حملته على الشام التى تركز كما رأينا حول مساعدة الشيخ ظاهر العمر من ناحية ومد نفوذ على بك وملكه إلى بلاد الشام من ناحية أخرى

وكان السبب الذى أعلنه على بك كدافع له لحملته على بلاد الشام هو إيواء عثمان العظم والى الشام (دمشق) لخصوم على بك وأعدائه وأعدادهم للإغارة على مصر ، وأن هذا الوالى يسىء الحكم فى بلاد الشام مما جعل السوريين يتذمرون من حكمه .. وتبعا لذلك قام على بك بالحملة على الشام وهى أساسا « دفاعية اتخذت شكلا هجوميا لكى يقيم حول نفوذه بمصر سياج أمان دائم »[1] .

ومنذ منتصف رجب عام ١١٨٤ هـ الموافق ٤ نوفمبر ١٧٧٠ م بدأت الاستعدادات فى مصر لإعداد قوات الحملة على الشام ، فيذكر الجبرتى[2] أنه فى هذا اليوم « زاد اهتمام على بيك بالتحرك على جهة الشام » ، فلما تكامل الجيش بعدته وعتاده وعدده ، أقاموا بالعادلية[3] أياما حتى قضوا لوازمهم وارتحلوا وسافروا إلى جهة الشام . « وأصدر على بك أن يكون على رأس هذه الحملة المسافرة برا إسماعيل بك . وبعد أسبوع « برزت تجريدة أخرى وعليها سليمان بيك وعمر كاشف وجملة كثيرة من العساكر ، فنزلوا من طريق البحر على دمياط وفى منتصف ذى القعدة ١١٨٤ هـ الموافق ٢ مارس ١٧٧١ م « خرجت » تجريدة أخرى وسافرت على طريق البر على الشام ، وفى عام ١١٨٥ هـ « أخرج على بك

---

(١) د . السيد حراز : نفس المرجع ص ٢٧ .

(٢) الجبرتى : نفس المرجع السابق ص ٩٢ .

(٣) العادلية بمركز بلبيس بإقليم (محافظة) الشرقية .

تجريدة عظيمة وسر عسكرها وأميرها محمد بيك أبو الذهب وأيوب بيك ورضوان بيك وغيرهم » .

استطاع محمد بك أبو الذهب قائد عام الحملة على الشام أن يحرز انتصارات عديدة ، وقد لقى أبا الذهب معاونة صادقة من الشيخ ظاهر العمر ، ومن ثم سقطت فى يده أو قل فى يد الجيش المشترك كلا من غزة ويافا ونابلس ، واللد والرملة وصيدا ، وسقطت دمشق ذاتها فى شهر أبريل ١٧٧١ م ، وقد « حاربهم النواب والولاة وهزموهم وقتلوهم وفروا من وجوههم واستولوا على الممالك الشامية إلى حد حلب » .

عندما طلب على بك من محمد أبى الذهب الاستمرار فى الزحف بعد دمشق بدأ النزاع بين الرجلين ، وهو النزاع الذى أرجعه البعض إلى رغبة محمد أبو الذهب فى السيطرة على الملك فى مصر ، وأرجعه البعض الآخر إلى اسماعيل بيك لميله إلى الدولة العثمانية وحسده لأبى الذهب فحرضه على عدم إطاعته لأوامر على بيك»(١). وأرجعه البعض الثالث إلى استمالة الدولة العثمانية لمحمد أبى الذهب وإغرائه بملك مصر إذا خرج على سيده وقضى عليه .

أيا كان سبب النزاع بين الطرفين ، فإن محمداً أبا الذهب وهو فى دمشق « جمع أمراءه وخشداشينه الكبار فى خلوة وعرض عليهم الأوامر — التى أصدرها على بك باستمرار الزحف — فضاقت نفوسهم ، وسئموا الحرب والقتال والغربة ، وذلك ما فى نفس محمد بك أيضا ... وأصبحوا راحلين وطالبين إلى مصر » (٢)

عاد محمد أبو الذهب منسحبا بجيشه من بلاد الشام وأساء هذا التصرف الشيخ ظاهر العمر الذى كان عليه نتيجة لهذا الانسحاب أن يتلقى ضربات الباشوات

---

(١) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ١٧٤ .
(٢) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٣ .

العثمانيين العائدين إلى المدن التي انسحب منها الجيش المصرى ، كما أساء الانسحاب وبدرجة أكبر على بك الكبير ، وما لبث أن اشتد النزاع بين على بك ومملوكه محمد أبو الذهب .

كان من السهل على أبى الذهب أن يتغلب على سيده الذى غادر مصر بعد أن « حمل حموله وأمواله وذهب إلى جهة الشام ، وصحبته على بيك الطنطاوى وباقى صناجقه ومماليكه وأتباعه وطوائفه »(1) . وقد لجأ على بك إلى صديقه الشيخ ظاهر العمر فى عكا . ومن هناك أخذ يفكر فى العودة إلى مصر ، وقد أبدى صديقه ظاهر استعداده لامداده بقوة من جيشه ترافقه إلى مصر ، كما وعده الكونت ألكسيس آرلوف Alexis Arlow قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط بامداده ببعض الأسلحة لاستخدامها فى الزحف إلى مصر .

أسرع على بك إلى الزحف صوب مصر حتى إذا وصل إلى الصالحية بالشرقية فى ١٥ صفر ١١٨٧ هـ الموافق ٢٦ أبريل ١٧٧٣ م التقى مع جيش يقوده محمد أبو الذهب فى معركة كان النصر فيها حليف الأخير ، وكان « لخيانة المرتزقة من مشاة المغاربة أثر أساسى فى هزيمة الصالحية ، التى تعتبر أهم المواقع الثلاث الحاسمة فى تاريخ على بيك »(2) . وجرح على بك وتلقاه مملوكه أبو الذهب وحمله إلى القاهرة وأخذ يقدم له الرعاية الطبية إلا أنه مالبث ان مات فى ٢٥ صفر ١١٨٧ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣ م .

وبموت على بك خلصت مصر لمحمد بك أبو الذهب الذى رغم وصول الوزير

---

(1) نفس المرجع ص ٩٦ . وكان ذلك فى ٢٥ المحرم ١١٨٦ هـ الموافق ٢٨ أبريل ١٧٧٢ م .

(2) رفعت رمضان : المرجع السابق ص ١٩٦ ، والمعركتين الاخريين هما المعركة ضد حسين بك كشكش فى ١ يونيو ١٧٦٨ م ، ومعركة أسيوط فى يونيو ١٧٦٩ م ضد أنصار همام الهوارى .

خليل باشا واليا على مصر فى ٨ يونيو ١٧٧٣ م إلا هذا الوالى لم يكن له فى الولاية « إلا الاسم والعلامه على الأوراق ، والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بيك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وأشراقاته »(١) .

على بيك والدول الأجنبية

تمثلت صلات على بك الكبير بالدول الأجنبية فى علاقاته بكل من الروسيا والبندقية وانجلترا ، فروسيا عدوة تقليدية للدولة العثمانية التى خلع على بك طاعتها، والبندقية بلد صديقه كارلو روستى ولها مصالح اقتصادية عبر مصر ، وانجلترا مهتمة بتأمين طريقها إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر . إذن دفعت المصالح المتبادلة بين على بك وهذه الدول إلى توثيق العلاقات بينه وبينها ضد الدولة العثمانية .

انتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية فى معارك الحرب الروسية العثمانية منذ عام ١٧٦٨ م ليوطد علاقته بالروس ، وكان على بك تربطه بروسيا روابط العداء المشترك للدولة العثمانية وقد نشبت الحرب بين الأتراك والروس بسبب ما عرف بالمسألة البولندية عام ١٧٦٨ م فى عهد الامبراطورة كاترين ، ومنذ بداية الحرب ظهرت علامات انتصار الروس على الأتراك فى البحر والبر خاصة فى البحر المتوسط وفى رومانيا ، « وأحدث ظهور الأسطول الروسى فى البحر الأبيض دويا كبيرا فاتصل بالعناصر السلافية والارثوذكسية الثائرة على الدولة العثمانية بل والعربية الثائرة فى الولايات العربية مثل على بك الكبير فى مصر والشيخ ظاهر العمر فى فلسطين »(٢) .

وكانت مرابطة الأسطول الروسى فى بحر الأرخبيل بقيادة الكونت ألكسيس

---

(١) الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٩ .

(٢) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٦٧ .

أورلوف Alexis Arlow مشجعا لعلى بك لكى يتصل بقائده ويطلب مساعدته بتأمين وصول أسلحة ومعدات روسية لقوات على بك فى مصر ، خاصة بعد أن تم تدمير الأسطول التركى بمعرفة الأسطول الروسى فى موقعة جشمة الشهيرة فى ٢٦/٢٥ يونيو ١٧٧٠ م . وبعد أن أظهرت مساعدة الأسطول الروسى للثوار اليونانيين فعاليتها ، وبعد ان اتخذ الكونت أورلوف من جزيرة باروس مقراً لقيادة الأسطول .

وقد عرض على بك أن يعقد مع الروس اتفاقية تتضمن أن يقوم الروس بتزويد جيشه بالأسلحة والعسكريين المدربين ، وأن يكون الأسطول الروسى حاميا للشواطىء المصرية ضد أية محاولات هجومية عثمانية ضد مصر عن طريق البحر المتوسط .

وأبدى على بك مقابل ذلك أن يتعهد بخلع طاعة الدولة العثمانية وأن يرسل قواته لمهاجمة بلاد الشام والاستيلاء عليها ، وأن يعطى تسهيلات للسفن الروسية فى الموانى المصرية حتى تتمكن هذه السفن من الحصول على المؤن ، ومحطات للاصلاح .

« وأكبر الظن أن على بك كان مستعدا ليعقد مثل هذه الاتفاقية مع أية دولة أوروبية أخرى ، تمكنها سياستها إزاء الدولة العثمانية وظروفها فى البحر الابيض المتوسط من ذلك تدعيما للخطة العامة التى سار عليهـــا فى بعث الدولة المصرية واقتباس الوسائل الفنية الكفيلة بهذا البعث وخاصة فى الناحية العسكرية[1] » .

وقد رد الكونت أورلوف على عرض على بك بأنه على استعداد لإجابة

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى النهضات العربية الحديثة ص ٢٤٥ .

طلبات على بك وحثه على الاستمرار في موقفه من الدولة العثمانية ، وأنه بخصوص عقد الاتفاقية فقد ذكر له أنه سوف يرجع إلى حكومته وإلى الامبراطورة كاترين بشأنها، وأنهى رده بتقديم الشكر لعلى بك على عرضه بالتسهيلات في الموانى المصرية ، وأنه سوف يطلبها متى وجد نفسه فى حاجة إليها .

إلا أن عهد على بك لم يطل بسبب خروج مملوكه محمد أبو الذهب عليه ، فى الوقت الذى لم تصله فيه المساعدات الروسية التى وعدبها ، ولكن عندما فر على بك إلى صديقه الشيخ ظاهر العمر أرسل إليه الكونت أورلوف وفدا برئاسة الملازم بايشسيف يحمل كمية من الأسلحة والذخائر استخدمها على بك فى قتال أبى الذهب . وهو القتال الذى انتهى بهزيمة على بك فى الصالحية . وخسرت روسيا بسبب تباطؤها فى نصرة على بك لاستعادة مركزه فى مصر .

إلا أن انتهاء الحرب الروسية التركية وتوقيع معاهدة الصلح المعروفة باسم كجوك قينارجى عام ١٧٧٤ م قد أدى إلى توقف « مشروع التحالف الروسى المملوكى، وإن لم تتخل روسيا نهائيا عن سياسة الكيد للدولة فى ولاياتها والاتصال بالأمراء والزعماء فى مصر والشام(١) » .

ومما يجب الإشارة إليه أن التحالف الروسى مع على بك وظاهر العمر وسيطرة الأسطول الروسى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ،قد أضاف عاملا جديدا بالإضافة إلى العوامل المحلية الأخرى لاضطراب التجارة الخارجية لمصر والشام وبقية أقطار المشرق العربى . رغم أن على بك والشيخ ظاهر العمر « كانا يقدران أهمية هذه التجارة لرخاء بلادهما بما يجبى من رسوم عليها(٢) » .

---

(١) نفس المرجع و نفس الصفحة .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٤ .

وكان اتصال على بك بجمهورية البندقية عن طريق صديقه المسمى كارلو روستى Carlo Rosetti ، وهو إيطالى من البندقية ، وقد كلفه على بك بتنظيم التجارة الخارجية والعلاقات الدولية ، وبقى روستى بعد ذلك قنصلا لألمانيا حتى قدوم الحملة الفرنسية ، وكان صديقا لمراد ، (1)

وقد عول على بك على نفوذ صديقه روستى لكى تقف البندقية إلى جوار مشروعاته التوسعية فى الشام والبحر المتوسط ضد الدولة العثمانية ، حتى أنه « أرسل إلى البندقية يعرض محالفته ومساعدته لها لكى تمتلك الجزر المملوكة للدولة العثمانية فى البحر المتوسط ، لتكون قاعدة حربية له ، ولكن جمهورية البندقية ردت شاكرة ومعتذرة ، وقام بهذه الرسالة — من على بك للبندقية — يعقوب الارمنى أحد معاونى على بك(2) » .

ورغم أن الدولة العثمانية كانت منشغلة بالحرب مع روسيا ، فإن جمهورية البندقية بلغت « إذ ذاك من الضعف حدا جعلها عاجزة عن أن تبذل أى نشاط عدائى ضد السلطنة العثمانية فى البحر المتوسط ، فلم تستطع لهذا أن تقدم أية مساعدة عملية لعلى بك(3) » .

كما أن اتصال على بك بانجلترا إنما جاء نتيجة تشابه المصالح بين الطرفين، فعلى بك كان يطمع فى إحياء التجارة الهندية عن طريق مصر والبحر الاحمر ، وهو الطريق المعروف بالطريق البرى تمييزا له عن الطريق البحرى الذى تحولت إليه التجارة الهندية إلى أوروبا بالدوران حول أفريقيا مرورا برأس الرجاء الصالح .

---

(1) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص ٧١ .
(2) رفعت رمضان : على بيك الكبير ص ١٦٠ .
(3) د . أحمد عزت عبد الكريم : نفس المرجع ص ٢٤٤ .

وأما انجلترا فكانت مهتمة كثيرا بتأمين الطريق البرى لتجارتها باعتباره أقصر من الطريق البحرى وأوفر فى النفقات مما يزيد الربح فى التجارة ، ومن هنا كانت استجابة السلطات البريطانية فى الهند لما أبداه على بك من استعداد « لاستقبال سفنها فى موانيه، كما تعهد ببسطه حمايته على المسافرين والتجار الأجانب الذين ينزلون فى بلاده[1] » .

ذلك أنه كان هناك عاملان يحكمان العلاقات الانجليزية المصرية فى القرن الثامن عشر بصفة خاصة هما « التجارة البريطانية الهندية مع مصر، والآخر استخدام الطريق البرى عبر مصر للمواصلات إلى الهند ، وهو ما يعرف بالعامل الهندى Indian Factor »[2].

وبسبب هذا العامل الهندى اهتمت انجلترا بمصر ، كما أنها اهتمت بمصر بسبب موقعها الجغرافى ، « ويجب أن يكون معلوما فى المقام الاول أن الانجليز وليس الفرنسيين هم الذين تولوا زمام المبادأة فى هذا الاتجاه ، وفى المقام الثانى فان الانجليز من ناحية ثانية هم الذين أخذوا على أنفسهم مهمة المبادرة فى تقريب مصر من الاستقلال غير مبالين بالسيادة العثمانية[3] » .

ومن ثم رأينا انجلترا تشجع على بك ومن جاء بعده من البكوات المماليك على الوصول إلى درجة أكثر من الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وذلك لكى يعترف هؤلاء الحكام بما أسرته لهم انجلترا من جميل فى سعيهم للحصول على مكاسب استقلالية من الباب العالى .

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(2) Anis, M. : The development of British interest in Egypt in the 18th Century.

(3) Anis, M. : England and the Suez - Route in the 18th Century, p. 17.

تقييم حركة على بك

لتقييم حركة على بك الكبير فى مصر لابد أن نتناول شخصية على باك وما أثير حولها من جدل ، كما نتناول طبيعة حركته فى مصر تلك الحركة التى اختلف حول طبيعتها المؤرخون .

إن تعدد تسميات على باك دليل على شخصيته ، فإذا كان المصريون قد لقبوه « بالجن على بك » فهذا يعنى عندهم الشخص النشيط الذى لا يهدأ ويتغلب على خصومه ، وإذا كان الرحالة الأوروبيون قد لقبوه بعلى بك الكبير فرجع ذلك إلى ما اتسمت به شخصيته من قوة وعزيمة حققت الكثير حتى ذاع صيته فى مصر وبقية أقطار المشرق العربى وفى كل من فرنسا وانجلترا والبندقية والروسيا .

وإن تعدد ألقاب على التى اشتملت إلى جانب ما ذكرنا الاسم الرسمى «مير اللوا على بك» وتسمية العثمانيين له «على بك بلوت قبان» ليس سوى « مظهر من مظاهر نشاطه الجم وكفاياته المتعددة ، فقد كان على بك كبير النفس كبير القلب كبير المطمع ، ظهر فى عصر اضطراب وفوضى ، وفى وقت كانت مصر فى أمس الحاجة إلى رجل مثله ، وقد أتقن على بك دوره وأخذ فى تنفيذه مضحيا بكل ما يملك من صحة ومال . . . مادام يجد منفذا إلى غرضه المزدوج : أن يجمع فى يده بصفته قائمقام ما تشتت من سلطة الباشا العثمانى ، وأن يخلق من الفوضى نظاما يمكنه من استغلال تلك السلطة لمصلحته ومصلحة مماليكه[1] » .

وكان على بك لا يميل إلى الهزل والمزاح ، ويجالس العلماء أهل الاحترام مثل الشيخ حسن الجبرتى والشيخ أحمد الدمنهورى وغيرهم ، « وكان يطالع كتب التاريخ والأخبار ، وسير ملوك مصر من المماليك ، ويقول لخاصته : ان هؤلاء

---

(١) رفعت رمضان : نفس المرجع ص٢٠٢ .

الملوك كانوا من جنسنا مثل السلطان بيبرس ، والسلطان قلاوون وأولادهم ، وكذلك ملوك الجراكسة ، ولم يستول العثمانيون على مصر ويقهروا هؤلاء المماليك إلا بالقوة ونفاق أهل البلد[1] » .

ومع صفات على بك الطيبة وتحريه العدل فقد اشتهر بالقسوة التى لا تعرف الرحمة مع خصومه ومعارضيه ، فلا زالت عشرات الأرواح التى أمر بإزهاقها ليعبد بها سبيل مجده تنعى وسائله التى تقوم على القسوة والغدر ، وهذه بلا شك نقطة سوداء تشوب نقاء صحيفته البيضاء[2] » .

وإذا كان الجبرتى رغم ما أورده من شواهد على قوة على بك قد أشاد فى أكثر من موضع بأمراء المماليك وسماهم « الامراء المصرية » إشادة عامة ، إلا أنه أثنى كثيرا على حكومة على بك الذى جعل من مصر مدنها وريفها بلدا آمنا رخى العيش ، حتى كان المسافر يسير بمفرده ليلا راكبا أو ماشيا ، ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أى جهة ، ويبيت فى الغيط أو البرية[3] » .

وقد أشاد الجبرتى باصلاحات على بك وانشاءاته سواء بالنسبة لدواوين الحكومة ليضمن انتظام الامور وتحقيق العدالة ، أو إنشاء المساجد والأسبلة والعمائر ، وقلاع الاسكندرية ودمياط وتجديد مساجد الامام الشافعى والسيد البدوى بطنطا ، وغير ذلك من شئون التعمير التى مازالت شاهدا على اتجاهات على بك للبناء .

وقد شارك بعض الرحالة الاورربيون الجبرتى فى الاشادة بحكومة على بك ،

---

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٥ .

(٣) الجبرتى : نفس المرجع .

فالمؤرخ الفرنسى « سافارى » Savary « أشاد بعدل على بك وكرمه ، واعترف كل من ڤولنى Volney وأوليفييه Olivier أنه سمع ثناء مستطابا عليه من التجار الفرنسيين الذين تفيئوا ظلال عدله وحكمه الرشيد »(١) .

ورغم أن الرحالة الانجليزى جيمس بروس James Bruce قد حمل بشدة على البكوات المماليك واتهمهم بأنه « ربما لا يوجد فى العالم رجال أجلاف جائرون طغاة ظالمون جشعون بمثل الدرجة التى عليها أولئك الأشرار الذين يقبضون على حكومة القاهرة » . فإنه أنصف حكم على بك بقوله : « ولحسن الحظ عندما كنت بالقاهرة لم أصادف ذلك النوع المشوش من الحكومات ، بل كان على بك الشهير يحكم بنفسه أو بوساطة عماله »(٢) .

ورغم ذلك فقد كان لعلى بك سلبيات أفضت فى النهاية إلى فشله فى تحقيق مشروعاته ، من بينها قلة حظه من الثقافة واعتماده على التنجيم والفلك حتى صار أسير ماتشير إليه النجوم وحتى خضع للمنجمين وقربهم منه ، ومنها ان حاشيته لم يكن فيها الناصح الأمين الذى يستند إلى خبرة سياسية وعلمية .

ومن سلبيات على بك الكبير أنه لم يشرك الشعب المصرى فى تحقيق مشروعاته وتطلعاته ، ولذلك رأينا المصريين يأخذون من حركته منذ بدئها حتى نهايتها موقفا سلبيا ولم يدافعوا عنها عندما انهارت بمقتل على بك نفسه على يد مملوكه محمد أبو الذهب ، واكتفى على بك بتحميل المصريين نفقات حروبه الخارجية ومشروعاته الداخلية .

ويأتى الشق الثانى من تقييم حركة على بك الكبير ، وهو طبيعة هذه الحركة

---

(١) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٨

(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة .

ذلك أن بعض المؤرخين ذهبوا إلى أن على بك كان يهدف من حركته الاستقلال التام عن الدولة العثمانية وإقامة سلطنة مصرية مستقلة تخضع لسيطرته ، وتعود لمصر شخصيتها المستقلة التى كانت لها قبل الاحتلال العثمانى .

بينما ذهب البعض الآخر من المؤرخين إلى أن على بك إنما كان يهدف فقط إلى الانفراد بالحكم فى مصر تحت السيادة العثمانية دون أن يفكر فى خلع طاعتها، على اعتبار أنه أدرك أن مثل هذا الخلع لطاعة الدولة العثمانية قد لا يكون مقبولا من الشعب المصرى بل ومن المؤكد أن الدولة العثمانية ستقف بحزم ضد هذا الاتجاه فى الوقت الذى توجد اتجاهات عند بعض الزعامات المملوكية للانقضاض على على بك وتخليص مصر من حكمه .

وقد استند أصحاب الرأى الأول القائل بأن على بك كان هدفه الاستقلال بمصر استقلالا تاما عن الدولة العثمانية إلى عدة أدلة منها توافق إنزال على بك للباشا محمد راقم من القلعة عام ١٧٦٨م مع إشتعال الحرب الروسية التركية مما يدفع إلى الاعتقاد بأن على بك أراد انتهاز هذه الفرصة لمصلحته الخاصة . وعزز اعتقادهم هذا بانه بعد الحجر على الباشا تولى على بك منصب قائمقامية مصر حتى آخر عهده ولم يسمح للباشوات العثمانيين بالقدوم إلى مصر .

ويروى الرحالة الانجليزى جيمس بروس قصة تؤيد هذا الاعتقاد ملخصها أن على بك سأل بروس فى أول مقابلة بين الرجلين فى شهر يوليو ١٧٦٩ م عقب اشتعال الحرب الروسية التركية عن نهاية الحرب فلما أجابه بروس بإنه « سيعقد صلح بعد أن تسيل دماء كثيرة ولن يكسب أحد الطرفين كثيرا من هذه الحرب . فضرب البك كفا على كف وقال بالتركية لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم التفت إلى رزق[1] الذى كان واقفا وقال له : لاشك فى أن ذلك سيكون من قلة حظنا ،

---

(١) هو المعلم رزق الذى اتخذه على بك وزيرا ومستشارا . ولم يعد يصدر =

ولكن ما قدر يكون ان الله بنا لرءوف رحيم » .[1]

كما يؤيد الاعتقاد بأن حركة على بك كانت حركة استقلالية بمصر عن الدولة العثمانية ماذكره الجبرتى من أنه بعد أن خلع على بك الباشا العثمانى وطلب من الدولة عدم إرسال ولاة أوقف إرسال الجزية السنوية ، وكانت « آخر خزنة رأيناها سافرت إلى إسلامبول على الوضع القديم[2] عام ١١٨٠هـ حملها عثمان بك أبو سيف ومات هناك فى نفس السنة . كما أن « قنصل فرنسا المسيودى جونفيل M. De Jonville استشف نيات على بك فكتب يقول إن غرضه جعل مصر دولة مستقلة قوامها قوة المماليك المطلقة . »[3]

وفى مقابل هذا الاعتقاد رأينا اعتقادا آخر يدافع عنه كثير من المؤرخين مؤداه أن على بك لم يكن يسعى إلى فصل مصر عن الدولة العثمانية ، وحجتهم فى ذلك أن على بك منذ توليه مشيخة البلد عام ١٧٦٧م كان حريصا على إظهار الطاعة للسلطان العثمانى ، وقد أورد الجبرتى شواهد كثيرة على هذا الحرص منها أن على بك عام ١٧٦٨م أرسل للسلطان « هدية حافلة وخيولا مصرية ، جيادا ، وأنه السلطان أرسل رسولا يحمل لعلى بك « مرسوما وقفطانا وسيفا إظهارا للرضاء السلطانى » .

ويضيف الجبرتى إلى ذلك أن على بك كان يحرص على أن يكون تحركه

= فى حركة من الحركات إلا بعد أخذ رأى المعلم رزق القبطى أو اتباعا لنصيحته نظرا لخبرته فى النواحى المالية والتنجيم .

(١) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٥ .

(٢) الجبرتى : نفس المرجع .

(٣) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٧ .

بفرمان من الباشا . وأن يعلن فى حروبه ضد منافسيه أنه يحاربهم باسم السلطان ومن أجل اعلاء سلطته ، كما أن الجبرتى أورد فى أحـــداث عام ١١٨١هـ (١٧٦٧ — ١٧٦٨ م) ان محمد باشا راقم نزل إلى بيت على بك باستدعائه فتغدى عنده ، وقدم له تقادم وهدايا ، وكان ذلك فى ١٢ ربيع الأول الموافق ٢٧ يوليو ١٧٦٨م »(١) .

كما أورد الجبرتى قصـــة فى أول رمضان ١١٨٣ هـ الموافق ٢٩ ديسمبر ١٧٦٩ م جاء فيها أنه « اتفق أن على بيك صلى الجمعة الأولى من رمضان بجامع الداودية ، فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان . ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة ، وقام على بيك يريد الانصراف أحضر الخطيب . وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح . فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر ؟ أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك ، فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه : بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ ، ثم إن على بيك أرسل إليه فى ثانى يوم بدراهم وكسوة واستسمحه »(٢) .

ومما ذكره الجبرتى ندرك مدى حرص على بك على استمرار الخطبة للسلطان العثمانى باعتباره سلطانا لكل الدولة بما فيها مصر ، ولا يعنى ما ذهب إليه البعض من أن على بك كان حريصا على إخفاء أهدافه الإنفصاليه ، ذلك أن هذه الحادثة وقعت بعد مرور أكثر من عام على بدء حركة على بك بانزال الباشا من القلعة التى تمت — كما رأينا فى ١٧ رجب ١١٨٢ هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٧٦٨ م .

---

(١) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٣ .
(٢) نفس المرجع ص ٩٠ .

وأما عبارة « سلطان مصر وخاقان البحرين » فلم تكن هناك أدلة على أن على بك تلقب بها ، وقد يكون شريف مكة عبد الله قد لقب على بك بهذه العبارة ، وقد يكون دعا له على منابر الحجاز اعترافا بفضله عليه فى تقلده شرافة مكة . وأما توقف الخزنة الرسمية عن الذهاب من مصر إلى اسلامبول فلا تعتبر دليلا على انفصال على بك بمصر عن الدولة العثمانية ، لأن الدعاء للسلطان العثمانى — وهو المظهر الثانى للسيادة العثمانية — على المنابر فى صلاة الجمعة بقى قائما طوال سنوات حكم على بك . بالإضافة إلى أن العملة — وهى المظهر الثالث للسيادة العثمانية — الفضية والذهبية التى أمر على بك بسكها منذ عام ، ١٧٦ م قد نقش على أحد وجهيها اسم السلطان العثمانى مصطفى الثالث (الذى حكم من عام ١٧٥٧ إلى ١٧٧٣ م) وعلى الوجه الآخر نقشت عبارة « ضرب فى مصر » ، ولا يقال من قيمة ذلك ودلالته ظهور عملة جديدة تحمل طابعا مميزا عن العملة المتداولة فى مصر قبل ذلك .

هذا إلى جانب أن « جميع الأوامر والفرمانات وتقاسيط الالتزام التى كانت تصدر بتوقيع باشا مصر أصبحت تصدر باسم : حضرة على بك ميرلوا قائمام محروسة مصر « كما كانت تقاسيط الالتزام تختم بخاتمه الخاص دون أى إشارة إلى الباشا وذلك فى المدة الواقعة بين عامى ١١٨١-١١٨٦ هالموافق ١٧٦٨ — ١٧٧٢ م »[1]

والرأى عندى هو أن على بك فى حركته لم يكن يهدف إلى الانفصال التام بمصر عن الدولة العثمانية ، وكل ما كان يطمح إليه هو أن تكون له مقاليد الأمور فى مصر ، وأن على بك لم يكن أبدا يرمى إلى إعلان العداء للدولة العثمانية أو محاربتها رغم أنه لجأ إلى ضم الحجاز إلى مصر وهو أمر حيوى لمصر وحكامها من الناحية الدينية والسياسية . ورغم أنه استعان بصديقه الشيخ ظاهر العمر ، وبالأسطول

---

(١) د. رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٩

الروسى فى البحر المتوسط لأن هذه الاستعانة حدثت بعد أن رأى عين الغدر من الدولة العثمانية ضده وضد صديقه الشيخ ظاهر الذى كان يشارك على بك الشكوى من أن الدولة العثمانية رغم محاولاتها لإرضاء قادتها بالهدايا والأموال وترسل دليل رضاها إلى الرجلين ، سرعان ما كانت تنقض هذا الرضاء وتحرض للقضاء عليهما .

مصر بعد على بك

بعد وفاة على بك تسلم زمام الأمور فى مصر محمد بك أبو الذهب مع وجود باشا عثمانى هو خليل باشا الذى ذكر الجبرتى أنه « محجوز عليه ليس له فى الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق . والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب »[1] . حتى إذا توفى أبو الذهب عام ١٧٧٥ خلفه فى مشيخة البلد خشداشه إسماعيل بك . وبعده إبراهيم بك ومراد بك مملوكا أبو الذهب .

وقد شارك أبو الذهب فى القضاء على إمارة الشيخ ظاهر العمر فى عكا بتحريض من السلطان العثمانى الذى أغرى أبى الذهب بالامارة على الشام مع مصر ، ولكن أبا الذهب توفى فى نفس العام الذى قضى فيه على إمارة الشيخ ظاهر فى عكا وهو عام ١٧٧٥ م .

ولقد ساءت الأمور فى مصر فى عهود كل من إسماعيل بك وإبراهيم بك ومراد بك ، وعمت الاضطرابات والقسوة والظلم ، كما حدثت خلافات بين إسماعيل بك من ناحية وبين إبراهيم بك ومراد بك من ناحية أخرى دعت الدولة العثمانية إلى التدخل عام ١٧٨٦ م بحملة عسكرية اضطر أمامها كل من إبراهيم بك

---

(١) يروى عن أبو الذهب أنه عندما تقلد إمارة الحج لأول مرة عام ١١٧٨ هـ ولبس خلعتها فى القلعة نزل يفرق نقودا ذهبية، وينثر الذهب على الفقراء حتى دخل بيته وهو يقول أنا أبو الذهب .

ومراد بك إلى الفرار من القاهرة إلى الصعيد ، حتى إذا توفى اسماعيل بك بالطاعون عام ١٧٨٨ عاد الرجلان وتقلدا مشيخة البلد وإمارة الحج بالتناوب فيما بينهما وظلا على هذا الوضع حتى فاجأتهما الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت عام ٧٩٨ م .

ولم تستفد مصر بتاتا من حكم هؤلاء البكوات بل تحمل شعبها عبء الارهاق وشظف العيش لدفع الأموال المطلوبة للصراع بين البكوات ، وحتى التجار الاجانب عانوا من تعسف المماليك الذين أساءوا معاملتهم وأرهقوهم بالضرائب مما أدى إلى إغلاق البيوت التجارية الأجنبية وكل من القاهرة والاسكندرية .

هذا على الرغم من محاولات الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا وفرنسا والروسيا التى تنافست لعقد معاهدات مع إبراهيم ومراد من أجل إحياء الطريق البرى عبر مصر والمساعدة على استقلال مصر لصالح الاميرين المملوكيين على نفس النسق الذى كانت عليه مصر فى عهد على بك الكبير .

وكان عقد معاهدة بين مراد وترجويه الفرنسى عام ١٧٨٥ م دافعا لعقد معاهدة بين القنصل الانجليزى بالدوين George Baldwin وكل من إبراهيم ومراد عام ١٧٩٤ م كما كانت دافعا لنشاط روسى لعقد معاهدة مع البكوات المماليك فى مصر ، وقد قيل « إن مراد عرض على روسيا أن يعطيها — وقت الحرب مع الدولة العثمانية حق إقامة حاميات بالاسكندرية ورشيد ودمياط فى مقابل اعترافها باستقلال مصر وفى العام التالى جاء رسولان من روسيا لفحص هذه الاماكن تمهيدا لإنزال حاميات روسية بها ، واستقبل مراد قنصلا لروسيا بالاسكندرية »[1] .

وقد أهملت الزراعة وشئون الرى « مما أدى إلى طغيان رمال الصحراء على

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ذكره ص ٢٤٦ .

الترع والقنوات ، وإتلاف قسم كبير من الأرض الصالحة للزراعة ، وفضلا عن ذلك فقد أهملوا فى تحصين البلاد التى تسلموا زمامها ، واضمحلت فى عهدهم الاسكندرية ، وهكذا كانت مصر ضعيفة عسكريا لا قدرة لها على المقاومة ومدافعة الغزو الأجنبى ، وظهر هذا الضعف واضحا عندما حضرت إلى البلاد الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ م » »[١] .

---

(١) د . السيد رجب حراز : نفس المرجع السابق ص ٣١ .

الباب الثالث

حركات الإصلاح السلفية

- مقدمة

مقدمة :

يعتقد بعض المؤرخين أن ما اصطلح على تسميته بالحركات السلفية فى العالم العربى الاسلامى إنما ظهرت كنشوة دينية ضد ماساد البلاد الاسلامية من تصرفات وسلوك يتنافى مع جوهر الدين الاسلامى الحنيف ، وأن هذه الحركات الدينية إنما ظهرت لكى تعيد للدين الاسلامى مكانته الأولى التى ظهر بها فى عهد الرسول الكريم ومن بعده الخلفاء الراشدين ..

ويعتقد البعض الآخر أن هذه الحركات الدينية إنما ظهرت لكى تقف أمام أطماع الدول الاستعمارية الأوروبية المسيحية فى أقطار الوطن العربى الاسلامى.

بينما يرى بعض المؤرخين أن هذه الحركات الدينية ظهرت بسبب سوء أحوال العالم العربى الاسلامى بسبب تفتت القوى الاسلامية بظهور الحركات الاستقلالية والإنفصالية فى ولايات الدولة العثمانية ، فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تعيش عصر انحلال وضعف .

والرأى عندى أن ظهور هذه الحركات الدينية المتمثلة فى الحركة الوهابية فى نجد بالجزيرة العربية ، والدعوة السنوسية فى برقة بليبيا ، والثورة المهدية فى كردفان بالسودان ، إلى جانب فكرة الجامعة الاسلامية التى تزعم الدعوة اليها المفكر الاسلامى جمال الدين الأفغانى واتخذ من مصر مركزا لهذه الدعوة ، بالإضافة إلى الطرق الصوفية التى قامت فى الشمال الافريقى كالطريقة التيجانية والطريقة الشاذلية وغيرها وفى المشرق العربى كالطريقة القادرية فى العراق . ان ظهور هذه الحركات إنما كان رد فعل للشوائب التى شابت العقيدة الاسلامية وتطرف بعض المسلمين وخروجهم عن جوهر العقيدة بل وارتداد بعضهم إلى عبادة الأصنام .

واعتقادي يستند إلى أن هذه الحركات الدينية بدأت دعوتها بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله وترك البدع والتصرفات المنافية للعقيدة الاسلامية ، وأن وقوف هذه الحركات أمام الأطماع الاستعمارية إنما جاء بعد أن أصبح لهذه الحركات تنظيماتها ورجالها الذين ينفذون أهدافها وسياستها ، كما أن ظهور هذه الحركات كرد فعل للتفتت فى القوى الاسلامية فلم يتحقق ذلك إلا فى دعوة السيد جمال الدين الافغانى من أجل تحقيق فكرة الجامعة الاسلامية بزعامة الدولة العثمانية ، بينما اصطدمت معظم الحركات الدينية بهذه الدولة العثمانية زعيمة العالم الاسلامى منذ القرن السادس عشر .

ولم يكن ذلك وحده هو مثار الخلاف الوحيد بين المؤرخين حول الحركات السلفية ، فان خلافا من نوع آخر ثار بينهم حول بداية هذه الصحوة الدينية التى عبرت عنها الحركات السلفية . فبعض المؤرخين يعتقدون أن القرن التاسع عشر يمثل بداية ظهور هذه الحركات وذروة نشاطها ، ويستندون فى ذلك إلى أن الحركة الوهابية كان نشاطها الزائد خلال هذا القرن ، كما أن الدعوة السنوسية امتد نشاطها منذ العشرنيات من هذا القون وملأ القرن كله بل والنصف الأول من القرن العشرين ، وأن الثورة المهدية ظهرت فى أوائل الثمانينات من هذا القرن أيضا واستمرت حتى نهايته ، كما أن دعوة جمال الدين الافغانى لفكرة الجامعة الاسلامية ظهرت خلال النصف الثانى من هذا القرن كذلك .

والبعض الآخر من المؤرخين يعتبرون القرن الثامن عشر هو بداية ظهور معظم هذه الحركات وان امتد نشاطها خلال القرن التاسع عشر ، باعتبار أن القرن الثامن عشر شهد بداية ظهور محمد بن عبد الوهاب فى نجد عام ١٧٤٤ م كما شهد ميلاد محمد على السنوسى عام ١٧٨٧ م بالجزائر كما أن أسباب هاتين الحركتين واسباب الثورة المهدية ليست وليدة احداث القرن التاسع عشر ، بل هى وليدة أحداث القرن الذى يسبقه على الاقل .

بينما يرى فريق ثالث من المؤرخين أن بذور هذه الحركات الدينية إنما ترجع إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بظهور العالم المصلح أحمد بن تيمية الدمشقي الذي عاش في الفترة من ١٢٦٣ إلى ١٣٢٨ م ، الذي عاش دمار التتار في الوطن العربي الاسلامي ، فاتخذ من القرآن الكريم مصدراً لإصلاح النفوس وبعث الهمم ، وتأكيد عقيدة التوحيد السامية ، وهاجم خصوم العقيدة الاسلامية وفقهاء العصر الجامدين ، ورجال الدين ورجال الحكم الذين استبدوا بالسلطان فأفسدوا السلطة .

والرأى عندى أن حركات الاصلاح الدينى تبدأ فعلا بالعلامة أحمد بن تيمية منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، لكنها ازدهرت وزاد نشاطها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكن يجب أن يكون واضحا أن فكرة التوحيد التى نادى بها أحمد بن تيمية كانت عاملا مشتركا لكل الحركات الدينية الأخرى ، كما كانت هناك عوامل أخرى اشتركت الحركات السلفية فى التأثر بها مما يجعل الباحث يعتقد بوحدة هذه الحركات فى الهدف وفى المصير أيضا مما سوف أسوقه بالتفصيل ..

الفصل الحادي عشر

الحركة الوهابية

- نجد
- محمد بن عبد الوهاب .
- أسس الحركة الوهابية .
- أساليب الحركة الوهابية .
- الحركة والأتراك .
- الحركة والقوى الخارجية .
- تقييم الحركة الوهابية .

نجـــد

كانت نجد بشبه الجزيرة العربية هى المنطقة التى انبعثت فيها دعوة محمد بن عبد الوهاب للتوحيد « ونجد هضبة تتوسط شبه الجزيرة العربية وإن غلب عليها الطابع الصحراوى الجاف إلا أنها تضم كثيرا من الوديان والواحات الخصبة أهمها وادى حنيفة ووادى الرمة وبدايته قريبة من المدينة المنورة وتبلغ مساحة هذه المناطق أكثر من عشرة آلاف ميل « وهى تتكون من سلسلة مناطق واقعة عند أطراف جبل طويق ، وتمتد سلسلة من البلدان والقرى من سدير فى الشمال وتنتهى فى الجنوب إلى وادى الدواسر ، ومجموعة المناطق الخصبة تحيط بها الدهناء شرقا وجنوبا ، والنفود ، والمنحدرات من الشمال ومنحدرات من الغرب »(١) .

ويفصل إقليم نجد عن الاحساء الواقعة على الخليج العربى مرتفعات الصمان ورمال الدهناء ، ومع اتساع هضبة نجد فإن القسم المأهول منها « لا يتعدى سلسلة ضيقة من الواحات ممتدة على شكل هلال تحف بها الرمال من كل جانب ، وتفصل ما بينها أحيانا ، فهى محدودة من الجنوب بصحراء الربع الخالى ومن الشرق بالدهناء ومن الشمال بالنفوذ الكبير ومن الغرب بأنفاد السروا لبطرا وقنيفذة الخ » (٢) .

والمنطقة بصفة عامة صحراوية . وحيث توجد الآبار بقدر كاف من الماء ظهرت مدن وقرى تحاط بالبساتين ، وهذه على أية حـــال كثيرا ما تكون

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣ .
(٢) د . عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى ص ٦٥ .

متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة بلاد العرب ، ودون أن تربط بعضها ببعض منطقة زراعية [1] .

ومن أهم واحات نجد القصيم والسدير والحوطة والحريق ووادى الدواسر والجوف والوشم التى عاصمتها شقراء مركز التجارة بين بلاد العرب وكل من الهند وسوريا والعراق ، وواحة المحمل ، والعارض ومركزها مدينة الرياض . وتعتبر واحة العارض التى عرفت قديما باليمامة قلب هضبة نجد ومن بلادها إلى جانب الرياض مدينة الدرعية منبت آل سعود ومركز إمارتهم ، والعمارية والعينة والجبلة ، ومن واحات نجد أيضا الخرج ، وجبل شمر الذى يعتبر متمما لهضبة نجد وسمى بذلك لأن قبائل شمر تسكنه وتعمل بالزراعة نظرا لتوفر المياه وخصوبة الأرض .

وإذا كانت نجد تعيش طبيعيا بهذه الصورة الصحراوية بكل ما تشتمل عليه من صحراء ووديان وواحات ، فإن تأثر السكان بهذه الظروف الصحراوية واضح ويتضح أكثر بذكر مناخ هذا الإقليم . فالحرارة تشتد فى النهار والبرودة تزداد ليلا ، والجو جاف ، والأمطار قليلة بصفة عامة وأكثر مناطق نجد حظا فى الأمطار مناطق جبال شمر والنفود الشمالى ، بينما الصحراء الجنوبية تكاد لا تسقط بها الأمطار .

وتبعا لذلك فإن سكان نجد ينقسمون إلى قسمين رئيسيين بدو وحضر فالبدو هم القبائل الرحل الذين يتنقلون من جهة إلى أخرى فى طلب المراعى لأغنامهم وهم لا يميلون إلى الاستقرار ، وكثيرا ما يلجأون إلى التقاتل من أجل حصولهم على أماكن غنية بالعشب لرعى ماشيتهم ، أما الحضر فهم المستقرون فى الواحات والقرى والمدن ويشتغلون بالزراعة والتجارة ويهتمون بالعلم ، وان كانت لهم صلات تجارية وإجتماعية مع البدو .

---

(1) الليدى آن بلنت ترجمة محمد أنعم غالب : رحلة إلى بلاد نجد ص ٢٠٧ .

وأما بالنسبة لمركز انبعاث الحركة الوهابية فان هذا المركز يتمثل فى رأيى فى بلدة العيينة التى ولد بها محمد بن عبد الوهاب وبلدة الدرعيـة مقر إمارة آل سعود الذين ساندوا الحركة الوهابية . أما بلدة العيينة فهى من بلاد إقليم أو واحة العارض التى قلبها وادى حنيفة وهى بلدة يشتهر أهلها بالزراعة كما يهتمون بالعلم وهى بلدة صغيرة نوعـا وأما بلدة الدرعيـة فتقع غربى مدينة الرياض وتبعد عنهـا بحوالى ١٢ ميلا وهى فى الجهة الشمالية من وادى حنيفة وبها كثير من أشجار النخيل والفاكهة يرويها عدد كبير من الآبار غزيرة المياه ، وأشهر ضواحيها الطريف فى الجهة المقابلة من الوادى ومريحة والغصيبه ، (١) .

ومن البديهى أن تكون هناك ظروف تعيش فيها نجد بل وشبه الجزيرة العربية تماثل ظروف العالم العربى الإسلامى تستدعى قيام حركة إصلاح كحركة محمد بن عبد الوهاب وغيرها من حركات الاصلاح ، أى أن توفر ظروف معينة يعتبر سببا وجيها لقيام دعاة الاصلاح لتحسين ظروف أهل البلاد إلى ما هو أحسن ، وما دمنا بصدد الحديث عن الظروف التى دعت إلى ظهور محمد بن عبد الوهاب بدعوته فاننا سوف نتناول الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية التى عاشتها نجد وبلاد العرب بصفة عـامة التى دعت محمد بن عبـد الوهاب إلى إعلان دعوته الاصلاحية .

الظروف الاجتماعية :

تأثرت الظروف الإجتماعية لأهالى نجد بطبيعة الأرض التى يعيشون عليهـا وهى أرض صحراوية تقام فى أنحاء متفرقة متباعدة مدن صغيرة حول آبار للمياه وبالقرب من الواحات . ومن ثم وجدنا السكان ينقسمون إلى بدو وحضريين ، فالبدو رحل يتنقلون بأغنامهم وإبلهم وراء المراعى ، ومن ثم يتميزون بالخشونة فى طباعهم ، والاستعداد الدائم للقتال من أجل المراعى والمياه .

---

(١) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٥٠

وكانت مسألة توفر المراعي والمياه للابل والاغنام لا تحدث إلا بالرحلة والضرب في المناطق النائية ، ولذلك صار كل تنظيم سياسي قائم على الاستقرار في السكن أمرا متعذرا على البدوي ، والصلة الدموية وحدها هي التي تعين الفلك الذي تضطرب فيه حياة البدو ، فهي تربط الأسر بالعشائر ، والعشائر بالقبائل[1].

والقسم الثاني من سكان نجد هم سكان المدن والواحات والقرى وهم أكثر استقرارا من البدو ، وإن كانوا في الأصل من البدو وتوطنوا في مساكنهم من قديم[2] . والحضر يشتغل معظمهم بالتجارة ، إلا أن التجارة في الفترة السابقة لقيام الدولة السعودية ـ وحركة محمد بن عبد الوهاب ـ فقدت أهميتها كمورد رزق لبعض سكان نجد نظرا لفقدان الأمن وعدم استقرار النظام وانتشار الفوضى[3]

وسكان نجد من البدو والحضر ينتظمون في قبائل تحكمها العرف والتقاليد المتوارثة. فإذا كانت القبائل البدوية سمتها عدم الاستقرار والتقاتل والاغارة على من جاورهم أو الهجرة إلى أرض جديدة ، فان الحضر انتظموا في مجموعة من الإمارات أو المشيخات التي تتفق مع القبائل البدوية في الطباع الصحراوية حيث عاد السكان إلى مفاهيم الحياة البدوية الجاهلية التي كانوا عليها قبل الإسلام وعادت العصبيات القبلية تمزق المجتمع وتفتته . وعاد الغزو والسلب والنهب ليكون مصدر العيش في الصحراء[4] .

ورغم ذلك فقد بقيت عند أهل نجد عادات العرب الأصيلة مثل المروءة والشجاعة ، فمن ذلك أن الحماية تمنح للمسافر الغريب طوعا وعن طيب نفس ،

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٧ .

(٢) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٣) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ص ٩ .

(٤) أحمد عسه : معجزة فوق الرمال ص ١٢ .

وقد يضم أحد أفراد القبيلة رجلا غريبا إلى عشيرته ضما لا انفصام له[1] هذا إلى جانب علاج الخلافات اليومية عن طريق المجالس اليومية ، والطاعة لشيخ القبيلة والاستماع إلى من هم أكبر سنا واحترام مجلسهم ، والتضحية بالروح أثناء الحرب وبالأموال أثناء السلم . وهم على العموم كما ذكر أحمد بن سعيد البغدادى فى كتابه نديم الأديب فى حديثه عن أهل نجد فى تلك الفترة : ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسننهم فهى عندهم[2] .

وأما قبائل وعشائر نجد فانهم كانوا موزعين على النحو التالى : أهل حايل ينتمى أكثرهم إلى شمر ، وأهل القصيم يرجعون فى الغالب إلى بنى خالد وبنى تميم ، وأهل الجنوب ينتمون فى أنسابهم إلى عنزة ، وأهل الوسط إلى الدواسر وبنى تميم ، وأهل الجنوب الغربى ينتمون إلى الدواسر وقحطان[3] .

والتنظيم القبلى كان يعطى لشيخ القبيلة السلطة الكاملة على كل أفراد قبيلته ، وهو فى العادة أكثر أفراد قبيلته ثروة وأكبرهم مركزا وسنا فى الغالب ، ولذلك يعد المسئول عن كل ما يلحق بقبيلته من إغارات القبائل الأخرى إلى جانب مسئوليته عن تنظيم الأمور المتعلقة بأفراد قبيلته مهما سكنوا فى مناطق متفرقة أو فى قرى وواحات متباعدة ، ومهما اختلفوا من حيث الثراء ، أو فى درجة التحضر ، فالكل أمام عرف وتقاليد القبيلة سواء .

الظروف السياسية :

كانت الأحوال السياسية لمنطقة نجد فى فترة ظهور دعوة محمد بن عبد الوهاب تتمثل فى وجود عدة إمارات صغيرة تتخذ كل إمارة منها مقرا لها فى بلدة

(1) كارل بروكلمان : نفس المرجع ص ١٧ .
(2) عبد الكريم الخطيب : الدعوة الوهابية ص ٤٢ .
(3) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٤٧ .

ولها أميرها الذى هو فى نفس الوقت زعيما لعشيرة أو رئيسا لقبيلة له الكلمة النافذة على أهل إمارته .

ومن الثابت أن إقليم نجد لم يخضع للحكم العثمانى كما خضع أطرافه فى الحجاز والإحساء مثلا ، ومن ثم لم يشهد الاقليم ولاة عثمانيين يأتون إليه ولا حامية تركية تجوب خلال دياره[1] ، ولقد تركت الدولة العثمانية هذا الاقليم لأهله يحكمونه بالطريقة القبلية المألوفة طالما لا يعلن أهله العداء للدولة . كما أن الاقليم كان فقيرا فلم يكن مغريا للعثمانيين .

وأما الامارات القائمة فى إقليم نجد فقد سادتها علاقات الجفاء وكثيرا ما كانت الحروب تنشب بينها . وتكاد كل إمارة منها أن تكون منعزلة عن غيرها لا تربطها بها روابط سياسية معينة بحكم تجاورها . ولم تكن الروابط التى تجمعها سوى العلاقات التجارية ، والجوار ، ووحدة الاصل ، وأشهر الأسر النجدية الحاكمة فى ذلك الوقت هى آل معمر فى العيينة ، ودهام بن دواس فى الرياض ، وآل زامل فى الخرج ، وآل سعود فى الدرعية[2] .

الأسرة السعودية تنتسب إلى قبيلة عنزة التى تعتبر من أكثر القبائل العربية عددا وفروعا وانتشارا فى نجد والعراق وبلاد الشام ، وقبل ارتباط هذه الاسرة بزعامة أميرها محمد بن سعود بحركة الامام محمد بن عبدالوهاب لم يكن لآل سعود شأن كبير فى نجد ، ولم يكن لهم تأثير يذكر فى شئون الجزيرة العربية ، بل كان شأنهم شأن غيرهم من شيوخ المقاطعات النجدية[3] .

---

(١) ساطع الحصرى : الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٢٣٩ .

(٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ١٣ .

(٣) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢١٠ .

الظروف الدينية :

كانت بيئة أهل نجد قد سيطرت عليها البدع والخرافات التين امتزجتا بالنفس وأصبحتا جزءا من عقيدة الاسلام ، والدين منها براء . ومن ثم فإن الدين قد غشيته غشية سوداء . فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة – محمد بن عبد الله – الناس سحبا من الخرافات ، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والمسبحات . فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض فى ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الاسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين . كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان(١) .

وقد انغمس الناس وأسرفوا فى تلك البدع والخرافات التى تمثلت فى الحج إلى القبور للتبرك وقضاء الحاجات وتفريج الكروب ، والتبرك بذكر النخيل أو شجرة فى نجد تسمى شجرة الذيب ، أو غار فى أسفل الدرعية ، أو زيارة الدجالين الذين يدعون القدرة على إجابة المطالب . وهذه المطالب كثيرة كالرغبة فى إنجاب البنين ، أو الانجاب للعواقر ، أو الزواج للعوانس ، ولطول العمر وغير ذلك من الأساطير والخرافات التى نسجت حول هذه الأشياء والأماكن والأشخاص .

ولم تكن نجد تنفرد بمثل هذه الخرافات والبدع ، فقد شاركتها فيها بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من الاقطار الاسلامية التى تعرضت لمثل ظروف شبه الجزيرة العربية وأعنى الظلم والفقر والجهل ، وهى ظروف ساعدت على كثرة الدجالين وأصحاب البدع ممن يجدون لبضاعتهم سوقا رائجة فى دنيا العوام وأشباه العوام ، فهذه هى الفرصة السانحة لطلاب الصيد فى الماء العكر ،

---

(١) لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض : حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٥٩ .

فما للدجالين والمغامرين مرعى أخصب من هذا المرعى الذى يخيم عليه الجهل والفقر(1) .

ونتيجة لذلك فقد كان التدهور فى المجتمع الاسلامى يسير بسرعة حتى أصبحت القيم التى أكسبها الاسلام لمجتمع شبه الجزيرة العربية قد اضمحلت واندثرت أو كادت ، واحتلت الضلالات والبدع والخرافات والاساطير فى نفوس العامة وغير العامة محل القيم الصحيحة للاسلام ومبادئه حتى أصبحت بعض الأشجار والكهوف والمغاور والقباب والقبور والأضرحة موضع قداسة وشفاعة أقرب إلى العبادة ، وحتى أضحت تعاليم الاسلام التى تضبط المجتمع وتحكم روابطه نسيا منسيا ، حتى كأن الاسلام لم يظهر فى شبه الجزيرة العربية ولم يترك أثرا حضاريا لاعلى رمالها ولا فى عقول أبنائها ونفوسهم(2) .

كانت تلك أحوال المسلمين فى نجد قبيل قيام الامام محمد بن عبد الوهاب بالدعوة لأفكاره ومبادئه ، وهى أحوال كانت فى حاجة إلى مصلح بل إلى مصلحين ، وبالفعل ظهر هؤلاء المصلحون منذ القرن العاشر الهجرى الخامس عشر الميلادى ، وكانوا من فقهاء مذهب أحمد بن حنبل الذى كان سائدا فى إقليم نجد وليس أدل على ذلك من أنه لم تذكر ترجمة لقاض من قضاة إمارات نجد إلا ومن بين أوصافه الحنبلى ، ولم يذكر عالم حنبلى فى القاهرة أو دمشق دون أن يكون من بين أساتذته أو تلاميذه أحد النجديين(3) .

وكان من معتنقى مذهب أحمد بن حنبل القاضى عبد الوهاب محمد بن محمد

---

(1) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٣١ — ٣٢ .

(2) أحمد عمر : نفس المرجع السابق ص ١٢ .

(3) د . صلاح العقاد: دعوة حركات الاصلاح السلفى :المجلة التاريخية ح ٧ ص ٨٧ .

بن سليمان بن على التميمى والد محمد بن عبد الوهاب ، حيث كان بيت هذه الأسرة ملتقى لطلاب العلم والراغبين فى دراسة مذهب أحمد بن حنبل . الذين استندوا فى دراسة هذا المذهب على مؤلفات العلاقة ابن تيمية التى وجدت طريقها إلى نجد بصورة كبيرة ، والتى كان لها تأثير كبير على الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى عكف على دراستها واعتناق آراء صاحبها منذ فترة مبكرة ، وقبل قيامه بالرحيل لطلب العلم خارج نجد(١) .

محمد بن عبد الوهاب

ولد محمد بن عبد الوهاب طبقا للرأى الارجح عام ١١١٥ هـ الموافق عام ١٧٠٣ م ببلدة العيينة التى تقع بالقرب من مدينة الرياض ، وكانت تلك البلدة تحت إمارة عبد الله بن محمد من آل معمر الذين كانوا خاضعين لنفوذ حاكم الاحساء ، وكان الشيخ عبد الوهاب والد محمد يعمل وقتها قاضيا لبلده العيينة وهو فى نفس الوقت متفقه فى مذهب أحمد بن حنبل الذى كان يقوم بتدريسه مع الحديث والتفسير لطلاب العلم الذين يمضون الوقت فى جدال فقهى أو نقاش دينى ، وكان الطفل — محمد — وقد شب وأصبح صبيا ، يحلو له أن يرقب مجلس أبيه عن كثب فينصت لأحاديث القوم ومجادلاتهم(٢) .

وصاحب الدعوة هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد بن راشد التميمى عربى خالص العروبة فى دمه وفى لسانه وفى عواطفه وفى بيئته ، فهو ينحدر من أصول عربية تنتهى به إلى مضر ، وهو بطن من بطون تميم أكبر القبائل العربية وأعزها(٣) . وقد كان بيت والده بيت علم ودين، ولم يلحظ

---

(١) د . عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١٢ .

(٢) د. عبد الحميد البطريق: الوهابية دين ودولة . بحث منشور بمجلة كلية البنات سنة ١٩٦٤ ص ٤٢ .

(٣) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٤٥ .

عليه أبوه ومعلمه فى طفولته إلا تفتحا مبكرا فى عقله ونموا مبكرا فى جسمه ، حتى أنه استظهر القرآن وهو فى العاشرة من عمره ، وبلغ مبلغ الرجال وهو فى الثانية عشرة ، فزوجه أبوه ، وجعله يؤم المصلين ، وأخذ يسترشد بآرائه فيما يعترضه من فتاوى ومسائل فقهية (١) . حتى كان والده يقول عن ابنه : لقد استفدت من ولدى محمد فوائد شتى فى الأحكام (٢) .

ولقد تأثرت شخصية الإمام محمد بن عبد الوهاب فى مكوناتها من عدة عوامل أولها نشأته فى بيت يشتغل أهله أبا عن جد بالعلوم الدينية ومن ثم نشأ واسع الثقافة وسبق زملاءه من الصبيان بما اتصف به من سرعة الحفظ والادراك والقدرة على الفهم . كما كان من عوامل التأثير فى مكونات شخصيته تأثره بمذهب الإمام أحمد بن حنبل وهو المذهب الذى وجد أسرته تعتنقه وتدرسه وتفق فيه بل تقضى على أصوله ، وامتلأت خزانة كتب الأسرة بمؤلفات العلامة أحمد بن تيمية ، وابن قيم الجوزية وغيرهما من مدرسة بن حنبل ، ومن ثم فان محمد بن عبد الوهاب انصرف عن الفقه الجدلى والفلسفى إلى تناول الدين من قريب ، وفهم أصوله من كتاب الله وسنة رسوله .

ويمكن أن نحدد الاساتذة الذين سبقوا محمد بن عبد الوهاب والذين يرجع إليهم الفضل فى إقامة منهج البحث الفقهى على النظر القريب دون تأثر بالفلسفة والجدل الكلامى ، وهم الاساتذة الذين تأثر بهم محمد بن عبد الوهاب وعلى رأسهم : الحسن البصرى الذى كان يعرف بشيخ المتبعين الذى يمثل مذهب السنة المقابل للمعتزلة الذين

---

(١) أحمد عسه : المرجع السابق ص ١٢ — ١٣ .
(٢) حسين بن غنام : تاريخ نجد ص ٧٥ .

الذين نحوا نحوا فلسفيا فى النظر والتفكير فى أمور الدين . ومن هؤلاء الاساتذة كذلك أحمد بن حنبل صاحب المذهب الرابع من مذاهب أهل السنة واكثرها تشددا ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية وغيرهم ممن تابعوا شيخ المذهب الإمام أحمد بن حنبل (١) .

ومن العوامل ذات الأثر على مكونات شخصية الإمام محمد بن عبد الوهاب كذلك طبيعة البيئة التى نشأ فيها . وهى بيئة صحراوية بدائية ليس فيها مجال التعقيد ولكنها بيئة واضحة مكشوفة ، والناس فيها على الفطرة ومن السهل أن ينقادوا إلى البدع والخرافات إذا لم يوجد من يأخذ بيدهم ويبصرهم بحقيقة وبساطة الدين الاسلامى ، ويوضح لهم بأسلوب سهل غير معقد خطأ الوقوع تحت تأثير الدجالين والاستمرار فى اتباع تيار التقاليد المتوارثة والمخالفة لجوهر الدين الاسلامى .

وكانت الرحلات التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب ذات تأثير على أفكاره وشخصيته ، وإذا تذكرنا القول المأثور بأن السفر فيه خمس فوائد ، فان رحلات محمد بن عبد الوهاب كانت مدرسة نافعة له ، فقد وسعت من أفقه ونبهته إلى الأخطاء الشائعة فى العالم الاسلامى ، وجعلته يصمم على القيام بدعوته الاصلاحية فوق ما استفاده فيها من الدراسات العلمية والأخذ عن مشاهير العلماء فى مختلف العواصم الاسلامية (٢) .

وكانت أولى رحلاته خارج نجد إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج وزار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة ، واجتمع هناك إلى فقهاء وعلماء من مذاهب سنية متنوعة ، ورأى ما يحدث أمام قبر الرسول عليه الصلاة والسلام

---

(١) د . حسن محمود : المملكة العربية السعودية ص ٥٩

(٢) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٥٥ - ٥٦

من بدع ، ومن العلماء الذين التقى بهم العلامة عبد الله بن إبراهيم بن سيف، أخذ عنه الشيخ الإمام - محمد بن عبد الوهاب - ولازمه مدة ، وقد سأله تلميذه الشيخ عما يفعل حول قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من النداءات الشركية وطلب الغوث وطلب الشفاعة - فأجابه بقوله: إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون (١) .

كما التقى فى المدينة المنورة بالعلامة أبى المواهب البعلى الدمشقى ، والعلامة محمد حياة السندى المدنى ، وغيرهم من مدرسة أحمد بن حنبل وعنهم أخذ الإمام محمد بن عبد الوهاب الكثير من مسائل الفقه القائم على النظر فى كتاب الله وسنة الرسول بقلب سليم وعقل واعى .

وكانت رحلته الثانية إلى العراق حيث زار بغداد ومكث بالبصرة أربع سنوات حيث تعلم فيها علمى اللغة والحديث على يد عالم بصرى ، وأثناء إقامته بالبصرة شاهد مايفعله غلاة الشيعة عند قبور وأضرحة الاولياء وآل البيت من تقديس وأعمال تدل على الجهل والضلالة ، فأخذ ينتقد هذه الأعمال حتى ضاق به أهل البصرة واستنكروا صراحته فى نقد أفعالهم المنافية لجوهر الدين الاسلامى فأخرجوه من بلدهم فحدثته نفسه بالذهاب إلى الشام ولكن ضيق ذات اليد جعله يعدل عن فكرته هذه (٢) ويتجه إلى نجد حيث بلدة حريملا التى كان والده قد انتقل إليها.

ورغم خروج الإمام محمد بن عبد الوهاب من البصرة مطروداً فقد درس الكثير من كتب اللغة والحديث ، وأفتى بما يراه صحيحا فيما عرض عليه من أمور فيذكر أن أناسا من مشركى البصرة يأتون إلى بشبهات يلقونها على مأقول

---

(١) الشيخ عبد العزيز آل الشيخ : تعقيب على كتاب الدعوة الوهابية لعبد الكريم الخطيب ص ٤٧ .

(٢) د . عبد الحميد البطريق : المرجع السابق ص ٤٣ .

وهم قعود لدى ، لاتصلح العبـــادة كلها إلا لله . فيبهت كل منهم فلا ينطق فاه (٢) .

وعاد الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى نجد من رحلاته خارجها وقد اتسعت ثقافته وزادت تجاربه واكتمل نضجه إذ كان عمره آنذاك خمس وثلاثون سنة ليعتكف على المزيد من كتب الفقه والتفسير والحديث . ثم يخرج إلى الناس بدعوته إلى التوحيد وترك ماهم فيه من بدع وضلالة .

أسس الحركة الوهابية

لا يمكن لنا الخوض فى تفصيل أسس الدعوة ومبادئها التى أعلنها الإمام محمد بن عبد الوهاب دون الحديث عن جهود العلامة أحمد بن تيمية فى مجال التوحيد مما يؤكد امتداد مبادئ العالمين وارتباطها بل ووحدتها ، وأيضا تناول موضوع الدعوة وأصل تسميتها .. فلم يكن يعلم ابن تيمية ذلك المصلح العظيم الذى أيقظ العقول وبعث الفكر العربى الأصيل فى أوائل القرن الرابع عشر أن الله سيهيئ لتعاليمه رجلا فى قلب الصحراء العربية اسمه محمد بن عبد الوهاب يحيى هذه التعاليم ويعمل على تحقيقها (٣) .

عاش أحمد تقى الدين بن تيمية الدمشقى فى القرنين السابع والثامن الهجريين (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) الموافق للقرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين (١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) . أى فى الفترة التى شهدت هجمات التتار على أقطار المشرق العربى ، وقد درس الفلسفة اليونانية والعربية والقرآن الكريم وأصول الشريعة الاسلامية والفقه على مذهب أحمد بن حنبل .

---

(١) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) د . محمد بديع شريف : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ١٨ .

وكانت دراسته ومعايشته لما أصاب الأمة العربية الاسلامية على يد التتار سببا لكى يدرك ان ما أصاب أمة العرب ما كان ليصيبها لو ظلت وفية على تمسكها بمبادىء الاسلام الأولى ولم يتأثر المسلمون بمبادىء الباطنية والقرامطة وغيرهم من الفرق المبدعة للضلالات والخرافات التى لصقت بالعقيدة الاسلامية .

فالباطنية اتخذت ما عرف بمبدأ الاشراق الإلهى : الذى كان ركنا ركينا فى مبادئها ، ومعناه أن المعرفة تشرق على أئمتهم فتسموا بهم إلى مرتبة لا ينالها غيرهم ، أى أن الله يفيض عليهم نور المعرفة فتنكشف لهم الحقائق فيعرفون بواطن الامور وظواهرها . وفرقة النصيرية أعانت التتار على محو الاسلام (1) ، ونتيجة لذلك رأى ابن تيمية الجهلة من عامة الناس ينحتون فى الصخور أقداما وأكفا يدعون أنها للنبى محمد عليه الصلاة والسلام فيقدسونها ويتبركون بها أو يصنعون أصناما يسجدون لها .

هال العلامة ابن تيمية ما آل إليه حال الأمة العربية الاسلامية فوجه هجومه إلى خصوم العقيدة الاسلامية الصافية من الحكام والفقهاء وأهل الزهد والصوفيين، ودعاهم إلى (2) .

١ - الرجوع إلى الكتاب والسنة ، واتباع السلف الصالح فى فهم الآيات الأحاديث ، وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين والصوفية حيث أنها لا تتفق مع الروح السلفية القديمة .

٢ - محاربة البدع والمنكرات ولاسيما ما كانت وسيلة للشرك بالله كالتمسح بالقبور والصلاة عندها وطلب الحاجة منها ، والاستعانة أو الاستغاثة بغير الله والتبرك بالأشجار والأحجار التى يعتقد فيها العامة الخير أو دفع الشر .

---

(١) د محمد بديع شريف : نفس المرجع ص ٩

(٢) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٠ .

٣ - ترك الغلو فى تقديس الرسول صلى الله عليه وسلم والاكتفاء بالاهتداء بهديه .

٤ - فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، وعدم التقليد المحقوت. بل ان الكتاب والسنة وآثار السلف من الصحابة هى المصدر الاساسى لكل مجتهد يستطيع عن طريقها الاهتداء إلى الرأى الصائب حتى ولو خالف رأى الائمة الاربعة[1] .

٥ - لعن من اتخذ القبور مساجد ، فقد ورد نهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن اتخاذها مساجد ، ولعن من يفعل ذلك. وقد ذكره غير واحد من الصحابة والتابعين وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد[2] .

وقد أثارت دعوة ابن تيمية عليه أرباب الطرق الصوفية والفلاسفة والمتكلمين المتعصبين ، واكثرهم من ذوى المناصب والنفوذ فى مصر والشام حتى استدعى إلى مصر وضيق عليـــه الخناق ولكن مريديه ظلوا على صلة به إلى أن عاد إلى دمشق بعد أن غاب عنها سبع سنوات ، وفيهـا استأنف الشيخ دعوته الاصلاحية بنشاط وعكف على نشر دعوة التوحيد ومقـاومة المبتدعة والرجوع إلى الكتاب والسنة[3] .

وكان من الطبيعى أن يستمر الرجعيون والمضللون فى عدائهم للامام أحمد

---

(١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٤ .

(٢) ابن تيمية (تقى الدين أبى العباس أحمد بن تيمية) كتاب الزيارة من مجلد الجامع الفريد ص ٤٣٧ .

(٣) حافظ وهبة . نفس المرجع ص ٢٩٠ .

ابن تيمية ، ونتيجة لدسائسهم عند رجال الحكم سجن ابن تيمية أكثر من مرة حتى توفى بالسجن فى قلعة دمشق عام ٧٢٨ هـ الموافق ١٢٧ م، وبموته خفتت دعوته بسبب ملاحقة الحكام لتلاميذه ، ولكنها أحييت على يد الامام محمد بن عبدالوهاب بعد أربعة قرون فى نجد .

وإذا كانت مبادىء دعوة العلامة أحمد بن تيمية تستند إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل ، فقد تأثر الإمام محمد بن عبد الوهاب بآراء وعلم الرجلين ، والواقع أن دراسته لآراء هذين الإمامين انتهت به إلى الإيقان من أن الاسلام فى شكله السائد فى عصره - وبخاصة بين الأتراك - مشرب بالمساوىء التى لا تمت الدين الصحيح بنسب (١) .

وجاءت مبادىء وأسس دعوة محمد بن عبد الوهاب مستندة إلى تعاليم ومبادىء أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية ، ويؤيد ذلك أن مؤلفات وكتابات محمد بن عبد الوهاب تحتوى على كثير من الأسانيد التى ذكرها الإمامين فى شرح الفقه أو فى تفسير آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

وأما أسس ومبادىء دعوة محمد بن عبد الوهاب فيمكن أن نستعرضها فيما يلى :

أولا : مبدأ التوحيد :

ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب فى رسالة له إلى عبدالله بن محمد بن عبداللطيف قوله : إنى لم آت بجهالة بل أقولها ولله الحمد إن ربى هدانى إلى الصراط المستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . ولست ولله الحمد أدعو

(١) كارل بروكلمان: نفس المرجع ص ٥٤٩ .

إلى مذهب صوفي أو غيره بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأدعو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أوصى بها أول أمته وآخرهم (١) .

وهذا المبدأ يثير تساؤلا حول أصل وحقيقة تسمية دعوة محمد بن عبد الوهاب إذ الواضح من البداية أن الدعوة ليست مذهبا جديدا كمذاهب السنة الاربعة ، كما أن تسميتها بالوهابية ليس سوى من قبيل إظهارها بمظهر الحركة الفردية المرتبطة بابن عبد الوهاب وليست حركة عامة ، وقد أطلق الأتراك هذه التسمية عليها فى هجومهم عليها وعلى صاحبها بـل غالوا فى ذلك وأطلقوا على أتبـاع الدعوة الروافض والخوارج ، حتى أن الوثائق الرسمية المتبادله بين محمـد على والباب العالى تنعت الأمير السعودى الذى يعمل على نشر مبـادىء الدعوة السلفية باسم الخارجى (٢) .

وإذا كان الأتراك وخصوم الدعوة قـد نعتوها باسم الوهابية وأتباعها بالخوارج والوهابيين ، فإن أنصارها وصفوها باسم دعوة التوحيد وأطلقوا على أنفسهم ألقاب الحنابلة والاخوان والسلفيين ، ومهما كان تطرف الخصوم فى التسمية أو إسراف الانصار فى التعريف بالدعوة وبأنفسهم فاننا نفضل أن نطلق على الحركة اسم دعوة التوحيد، وذلك استنادا إلى ما جاء برسالة محمد بن عبدالوهاب سالفة الذكر إلى عبد الله بن محمد بن عبدا للطيف من أنه يدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى أنه ينبه الاذهان إلى حكمة عبارة « لا إله إلا الله » .

فماذا يعنى مبدأ التوحيد عند الامام محمد بن عبد الوهاب إذن ؟

يمكن أن نقف على حقيقة هذا المبدأ الذى دعا إليه الامام محمد بن عبدالوهاب من كتبه التى ألفها ورسائله التى بعث بها إلى من أنس فيهم خيرا ، فانه يذكر مثلا

---

(١) حسين بن غنام : تاريخ نجد ص ٢١٥ .

(٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٥ .

فى رسالة له إلى عبد الرحمن بن ربيعة : أن التوحيد الذى دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم هو إفراد الله بالعبادة كلها ليس فيها حق لملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عن غيرهم ، فمن ذلك لايدعى إلا إياه كما قال تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا » فمن عبد الله ليلا ونهارا ، ثم دعا نبيا أو وليا عند قبره فقد اتخذ إلهين اثنين ، ولم يشهد أن لا إله إلا الله هو المدعو (١) .

وذكر فى كتابه التوحيد أن الله ذكر فى قرآنه الكريم ما يؤكد عدم الشرك به كقوله . وأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » وقوله . قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . والرسول عليه السلام يقول : إذا سألت فاسأل الله ، وفى حديث آخر قال : من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » . وفى حديث عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال ، كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لى : يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال فان حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا » (٢) .

ومن أقول الامام محمد بن عبد الوهاب تتضح حقيقة دعوة التوحيد بأن معنى لا إله إلا الله ترك كل معبود غير الله والتوجه إلى الله وحده ، وأن العبادة

---

(١) حسين بن غنام . روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام المجلد الاول ص ٢٢٣ .

(٢) محمد بن عبد الوهاب . كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد ص ٢-٣ .

إذا جعلت لغير الله صار ذلك الغير إلها مع الله وإن لم يعتقد الفاعل ذلك (١) أى أن معنى لا إله إلا الله نفى صفة الألوهية عن كل المخلوقات وإثباتها لله وحده، واعتمد الشيخ فى دعوته إلى التوحيد على الكتاب والسنة وآثار السلف .(٢)

وسئل الإمام محمد بن عبد الوهاب عن معنى لا إله إلا الله فأجاب بقوله . أعلم رحمك الله تعالى أن هذه الكلمة هى الفارقة بين الكفر والاسلام ، وهى كلمة التقوى ، وهى العروة الوثقى ، وهى التى جعلها ابراهيم عليه السلام (كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) . وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها ، ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ، ومحبتها ومحبة أهلها وبغض من خالفها ومعاداته (٣).

ولم يكن التوحيد الذى دعا إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب مذهبا جديدا بل إحياء لمبدأ إسلامى كبير بعد أن اصبحت الأشواك تحيط به - بما تركته الفرق الاسلامية المختلفة كالباطنية والقرامطة وغيرهم « من آثار امتد بها الزمن وطال حتى تمكنت من النفوس واستقرت فى قراراتها بحيث أصبحت عقائد لا يمكن تحويل الناس عنها ؛ ورأى الأوثان والأصنام التى حطمتها عقيدة التوحيد قد عادت ثانية فصدع بقوله تعالى : ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك

---

(١) حافظ وهبة . ففى المرجع ص ٢٩٧

(٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن . الدولة السعودية الأولى ص ٢٦

(٣) محمد بن عبد الوهاب : ثلاثة عشر رسالة . فى مجلد الجامع الفريد ص ٢٦٠ .

لمن يشاء[1] وأن إصلاح الأحوال لا يتم إلا باتباع قول الله تعالى : إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وتأكيدا للتوحيد ، فقد دعا الامام محمد بن عبد الوهاب المسلمين إلى معرفة تاريخ الانبياء لادراك تمسكهم بوحدانية الله ، فقال : فاحرص يا عبد الله على معرفة هذا الحبل الذى بين الله وبين عباده ، الذى من استمسك به سلم ومن ضيعه عطب . فاحرص على معرفة ماجرى لابيك آدم وعدوك إبليس ، وماجرى لنوح وقومه ، وهود وقومه ، وصالح وقومه ، وإبراهيم وقومه ، ولوط وقومه ، وموسى وقومه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم وقومه . واعرف ما قص العلماء عن أصحابه وأحوالهم وأعمالهم لعلك أن تعرف الاسلام والكفر ، فإن الاسلام اليوم غريب وأكثر الناس لا يميز بينه وبين الكفر . وذلك هو الهلاك الذى لا يرجى معه فلاح[2] .

ثانيا : محاربة الشفاعة المبتدعة :

لا تستقيم دعوة التوحيد دون محاربة نواقضه . ولذلك حارب الامام محمد بن عبد الوهاب البدع والضلالة بالاستغاثة بالاولياء والصالحين فقال : من الشرك الاستعاذة بغير الله أو الاستغاثة بغيره والاستشفاع بما سواه وأن الله عز وجل يقول : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم . وفى الصحيح عن إبن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى : وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . قال — أى ابن عباس — : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا فى

---

(١) د . محمد بديع شريف : المرجع السابق ص ١٩ .
(٢) محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول ص ٦ .

مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أو لئك ونسى العلم عبدت . وعن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وأنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله[1] .

ويؤكد الامام محمد بن عبد الوهاب أن زيارة القبور والتماس البركات من أصحابها ليس كما يدعى المضللون للتقدير والاحترام ، لأنه إذا جاز هذا فى حق الاحياء فلا يجوز فى حق الاموات ، وأن الموتى قد أنقطع مابينهم وبين الحياة والاحياء ، وليس ثمة فرق بين من يرجو البركة عند قبر ولى وبين من يعبد وثنا ، كلاهما قد جعل بينه وبين الله شفيعا يرجى ، وما كان كفار قريش الذين حاربوا دعوة التوحيد إلا على هذه الصورة ، كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق العظيم ، ولكن هناك آلهة دون الله ، يتصرفون وينفعون ويصرون ، إن هؤلاء الآلهة هى الطريق إلى الله : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى[2] .

ويضيف الامام محمد بن عبد الوهاب إلى ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أمته بأنها تأخذ مأخذ القرون قبلها ابشبر وذراعا بذراع ، وثبت فى الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . فإذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الامور التى أعظمها الاشراك بالله والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الأعـــداء ، وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات التى لا يقدر عليها إلا رب الارض والسموات ، وكذلك التقرب إليهم

---

(١) محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد . . ص ٤٩ — ٥٠ .

(٢) محمد بن عبد الوهاب كتاب كشف الشبهات . ص ٢٢٠ — ٢٢٢ .

بالنذور ، وذبح القربان ، والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصلح إلا لله . . وأن ما حـــدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها وإسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعيادا، وجعل السدنة والنذور لها، فكل ذلك من حوادث الامور التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم أمته وحذر منها ، كما فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين وحتى تعبد فئام — طوائف — من أمتى الأوثان(١) .

ولا يعنى ماذكره الامام محمد بن عبدالوهاب من دعوة لمحاربة التقرب لقبور وأضرحة الآنبياء والأولياء أن دعوته تنكر شفاعة النبى عليه الصلاة والسلام يوم القيامة ، بل أن هذه الدعوة تعترف أيضاً بشفاعة سائر الأنبياء والملائكة والأولياء أيضاً ، ولكن محبة الأنبياء والأولياء الصالحين ليست بالتوسل بهم ، ولكن فى متابعتهم فيما كانوا عليه من الهدى والدين(٢) . وأن تسأل الشفاعة من « المالك لها وهو الله ، وإذنه فيها لمن شاء من الموحدين ، فيقال : اللهم شفع نبينا محمدا فينا يوم القيامة ، اللهم شفع فينا عبادك الصالحين أو نحو ذلك ، وأما ما يجرى على ألسنة الناس من قولهم : يارسول الله أو ياولى الله اسألك الشفاعة أو غيرها كأدركنى أو أغثنى أو نحو ذلك فإنه من الشرك ، إذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح(٣) .

وأكد الامام محمد بن عبد الوهاب أن الشفاعة كلها لله تعالى كما جاء فى

---

(١) محمد كرد على : القديم والحديث ص ١٥٧ — ١٥٩ . رسالة الامام إلى شيخ المركب المغربى فى موسم الحج .

(٢) حسين بن غنام : روضة الافكار المسمى تاريخ نجد مجلد أول ص ٢١٣

(٣) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٧ .

القرآن الكريم : قل لله الشفاعة جميعا، ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال تعالى: من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه » ، ولا يشفع فى أحد إلا بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى : ولا يشفعون إلا لمن ارتضى »[1] .

ثالثا : محاربة تقديس القبور :

درج الناس على تقديس قبور الموتى بتقديم القرابين والسجود لهـا ، وتجصيص[2] القبور والكتابة عليها، وكل ذلك من الأمور المبتدعة، فان النبى صلى الله عليه وسلم : حمى جناب التوحيد أعظم حماية وسد كل طريق يؤدى إلى الشرك ، فنهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر ، وثبت فيه أيضاً أنه بعث على بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره ألا يدع قبرا مشرفا - عاليا - إلا سواه ولا تمثالا إلا طمسه[3] . لان ذلك مخالف لما أتى به الدين الاسلامى .

وإذا كانت محاربة الامام محمد بن عبد الوهاب لتقديس القبور منصبة على البناء عليها بالجص ، وما يفعله زائروها من بدع، وإقامة أضرحة وقباب ومساجد على هذه القبور ، فانه لا ينكر زيارة القبور ولكن بشرط أن تكون هذه الزيارة للدعاء للميت واتعاظ الزائر ، على أن يراعى فيها الطريقة التى سنها النبى صلى الله عليه وسلم فى الزيارة[4] ، استنادا إلى قول الرسول الكريم : من يرد واعظا فالموت يكفيه .

---

(١) محمد بن عبد الوهاب : كشف الشبهات فى التوحيد . فى مجلد الجامع الفريد ص ٢٣١ .

(٢) التجصيص يعنى البناء بالجص .

(٣) محمد كرد على : نفس المرجع ص ١٦٠ .

(٤) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٧ .

رابعا : الجهاد ضد البدع والخرافات .

نادى الامام محمد عبد الوهاب بالجهاد فى سبيل نشر دعوته، فمن اتبع دعوته أى آمن وطبق مبدأ التوحيد، وتجنب التشفع غير المشروع، وتجنب تقديس القبور سلم من الحرب المشروعة، ومن خالف هذه الدعوة، أصبح دمه وما له حلا للمجاهدين الموحدين، حتى يعود إلى طريق التوحيد الخالص . وفى ذلك يقول: هذا ماندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممتثلين بقوله سبحانه وتعالى : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه السيف والسنان، كما قال تعالى : لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . فهذا الذى نعتقده وندين به، اقامة الصلاة وايتاء الزكاة، وصيام رمضان والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم، له مالنا وعليه ما علينا، ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، المتبعين للسنة، لا تجتمع على ضلالة، وأنه لا يزال طائفة من أمته على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله(١) .

ولقد هاله أن يرى بعض المظاهر المبتدعة كخروج النساء خلف الجنائز إلى القبور، والاسراف فى الاحتفالات السنوية بموالد الأنبياء والاولياء وما يحدث فيها من الدراويش من رقص وتمايل وشطحات وأذكار وغير ذلك من الاعمال المحرمة أصلا والتى تستحق المحاربة حتى ولو كانت خارج نجد، وعلى هذا الأساس كانت غزوات الامام وأنصاره فى شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا،

---

(١) محمد كرد على . نفس المرجع ص ١٦١ .

فكانوا عندما يدخلون بلدا بالمحاربة يعتبرونها حلال لهم ان أمكنهم البقاء بها ألحقوها بأملاكهم ، وإن لم يمكنهم البقاء اكتفوا بما يصل إلى أيديهم من الغنيمه ، وهنا يجيء الخلاف بينهم وبين معارضيهم فان غيرهم يقول إن من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم ماله ودمه ، أماهم فيقولون إن القول لا عبرة به مالم يدعمه العمل ، فمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وهو لا يزال يدعو الموتى ويستغيث بهم ويسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات فهو كافر مشرك ، حلال الدم والمال ولا عبرة بقوله ، ولهم على هذا أدلة كثيرة من الكتاب والسنة[1].

وتطبيقا لهذا المبدأ فقد دعا وشارك الامام فى هدم القباب وذلك بمـــا فيها قبور الصحابة، وقطع ذكر النخيل الذى كانوا يتبركون به، وكذلك الشجر حيث أرسل الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أتباعه من قطع مثل هذه الأشجار وبقيت شجرة واحدة بالعيينة كانت كبيرة وتعرف بشجرة الذيب لم يجرؤ أتباع الإمام الشيخ على قطعها لكثرة زوارها وقاصديها فخرج بنفسه وقطعها[2] كما أقام الحد على إمرأه من بلدة العيينة اعترفت بارتكابها الزنا بعد أن تحقق من سلامة عقلها وصحة فعلتها فأشرك معه حاكم البلدة عثمان بن معمر فى رجمها .

خامسا : فتح باب الاجتهاد :

يعتقد بعض المؤرخين أن مبادىء دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب مبدئين اثنين هما التوحيد والاجتهاد ، وهم فى اعتقادهم هذا يعتبرون المبادىء الأخرى التى سقناها كمحاربة الشفاعة المبتدعة ، ومحاربة تقديس القبور ، والجهاد ضد البدع والخرافات كل واحد مع التوحيد أو بعبارة أخرى هى به ألصق ويكتمل بهـــا ، والارتباط بينها وبين التوحيد أقوى . . بينمـــا

---

(١) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٢) د . حسن محمود : نفس المرجع السابق ص ٦٢ .

الرأى عندى أن هذه كلها مبادىء ـ بالإضافة إلى التوحيد ـ سقناها فى إطار جوهر الدعوة ألا وهو تنقية الدين الاسلامى من الشوائب التى علقت به ومن الخرافات والبدع التى تؤتى باسمه وتحت مظلته، والدين منها براء. وأن تقسيم الدعوة إلى مبادىء هو لمجرد الدراسة التفصيلية لحقيقة دعوة الإمام محمد بن الوهاب والوقوف على جزئياتها لتقييمها التقييم الصحيح أمام الهجوم الذى شنه عليها معارضوها وأمام الدفاع القوى الذى لجأ إليه أنصارها.

ويقوم مبدأ الاجتهاد على الابداع فى التشريع وإطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مقتدر عليه مستوف لشروطه، لأن الله وحده هو الذى يحلل ويحرم، وعلى ذلك فكلام المتكلمين فى العقائد وكلام الفقهاء فى التحليل والتحريم ليس حجة علينا، والحجة الوحيدة هى فى القرآن والسنة، منهما تستنبط الأحكام وفيها فطنة العقائد (١) ولكن الامام محمد بن عبد الوهاب اعتبر الائمة الأربعة مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل هم وحدهم الذين تؤخذ أحكامهم دون المذاهب الدينية الأخرى كالمتصوفين والمعتزلة والشيعة وغيرهم.

وكان مذهب أحمد بن حنبل هو نبراس الإما محمد بن عبد الوهاب وهديه فى استنباط الأحكام واتباع ما أخذ به صاحب المذهب، ولكن الامام ابن عبد الوهاب أحيانا ما كان يخالف قدوته ابن حنبل فى بعض المسائل التى يجمع عليها فقهاء المذاهب الثلاثة الآخرين. كما كان له بعض مسائل اجتهادية مثل جعل دية المسلم ٨٠٠ ريال بدل مائة ناقة (٢).

أسلوب الحركة الوهابية

لا شك أن موضوع الدعوة سليم غاية السلامة، ولا أحد يستطيع ان ينكر

---

(١) د. محمد بديع شريف: نفس المرجع السابق ص ١٩.

(٢) حافظ وهبة: المرجع السابق ص ٢٩٩.

ذلك أو يكابر فيه ، ولكن أسلوب الدعوة راجه معارضة شديدة من خصوم دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب بل واستنكارا اضطر اتباعها إلى الرد تبريرا لأسلوب التطبيق العملي لمبادىء الدعوة . فنحن إذن هنا أمام اتجاهين متعارضين : اتجاه يهاجم دعوة الامام ابن عبدالوهاب بسبب أسلوب تطبيق مبادئها . واتجاه يناصر الدعوة ويبحث عن تبريرات لهذا الأسلوب . فاهى الحقيقة ؟

لعل التشدد فى الدعوة وتطبيق المبادىء بصورة جدية وحازمة هو السبب فى وصف دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب بالعنف ومواجهة أحوال الناس التى درجوا عليها دفعة واحدة دون تدرج ، وإذا كان أنصار الإمام قد فسروا تطبيق الدعوة بأنه عودة للاسلام الصحيح الذى بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويستشهدون فى ذلك بكثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، من بينها ماروته السيدة عائشة أم المؤمنين عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .

ولكن الدعوة فى حد ذاتها خلاصة صافية للرسالة الاسلامية وما أخذ عليها ليس فى المضمون وإنما فى الاسلوب ، أى أن الموضوع مقبول تماما ولكن الشكل هو ما استهدف النقد ، ذلك أن الدعوة فى عدم اتباعها أسلوب التدرج والموعظة الحسنة قد أوجد أمام صاحبها من البداية اعتراضات بل ومحاربة ، وأرجع المحاربون وقفتهم ضد أسلوب الدعوة إلى قول الله سبحانه وتعالى : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » . صدق الله العظيم .

ذلك أن فى الناس جذورا عميقة من موروثات وتقاليد لا يمكن أن ينفصل عنها المرء بين يوم وليلة ، وفى الناس توقير وتقديس للرسول الكريم ولكل أثر من آثاره ولو كان حفنة من تراب.. فلو أخذت الدعوة الأمر مأخذا هينا ودعت

أول مادعت إلى ترك البدع الصارخة كالزار والتمائم وغير ذلك مما كان يعيش عليه كثير من المسلمين فى ذلك الحين (١) ، لكان ذلك بعدا بها عن المعارضة العنيفة التى لقيتها من البداية .

فاذا أضفنا إلى ذلك طبيعة أهل نجد البدوية وما اتصفوا به من شدة وغلظة ومحاربة وتقاتل إلى جانب الجهل الذى كان مخيما على عقولهم لادركنا أهمية اتباع أسلوب التدرج فى نشر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب لانه الاسلوب المناسب لاناس هذه صفاتهم ولادركنا كذلك كيف واجهت المتاعب الإمام فأخذ يتنقل من مكان إلى آخر بحثا عن سند له فى الدعوة وعن عون له فى تطبيقها بأسلوب الشدة والعنف الذى اتخذته .

ولقد ظهرت شدة الإمام محمد بن عبد الوهاب منذ فترة مبكرة وفى أثناء طلب العلم ، فقد أنكر مارآه فى المدينة المنورة من الافعال التى يأتيها الناس عند قبر الرسول عليه السلام . وفى البصرة أعلن حربه على البدع التى يرتكبها أهلها وكان قاسيا على كل من يذكر اسم أحد الاولياء الصالحين محاطا بهالة من التقديس فأخرجوه من ديارهم مطرودا (٢) .

وعندما عاد من البصرة إلى حريملا بنجد أخذ يبث دعوته بين أهلها واشتد فى استنكاره لما وجده من بدع درج الناس عليها ، اشتدت حملته على البدع بعد وفاة والده عام ١١٥٣ هـ الموافق ١٧٤٠ م ، مما دفع ببعض العبيد فى حريملا إلى تدبير مؤامرة لقتله فاضطر إلى ترك حريملا باحثا عن النصير الذى يشد أزره ويحميه حتى ينشر دعوته الاصلاحية فى أنحاء نجد ، وهو يعلم أن كل نظرية اصلاحية لا تنتصر بقوتها وصدقها فحسب بل لابد لها أيضـــا من سلطان يحميها حتى تثمر

---

(١) عبد الكريم الخطيب : نفس المرجع السابق ص ٩٤ ــ ٩٥ .

(٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٣٠ .

وتؤتى أكلها (١) .

ولقد وجد الإمام محمد بن عبد الوهاب هذا السلطان والنصير في شخص عثمان بن معمر أمير بلدة العيينة مسقط رأس الإمام ، وهناك اعتمد الإمام على مؤازره الامير في نشر دعوته وأن يجند أتباعا وأنصارا يؤيدون الدعوة وينفذون تعاليمها بالشدة ، ومن ذلك هدم كثير من القباب والمساجد المقامة فوق القبور ، وقطع الأشجار التي يتبرك بها الناس ، وإقامة حد الرجم على امرأة زانية من بلدة العيينة حيث تأكد للإمام صحة الفعل وسلامة عقل المرأة وكل مايوجب الرجم فأقيم عليها الحد بالرجم شارك فيه الأمير عثمان بن معمر حتى ماتت .

لقد كان أسلوب دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب المتصاعد في الشدة سببا في إثارة المتنفعين من الفساد والبدع السائدة ، حتى إذا حدثت حادثة إقامة حد الرجم على المرأة الزانية وذيوعها في كل الأنحاء قام أهل الأحساء بصفة خاصة يصرخون ويحتجون لأنهم كانوا مستمتعين ببعض الإباحات الكاذبة التي خلفتها لهم دول القرامطة (٢) .

ونتيجة لصرخات أهل الإحساء لأميرهم سليمان آل محمد رئيس بني خالد والاحساء أرسل سليمان لعثمان بن معمر أمير العيينة والمشمول بحماية سليمان يقول له : إن المطوع الذى عندك قد فعل مافعل وقال ما قال . فاذا وصلك كتابي فاقتله فإن لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا (٣) وهدده بالمقاطعة الاقتصادية ومنع تجار العيينة من العمل في الإحساء وماجاورها من بلاد تخضع لسليمان ، فما كان

---

(١) د . حسن سليمان محمود : نفس المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٣ .

(٣) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٧٩ .

من عثمان بن معمر إلا أن طلب من الامام محمد بن عبد الوهاب الرحيل عن العيئية إذ لاقبل لعثمان بمعاداة سليمان ..

وكان رحيل الإمام إلى الدرعية عام ١١٥٧ هـ/١٧٤٣ م بداية لمرحلة جديدة وحاسمة لنشر الدعوة ، ذلك أن الإمام كان قد نجح فى استقطاب ثنيان ومشارى أخوى أمير الدرعية محمد بن سعود حتى أصبحا من أتباعه وتلاميذه ، وماحسب اعداء الامام أن رحيله إلى الدرعية سيكون بداية لدور جديد فى تاريخ الدعوة والأسرة السعودية إذ هناك فى الدرعية وسع الامام دائرة جهوده بعد أن وجد قوة السلاح التى تؤيده لنشر مبادئه (١) .

وإذا كان انضمام الأمير عثمان بن معمر لدعوة الامام ومساهمته فى نشرها كان عاملا مهما فى ذيوعها وساعدا قويا لها ، فقد كان انتقال الامام إلى الدرعية وتأييد الأسرة السعودية لها عاملا أكثر أهمية فى انتشارها ليس فى فقط فى نجد بل فى كل انحاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من الأقطار العربية المجاورة ، ذلك ان الأمير محمد بن سعود عندما عرض عليه أخواه تأييد الامام محمد بن عبد الوهاب فى دعوته ، طلب مشورة زوجته موضى بنت أبى وطبان من آل كثير فأشارت عليه بأن يذهب للامام ويكرمه ويقدر أنه غنيمة ساقها الله إليه .

وتنسب الأسرة السعودية إلى قبيلة عنزة إحدى قبائل ربيعة ، ويعد سعود بن محمد بن مقرن مؤسس الأسرة السعودية باعتباره أول من سيطر على منطقة الدرعية ، وبعد وفاته عام ١١٣٧ هـ تعاون أبناؤه فيما بينهم على بسط نفوذهم فى هذه المنطقة حتى وفد إليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتعاهد مع الأمير محمد بن سعود على المبادىء الدينية الاصلاحية (٢) . ومنذ هذا التعاهد قامت

---

(١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٣٣ .

(٢) د حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٧٢ .

الدولة السعودية التى مرت بأدوار فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر . والتى أتخذت من دعوة التوحيد للامام محمد بن عبد الوهاب مذهبا تدين به وتعمل فى ظله وتسعى لنشره وتحارب من أجله .

كان التحالف بين محمد بن عبد الوهاب الأسرة السعودية فى الدرعية بداية لنشر الدعوة فى بقية بلاد نجد وأنحاء شبه الجزيرة العربية وبداية للصدام مع الدولة العثمانية ، وإذا كانت جهود الامام محمد بن عبد الوهاب حتى ذلك الوقت تميل إلى الشده غير المسرفة فان تأييد الأسرة السعودية له بقوة السلاح قد حولت الشدة إلى حرب خاصة وقد زاد خصوم الدعوة واشتد هجومهم على الدعوة وصاحبها .

تحالف محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود على دين الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله وإقامة الشريعة الاسلامية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يظل الإمام مقيما فى الدرعية لايبارحها ولا يتحلل من هذا التحالف ، وجاء تعهد الإمام للأمير السعودى فى عبارته المأثورة : الدم بالدم والهدم بالهدم (١) .

وانطلق الحليفان لنشر الدعوة خارج الدرعية باعداد الجيوش التى توجه لرد المهاجمين والناهضين للدعوة ، وإرسال الرسائل إلى الحكام والأمراء للدخول فى الدعوة ، وماقرب القرن الثانى عشر الهجرى من الزوال حتى أصبحت الدرعية عاصمة دينية وسياسية وحربية . وفى سنوات قليلة انتشرت الدعوة مع الحكم السعودى فى بلدان نجد كالعارض والوشم وسدير وحائل والخرج والافلاج والحريق ووصلت طلائعها إلى الاحساء وعمان وبادية الحجاز وعسير واليمن . وسمع بها أهل

---

(١) كناية عن الارتباط الوثيق بينهما كل منها ولى دم الآخر يطلب به ويثأر له ويهدم بيت أعدائه اذا هدموا بيته . الخطيب ص ٦٦ .

البلدان العربية خارج الجزيرة (١) .

وقد شارك فى نشر الدعوة كل من الأمير محمد بن سعود وابنه عبد العزيز ابن محمد وحفيده سعود بن عبد العزيز حتى حدث الصدام بين التحالف السعودى الوهابى وبين محمد على وتركيا . وجاء الصدام الأول بين الدعوة ومناهضيها متمثلا فى موقف دهام بن دواس حاكم الرياض الذى استمر يحارب الدعوة لمدة عشر سنوات حتى انتهى أمره بدخول الأمير عبد العزيز بن محمد مدينة الرياض وفرار دهام منها وكان ذلك عام ١١٨٧ هـ .

استمرت فتوحات الدولة السعودية الأولى الراعية والداعية للدعوة الوهابية بفتح القصيم وبريدة والاحساء ومحاولة فتح الحجاز دون نجاح ، وإذا كان محمد بن سعود قد توفى عام ١١٧٩ هـ/١٧٦٥ م فان ابنه عبد العزيز واصل نشر الدعوة وضم البلاد حتى توفى قتيلا عام ١٢١٨ هـ/١٨٠٣ م على يد شيعى من أهل أفغانستان انتقاما لاقتحام القوات السعودية مدينة كربلاء عام ١٢١٦ هـ وهدم قبة الحسين ، وكان الامام محمد بن عبد الوهاب قد توفى عام ١٢٠٦ هـ .

بعد مقتل عبد العزيز بن محمد تولى الامارة ورئاسة الدولة السعودية الأولى ابنه سعود بن عبد العزيز الذى امتد حكمه من عام ١٢١٨ — ١٢٢٩ هـ الموافق ١٨٠٣ — ١٨١٤ م وعرف باسم سعود الكبير ، وقد واصل سياسة سلفيه فى تثبيت دعائم الملك السعودى خاصة أن جميع بلدان وقرى نجد كانت دائمة التردد بين الولاء للدولة السعودية والاستقلال عنها وإثارة الاضطرابات ضدها .. وكانت جميع البلدان فى شبه ثورة ضد النفوذ السعودى فما تكاد الجيوش السعودية تترك البلدة منها حتى تفاجأ بارتداد فى بلدة أخرى مما جعل جيوش الدرعية

---

(١) د . حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٦٥ .

فى حالة حرب دائمة مع بلدان نجد (١) .

وكان اتجاه آل سعود لفتح الحجاز وتطبيق الدعوة بنفس أسلوب الشدة دون التدرج سبباً فى إثارة شعور الاستياء عند جمهور المسلمين وإلى مقاومة الحجازيين لآل سعود ، وتدخل تركيا بحجة الدفاع عن المقدسات الاسلامية ضد الخارج عليها ودفع جيوش مصر بقيادة الباشا العثمانى محمد على للتعامل مع هؤلاء الخارجين على معتقدات المسلمين .

واذا كان فتح مكة قد تم عام ١٢١٨ هـ — ١٨٠٣ م فان السعوديين أبقوا الشريف (٢) غالب أميرا عليهـــا بشرط اتباع تعاليم الدعوة ، ولكن تشدد السعوديين ضد الحجاج المصريين والشوام والأتراك بسبب مايقترن بوفود حجهم من طبل وزمر ومحمل وغير ذلك من الأمور اعتبرها السعوديون بدعا لايجيزها الشرع من وجهة نظر دعوتهم ، هذا التشدد قد أثار الحجازيين لأنه حرمهم من دخل مالى كان الحجاج يقدمونه للحجازيين ، ومن ثم أخذ شريف مكة يبعث بالوفود إلى السلطان العثمانى فى استانبول وإلى محمد على فى مصر يشكو من سياسة السعوديين ويطلب التدخل لاجلائهم عن الحجاز .

وفى عام ١٢٢٠ هـ بايع أهل المدينة المنورة الأمير سعود الكبير على الدخول فى طاعته وتطبيق الدعوة الوهابية بكل مبادئها فهدمت جميع القباب المقـامة على القبور ، وفى عام ١٢٢١ هـ حج سعود الكبير فى موكب كبير أظهره كأمير وحيد لمكة بل ولمنطقة الحجاز بكاملها مما أثار حفيظة الحجازيين والشريف غالب بصفة

---

(١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٥٥ .

(٢) نظام الشرافة قائم منذ القرن الرابع الهجرى ، فكان الاشراف يتمتعون باعتبار دينى ويختار من قبل كبار أشراف الحجاز ويطلب إلى سلطان مصر الموافقة . والاشراف من البيت النبوى الشريف .

خاصة . وبانضمام المدينة المنورة ومكة إلى الحكم السعودى أصبح الحرمان الشريفان فى قبضة الوهابيين الأمر الذى عده معظم المسلمين فى كل جهة نكبة على الاسلام إذ صار البلدان الحرمان إلى هؤلاء « الخارجين » على الاسلام كما صورت الدعوة الناس يؤمئذ (١) . ومن ثم طالب الناس بالعمل على استخلاص الاماكن المقدسة فى الحجاز من يد هؤلاء المتهجمين على بيت الله الحرام وعلى قبر الرسول الكريم . .

(١) عبد الكريم الخطيب : نفس المرجع السابق ص ٦٩ .

الحركة والأتراك

لم تثر الدعوة انتباه الأتراك العثمانيين والحركة فى مهدها الاول سواء فى حريملا أو العيينه بنجد ، ولكن التحالف السعودى الوهابى ونشاط هذا التحالف خارج الدرعية إلى شبه الجزيرة العربية خاصة إلى الحجاز ، ثم إلى العراق قد أثار مخاوف الأتراك العثمانيين من هذه الحركة العربية الإسلامية الفتية المنتصرة فاذا أضفنا الثورة غير الواعية لجمهور المسلمين من تطبيق الدعوة الوهابية لأدركنا استغلال الأتراك للفرصة للقضاء على الدعوة .

وفى واقع الأمر فان الأمير سعود يتحمل مسئولية الصدام مع الأتراك لأنه لو اقتصر فى الدعوة على جزيرة العرب وترك الحج حرا للأتراك والمصريين ولم يمس الناحية الحساسة فى الترك وهى السيادة على الحجاز ما اهتم الأتراك بأمره، فقد مكثت جزيرة العرب مدة طويلة ونار الفتن تأكل الأخضر واليابس ، بل لقد كان الحجاج الأتراك والمصريون عرضة للنهب والقتل فى كل ناحية حلوا بها فى الحجاز ، وكانوا يحتملون هذا ويعدونه من الأعمال الطبيعية . وأى فرق فى نظر الأتراك بين آل سعود والأشراف ؟ الفريقان من العرب ، وأفضلهم من يحتفظ بسيادة الأتراك ولو اسميا مع نشر الأمن والمحافظة على سلامة الحجاج وتوفير وسائل الراحة لهم[1] .

ولقد أزعج الدولة العثمانية انتشار الدعوة الوهابية وتوسع الدولة السعودية . وإعلان الأمير سعود إنهاء السيادة العثمانية من الحجاز والأتراك فيهم الخلافة

---

(١) حافظ وهبه : نفس المرجع السابق ص ٢٢١ .

ويحرصون على المحافظة على لقب خادم الحرمين الشريفين لسلطانهم ، وأزعج الدولة العثمانية أيضاً مهاجمة التحالف السعودى الوهابى لولايات الدولة فى العراق والشام وعجز ولاة العراق والشام عن إيقاف هذا الهجوم والقضاء على الدعوة . كذلك أزعج الدولة العثمانية موقف الامير سعود من الحجاج الاتراك والمصريين والشوام وهو الموقف المتشدد بسبب مصاحبة المحمل والطبول والزمور والرايات وغيرها من العادات للحجاج ، وتجلى موقف الامير سعود المتشدد فى إنذار هؤلاء الحجاج عام ١٢٢٠ هـ بمنعهم من الحج فى العام التالى إذا جاءوا مصاحبين لهذه العادات المنافية للدعوة الوهابية ، وبالفعل منع الحجاج من أداء الفريضة .

وليس من شك فى أن دعوة الامير سعود صحيحه ليتم الحج فى صورته الصافية الكريمة ، ولكن تشدده هو الذى أثار عليه المسلمين ، وفى ذلك يقول الجبرتى : انقطع الحج الشامى والمصرى – عام ١٢٢٣ هـ – محتجين بمنع الوهابى الناس الحج وليس الامر كذلك ، فانه لم يمنع أحدا أتى إلى الحج على الطريقة المشروعة ، وانما منع من يأتى بالبدع التى لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر ، وقد حج طائفة من المغاربة فلم يتعرض لهم بسوء[1] .

ولقد أدركت الدولة العثمانية أن الدعوة الوهابية تؤذن بقيام دولة عربية تناوىء الخلافة التركية ، ومن ثم أخذت السلطنة التركية تعمل على قبرها فى مكانها قبل أن تتسع آفاقها ، فوضعت الخطط وعبأت علماء الدين الذين شرعوا أقلامهم وألسنتهم يؤلفون الكتب ويخطبون الخطب على المنابر يرمون أتباعها بالزندقة والخروج على الاسلام وعلى سلطان الخليفة[2] ، ولما كانت الدولة حريصة فى نفس الوقت

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار أحداث عام ١٢٢٣ هـ .

(٢) د . محمد بديع شريف وآخرين . المرجع السابق ص ٢٠ .

على استعادة سيادتها على الحجاز لا ستعادة سمعتها فى العالم الاسلامى بتأمين الحج إلى الحرمين الشريفين فقد وجدت أنه لا مفر من الاستعانة بمحمد على والى مصر للقضاء على الدعوة والقائمين بها بعد أن فشل ولاة بغداد ودمشق فى هذه المهمة .

انتهزا السلطان العثمانى فرصة الغضب الذى حل بالمسلمين عامة من تشدد السعوديين فى تطبيق دعوة محمد بن عبد الوهاب . وثورة أهل تركيا ومصر والشام والعراق بسبب ما أشيع عن منع حجاجهم من أداء الفريضة، وضيق أهل الحجاز الذين كرهوا الحكم السعودى لأنه قطع عنهم الحجاج وحال بينهم وبين ما كان يردهم من الصدقات ، وقطع عنهم ما كان مرتبا لهم من الإحسانات[1]، بالاضافة إلى أن الشريف غالب كان خضوعه للسعوديين عن غير اقتناع ولذلك أخذ يراسل السلطان العثمانى وواليه على مصر محمد على يستنجد بهما لتخليص الحرمين الشريفين من السيطرة السعودية .

ولقد أصدر السلطان العثمانى أمرا لباشا مصر لكى يستعيد السيادة العثمانية على الحجاز والقضاء على الدولة السعودية الخارجة على العثمانيين .وحاول إغراءه باضافة الحجاز إلى باشوية مصر . وكانت الدولة العثمانية تهدف من وراء ذلك إلى هدفين أولهما القضاء على الدولة السعودية التى أصبحت خطرا يهدد سمعتها فى العالم الاسلامى ، وبالتالى إضعاف هذا الوالى — محمد على — باستنزاف موارده فى هذه الحرب ، التى قد لا تحمد عقباها بالنسبة له حتى يظل خاضعا لها خضوعا تاما[2] .

وإذا كان السلطان العثمانى قد كلف محمد على فى عام ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م

---

(١) حافظ وهبة : نفس المرجع السابق ص ٢١٨ .

(٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٢٨٣ .

بالتعامل مع السعوديين إلا أن محمد على أخذ يماطل فى تنفيذ أمر السلطان لمدة خمس سنوات متعللا بحجج كثيرة كانشغاله بمحاربة المماليك فى الصعيد ، ومناوأة سليمان باشا والى الشام لمحمد على وتأييده للمماليك ، وعدم توفر الاعتدة الحربية والسفن الكافية والجنود المدربين للقيام بهذه الحملة عبر البحر الاحمر إلى الحجاز ، حتى كان عام ١١٢٦ هـ / ١٨١١ م بدأ محمد على تنفيذ أمر السلطان بعد أن أعد عدته معتمدا على موارد مصر وبعد أن يئس من مساعدات تركيا له لاداء هذه المهمة ، وبعد أن بنى السفن اللازمة لنقل قوات الحملة .

عهد محمد على لابنه طوسون قيادة الحملة إلى الحجاز ، ومرت الحرب بين جيوش محمد على وقوات السعوديين فى ثلاثة أدوار ، يبدأ الدور الاول فى خريف عام ١٨١١ م/١٢٢٦هـ بنزول جيوش محمد على إلى ميناء المدينة المنورة حتى وصول محمد على بنفسه إلى ميناء جدة فى رمضان ١٢٢٨هـ/٢٨ أغسطس ١٨١٣ م . وفى هذا الدور استولى طوسون على ميناء ينبع دون مقاومة ، ولكنه لقى هزيمة ساحقة مدمرة على يد السعوديين عند الصفراء قرب بدر ، ثم استطاع الاستيلاء على المدينة المنورة فى نوفمبر ١٨١٢ م وتقدم فاستولى على جدة ومكة بعد أن نجح فى شراء بعض القبائل الحجازية بالاضافة إلى موالاة الشريف غالب شريف مكة لمحمد على .

ويبدأ الدور الثانى من الحرب بين محمد على والسعوديين بوصول محمد على جدة عام ١٨١٣ م عندما علم بنجاح ابنه طوسون فى منطقة الحجاز ، إلى عودة طوسون إلى مصر فى ٥ ذى الحجة ١٢٣٠ هـ / ٨ نوفمبر ١٨١٥ م واختيار إبراهيم قائدا للحملة على السعوديين وفى هذا الدور شارك محمد على ابنه طوسون فى المعارك على أرض شبه الجزيرة العربية ، وكانت المعارك سجالا فى نجد وعسير والحجاز ، وفى هذا الدور قبض محمد على على الشريف غالب وارسله إلى الدولة العثمانية

وعين شريفا آخر لمكة ، ولكن محمد على اضطر إلى العودة إلى مصر فجأة فى ٢٠ مايو ١٨١٥ م بسبب تأزم الموقف الاوروبى بفرار نابليون بونابرت من جزيرة ألبا وقدر — محمد على — أن هذا الحدث يمكن أن يكون له أثر دولى بالغ قد ينعكس على الحالة فى مصر نفسها فاسرع بالعودة إلى القاهرة بعد أن أسند قيادة الحملة الغازية مجددا إلى ابنه طوسون(١) .

وينتهى الدور الثانى من الحرب بين جيوش محمد على والسعوديين بانسحاب طوسون من القصيم بتجدد اجراء مفاوضات صلح مع السعوديين الذين تزعمهم آنذاك الامير عبد الله بن سعود بعد وفاة سعود الكبير عام ١٨١٤ م ، ولكن الصلح لم يتم بسبب تشدد محمد على فى شروطه رغم ما أبداه الأمير السعودى من رغبة اكيدة فى الصلح والإعتراف بالسيادة العثمانية ، ورغم أن طوسون أخلى القصيم دون أن ينتظر ماسوف تسفر عنه مفاوضات الصلح ، وعودته إلى القاهرة . وبه كان كل ما استطاع السيطرة عليه من أملاك الدولة السعودية الاولى هو إقليم الحجاز فقط الذى أصبح يتبع مصر إداريا تحت السيادة العثمانية(٢) .

ويبدأ الدور الثالث فى الصراع بين جيوش محمد على والسعوديين بتولية إبراهيم ابن محمد على قيادة جيوش والده فى شبه الجزيرة العربية إلى عام ١٨١٨ م بالاستيلاء على الدرعية والقبض على الامير عبد الله بن سعود وإرساله إلى الآستانة ، وفى هذا الدور حدث الصرع بين الامراء السعوديين بسبب ضعف وتردد الامير عبد الله وفى هذا يختلف عن والده سعود الكبير ، كما شهد هذا الدور قيام عبد الله بن سعود بعمليات حربية ضد المناطق التى كانت قد أعلنت ،وآزرتها الجيوش محمد على لتأديب القبائل الذين انضم رجالها إلى طوسون .

---

(١) أحمد عسه : نفس المرجع ص ٢٨ .

(٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٣١٣ .

وقد شهد هذا الدور نهاية الدولة السعودية الأولى وانهيارها على يد إبراهيم باشا الذى قاد جيشا معدا إعدادا كاملا نزل به إلى المدينة المنورة ثم اتجه إلى نجد حيث حاصر الدرعية طويلا حتى سقطت فى يده وقبض على أميرها وأرسله إلى مصر وبقى مع من تبقى من جيشه فى نجد حتى صيف ١٧١٩ م / ١٢٣٤ ﻫ فسلم البلاد خربة إلى بعض قوات الجيش العثمانى التى وصلت إلى شبه الجزيرة العربية، وعاد إلى القاهرة مع قواته (١)، مما أعاد إلى البلاد حياة الاضطراب والفوضى. وبذلك استطاعت السلطنة العثمانية أن تخفت أول صوت عربى شديد بدأ محاولة إعادة السلطان إلى العرب (٢).

لم ينته الصراع بين السعوديين - حماة الدعوة الوهابية ومنفذوها - والأتراك بانهيار الدولة السعودية الأولى على يد إبراهيم بن محمد على وإنما استمر منذ ان عاد إبراهيم إلى مصر أواخر عام ١٨١٨ م، وكان آل سعود مختلفون فيما بينهم على تولى الامارة بعد عبد الله بن سعود، كما طمع فى الإمارة زعماء آخرون من نجد، وكان على آل سعود فى وسط هذا الإنقسام والمطامع القبلية أن يواجهوا الأتراك، ولقد ظهر من بين آل سعود فى الفترة الواقعة بين عام ١٨١٧ م وحتى عام ١٨٤٣ م وهو عام تولى فيصل بن تركى تدعيم الدولة السعودية الثانية عدة أمراء من آل سعود ومن غيرهم تنازعوا الحكم فى نجد، من بينهم مشارى بن سعود، وتركى بن عبد الله آل سعود، وعبد الله والد تركى ليس هو عبد الله الذى أسره إبراهيم باشا وقتله الترك، ويعتبر تركى المذكور منشىء الدولة الثانية لآل سعود فى سنة ١٢٣٥ ﻫ / ١٨١٩ م لأنه منذ هذه السنة اعتبر الزعيم الساعى

---

(١) أحمد عسه : نفس المرجع ص ٣٢.

(٢) د. محمد بديع شريف وآخرين : نفس المرجع السابق ص ٢١.

لاسترداد إمارة آل سعود[1] ، ولكنه لم يستقر له الأمر حتى توفى وخلفه ابنه فيصل .

استمر العداء قائما بين تركى بن عبد الله وبين الأتراك منذ عام ١٨١٩ وحتى عام ١٨٢٣ م وهو عام وفاته ، وقد استعمل الأتراك أساليب البطش والتنكيل ضد اتباع آل سعود فى محاربتهم للامام تركى ، وليس أدل على ذلك ماقام به قائدهم حسين بك الذى أعطى الأمان لمائتين وثلاثين رجلا من أهل الدرعية ثم مالبث أن أمر جنوده الأتراك باطلاق النار عليهم جميعا وصادر أملاكهم كلها بعد أن قضى عليهم رميا بالرصاص [2] وذلك عام ١٨٢٠ م . فاضطر الامام تركى إلى الفرار من الرياض ولكنه ظل رافعا علم الثورة والعداء ضد الأتراك . وظل كذلك حتى اغتيل عام ١٨٣٣م/٢٥٦ هـ فأعلن ابنه فيصل نفسه إماما وحاكما على نجد .

وكان الأمير فيصل بن تركى ضمن من أسرهم إبراهيم باشا فى الدرعية وأرسلوا إلى مصر وبقى بها حتى فر منها قبل ارتقائه الامامة بثمان سنوات عمل خلالها على مساعدة والده فى حروبه ضد الأتراك وضد بعض أمراء آل سعود وغيرهم من زعماء قبائل نجد الطامعين فى الامارة . ولذلك فان فيصل بعد اغتيال والده قام باخضاع أكثر الإمارات فى نجد وأعاد الأمن إلى المنطقة ولم يخرج عن حوزة امارته سوى الحجاز التى كانت خاضعة لمصر .

وإزاء روح الأمير فيصل النضالية وعمله على إعادة الدولة السعودية إلى سابق عليها من القوة والاتساع سارع الأتراك بحث محمد على فى مصر على التدخل للقضاء

---

(١) حافظ وهبة : نفس المرجع السابق ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) د . حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٨٥ .

على دولة فيصل فى نجد ، وقد تمكن خورشيد باشا من الإيقاع بين الامراء السعوديين أنفسهم حتى استولى على الرياض عام ١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م ، وبعد معارك دامية رأى فيصل أن ليس له قـدرة على مقاومة المصريين — والاتراك — فاستسلم لخورشيد الذى أرسله مع أخيه جلوى وولديه عبد الله ومحمد إلى مصر (١) .

ولقد بقى الأمير فيصل بمصر من عام١٨٣٨ إلى عام ١٨٤٣ م حيث فر منها بمساعدة عباس باشا والى مصر . وفى هذه المدة عادت الفتن إلا نجد رغم وجود حكام من آل سعود رضى عنهم الأتراك منهم خالد بن سعود شقيق الامام عبدالله، وعبد الله بن ثنيان آل سعود . وعندما وصل فيصل إلى نجد عام ١٨٤٣ م تمكن من استعادة دولته التى شادها قبل انتقاله إلى مصر وبقى الحجاز خارجا عن حدود دولته .

ولقد ساعد على نجاح فيصل فى استعادة ملكه انسحاب الجيش المصرى نتيجة لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ م ، واتجاه فيصل إلى مسالمة الاتراك بالاعتراف لهم بالسيادة على نجد والاحساء وعمان وقطر وعسير ، ولم يشأ أن يسعى إلى غزو العراق والشام والحجاز حتى لايثير حفيظة الأتراك ، واستمرت دولة فيصل حتى وفاته عام ١٢٨٢ هـ/١٨٦٦ م ولكن ابناءه وخاصة عبد الله الذى اتصف بالشدة فى أمر الدعوة ، وسعود الذى كان أكثر تسامحا ، ورغم ان فيصل قد أخذ البيعة لأكبر ابنائه وهو عبد الله قبل وفاته ، فان الحرب مالبثت أن قامت بين الأخوين وكانت نتيجتها انهيار الدولة السعودية الثانية وتمكن محمد بن الرشيد أمير حائل من أن يبسط سيطرته على الرياض عاصمة آل سعود وأن يستخدم أمراء

---

(١) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٢٤ .

آل سعود مثل عبد الله وعبد الرحمن ابنى فيصل ، ولكن عبد الرحمن لم يرض لنفسه أن يكون تحت رحمة ابن الرشيد بالرياض فثار ضده ولكن قوة ابن الرشيد أجبرته على ترك نجد هو وأسرته إلى الاحساء فالقطيف فالكويت حيث استقر بها ونزل ضيفا على أميرها من آل الصباح عام ١٣٠٩ ه[1] ١٨٩١ م .

ظل الأمير عبد الرحمن بن فيصل يعيش فى كنف أمير الكويت من آل الصباح منذ عام ١٨٩١ م حتى خرج ابنه عبد العزيز عام ١٣١٩ ه/١٩٠١ م من الكويت ومعه أربعون رجلا من آل سعود وأنصارهم لمنازلة آل الرشيد فى نجد وحلفائهم الأتراك ، وبالفعل استطاع بالجرأة والمفاجأة أن يستولى على الرياض وبعدها أخذ يعمل لنقض مملكة ابن الرشيد واسترداد ملك آبائه وأجداده ، وقد مكث أكثر من عشرين سنة يجالد ويغالب الخصوم من النجديين والأشراف والأتراك يضربهم حينا ويلاين حينما يرى السياسة واللين أنجح من الحسام والقتال .

ولقد وقف الأتراك ضد عبد العزيز بن عبد الرحمن . ولكن انكسار آل الرشيد بعد منازعاتهم الداخلية دفع الأتراك — المنهكين — إلى الانسحاب من نجد فى عام ١٣٢٤ ه / ١٩٠٦ م . ثم اصطدم بالشريف حسين ملك الحجاز عام ١٩٠٩ م ولكن لجأ معه إلى السياسة والمهادنة حتى يتفرغ له فيما بعد . أما الأتراك فان الأمير عبد العزيز رأى ان الدولة العثمانية آخذة فى التصدع والانهيار ، ورأى المطامع تكتنفها من كل ناحية ، فانتهز فرصة خروجها من حرب البلقان منهوكة القوى ، فانقض على إقليم الاحساء واستخلصه من النفوذ التركى ، وبذلك نفذ إلى الخليج[2] :

---

(١) د . حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٩٢ .

(٢) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٣٨ .

وقد استمر العداء بين آل سعود والأتراك حتى قيام الحرب العالمية الاولى وعندئذ استمر توسع السعوديين فى شبه الجزيرة العربية بالدخول فى حروب متصلة مع قبائل نجد كآل الرشيد وغيرهم، ومع حكام عسير ثم مع الشريف حسين فى الحجاز ، حتى اتسعت الامارة السعودية لتصبح سلطنة نجد ومملكة الحجاز إلى أن أصبحت المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢م .

ومما يجب ملاحظته ان الدولة العثمانية اتخذت موقف العداء من آل سعود وهم فى كنف آل الصباح فى الكويت بسبب ارتباط آل الصباح فى الكويت بسبب ارتباط آل الصباح بانجلترا وتحالف الطرفين مما سمح للانجليز بادخال نفوذهم إلى الخليج ، وكان موقف الاتراك المؤيد لآل الرشيد دليلا على الموقف العثمانى ، ولكن الهزائم التى منى بها آل الرشيد والاتراك على يد عبد العزيز آل سعود جعل حكومة الآستانة تعاف متابعة الحرب وأن تفتش عن اتفاق مع عبد العزيز يضمن لها بعض مصالحها (١) . وهذا الموقف دليل على الضعف الذى ألم بالدولة العثمانية من ناحية كما أنه فى نفس الوقت دليل على قوة وشجاعة عبد العزيز آل سعود وتصميمه على بناء الدولة السعودية الكبرى المتحررة من كل نفوذ أجنبى حتى ولو كان هذا النفوذ تركيا .

---

(١) أحمد عصة : نفس المرجع ص ٥٤ .

لم يكن الصراع مع الأتراك هو الوجه الوحيد لسياسة آل سعود معتنقى مذهب محمد بن عبد الوهاب الخارجية ، بل كانت هناك وجوه أخرى لهذه السياسة تمثلت فى موقف انجترا وفرنسا وإيران إلى جانب مصر من الدولة السعودية الناهضة فى نجد . . وإذا كانت مصر محمد على قد اصطدمت بآل سعود بإيعاز من الأتراك لفرض سيادتهم على نجد . فان محمد على كان يعتزم تأكيد سيطرته على كل شبه الجزيرة العربية لتحقيق مشروعه لتكوين وحدة عربية تكون مصر قلبها . . وعلى هذا الأساس جاء التدخل المصرى فى الحجاز ونجد واليمن وساحل الخليج ، وهو التدخل الذى اصطدم بالاطماع الانجليزية خاصة فى الخليج واليمن والجنوب العربى بصفة عامة .

كان الانجليز إذن أول قوة أجنبية تتجه بأنظارها نحو شبه الجزيرة العربية وخاصة سواحلها الشرقية المطلة على الخليج وسواحلها الجنوبية المطلة على البحر العربى والمحيط الهندى . وليس أدل على ذلك من أن القوات البحرية البريطانية قد وصلت إلى البحرين - مفتاح الخليج العربى - واحتلتها عام ١٢٣٦ هـ ١٨٢٠ م[1] كنتيجة لانهيار الدولة السعودية الأولى فى نجد وانحسارها عن شواطىء الخليج.

وكان تحالف القواسم وهم قبيلة عربية إستقرت فى ساحل عمان منذ النصف الأول للقرن الثامن عشر وامتد نفوذها فشمل المنطقة من قطر إلى خور فكان على الخليج ، وتحالف القواسم مع السعوديين منذ عام ١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م عند

---

(١) أحمد عمر : نفس المرجع ص ٣٣ .

دخول القوات السعودية إلى الاراضى العمانية واعلن سلطان بن صقر القاسمى ترحيبه بهذه القوة الجديدة – السعوديين – وأعلن خضوعه لآل سعود واعتناق مبادىء الدعوة السلفية ، وتعهد بدفع الزكاة المقررة لعمالها طالما أن هذه الحكومة لا تغير من وضعه كزعيم للقبيلة[1] ، وقد استفاد القواسم من هذا التحالف بالاستمرار فى ممارسة أعمال القرصنة ضد السفن فى الخليج مستندين إلى قوة الدولة السعودية.

ولقد كان نشاط القواسم المعتمد على قوة آل سعود سببا فى تبرم الانجليز الذين ساءهم تعرض سفنهم لمهاجمة القواسم مما دفع انجلترا إلى إرسال حملات التأديب ضد إغارات القواسم ثم عقد معاهدات معهم دون فائدة من توقف اعمال القرصنة ضد السفن الانجليزية ، حتى كان عام ١٨٢٠ م والدولة السعودية قد انهارت أمام حملة إبراهيم باشا فأرسل الانجليز حملة كبيرة ضد القواسم تمكنت بعد تدمير رأس الخيمة من فرض معاهدة تشمل جميع رؤساء المشيخات الذين أرغموا على توقيعها بعد إن فقدوا سندهم الطبيعى وهو الدولة السعودية القومية وبهذه المعاهدة وضعت انجلترا قدمها فى الخليج الذى خضع لنفوذها منذ ذلك الحين واستمر يتدعم طوال القرن التاسع عشر واثناء النصف الأول من القرن العشرين .

وجاء اهتمام الانجليز بالدولة السعودية منذ عام ١٧٨٧م عندما أصبح لآل سعود نفوذ على ساحل الخليج ، وقد حاول الانجليز – من مركزهم فى الهند – أن تكون علاقتهم بالسعوديين – الذين عرفوهم باسم الوهابيين – علاقات طيبة ضمانا لمصالحهم فى الخليج وفى العراق ، وكان آل سعود أيضاً رغم كراهيتهم لاعمال الانجليز ضد حلفائهم القواسم ، وتأييدهم لسلطان مسقط المعادى لآل سعود ، كانوا حريصين على عدم الدخول فى صراع مع الانجليز والعمل على مهادنتهم .

---

(١) د . عبدالرحمن عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٥٨ .

واستمر هذا الوضع طوال أيام الدولة السعودية الأولى ، حتى إذا انهارت هذه الدولة أعربت الحكومة الانجليزية عن سرورها بهذا الانهيار ولكنها أبدت مخاوفها من اتجاه المصريين إلى ساحل الخليج ، ولذلك سارعت بعقد معاهدات مع حكام المشيخات العربية تقيدهم بها وتضمهم تحت حمايتها حتى توقف ابراهيم باشا عن التوغل إلى منطقة الخليج .

وعندما أعاد الأمير فيصل بن تركى الدولة السعودية مرة أخرى إلى الوجود أمرت الحكومة البريطانية معتمدها فى الخليج العربى الكولونيل بيلى Billey أن يتصل بالإمام -فيصل - وأن يزوره فى بلاده ، وأن يقدم تقريرا عن حالة الدولة السعودية الجديدة(1) ، وأن يبلغ الامام أن الحكومة الانجليزية لا تطمع فى أى جزء من شبه الجزيرة العربية وكل ما يهمها ضمان الأمن والسلام تحت حكم صالح .

وكان الصراع بين الانجليز والفرنسيين من ناحية ، والصراع بين الانجليز والروس من ناحية أخرى حول الخليج العربى إلى جانب موقف الاتراك الداعى إلى فرض السيادة العثمانية دون قوة تركية تسند هذه السيادة ، كان كل ذلك هو سمة حياة شبه الجزيرة العربية طوال القرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب العالمية الاولى وظهور الدولة السعودية القوية. وقد انتهى هذا الصراع باخراج المصريين من اليمن والخليج وطرد النفوذ الفرنسى والروسى من الخليج ، ثم فرض النفوذ الانجليزى فى الجنوب العربى والخليج .

وكانت علاقة آل سعود بفارس غير ودية نظرا للاختلاف بين الطرفين فى المذهب ، فالاولون سنيون متعصبون ، والآخرون شيعيون متطرفون ، وكان

---

(1) أحمد عسه : نفس المرجع ص٤٠ .

أهل فارس يناصرون أعداء آل سعود فى مسقط ، وآل سعود يناصرون أعداء فارس وهم آل خليفة فى البحرين ، ولا غرابة فى أن نجد شاه فارس الشيعى يهنىء والى مصر السنى على نجاحه فى القضاء على دولة آل سعود السنية لا تفاقهما فى الهدف ، وإن اختلفا فى المذهب[1] .

وعندما أخذ عبد العزيز آل سعود يعيد بناء الدولة السعودية مرة ثالثة فى أوائل القرن العشرين لم يرد أن يفتح جبهة عداء مع الانجليز وهو يواجه الاتراك من ناحية وقبائل نجد والشريف حسين فى الحجاز من ناحية أخرى. ولذلك نجد انجلترا تستجيب لتدخل أمير الكويت عام ١٩٠٣ وطلب عبد العزيز آل سعود عام ١٩٠٤ بأن تستخدم الحكومة الانجليزية نفوذها لدى الأتراك لكى يوقفوا مساعداتهم الحربية لابن الرشيد عدو آل سعود فى نجد .

ولما طلب الأمير عبد العزيز آل سعود عقد معاهدة مع انجلترا، نصح مكتب الحاكم العام الانجليزى فى الهند الحكومة الانجليزية باجابة مطلب الأمير لأنه: إذا ما بنى الوهابيون ملكهم على أنقاض ملك الأتراك فانهم فى الغالب سيهددون المصالح البريطانية فى الكويت وفى باقى إمارات الشاطىء . وعليه فانهم — حكومة الهند — يلحون بقبول صيغة الرد على كتب الأمير عبد العزيز لضمان صداقته ومعاونته قبل أن تفوت الفرصة[2] .

ولكن الحكومة البريطانية اتخذت موقفا سلبيا من طلب الأمير عبد العزيز، حتى كان عام ١٩١٣ م عندما اصطدم الأمير بالأتراك أثناء زحفه على الهفوف القطيف والعقير فى الاحساء واضطر الاتراك إلى التقهقر إلى البحرين والتحصن فيها بموافقة انجلترا ، وهنا توترت العلاقات بين ال سعود وانجلترا، ولكن الانجليز سرعان ما دخلوا مع الأمير عبد العزيز فى شتاء عام ١٩١٣ م فى مباحثات سياسية

(١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٧٩ .
(٢) حافظ وهبة : نفس المرجع السابق ص ٢٣٨ .

كانت بمثابة تمهيد فعلى للاتفاق السعودى البريطانى الذى وقع فيما بعد عام ١٩١٥م وعرف باسم معاهدة العقير، والذى كان بمثابة أول معاهدة دولية أكد فيها عبد العزيز مركزه الدولى(١).

وإذا كان قد أخذ على هذا الاتفاق نفس ما أخذ على الاتفاقات بين الانجليز ومشايخ الخليج من تكبيل وتقييد لحرية التحركات السياسية والاقتصادية دون موافقة الانجليز، فإن الأمير عبد العزيز مالبث أن تخلص من هذه القيود فى معاهدة جدة عام ١٩٢٧ م التى نصت على اعتراف انجلترا باستقلال سلطنة نجد وتوابعها والحجاز وحق السلطنة فى الاتصال بالدول الأخرى وعقد الاتفاقيات السياسية والاقتصادية معها دون الرجوع إلى انجلترا، وذلك حسبما تمليه مصلحة السلطنة العليا، بعد أن كانت معاهدة ١٩١٥ تحرم آل سعود من كل هذه الحقوق.

---

(١) أحمد عبده : نفس المرجع السابق ص ٦٧ .

لقيت دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ ظهورها فى نجد مقاومة من قوى مختلفة فانبرى معارضوها إلى رميها بالكفر والإلحاد ، ودافع عنها أنصارها بتوضيح مبادئها وإظهار حقيقة دعوتها ، وإذا كان معارضو الدعوة قد كتبوا الكتب وبعثوا بالمنشورات تهاجم وتستنكر ، فان كتب الإمام محمد بن عبد الوهاب وأقوال أتباعه ترد وتوضح ، فان كتبه التى بلغت اكثر من عشرة احتوت على خلاصة أفكاره، ومن أهم هذه الكتب: كتاب التوحيد الذى سماه التوحيدالذى هو حق الله على العبيد ، وكتاب كشف الشبهات ، وكتاب الكبائر والمسائل التى خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية ، وكتاب آداب المشى إلى الصلاة ، وكتاب الهدى النبوى إلى جانب كتب فى تفسير القرآن الكريم ، وفى السيرة النبوية،وفى الأحاديث النبوية،بالإضافة إلى الرسائل والكتب المطولة والمختصرة التى كان يبعث بها الإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه إلى أمراء البلاد وشيوخ القبائل .

وجاء فى رسالة من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من أهل المخلاف السليمانى خصوصا أولاد الشريف حمود وناصر ويحيى وسائر إخوتهم وأولادإخوانهم ،كذلك أشراف بنى النعمى وكافة أشراف تهامة يقول: فالموجب لهذه الرساله أن الشريف أحمد بن حسين الفلقى قدم إلينا فرأى مانحن فيه وتحقق صحة ذلك لديه ، فبعد ذلك التمس منا أن نكتب لكم مايزول به الاشتباه فتعرفوا دين الإسلام الذى لايقبل من أحد سواه ، فاعلموا — رحمكم الله — أن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداصلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل فهدى به إلى

الدين الكامل والشرع التام، وأعظم ذلك وأكبره وزبدته وإخلاص العبادة لله لاشريك له ، والنهى عن الشرك ، وذلك هو الذى خلق الله تعالى الخلق لأجله ودل الكتاب على فضله كما قال تعالى : وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، وقال تعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، واخلاص الدين هو صرف جميع العبادة لله تعالى وحده لا شريك له وذلك ألا يدعى إلا الله ولا يستغاث إلا بالله ، ولا يذبح إلا له ،ولا يخشى ولا يرجى سواه ولا يرهب ولا يرغب إلا فيما لديه ، ولا يتوكل فى جميع الامور إلا عليه ، وإن كل ماهناك لله تعال لا يصلح شيء منه لملك مقرب ، ولانبى مرسل وهذا هو بعينه توحيد الالوهية الذى أسس الإسلام عليه وانفرد به المسلم عن الكافر، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

ويضيف الامير فى رسالته قائلا فلما من الله علينا بمعرفة ذلك وعلمنا أنه دين الرسل اتبعناه ، ودعونا الناس إليه ، وإلا فنحن قبل ذلك على ما عليه غالب الناس من الشرك بالله تعالى ، من عبادة أهل القبور والاستغاثة بها والاستغاثة بهم مع ما ينضم إلى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات وارتكاب الامور والمحرمات وترك الصلاة وترك شعائر الاسلام حتى أظهر الله الحق بعد خفائه وأحيا أثره بعد عفائه على يد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب (1) .

وقال عبد الله بن الامام محمد بن الوهاب عام ١٢١٨ هـ/ ١٨٠٣ م حين دخل مكة مع الامير سعود بن عبد العزيز : فمذهبنا فى الاصول مذهب أهل السنة والجماعة ، وطريقتنا طريقة السلف التى هى الطريق الاسلم والاعلم والاحكم خلافا لمن قال طريقة الخلف أعلم، وهى أننا نقر آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها

---

(1) محمد كرد على : القديم والحديث ص١٦٥

ونكل علمها إلى الله مع اعتقاد حقائقها ، فان مالكا — الإمام مالك — وهو من أجل علماء السلف لما سئل عن الاستواء فى قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى ، قال الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه (١) .

وأما أعداء الدعوة فقد رموها بالكفر والضلال وأخذوا ينشرون عنها ما يسىء إليها لتنفير الناس منها ، وقد استغل هؤلاء خلاف سليمان بن عبد الوهاب شقيق صاحب الدعوة معه وانتقاده للامام فى آراءه وفى تفسيراته ، وزاد المعارضون فاسرفوا فى معاداتهم للدعوة بأن ادعوا بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأنصاره يضمرون الكراهية للنبى صلى الله عليه وسلم وبقيته الانبياء والأولياء الصالحين ، ومنشأ هذا الادعاء أن الوهابيين استنادا إلى حديث نبوى شريف يقول : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى يرون أن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يعمها أحد من الصحابة أو التابعين ولم يأمر بها النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق ابن تيمية وابن عبد الوهاب طوائف كثيرة من العلماء المتقدمين بهذا الرأى (٢) .

وفى واقع الامر فإن دعوة محمد بن عبد الوهاب ليست بدعة جديدة لأنها رجوع بالإسلام إلى أصوله على عهد الرسول الكريم والصحابة ، ولكن الجديد فيها هو ظهورها فى زمن بدا فيه كل شىء مخالف لما درج عليه الناس منذ سنوات وأصبح من عاداتهم يعتبر بدعة مدعاة للاستنكار ، وإذا كانت الدعوة قد لقيت معارضة فان ذلك سنة كل جديد على القوم فى كل زمان بل وفى كل مكان .

ونحن نعتقد أن دعوة الامام محمد بن عبدالوهاب دعوة صحيحة تما ماولنا

---

(١) السيد رشيد رضا : الوهابيون والحجاز ص١١ .

(٢) حافظ وهبة : نفس المرجع ص٣٠١ .

فى أقوال علماء المسلمين والمستشرقين مايؤكد ماذهبنا إليه هنا ، فإن المؤرخ المصرى المعاصر لظهور الدعوة عبر عن رأيه فى دعوة محمد بن عبد الوهاب بقوله فى أحداث يوم ٢٩ صفر ١٢١٨هـ الموافق ٢٠ يونية ١٨٠٣ م : وحضر صحبة الحجاج — المصريين العائدين — كثير من أهل مكة هروبا من الوهابى ، ولغط الناس فى خبر الوهابى واختلفوا فيه ، فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا — وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم — ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه . وأرسل إلى شيخ الركب المغربى كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وأورد الجبرتى صورة لهذا الكتاب جاء فيه : من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . . . وقال : قال الله تعالى قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ، وقال تعالى :

قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، وقال تعالى : وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ، وقال تعالى : اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون ، وقال تعالى : وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

وقال أيضا فى رسالته . إذا عرف هذا فعلوم ماقدعمت به البلوى من حوادث الامور التى أعظمها : الاشراك بالله والتوجه إلى الموتى ، وسؤالهم النصر على الاعداء وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات التى لايقدر عليها إلا رب الأرض والسموات وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التى لاتصلح إلا لله وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا .

وأضاف فى رسالته : فهذا هو الذى أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى

آل بهم الامر إلى أن كفرونا وقاتلونا ، واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم ، وهو الذى ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع السلف الصالح من الأمة(١).

ويبدو من تسجيل الجبرتى لأحداث الدعوة الوهابية أنها تلقى منه القبول وقد دال على ذلك أيضا فى أحداث يوم ٢ صفر ١٢٢٢ هـ/١١ أبريل ١٨٠٧ م حين سجل مايلى : وصل حجاج المغاربة إلى مصر من طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم ، وأن مسعود الوهابى — يقصد أمير آل سعود سعود بن عبد العزيز — وصل إلى مكة بجيش كثيف ، وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار ، وأحضر مصطفى جاويش أمير الركب المصرى وقال له : ماهذه العويدات الطبول التى معكم ؟ (يعنى بالعويدات المحمل) ، فقال : هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عاداتهم ، فقال : لاتأت بذلك بعد هذا العام ، وإن أتيت به أحرقته ، وأنه هدم القباب ، وقبة آدم ، وقباب ينبع والمدينة وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الاسواق ، وبين الصفا والمروة وكذلك البدع (٢) .

بل إن الجبرتى يسجل رأيه بصورة أكثر دقة وصراحة فى تسجيله لأحداث يوم ٢٢ ذى الحجة ١٢٢٣هـ الموافق ٨ فبراير ١٨٠٩م حين يقول . انقطع الحج الشامى والمصرى معتلين بمنع الوهابى الناس عن الحج ، والحال ليس كذلك فانه لم يمنع أحدا يأتى إلى الحج على الطريقة المشروعة ، وإنما يمنع من يأتى بخلاف

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : نفس المرجع .
(٢) نفس المرجع .

ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع، مثل المحمل والطبل والزمز وحمل الأسلحة وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة ، وحجوا ورجعوا فى هذا العام وما قبله ، ولم يتعرض لهم أحد بشىء . .

ويضيف الجبرتى أن أهل المدينة ومكة قد شوهوا دعوة محمد بن عبدالوهاب بأن : الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام ، وهذه الأشيـاء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، إما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم أو لنوائب الزمان ، فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء . فلما تقادمت عليها الأزمنة ، وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة — وهى فى الزيادة — ارتصدت معنى لا حقيقة ، وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها ، وأنها صارت مالا للنبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها ، والنبى عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك ولم يدخر شيئا من عرض الدنيـا فى حياته .

وناقش الجبرتى الإدعاءات بتكفير الوهابين لأخذهم هذه الذخائر والجواهر واتهامهم بكراهية النبى وعـدم محبته ، وقال : ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسنته لا بمخالفة أوامره وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين وباقى الأصناف الثمانية[1] وكنز المال بحجرة الرسول لا ينتفع به أحد إلا ما يختلسه العبيد الخصيون الذين يقال لهم أغاوات الحرم ، والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم والمحتاجون وأبناء السبيل يموتون جوعا .

---

(١) يقصد بها الأصناف الثمانية من الناس المستحقين للصدقة والزكاة .

وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعون منها إلى أن حضر الوهابى واستولى على المدينة وأخذ تلك الذخائر(١) .

ولنا فى قول لو ثروب ستودارد عن دعوة محمد بن عبد الوهاب سنداً آخر على صحة ما دعا إليه الإمام ، حيث ذكر أن الدعوة الوهابية إنما هى دعوة إصلاحية خالصة غرضها إصلاح الخرق ، ونسخ الشبهات وإبطال الأوهام ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التى وضعها أربابها فى عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبادة الأولياء(٢) .

ولقد صور العالم المصرى الدكتور أحمد أمين دعوة محمد بن عبد الوهاب أبلغ تصوير حين ذكر أن هذه الدعوة حرب على كل ما ابتدع بعد الاسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة مولد ولا احتفاء بزيارة قبور ولا خروج للنساء وراء الجنازة ولا إقامة أذكار يغنى فيها ويرقص ولا محمل يتبرك به ويتمسح ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم وهو ليس إلا أعواد خشبية لا تضر ولا تنفع .. كل هذا مخالف للاسلام الصحيح يجب أن يزال ويجب أن نعود إلى الاسلام فى بساطته الأولى وطهارته ونقائه ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك فلا إله إلا الله معناها كل ذلك . . إن محمد بن عبد الوهاب لم ينظر إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ولم يتجه فى إصلاحه إلى الحياة المادية ، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها ، فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب إن صلحا صلح كل شيء وإن فسدا فسد كل شيء(٣) . .

---

(١) الجبرتى : نفس المرجع
(٢) لو ثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٦٤ .
(٣) د . أحمد أمين : زعماء الاصلاح ص ١٨ .

ويصور الدكتور طه حسين بأسلوب بليغ دعوة محمد بن عبد الوهاب التى أثارت الانتباه العالمى خلال القرن الثامن عشر الميلادى فى قوله : ان مبدأ الحركة جديد وقديم معا ، أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين ، ولكنه قديم فى حقيقة الأمر لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الاسلام الخالص النقى المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هو الدعوة إلى الاسلام كما جاء به النبى خالصا لله وحده ملغيا كل واسطة بين الله وبين الناس ، هو إحياء للاسلام العربى وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب(1) .

ولرب قائل أن أتباع محمد بن عبد الوهاب قد اتخذوا موقفا متطرفا فى الدعوة وصل إلى تكفير المسلمين الذين لا يعتنقون مذهبهم وإلى أن تحل دماؤهم ، بل إنهم تشددوا فى لبس العمامة على أنها سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كثير منهم يرون أن ما عدا قطرهم من الأقطار الاسلامية التى تنتشر فيها البدع ليست ممالك إسلامية ، وأن دارهم دار حرب وجهاد . وأنهم اعتبروا التزين بالحلى وشرب الدخان ولبس الحرير بدعا يجب التشدد فى محاربتها وتعقب متخذيها .

ولئن صح هذا القول على بعض اتباع الدعوة فانه لا يصح على مبادىء الدعوة ودعاتها العاملين بمبادئها الصحيحة ، ويجب أن ندرك أن كثيراً من أتباع الدعوة كانوا من البدو الذين أساءوا فهم مبادئها فغالوا فى تطبيقها(2)

---

(1) د . طه حسين : الحياة الأدبية فى جزيرة العرب ، مجلة الهلال مارس ١٩٣٣ .

(2) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٣٩ .

واشتدوا فى ذلك مما نفر منهم الكثير من المسلمين وأثار على الدعوة وأصحابها ثائرة العالم الاسلامى ، ونحن مع القائلين بأن ما ينسب إلى الدعوة من تكفير من عدا أتباعها هو بلا شك تزوير من خصومهم — وما أكثرهم كما رأينا — وأن وقعت بعض أشياء من بعض جفاة الأعراب والجهال ، فليس من الإنصاف أن ينسب كل ذلك إلى أتباع الدعوة كلهم وهم أهل نجد(١) .

ولا يمكن إنكار وجود مغالين فى تنفيذ مبادىء الدعوة حتى خرجوا عن جوهر المبادىء التى دعا إليها الامام محمد بن عبد الوهاب ، حتى إن هذا الغلو استمر إلى مطلع القرن العشرين وتمثل فى رفض مظاهر الحياة الحضارية الجديدة بآلاتها ومعداتها وابتكاراتها ، وقد بذلت حكومة الملك عبد العزيز آل سعود جهودا كبيرة لإقناع أولئك المغالين حتى أمكن استخدام الآلات والمخترعات الحديثة فى المملكة .

ومما لاشك فيه أنه رغم هذه السلبيات التى لحقت بالدعوة فان ظهور الامام محمد بن عبد الوهاب ودعوته الاصلاحية قد أحدثت نشوة دينية فى العالم العربى والاسلامى بعد ركود طويل خيم على العقول . . ولا شك أيضا فى أنها كانت دعوة رائدة فى ميدانها رغم صعوبة الظروف التى تمت فيها حتى ذاعت مبادئها وانتشرت وأصبحت نموذجا لما جاء بعدها من حركات الاصلاح(٢) .

كذلك لا يمكن إغفال تأثير هذه الحركة الاصلاحية على الفكرة العربية التى كانت مغمورة تحت السيطرة التركية على الأقطار العربية ، وإذا كانت دعوة محمد ابن عبد الوهاب قد اهتدت بها حركة محمد بن على السنوسى الاصلاحيه فى ليبيا ، وثورة محمد أحمد المهدى فى السودان ، وفكرة الجامعة الاسلامية فى مصر طوال القرن

---

(١) حافظ وهبه : نفس المرجع ص ٣٠٢ .

(٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٤٠

التاسع عشر ، فإن الدعوة الوهابية قد نبهت أذهان العرب بضرورة إيقاظ وعى العرب وإعادة أمجادهم ونقض السيطرة التركية ، ولعل هذا الاتجاه كان دافعا لكى تلتف القلوب حول آل سعود العرب الخلص ، كما كان له تأثير على فكرة الشريف حسين فى الحجاز لإقامة دولة عربية تشمل شبه الجزيرة العربية والعراق وكل بلاد الشام بعيدا عن السيطرة التركية . .

الفصل الحادي عشر

الدعوة السنوسية

- برقة
- محمد بن علي السنوسي .
- أسس الدعوة السنوسية .
- أسلوب الدعوة .
- السنوسية والاتراك .
- السنوسية والقوى الخارجية .
- تقييم الدعوة السنوسية .

برقة

ولد محمد بن على السنوسى فى الجزائر ، ثم أكمل تعليمه فى المغرب، وسافر إلى مصر مارا بليبيا فالحجاز ، ثم عاد ثانية إلى مصر فليبيا قبل أن يستقر به المقام فى برقة ، ومعنى هذا أنه لم يكن برقاويا ، كما أن دعوته لم تبدأ ببرقة ، ولكنه منذ اتخذ هذا الاقليم مقرا له ومستقرا انتسب إليه وباشر دعوته تحت اشرافه المباشر بين أهل الإقليم ، ومن هنا تجىء دراستنا لبرقة كمجال كبير وواسع للدعوة السنوسية .

وبرقة أحد أقاليم ليبيا الثلاثة (برقة ، طرابلس ، فزان) بل أكبر هذه الاقاليم من حيث المساحة (٧٠٠ ألف كم٢) وإن لم يكن أكثرها سكانا ، ويمتد هذا الإقليم من عقبة السلوم شرقا وحدود طرابلس غربا ، وكان يعرف عند الرومان باقليم « سيرينة » التى سماها العرب «قيرين» أو « قرناه» ثم أصبح يعرف منذ الفتح العربى بإقليم برقة »[1] .

وسطح الاقليم متنوع بين سهل ساحلى يضيق فى الجزء الاوسط بحيث يتكون من جيوب ساحلية تنحشر بين رءوس صخرية تصل إلى الساحل ، ولكن فى جناحى برقة : فى البطنان («مريقة) شرقا ، وفى برقة البيضاء والحمراء غربا ، يقسع هذا السهل الساحلى بحيث يمتد عشرات الاميال إلى أن يلتقى بالصحراء[2] ، وإلى وإلى جانب هذا السهل الساحلى يوجد الجبل الأخضر الذى يرتفع عن مستوى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٨ ص ٢٨٢ .

(٢) د . نقولا زيادة : ليبيا ص ١

سطح البحر بحوالى ألف متر وتكسوه الخضرة الدائمة ، ويرتفع من الساحل ارتفاعا مباشرا ولكنه ينحدر تدريجيا نحو الصحراء فى الجنوب ، وبه من الاراضى الصالحة للزراعة المساحات الكبيرة التى ترويها مياه الامطار الغزيرة .

وإلى الجنوب من الجبل الأخضر توجد الصحراء الواسعة التى تكون معظم مساحة الاقليم وهذه الصحراء مستوية وان وجد بها بعض الكثبان والهضاب فهى مستوية أيضاً ، وفى صحراء برقة توجد أودية عميقة بعضها يمتلىء بالماء فترة ما وبعضها يكون جافا طول السنة (١) . كما توجد بعض الآبار والينابيع المتناثرة وسط الصحراء تحيط بها واحات فقيرة مثل الجغبوب والكفرة ، وجالو ، وأوجلة (٢) .

وسكان برقة يعيشون فى تنظيم قبلى اتضحت صورته منذ الفتح العربى الاسلامى ثم عندما زحفت قبائل بنى هلال وبنى سليم من مصر إلى المغرب منذ القرن الخامس الهجرى — الحادى عشر الميلادى — فوجدنا هذه القبائل تنقسم إلى قسمين رئيسيين : القبائل السعدية ، وقبائل المرابطين ، ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بنى سليم ، وأن المرابطين هم بقية القبائل العربية اليمنية التى جاءت مع الفتح العربى الاسلامى والتى اختلطت بالعربر وعربتهم ، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف فى النسب (٣) إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن أهم القبائل السعدية العبيدات وعائلة فايد والحساوالبراعصة والدرسة والعبيد وعرفة والعواقير والمغاربة ، وأهم قبـــائل المرابطين : المنفة والقطعان والحوطة والفواخر والزوية .

---

(١) د . فيليب رفلة : الجغرافيا السياسية لافريقيا ص ٣٣٨ .
(٢) د . عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى ص ٧٦ .
(٣) د . نقولا زيادة : نفس المرجع ص ١٢ .

وقبائل برقة تعيش نفس التنظيم القبلى العربى من حيث انقسامها إلى عشائر وبطون وأفخاذ ، وللقبيلة أرض تملكها وتنتقل فى أرجائها ، وأفراد كل قبيلة متضامنون فى أداء ماعليهم من واجبات وفى الحصول على مالهم من حقوق ، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرياسة العامة على أفرادها . ومنذ أيام الفتح العربى الاسلامى حتى العصر الحديث كان الحكم فى برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار فى تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية ، بحيث تكون القبيلة أساسا لتطبيق النظام ومساعدة الحكام (١) .

ولسنا بحاجة إلى الحديث بتفصيل عن معيشة القبائل العربية فى برقة ، حيث أن القبائل البدوية فى الصحراء العربية سواء فى المشرق - حيث رأينا فى نجد - وفى المغرب - حيث نجد فى برقة - يعيشون حياة غير مستقرة. فيما عدا الواحات ، وكثيرا ما تتقاتل القبائل من أجل المراعى أو مياه الآبار .

وقد توفرت فى برقة ظروف إجتماعية وسياسية ودينية هيأت للسيد محمد بن على السنوسى أن يدعو لأفكاره بين أهل الإقليم الذى تميز بانقسام سكانه إلى قبائل متنافرة تأثر أفرادها بالبيئة الصحراوية فاتصفوا بالقوة والخشونة والمحافظة على العادات والتقاليد العربية ، هذا إلى جانب أن الإقليم كان عدد سكانه قليل بالنسبة لمساحته الشاسعة ، كما كان هذا المجتمع البرقاوى أكثر تجانسا فى تكوينه الجنسى وخلوا من الأقليات التى تقف دائما فى عضد الحركات الاصلاحية (٢).

ومنذ أن أصبحت ليبيا (طرابلس الغرب) ولاية عثمانية عام ١٥٥١ م سيطر الحكم العثمانى على السواحل دون الدواخل ، وعلى هذا أهملت برقة فلم

---

(١) مصطفى بعيو : دراسات فى التاريخ الليبى ص ٣٣ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٢٦ .

تلق من عناية الدولة العثمانية أو إشرافها المباشر ما يستحق من اهتمام ، حتى إذا حكمت الولاية الاسرة القرمانلية حاول أمراؤها السيطرة على كل الولاية بما فيها برقة ، ثم عاد الحكم العثمانى المباشر ليجعل من برقة ولاية قائمة بذاتها عام ١٨٣٨ م

وقد حاول الحكام العثمانيون جمع السلطة فى أيديهم ولكن أهل برقة لم يخضعوا للحكم الجديد ومن ثم حدثت ثورات فصدامات بين أهل البلاد والاتراك ، حتى بات الاتراك يتوقون إلى إزالة هذا الشر المستطير ووضع حد للصدام وذلك باستمالة زعماء العرب وأصحاب النفوذ فى البلاد ، فكانت هذه الرغبة من جانبهم السبب الاكبر والمباشر الذى دعا العثمانيين إلى الاعتراف بالسنوسية ليس فقط كدعوة وطريقة بل كإمارة وسياسة(١) .

وكانت أحوال أهل برقة الدينية تستدعى وجود داعية لإصلاح ما شاب عقيدتهم الدينية من شوائب ، ذلك أنه بحكم مرور السنين وإهمال المصلحين الدينيين لوظيفتهم قد جعل البرقاويين يحيدون عن أصول الاسلام الصحيح ، وغير متفهمين للعقيدة وإنما مقلدين ، ومن ثم أصبحوا سادرين فى غيابات الضلال معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والخلقية ، إذ أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو فى الجبل الاخضر ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام ، وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا فى أذهان البدو أن زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام(٢) إلى غير ذلك من أعمال تنافى الدين كوأد البنات وعدم صوم رمضان بابتداع بدعة تقوم على الذهاب قبل حلول شهر رمضان بأيام إلى وادى « زازا » المعروف بقوة رجع الصـــدى وسؤاله

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٢٦ .
(٢) أحمد حسين : فى صحراء ليبيا ص ٤٨

أيصومون رمضان أم لا ؟ فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة « لا » فيصبحون فى حل من الصوم ويفطرون .

محمد بن على السنوسى

هو محمد بن على بن السنوسى بن العربى بن حمو بن عبد القادر بن محمد بن يوسف ابن عبد الله بن خطاب ، الذى ينتهى نسبه إلى إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] . وهذا النسب يختصره السنوسيون ليصبح : محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى[2] . وقد ولد فى ناحية الواسطة من بلدة مستغانم بالجزائر فى ١٢ ربيع الأول عام ١٢٠٢ هـ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧م كما تؤكد أكثر المصادر التاريخية دقة .

وكان البيت الذى نشأ فيه صاحب الدعوة بيت علم ودين ، فوالده وجده وأعمامه وأبناء أعمامه وكثير من نساء هذا البيت الكريم مثل جدة السيد — صاحب الدعوة لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة ، كانوا جميعا علماء[3] ومن ثم لا عجب أن نجد صاحب الدعوة منذ طفولته يترعرع فى جو علمى فى مسقط رأسه ، ثم يستزيد من العلم بالانتقال إلى جامع القرويين فى فاس الذى كان مركزا من مراكز العلم والعلماء فى ذلك الوقت ، فأقام به سبع سنوات (١٨٢٢ — ١٨٢٩) طالبا للعلم ثم مدرسا ، وقد اهتم بالصوفية اهتماما أساسه اعتقاده بأن سبيل الاصلاح الأول هو إيجاد التفاهم بين جميع المهتمين بالاسلام أفرادا وجماعات

---

(١) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٢٠

(٢) محمد بن على السنوسى : الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية .

(٣) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١١

على تباعد الأقطار والديار ، فدرس القادرية والشاذلية والناصرية والحبيبة(1) .

ومن فاس انتقل صاحب الدعوة إلى الجزائر حيث خالط أهل القوافل من السودان الغربى وعاش بينهم جنوبى الجزائر معلما وموجها ، ثم واصل تنقلاته إلى تونس فطرابلس فبنى غازى فالقاهرة التى لم تطل إقامته بها أكثر من عدة أسابيع بارحها مغاضبا بسبب عدم الترحيب بأفكاره من قبل مشايخ وعلماء الازهر الذين يسيطر عليهم وقتذاك والى مصر محمد على بعد أن مهدوا لولايته على مصر ، ولم يكن والى مصر ليرحب « بالسنوسى » ، وامل موقف علماء الازهر منه موقف موعز به(2) .

ونتيجة لذلك سافر صاحب الدعوة إلى الحجاز حيث بقى هناك حوالى ثمانى سنوات يدرس الفقه الاسلامى على يد علماء مكة والمدينة المنورة ، ويدرس أحوال المسلمين الذين يفدون كل سنة للحج من مختلف الشعوب والأقطار ، ويقوم بنشر العلوم والمناظرة فيها ودراسة المذاهب الاسلامية ، كل ذلك فى الوقت الذى كان هناك عداء بين أشراف مكة والعثمانيين من ناحية وبين الوهابيين فى نجد من ناحية أخرى ، مما جعل موقفه حرجا فى دعوته الاصلاحية فترك الحجاز عام ١٨٤٠ م عائدا إلى الجزائر عن طريق مصر (واحة سيوة) فبرقة وطرابلس ، ولكنه خشى الفرنسيين الذين احتلوا الجزائر منذ عام ١٨٣٠ م فعاد إلى برقة حيث نزل بالجبل الأخضر ليتخذ منه مقرا لدعوته .

ومما يجدر ملاحظته أنه توفرت عوامل شكلت شخصية السيد محمد بن على السنوسى ، أولى هذه العوامل نشأته الدينية فى وسط أسرة زاخرة بالعلماء فى الدين ، وثانى هذه العوامل رحلاته المتعددة التى تنقل فيها بين مغرب الوطن العربى إلى

( ) د . نقولا زيادة : المرجع السابق ص ٦٤

(2) مصطفى بعيو : نفس المرجع ص ٢٤ .

مشرقه التقى خلالها بأهل البلاد ودرس أحوالهم الاجتماعية والدينية ووقف على أسباب ضعف الاسلام فى نفوس العرب المسلمين، وضعف البلاد العربية نتيجة لشدة حرص الأتراك على حكم العالم العربى واضطهاد العرب ومحو شخصيتهم، والاستخفاف بالحقوق الاسلامية والاحتقار للجنسية العربية وقد جعلته رحلاته يدرك أن الدولة العثمانية العظيمة فى طريق الانحطاط والاضمحلال (1).

وكان من هذه العوامل كذلك أولئك العلماء الذين احتك بهم فى رحلاته وتأثر بعلمهم أو نفر منهم ونفروا منه، فعندما كان بفاس بالمغرب التقى بعدة علماء على رأسهم الشيخ العربى بن أحمد الدرقاوى أحد مشايخ الطريقة الشاذلية، ورغم مالقيه من العلماء ومن طلاب العلم من تكريم فان سلطنة مراكش شددت فى مراقبته حتى لاتنقلب أفكاره الدينية إلى أفكار سياسية تعصف بالسلطنة.

وعندما وصل صاحب الدعوة إلى مصر اجتمع مع علماء من الازهر كان من بينهم الشيخ حسن العطار والشيخ الأمير والشيخ الصاوى وغيرهم الذين رأوا فى آراء صاحب الدعوة خروجا عن المألوف وجرأة لم يعهدوها، فانتهزوا فرصة تصديه لإلقاء الدروس بالجامع الازهر وانتقاده لحكومة الباشا فى القاهرة — محمد على والحكومة العثمانية وطلبوا من طلاب العلم والمستمعين لآرائه الابتعاد عن حلقاته لأنه يبتدع فى الدين، ويتطرف فى آرائه.

وعند مازار مكة التقى بعدد من العلماء المسلمين على رأسهم الامام أبى العباس أحمد بن إدريس الفاسى مؤسس الطريقة الإدريسية الذى ظل صاحب الطريقة ملازما له بمكة حتى توفى ابن إدريس الفاسى فى عام ١٨٣٥ م ودرس على يديه أصول الطريقة الشاذلية. ودرس التيجانية على يدى أبى العباس التيجانى والطريقة

---

(1) د. محمد فؤاد شكرى: نفس المرجع ص ١٧.

القادرية (١) على يد الامام المرائشى ، ولكنه وجد تعنتا من أشراف مكة ومن العثمانيين فى الحجاز ، كما وجد أستاذه ابن إدريس الفاسى من قبل . وقد كان من زملاء صاحب الدعوة فى التتلمذ على يدى بن إدريس الفاسى بمكة السيد صالح الميرغنى السودانى الاصل ، فلما توفى الأستاذ تحمل التلميذين امانة الاستمرار فى الرسالة فوجدت الطريقتان المعروفتان : الطريقة الميرغنية بالسودان ، والطريقة السنوسية فى برقة .

وكان من العوامل المؤثرة فى تكوين شخصية صاحب الدعوة كذلك ظهور الأطماع الفرنسية فى بلاده الجزائر ، تلك الأطماع التى تحققت نتيجة ضعف الدولة العثمانية وعدم اتخاذها وسائل حماية الأقطار العربية والاسلامية من خطر المد الاستعمارى ، ومن ثم رأى عدم الاصطدام بالسلطات الفرنسية فى الجزائر حتى لا يعطيها الفرصة للقضاء على حركته الاصلاحية فى مهدها ، ولكن أسس دعوته أظهرت تأثره بالعدوان الفرنسى على الجزائر ..

أسس الدعوة السنوسية

يمكن أن نحدد أسس الدعوة السنوسية فى ثلاث : أساس دينى ، وأساس اجتماعى ، وأساس سياسى . وهذه الأسس اتضحت فى كتابات صاحب الدعوة سواء كانت كتبا مؤلفة أو رسائل إلى القبائل والمريدين والإخوان . ولقد تعددت كتب

---

(١) تعتبر الطريقة القادرية من أوسع الطوائف الاسلامية انتشارا ، أسسها الولى الشهير عبد القادر الجيلانى فى القرن الثانى عشر — السادس الهجرى — وقبره فى بغداد . وقد دخلت الطريقة القادرية إلى بلاد المغرب فى القرن الخامس عشر على أيدى مهاجرى واحة توات فى جنوب الجزائر ، والمعروف أن الزعيم العراقى رشيد عالى الكيلانى صاحب الثورة المعروفة فى العراق من أحفاد مؤسس هذه الطريقة . مصطفى بعيو ص ٢٦ .

صاحب الدعوة حتى بلغت أكثر من أربعين مؤلفا بقى بعضها وفقد البعض الآخر اثناء الاحتلال الايطالي لليبيا ، ومن أشهر هذه المؤلفات : الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية ، وهو كتاب تاريخي يتناول فيه مـــلوك الادارسة ودولهم بالمغرب : وكتاب . ريحانة الحبوب في عمل السطوح والجيوب ، وهو كتاب في الرياضيات وكتاب في العلوم بعنوان المنهل الروى الرائق في اسانيد العلوم وأصول الطرائق وكتاب بعنوان: السلسبيل المعين في الطرائق الاربعين ، وهو كتاب تصوف يسرد حقائق عن أربعين طريقة صوفية ، ويؤكد أن الطرق إلى الله كثيرة ولكنها في الحقيقة واحدة إذ مطلوب الكل واحد (١)

كما ألف صاحب الدعوة كتب ومؤلفات أخرى دينية في موضوعها مثل : المسائل العشر وبغية المقاصد في خلاصة الراصد. وكتاب: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن ، ومقدمة لموطأ الامام مالك ، وغيرها من المؤلفات التي حوت أفكاره وأسس دعوته الاصلاحية ذات الثلاثة دعائم دينية واجتماعية وسياسية.

أولا : الاساس الديني :

تمثل هذا الأساس في الدعوة إلى الرجوع بالدين الاسلامي إلى ما كان عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده، ولذلك كان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأصلين اللذين يصح الاعتماد عليهما في فهم الاسلام دون الاجماع والقياس المتأخرين(٢) . وقد وضحت دعوته هذه في كتبه ورسائله فمن ذلك ماجاء في رسالة بعث بها إلى أهل « واجنقة » قوله : اسألكم باسم الاسلام أن تطيعوا الله ورسوله ، فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز «يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا رسوله ، ويقول كذلك، من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن يطع الله ورسوله فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين

---

(١) أحمد الدجانى . احاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ ص٧٥

( )نقولا زيادة : نفس المرجع ص ٧٠

والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، نسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله فتؤدون الصلوات الخمس كل يوم وتصومون شهر رمضان وتؤتون الزكاة وتؤدون فريضة الحج إلى بيت الله الحرام ، وتجتنبون مانهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس بغير حق ، وشرب الخمر، وتأدية شهادة الزور وغير ذلك مما أمر الله باجتنابه ، فإذا فعلتم ماأمر الله به ورجعتم عما نهى عنه أسبل عليكم نعمة الاسلام ومنحكم الخير والرزق الدائمين(١) .

ولم تكن هذه الدعوة الاصلاحية بالرجوع بالاسلام إلى ما كان عليه فى أيامه الاولى فقط، بل قرن صاحب الدعوة بضرورة العمل بالقران الكريم والسنة المحمدية الشريفة قرن ذلك بعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد — كما تسير الطرق الصوفية — أو الاعتماد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل الجدى ، ومراعاة أحكام الشريعة الاسلامية فى الأعمال الخاصة والعامة كما كان العهد فى أيام الرسول والخلفاء الراشدين من بعده(٢) .

ويؤكد ذلك أيضا ماحمله شيوخ السنوسية إلى القبائل من وصايا صاحب الدعوة بتلاوة الذكر سرا وعلانية وأن تجعلوا اعتمادكم كله على الله تعالى وعلى كتابه الحكيم وسنة نبيه الكريم ، إذ يجب أن نتوجه دائما إلى المولى عز وجل ونطلب منه تعالى العون والمؤازرة واخشوا الله دائما ولا تفعلوا إلا ما أمر به وابتعدوا عما نهى عن فعله ، وعظموا كلمة الحق سبحانه وتعالى . . إن رحمة الله واسعة ، وعند الله نعيم مقيم لا أول له ولا اخر(٣)

وواضح من هذه العبارات التى تستند إليها الدعوة السنوسية كأساس دينى

---

(١) محمد فؤاد شكرى . المرجع السابق ص ٤٥ - ٤٦

(٢) مصطفى بعيو . المرجع السابق ص ٣٦

(٣) د محمد فؤاد شكرى . المرجع السابق ص ٤٦ .

تطهير الاسلام من البدع والخرافات التى علقت به، وذلك يتم بالعودة إلى أصول الاسلام الاولى والبعد عن الحركات المسموح بها فى الطرق الصوفية الاخرى كالغناء والرقص واظها الكرامات والمعجزات أو الشطح والتمايل. وأيضا الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كأصلين للدين الإسلامى ، إلى جانب عدم الشرك بالله لانه جلت قدرته الواحد الاحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ويتم ذلك بعدم التضرع إلى الاولياء أو الشخوص الحجرية التى لا تنفع ولا تضر ولان ذلك ينهى الله عنه .

وتضمن الاساس الدينى للطريقة السنوسية كذلك اعتبار باب الاجتهاد مازال مفتوحا ومن ثم يجوز الاجتهاد فى مسائل الدين الاسلامى التى تواجه المسلمين بشرط أن يراعى المجتهد أصلى الدين الاسلامى الوحيدين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والاحكام التى نصا عليها وإذا كان صاحب الطريقة قد اتفق مع ابن يتمية ومحمد بن عبد الوهاب فى فتح باب الاجتهاد ، فقد كانت دعوة لها مايبررها خاصة وقد تحجرت الافكار عند علماء المسلمين بسبب اتجاههم نحو التقليد لا التجديد وفى هذا المقام فقد دافع صاحب الطريقة عن المتصوفين الخالصين ومذهب التصوف الحق فذكر أنه : قد يسرى فى وهم من ليس له رسوخ قدم فى علم القوم أن أحوال الصوفية بعضها مباين لما عليه علماء الشريعة ، كما فاه فيه بعض الجهلة تغاليا أو تنقيصا ، فاعلم أن سبيل القوم رضى الله عنهم اتباع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجليل والحقير ، وكلما ازداد أحدهم أتباعا كلما ازداد كما لا لكون الكمال الكلى عندهم فى كمال الاتباع والافليس منهم أو ناقص عندهم فان أعمالهم موزونة بميزان الشريعة فمارجح فيه قبلوه ومالا يرجح نبذوه (1) .

---

(1) أحمد الدجانى : نفس ٧٨ — ٧٩ .

ومن هـذا المنطلق منع صاحب الدعوة كل أشكال المبالغة فى الحماسة الخاصة بالذكر كما هى العادة فى معظم الطرق الأخرى وقصر الذكر فى طريقته على اسم الجلالة ، وجعل لها ما يعرف « بالورد » ومنع الاستعانة بالدفوف والمواكب والحركات العنيفة التى ترمى إلى ازدياد حماسة الأشخاص فى الذكر بهزا الأجسام بشكل خاص[1] وبهذا وضع أساسا صحيحا للتصوف يبعده عن الابتذال ويقربه من العبادة . وكان ذلك نجاحا للدعوة السنوسية ليس فقط فى برقة ولكن أيضا فى الحجاز حيث توجد الطريقة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية ، تلك الطريقة المعروفة بشدة موقفها من أصحاب الطرق الصوفية المختلفة .

ثانياً : الأساس الاجتماعى :

لم يكن الأساس الاجتماعى للدعوة السنوسية ببعيد عن الأساس الدينى لها ذلك أن الأساس الاجتماعى يتمثل فى نشر فضائل الاسلام عن طريق الزوايا التى مارست دورا كبيرا بل الدور كله تقريبا فى نشر الدعوة السنوسية ليس فقط فى برقة وغيرها من الأقطار العربية بل وأيضا نشر الدين الاسلامى بين شعوب غرب ووسط أفريقيا الوثنيين .

ويتضح الأساس الاجتماعى للدعوة السنوسية من كلمات صاحبها إلى أهل واجنقة التى جاء فيها : يا أهل واجنقة إنا نريد أن ننشر السلام بينكم وبين الأعراب الذين يغيرون على بلادكم ويستعبدون أولادكم وينتزون أموالكم ، وإنا بعملنا هـذا نقوم بما أمر الله به فى كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، ويقول سبحانه وتعالى : أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين

---

(١) مصطفى بعيو ، المرجع السابق ص ٤١

والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »[1] .

كما أن الأساس الاجتماعى للدعوة تمثل فى عدم الاقتصار على العبادة والتصوف بل دفع المسلمين إلى أن يكونوا عبادا عاملين منتجين فى الزوايا التى تضم إلى جانب المسجد والمدرسة المزرعة والمتجر : يقوم فيها المسلمون بالعمل فى شتى المجالات التى تحويها الزوايا ولعل خير ما يمثل هذه الروح التى أرادها صاحب الدعوة أن تكون روح الجميع هو أن بناء الزاوية نفسه كان يقوم به أهلها ، فالزاوية إذن منذ وضع حجرها الأساسى كانت رمزا للنشاط والانتاج[2]

وقد أمكن للدعوة السنوسية بفضل دعاتها وزواياها المنتشرة بين القبائل فى برقة أو غيرها من الأقطار العربية والافريقية أن تؤاخى بين القبائل المتدابرة وأن تؤلف بينها وتعلمها كيف يكون الإخاء وكيف يكون الإيثار ، حتى أصبحت كلمة « الاخوان » تعنى الوفاء والاخلاص وتذكرنا بالاخوة الاسلامية وعهدها الأول[3] .. إلى جانب تحويل المناطق المقفرة ومعاقل قطاع الطرق إلى أماكن أمن يأوى إليها الناس للاهتداء إلى سواء السبيل وحفظ القرآن الكريم ومدارسة العلوم الدينية واللغوية .

على هذا فان تأثير الدعوة السنوسية على أهل برقة اتصالا بالأســاس الاجتماعى أن انقطعت الخلافات بين القبائل الضاربة فى أنحاء الاقليم وارتبطت فيما بينها برباط الدعوة السنوسية والأخوة الاسلامية ، وانقطعت الإغارات على المضارب وأمن المسافرون فى الصحراء من غزوات قطاع الطرق ونهبهم الأمتعة فانصرف الناس إلى الانتاج الزراعى فى الزوايا وإلى الرعى فى المراعى

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢) د . نقولا زيادة . المرجع السابق ص ٧٠ .

(٣) جامعة السيد محمد بن على السنوسى الاسلامية ص ١٦ .

المجاورة للزوايا ، وسارت قوافل التجارة فى أمان لخير الناس دون أن تتعرض لما كانت تتعرض له من قبل من مصاعب فى الوقت الذى تعددت فيه الزوايا بتعدد القبائل .

ثالثا - الأساس السياسى -

يقوم هذا الأساس على مبدأ أن الدين الاسلامى لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو الزعيم الدينى والزعيم السياسى فى نفس الوقت ، وخلفه من بعده الخلفاء الراشدون وخلفاء بنى أمية وبنى العباس ، وحتى سلاطين آل عثمان فى تركيا جمعوا السلطتين الدينية والزمنية فأصبح السلطان العثمانى خليفة المسلمين فى نفس الوقت ، وعلى هذا كانت الدعوة السنوسية تستند إلى مبدأ سياسى مع استنادها إلى المبادىء الدينية والاجتماعية ، انطلاقا من أنه طالما كان الاسلام دينا وسياسة فانه منوط بصاحب الدعوة الذى يجمع بين الصفتين الدينية والسياسية تدبير شئون الدنيا للمسلمين إلى جانب شئون الدين .

وعلى هذا كانت الدعوة السنوسية وسيلة لإنشاء الامارة لأنها أوجدت بفضل النظام الدقيق الذى وضعته لأتباع الطريقة نوعا من السيادة الدينية والدنيوية معاعلى خير ما يقيمه الاسلام من أسس لذلك ، حتى أصبحت السنوسية تسيطر على أفئدة المسلمين الذين بلغتهم هذه الدعوة(١) ، عن طريق الشيوخ والاخوان الذين يختارهم صاحب الطريقة ويعدهم إعدادا دينيا وسياسيا يؤهلهم لقيادة أهل القبيلة أو القبائل التى توجد الزاوية فى أرضها ، بالاضافة إلى وضع تعليمات يسير عليها كل هؤلاء الشيوخ فى الاشراف على الزوايا ، وربط الزوايا ، بعضها البعض وبالزاوية الأم فى البيضاء أو الجنوب فيما بعد برباط محكم من المراسلات

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى . المرجع السابق ص ٤٥ .

حتى يستمر إشراف صاحب الطريقة ومتابعته لأعمال شيوخ الزوايا والاخوان فى أداء رسالتهم المتعددة دينية كانت أو سياسية أو تعليمية . .

ومما يؤكد الأساس السياسى للدعوة السنوسية إلى جانب التنظيم المحكم للزوايا دعوة صاحب الطريقة أتباعه بالاستعداد الحربى بتعلم الرماية واستخدام السلاح وركوب الخيل وعدم الاكتفاء بتعلم العلم أو ممارسة العبادات والشعائر الدينية لأن المؤمن القوى أفضل عند الله من المؤمن الضعيف ، ثم أن دعوة صاحب الطريقة هذه انصبت أساسا على أهالى ليبيا وأفريقيا . . فعلى كل فرد من الاخوان مادام قادرا وغير عاجز أو مشغول أن يكون مستعدا للطوارىء متهيئا الحرب منتظرا للأمر منفذا له بكمال طاعته . ومن كان فقيرا فسلاحه وراحلته من الزوايا التابع لها أو من أغنياء الاخوان أنفسهم(1) .

وكان تسليح الاخوان فى ليبيا دليلا على وضع الأساس المادى للامارة السنوسية بوجود قوة عسكرية جاهزة ومستعدة للدفاع عن الطريقة والامارة ضد أعدائها سواء كانوا من القوى المحلية أو الخارجية ، ولقد أثبت هؤلاء الاخوان وجودهم فى مواجهة الغزو الايطالى لليبيا أوائل القرن العشرين . كما أثبتوا وجودهم أيضاً فى صد التقدم الفرنسى من وسط القارة الافريقية نحو الحدود الجنوبية لليبيا .

كما استندت دعوة الإفارقة للاستعداد الحربي كذلك إلى اقتناع صاحب الدعوة بأن الاستعماريين الاوربيين لن يوقف أطماعهم سوى قوة أهل الأقطار الافريقية واستعدادهم للدفاع عن بلادهم ضد هذه الأطماع الاستعمارية ، وان كان لم يلجأ إلى إثارة الاضطرابات ضد القوى المسيحية فانه ما كان يضمن نجاح الثورات ولما لم يتهيأ الناس ويستعدوا للقيام بها ، ومن ثم سارت دعوته للاستعداد الحربى

---

(1) نفس المرجع ص ٥٢ .

سواء فى ليبيا أو فى الأقطار الأفريقية المجاورة بهدوء ودون أن تثير الفكرة من قبل الدول الاوروبية الاستعمارية ومن قبل تركيا ذاتها ..

ولعل اعتراف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على ليبيا بزعامة صاحب الدعوة السنوسية وإمارته ثم الاعتراف بزعامة وإمارة خلفائه دليلا على قوة الأساس السياسى للدعوة السنوسية . ولم يكن هذا الاعتراف العثمانى غريبا لأن صاحب الدعوة حرص على إقامة العلاقات الطيبة مع الدولة العثمانية وعدم إثارة شكوكها فى تحركاته وتعليماته لشيوخ زواياه والإخوان من أتباعه بما أكد قوة صاحب الدعوة ونفوذه على القبائل التى فشل الحكم العثمانى فى إخضاعها ، ومادام صاحب الدعوة يعترف بالسيادة العثمانية فلم يكن اعتراف الدولة العثمانية بالامارة السنوسية أمرا غريبا أو منافيا لمصلحة الدولة (١) .

وأخيرا فان وصية صاحب الدعوة باسناد رئاسة الطريقة والإمارة إلى الأكبر الأرشد من الاسرة السنوسية ، بالإضافة إلى اتباع نظام البيعة الإسلامى .. كل ذلك دليل حى وعملى على تأكيد الجانب السياسى للدعوة السنوسية . ذلك أن صاحب الدعوة عمل فى حياته على تقديم ابنه الأكبر « السيد محمد المهدى » الصلاة وألبسه السيف وخلع عليه عباءة « جرداء » وصافحه دليلا على المبايعة ومن ثم تقدم كل الحاضرين من أفراد الاسرة السنوسية ومن الاخوان إلى مصافحة « ومبايعة » السيد محمد المهدى .. فكانت تلك المبايعة قبولا منهم فى حياة صاحب الدعوة نفسه . وبذلك جمعت السنوسية فى نظام الحكم بين مبدأ الوراثة الصلبية والعمل بمبدأ الشورى ، وحققت فى هذا بعض شروط الامامة (١) .

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : نفس المرجع ص ٥١ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٥ .

أسلوب الدعوة

تميزت الدعوة السنوسية بأسلوب انفردت به في نشر مبادئها الدينية والاجتماعية والسياسية ، ومن ثم كانت فرص النجاح أمامها أكثر من غيرها من حركات الاصلاح السلفية الاخرى تمثل ذلك الأسلوب في التدرج والمسالمة واللين من ناحية وابتداع أداة لتحقيق تلك المبادىء تحقيقا عمليا وأعنى بها نظـــام الزوايا من ناحية أخرى .

أما أسلوب التدرج والمسالمة واللين فيتضح من كتب صاحب الدعوة ورسائله، فمن ذلك ماجاء في رسالته إلى العلامة ابن الشفيع خليفته بزاوية المدينة المنورة حيث قال ... وحسنوا أخلاقكم ولينوا جانبكم للكبير والصغير ، قال تعالى « وقولوا للناس حسنا » وقال جل وعلا « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » وقال صلى الله عليه وسلم : ارفقوا فان الرفق ما كان في شيء إلا زانه وأن الحمق ما كان في شيء إلا شانه ، وارفعوا همتكم عن الخلق . وقال صلى الله عليه وسلم: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس . عليكم بالمناصحة والمذاكرة وارشاد عباد الله إليه والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد فيما بينكم ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى البر أعوانا (١) .

وهذه الدعوة السلمية التي نأت بالسنوسية عن الدخول في صراع مع القبائل من ناحية ، ومع الدولة العثمانية صاحبة السيادة على القطر الليبي من ناحية ثانية جعلها تختلف عن دعوة كل من العلامة ابن تيمية والامام محمد بن عبد الوهاب،

(١) جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الاسلامية ص . من رسالة بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٦٢٤ هـ

فبينما اشتد ابن تيمية فى طلب تحقيق أفكاره — دون ان تكون له قوة تسانده حتى حورب من القوى المختلفة ، قسا الإمام محمد بن عبد الوهاب — مستندا إلى قوة آل سعود وتأييدهم له — فى تطبيق أفكاره الاصلاحية بل اصطدم بالقبائل والحكام العثمانيين . هذا فى الوقت الذى على الرغم من اشتراك السنوسية مع أفكار كل من ابن تيمية وابن عبد الوهاب فى عوامل واحدة فقد أثرت السنوسية ضمانا لنجاح دعوتها المهادنة واستخدام أسلوب الاقناع .

وأما الأداة التى استخدمها صاحب الدعوة كأسلوب سلمى وعملى فى نفس الوقت لنشر دعوته بين الناس فكان ماعرف باسم « الزاوية » ، ولم يكن اسم الزاوية من ابتداع صاحب الطريقة السنوسية ، فلقد سبقته الطرق الصوفية الاخرى إلى استخدام هذا الاسم رمزا لمكان يختلى فيه أتباع الطريقة والقائمون عليها بأنفسهم ويتقربون إلى الله بالعبادة ليلا ونهارا منقطعين عن الناس وعن الحياة مكتفين بكمالة مسبب الأسباب (الله) لهم أى بما يرسله الله لهم من رزق على يد رجال القوافل الذين يضربون فى الطرق الصحراوية وينزلون بهذه الزوايا التى غالبا ما كانت مواقعها فى أماكن خلوية بعيدا عن العمران ، أو مايوقف على الزاوية من أوقاف يحبسها مشايخ القبائل المجاورة للزاوية تقربا إلى علمائها المشرفين على طريقتها الصوفية .

ولكن الزوايا السنوسية أختلفت عن غيرها من الزوايا الصوفية الاخرى من حيث الشكل والمضمون أى من حيث مواقعها وبنائها ، ومن حيث تنظيمها ورسالتها إلى جانب انتشارها خارج برقة وبدء هذا الانتشار . فكانت زاوية أبى قبيس بمكة المكرمة أولى الزوايا السنوسية على الاطلاق قد تم تأسيسها عام ١٢٥٢ هـ الموافق ١٨٣٧ م ، وكانت الزاوية البيضاء — فى برقة — أول مركز رئيسي

الدعوة السنوسية فى ليبيا وأنشئت عام ١٢٥٨ هـ[1] الموافق ١٨٤٣ م ثم سرعان ما انتشرت الزوايا فى انحاء العالم الإسلامى فنجد أن مؤسس الدعوة محمد بن على السنوسى قد أنتقل إلى جوار ربه تاركا ٦ زوايا بالحجاز بمكة والمدينة المنورة وجدة والطائف ومنى وبدر . و ٩ زوايا بمصر فى واحات صحراء مصر الغربية ، و ١٤ زاوية فى برقة مركزها الزاوية البيضاء بالجبل الاخضر أولا ثم زاوية الجغبوب بعد ذلك و ٧ زوايا باقليم طرابلس . و ٥ زوايا باقليم فزان ، وزاوية واحدة بتونس . وأضاف إلى هذا العدد السيد محمد المهدى ابن صاحب الدعوة وخليفته زوايا أخرى منها ٧ زوايا بالحجاز ، ١ زاوية بمصر ، و ٢٣ زاوية باقليم برقة ، و ٥ زوايا باقليم طرابلس وزاوية واحدة بفزان ، وزاوية واحدة بالجزائر ، و ٥ زوايا فى تشاد ، وزاوية واحدة بالسودان ، وزاوية واحدة فى نيجيريا :

وواضح من هذا الانتشار أن الدعوة اقتصرت فى بدء عهدها على الأقطار العربية فى المشرق أو المغرب ، ولكنها ما لبثت أن امتدت إلى الاقطار الإفريقية المجاورة ، كما ان ازدياد عددها بصورة واضحة فى عهد السيد محمد المهدى دليل على تقبل الناس الدعوة وإسهامهم فى بناء الزوايا فى كل مكان تصل اليه الدعوة . كما أن رئاسة هذه الزوايا وجدت حيث يوجد صاحب الدعوة فقد انتقلت الرئاسة من مكة بانتقاله إلى الزاوية البيضاء فى برقة ثم إلى زاوية الجغبوب وكل هـــذا الانتقال فى عهد السيد محمد بن على السنوسى ، ثم انتقلت الرئاسة إلى زاوية الكفرة فى عهد خليفته ومن جاء بعده عندما اصطدمت الدعوة بقوى الاستعمار الغربى جنوبا — مع فرنسا — وشمالا مع إيطاليا .

وأما مواقع هذه الزوايا فقد تميزت بصفات سياسية وتجارية واستراتيجية.

---

(١) محمد الطيب الأشهب : السنوسى الكبير ص ٣٣ .

فمن الناحية السياسية نجد الزوايا تنتشر فى الدواخل أكثر من انتشارها فى السواحل ، وذلك راجع إلى السيادة العثمانية التى كانت أكثر ما تكون نفوذاً فى المدن الساحلية بعكس ما كانت عليه الحال بين القبائل البدوية وسكان الواحات حيث كانوا لا يعرفون للسلطة العثمانية أى وجود[1] . وعلى هذا اختار صاحب الدعوة المناطق الصحراوية الداخلية ليقيم فيها الزوايا تحاشيا لأى صدام يقع بين السنوسيين والعثمانيين ، وبعداً عن تتبع العثمانيين لنشاطه .

وفى هذا المقام حرص صاحب الدعوة على توضيح الغرض الدينى من بناء الزوايا لسلطات الحكم العثمانى فى ليبيا ، فوجدناه يذكر لمصطفى باشا حاكم فزان عند بناء زاوية هناك ، ان الزاوية فى الحقيقة إنما هى بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده ، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة ، وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية لانها ما أسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان[2]. وأوضح نفس الغرض الدينى للزاوية للمشير محمد أمين باشا والى طرابلس الغرب العثمانى فقال: وأما نحن فقد ألفنا من اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ، ليحصل المقصود منها ويدوم من تعلم العلم وتعليمه وإقراء القرآن وتفهيمه ، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها[3].

والى جانب الاهمية السياسية لمواقع الزوايا فقد كانت لهذه المواقع أهمية تجارية واقتصادية بصفة عامة ، فقد أقيمت معظم الزوايا فى طريق تجارة القوافل ، وكان هناك ثلاثة طرق رئيسية فى الاراضى الليبية الطريق الاول

---

(١) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٢) محمد الطيب الأشهب : المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٥ .

القوافل يتجه جنوبا من الساحل الليبي عبر واحة فزان إلى بحيرة تشاد، والطريق الثاني ينعطف جنوبا غربا عبر غدامس وغمات إلى تمبكتو الأسطورية، والطريق الثالث يسير جنوبا شرقا عبر واحة الجفرة ثم سواكن وزيلا إلى واداى ودارفور الغنى بخصبه وثرواته[1].

والمتتبع لمواقع هذه الزوايا في الأراضي الليبية مثلا يلاحظ ارتباطها بطرق قوافل التجارة مما جعل صاحب الدعوة يستخدم زواياه والقبائل التي توجد الزوايا في أراضيها لا ستغلال التجارة وتنشيطها مما كان له أثر كبير غير مباشر في ازدياد ثروة البلاد الاقتصادية بما لعبته الزوايا من دور كبير في تشجيع تجارة القوافل التي كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين موردا هاما في حياة البلاد الاقتصادية[2] زد على ذلك الاهتمام بالزراعة الذي حث إليه صاحب الدعوة أهل القبيلة أو القبائل الواقعة في أرضها الزاوية أو الزوايا .

ولا تقل الأهمية الاستراتيجية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسيه والاقتصادية فقد وجدنا معظم الزوايا تقام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمكن للاخوان السنوسيين الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الاعداء من الخارج ومن ثم رأينا الكثير من الزوايا يقام على أنقاض الأطلال الاغريقية والرومانية أو على مقربة منها حتى يمكن الاستفادة من أحجارها في عملية البناء . وبعبارة أخرى أقيمت الزوايا حيث وجد الاغريق والرومان فيما مضى والأتراك فيما بعد من الضروري بناء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصد الهجمات التي تقوم بها القبائل المتوغلة في الصحراء، وبالمثل استعان الايطاليون فيما بعد بهذه المراكز

---

(١) ريتشارد توللي : عشر سنوات في بلاط طرابلس ص ٨ .

(٢) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٦٠ .

لتثبيت حكمهم فى البلاد باتخاذها مراكز لحركتهم الاستعمارية التوطنية(١). ولعل كل ذلك دليل على الأهمية الاستراتيجية التى أولاها صاحب الطريقة عنايته فى اختيار مواقع الزوايا .

هذا إلى جانب أن صاحب الدعوة اتبع فى إنشاء الزوايا نظاما خاصا يدل على الأهمية الاستراتيجة للمواقع التى اختارها للزوايا ، فبدأ من مواقع على شاطىء البحر المتوسط وبنى بهذه المواقع الحصينة زوايا تبعد كل زاوية عن التى تجاورها مسافة ست ساعات ، ثم أنشأ خلفها جميعا زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسافة نفسها ، حتى إذا هوجمت الزوايا الامامية التى بالشاطىء استطاع الاخوان وأهل الزاوية أن ينتقلوا بسهولة إلى الزوايا الخلفيا(٢) . وبمعنى آخر أنه أقام من الزوايا خطوط دفاع متتالية يساند الخط الثانى الخط الأول ، ويساند الخط الثالث الخط الثانى ، وهكذا . . وكل هذا تم دون أن يثير صاحب الدعوة ثائرة أو شكوك سلطات الحكم العثمانى .

وأما بناء الزاوية فقد كان يتم فى الغالب بناء على طلب إحدى القبائل التى ترى قيام زاوية فى أرض قبيلة مجاورة ، فترسل القبيلة الراغبة فى إقامة زاوية فى أراضيها إلى صاحب الدعوة برسول يحمل رغبة أهل القبيلة ويرحب صاحب الدعوة بهذه الرغبة وأمثالها ويرسل إلى القبيلة شيخا يختاره من بين رجاله المتعلمين المحيطين به ومعه بعض الرفقاء لمساعدته فى الاشراف على عمليه البناء التى يقوم بها رجال القبيلة أنفسهم فى الموقع الذى يحقق أهداف الدعوة سياسيا واقتصاديا واستراتيجيا .

---

(١) نفس المرجع ص ٥٨ .

(٢) د محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٣٢ .

ومن الطبيعى أن يستغرق البناء وقتا يطول أكثر من العام ومن ثم يهتم الشيخ ورجال القبيلة ببناء المسجد أولا ثم دار الاقامة الشيخ وأسرته ، ويتبع ذلك استكمال بقية البناء لتشمل الزاوية فى النهاية بيوتا لوكيل الزاوية ومعلم الأطفال ومساكن للضيوف والخدم ومخزنا لحفظ المؤن واصطبل وبستان ومتجر على الأقل وحجرة خاصة بالفقراء الذين لاعائل ولا مأوى لهم ، وفرن لسد حاجة السكان بالخبز (١) هذا بالاضافة إلى المبانى الاخرى التى تلزم تطور الزاوية فى أداء رسالتها والمبانى التى يقيمها المقتدرون من أهل القبيلة والمهاجرون الى الزواية .

ومما تجب ملاحظته أن بناء الزوايا — وبصفة خاصة فى برقة - قد ازداد التنافس حوله بين القبائل البرقاوية . بل بين بطون وأفخاذ القبيلة الواحدة ، ومن ثم سارع الجميع الى المساهمة فى البناء بالتبرع بالأرض التى يتم اختيارها موقعا لبناء الزاوية ، والقيام بعملية البناء نفسها، بل وحبس الأوقاف على الزوايا للصرف على شئونها هذا الى جانب الخضوع الكامل لتعاليمها وتنظيماتها .

وأما تنظيم الزاوية فقد وضعه صاحب الطريقة بأسلوب عملى لكى تؤدى الزاوية رسالتها على الوجه الصحيح ولتحديد المسئوليات ، فعلى رأس كل زاوية مقدم (الشيخ) وفوق المقدم - أى بعده - وكيل ووظيفته كوظيفة الحاكم المدنى وكلا المقدم والوكيل ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعا والقبيلة كافة فالأمر الذى يصدره أحدهما مقرونا باسم السيد السنوسى انما هو أمر واجب الطاعة على الجميع (٢).

وشيخ الزاوية أو مقدمها يعينه صاحب الدعوة بنفسه فى ضوء رغبة أهل القبيلة باعتباره صاحب الحل والعقد فى الزاوية فهو الذى يشرف على التعليم وهو

---

(١) محمد الطيب الاشهب المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٩٨ .

الذى يحل الخصومات وهو الذى يحفظ النظام وهو الذى يعنى بالقوافل ، وقد يطلب منه تنظيم الدفاع عن الزاوية فى حالة الاعتداء لذلك كان مركزه هاما وكان يجب أن يتمتع باحترام الجميع ليتمكن من القيام بهذه المهمات ، ويضطلع بأعباء المسئوليات الجسام[1] بينما يشرف الوكيل على دخل الزاوية وأوجه الصرف عليها وغير ذلك من الأمور المدنية

وقد حددت التعليمات الصادرة من صاحب الدعوة نظام الزوايا من بدء بنائها إلى أداء رسالة كل مسئول فيها ، فتذكر هذه التعليمات أن أرض الزاوية تعتبر وقفا والمساحة المتفق عليها من جهاتها الأربعة ، وأن تتحمل القبائل تكاليف أبنية الزواويا ، وإن يحترم أهل القبائل الحرم المتفق على تخطيطه حول الزاوية بحيث لا يجوز العبث فيه أو المساس بمن يستجير به ، وأن تتحمل القبيلة نفقات كسوة شيخ الزاوية وثمن سلاحه وفرسه ونفقات زواجه ، وأن ينوب شيخ الزاوية عن صاحب الدعوة فى تعيين من يحتاجه العمل فى الزاوية ؛ وأن يحتفظ من ورادات الزاوية بما يكفى للصرف على مشروعات ونشاط الزاوية ويرسل الباقى إلى الزاوية الأم حيث يوجد صاحب الدعوة ، وأن تحدد الحدود بين أرض كل زاوية والزاوية المجاورة ، وأن يجتمع شيوخ الزوايا سنويا (كلهم أو بعضهم) إذا مارأوا وجوب ذلك ، وعليهم أن يتشاوروا فى تحديد موعد الاجتماع ومكانه إن لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الدعى لعقد الاجتماع[2] أو إذا لم يكن صاحب الدعوة نفسه هو الذى قرر مكان وزمان هذا الاجتماع.

وأما رسالة الزاوية فهى متعددة النواحى . . ذلك أن الزاوية مارست

---

(١) د. نقولا زيادة : برقة الدولة العربية الثامنة ص ٧١

(٢) محمد الطيب الاشهب : المرجع السابق ص ٢١

وظيفة دينية وتعليمية واجتماعية واقتصادية وعسكرية فى المجتمع الذى وجدت فيه ، فى عهد مؤسس الدعوة وخلفائه من بعده . فأما الرسالة الدينية فاستحوذت على اهتمام الزاوية الأول وتمثلت فى التنفيذ العملى لأحكام الاسلام ومبادئه بالحكم الشرعى بين المواطنين والتربية الدينة والخلقية للمريدين والاخوان واعداد الدعاة والمواطنين[1] ، هذا إلى الدعوه إلى التزام الفضائـــل وتجنب الرذائل والقدوة الحسنة التى وجدها الناس فى صاحب الدعوة وأتباعها المشرفين على الزوايا بالاضافة إلى نشر الرسالة المحمديه السامية ، وحمل هذه الرسالة على وجه الخصوص إلى الشعوب الوثنية (الزنوج) فى قلب إفريقية الغربية والسودان والصحراء الكبرى حتى اهتدت هذه القبائل المتوحشة البدوية إلى الاسلام طائعة مختارة[2]

ومما كان له أثره فى ذيوع رسالة الزاوية الدينية أن صاحب الدعوة لم تكن له تعليمات خاصة أو آراء شخصية فى الفقه أو فى تفسير القواعد الاسلامية ، بل كان أكبر همه تنفيذ المسلمين للقواعد التى نص عليها الدين الاسلامى لا الاكثار من هذه القواعد ، والشىء الوحيد الذى أضافه إلى العبادات الدينية دعاء وضعه وردده السنوسيون بعد ذلك وهو « حزب » على نحو الآحزاب المعروفة بين طوائف الطرق الصوفية . وليس فيه ما يناقض تعاليم أئمة الفقه السابقين أو يزيد عما نزل به القرآن[3] . وبذلك نجد أن الزوايا خدمت الدين الاسلامى خدمة جليلة بتنقيته مما علق به على يد غلاة المتصوفين من بدع وتعاليم تبعده عن أصوله المحكمة وبساطته الأولى ، كما خدمت الاسلام بنشره بين الوثنيين فى أفريقيا وهدايتهم إلى أحكام الاسلام فى صورته الحقيقية الأصيلة .

---

(١) التعليم الدينى فى ليبيا ص ١٢
(٢) د محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٠
(٣) أحمد حسنين : فى صحراء ليبيا ص ٥٢

ولقد أدت الزاوية دورا تعليميا كبيرا ، فقد كانت — كما يذكر بريتشارد[1] أشبه بالمراكز الثقافية التى تنتشر فى العصر الحاضر فى أنحاء الدول . وكانت الزاوية تشمـــل مدرسة قرآنيه لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ومبادىء الدين الاسلامى واللغة العربية ، ومن يمتاز من الأطفال يلتحق بالزاوية الام سواء كانت البيضاء أو الجغبوب التى صارت مناخ العلوم ومنبع القرآن العظيم ، والتى حوت مكتبتها على ثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية (٢) .

وكانت مواد الدراسة بالزاوية تشمل جميع العلوم الاسلامية من تفسير وحديث وفقه وأصول الفقه والفرائض والتصوف والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والأدب وغيرها ، كما كان طلاب العلم يتدربون على إتقان بعض الحرف والصناعات مثل صناعة البارود والأسلحة[3] وكانت زاوية الجغبوب بمثابة المعهد الأعلى الذى يقوم بالتدريس فيه صاحب الدعوة بنفسه وغيره من كبار العلماء ، وكان صاحب الدعوة يطمع فى أن يصل بهذا المعهد إلى مستوى الجامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس بالمغرب الأقصى.

ولقد حافظت الزوايا عـــلى التراث الثقافى العربى الإسلامى فى ليبيا أثناء الاحتلال الإيطالى ، بل وقبل هذا الاحتلال عندما لم تكن هناك مدارس حكومية فى البلاد ، إذ كانت الثقافة الشعبية كلها مستمدة من هذه المدارس القرآنية الملحقة بمبنى الزاوية، وتتضح قيمة رسالتها الثقافية أيضا إذا عرفنا أنها كانت بمثابة المدارس التى تقوم الآن بفتحها الحكومات الحالية دون أن تكلف من يلتحق بها شيئا من النفقات بل كثيرا ما كان يستعين بعضهم بما تقدمه له الزواية من معونة لمقابلة

---

(١) E.E. Evans Pritchard, The Sanusi of Cyrenaica, p. 79.

(٢) رحلة الحشائشى إلى ليبيا ص ١٥١ .

(٣) التعليم الدينى فى ليبيا ص١٣

تكاليف الحياة[1] .

وانطلاقا من كون الزوايا خلايا حية نشطة منتجة فقد أدت دورا اجتماعيا كبيرا بما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة بعد التوفيق والمصالحة بين القبائل ، وبما أشاعته بين القبائل من استقرار ، إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها ، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعا من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلا[2] هذا إلى جانب تساوى الجميع فى الواجبات مع تساويهم فى الحقوق فكل طالب علم فى الزاوية عليه أن يؤدى ما أنيط به من عمل مساء يومى الخميس والاثنين — ويوم الجمعة راحة — ويستوى فى ذلك الصغير والكبير ، والغنى الفقير ، إذ ليس هناك نظام الطبقات المفرق عادة بين صفوف الأمة(١)، فالكل يخضع لتقسيم أيام الاسبوع بين طالب العلم والعمل والراحة .

وأما الرسالة الاقتصادية للزاوية فقد تمثلت فى تشجيع التجارة والزراعة بين القبائل فاستقرار الامن فى البلاد ساعد على نشاط حركة التجارة ، وعمرت الطرق بالقوافل المحملة بالمواد والسلع التجارية ، هذا إلى ما كانت تقدمه الزوايا من مساعدات وتسهيلات لإراحة المسافرين مع التجارة مما شجع على التبادل التجارى بين منتجات الزاوية وبين ما تحمله القوافل من سلع لا تتوفر فى أرض الزاوية .

كما شجع صاحب الدعوة على الزراعة فى أرض الزوايا ، ومن المأثور عن السيد المهدى أنه فى اهتمامه بالتعمير والغرس أنه كان يقول للاخوان والمريدين الذين كانوا يطلبون إليه أن يعلمهم الكيمياء : أن هذه — أى الكيمياء — تحت

(١) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٦٠

(٢) نفس المرجع ص ٦٢ .

(٣) محمد الطيب الأشهب : المرجع السابق ص ٥٠ .

سكة المحراث ، وأنها هى كد اليمين وعرق الجبين . بل كان يعمل مع العاملين فى الزراعة والحرف ويقول يظن أهل الاوريقات والسبيحات (أى العابدين والقانتين) أنهم يسبقوننا عند الله ، لا والله ما يسبقوننا[1] .

وكانت رسالة الزاوية العسكرية واضحة منذ أن استقر نظام الزوايا فى ليبيا، حيث رأينا الزوايا تبنى فى أماكن مرتفعة ، والناس فيها يتعلمون صناعة السلاح والفروسية والرماية ، وذلك استعدادا للوقوف ضد المعتدين ، ولقد نجحت الزوايا بالفعل فى مواجهة الغزو الفرنسى المتقدم وسط أفريقيا وفى الكفاح ضد الاحتلال الايطالى لليبيا ، ولولا استعداد الزوايا العسكرى لما صمدت برقة فى الكفاح ضد الايطاليين أكثر من عشرين سنة .

وجدير بالذكر أنه ما كان للزوايا أن تؤدى رسالتها المتعددة الجوانب بنجاح لولا الرجال الذين تعهدوا بأداء هذه الرسالة ونشرها ، وهؤلاء الرجال ينقسمون إلى قسمين : المنتسبين الذين يمثلون الاكثرية الساحقة من السنوسيين ، والاخوان أو المريدين وهم يعيشون فى الزوايا نفسها ، ويأتى بعد ذلك شيوخ الزوايا وهم الذين تلقوا العلم وتبحروا فيه فعهد إليهم بعد تخرجهم فى مدرسة الجغبوب الاشراف على الزوايا[2] . وكان هناك مجلس خاص حول صاحب "دعوة عرف باسم « مجلس الاخوان » اعتمد عليه السيد السنوسى الكبير فى حركته الاصلاحية بأخذ رأيه والتشاور مع أفراده بعد أن أحسن اختيارهم فكانوا خير مخلصين له ولدعوته[3] .

أى أن هؤلاء الاخوان كانوا ينقسمون إلى أربعة أقسام من حيث مكانتهم

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى . المرجع السابق ص ٥٩ .

(٢) د . نقولا زيادة (ليبيا) ص ٧٥ .

(٣) مصطفى بعيو . المرجع السابق ص ٦٤ .

العلمية والاجتماعية ، ومع ذلك فكلهم متحدون قلبا وقالبا على حب شيخهم يرونه هو عمدتهم فى الطريق الموصل إلى الله ورسوله(١) . هذه الاقسام هى : طبقة العلماء التى يتكون منها مجلس الاخوان وطبقة العلماء التى تقوم بإلقاء الدروس فى المعهد الجغبوبى ، وطبقه مشايخ الزوايا ، والطبقة الاحتياطية وهى التى تتكون عادة من صغار خريجى المعهد السنوسى ومن حفظة القرآن ومن مهاجرى البلاد الاسلامية ، وممن يتجردون عن أعمالهم الخاصة للالتحاق بخدمة صاحب الدعوة(٢) . وجميع أفراد هذه الطبقات يطلق عليهم لفظة الاخوان وهى تعنى كل إنسان أخذ الطريقة السنوسية وتمسك بوردها وتسمى هاته الطريقة بالطريقة المحمدية كما عرفها بذلك الشيخ نفسه فى تأليفه المسمى « السلسبيل المعين فى ذكر الطرائق الاربعين » فيقال فيما بينهم فلان من الاخوان يعنى سنوسى الطريقة ، هكذا فى عرفهم(٣) .

---

(١) رحلة الحشائشى . ص ١٧٥ .
(٢) محمد الطيب الأشهب . عمر المختار ص ٣٥ .
(٣) رحلة الحشائشى . ص ١٧٤ .

لعل أول صلة لصاحب الدعوة بالدولة العثمانية نشأت عندما تفتح عقله للتفكير فى أحوال العالم الاسلامى الخاضع للعثمانيين ، سواء وهو فى الجزائر أو عندما مر بمصر ثم فى الحجاز وحتى وصل إلى برقة . . وقد أدرك أن الدولة العثمانية فى طريقها إلى الانحلال والتدهور خاصة بعد أن عجزت عن مقاومة الغزو الفرنسى لبلاده الجزائر عام ١٨٣٠ م وبهذا أخذ عليها تقصيرها فى دفع الأذى عن أحد الأقطار الاسلامية ، وإخفاقها فى الاضطلاع بالمسئولية الملقاة على عاتقها كدولة الخلافة والامامة العظمى ، وبسبب ما جرته على نفسها من ضعف وعجز فهى مسئولة أيضا عن تمكين العناصر التركية من الغلبة على شعوبها العربية وإقامة الحكومة الاستبدادية فى بلاد هذه الشعوب(١) .

ورغم انتقاد صاحب الدعوة للدولة العثمانية بسبب سياستها نحو الأقطار العربية ، ورغم أنه صرح أنه يجب أن تكون الخلافة الاسلامية فى يد شريف قرشى - عربى من قريش ينتسب إلى بيت الرسول مثله - إلا أنه أدرك أنه من الخطأ مناصبتها العداء أو الخروج عليها ، حتى لا يدخل فى صراع معها تؤثر على دعوته كما حدث للحركة الوهابية فى نجد ، ومن ثم رأيناه يتوغل فى الصحراء الليبية ليكون بعيدا عن المناطق الساحلية التى يحكم العثمانيون السيطرة عليها . ولم يبد من السيد السنوسى الكبير - صاحب الدعوة - من الأعمال والشعور ما يجعله عرضة للمؤاخذة ، بل عمل على المحافظة على إظهار الولاء للخلافة العثمانية

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى . المرجع السابق ص ١٧ .

وسلطانها فى كل المناسبات والظروف[1] .

وإنطلاقا من هذا ضمن صاحب الدعوة للدولة العثمانية استقرار الأمور بين القبائل التى تنتشر بينها زواياه ، بل وضمن للحكم العثمانى المتمركز فى السواحل والمدن الليبية تحصيل الضرائب والقضاء بين الناس فى الصحارى الليبية ومن ثم كانت علاقة القبائل بالسنوسية لا بالدولة العثمانية وكان ذلك فى مصلحة البلاد ، فتأمين الضرائب كان يحول دون الحكومة العثمانية ومحاولة فرض سلطانها الأمر الذى كان من الممكن أن يؤدى إلى ثورات كثيرة مسلحة واصطدام بين الحاكم والمحكوم ، كانت البلاد فى غنى عنه[2] . وقد ساعد على حسن العلاقة بين السنوسية والدولة العثمانية استمرار المراسلات بين صاحب الدعوة والسلطان العثمانى ، فجاءت رسل السلطان إلى محمد بن على السنوسى فى الجغبوب ، وإلى السيد المهدى فى الكفرة ، ووصلت إلى استانبول رسل السنوسية .

ونتيجة للعلاقات الطيبة بين الطرفين منح السلطان عبد المجيد الأول السنوسية فى سنة ١٨٥٦ م فرمانا يعفى جميع أملاكها من دفع الضرائب ويسمح لرئيسها بجمع الأعشار الدينية من أتباعها [3] . وفى أيام السلطان عبد العزيز أخى السلطان عبد المجيد أرسل فرمان ثان إلى حاكم طرابلس الغرب — الذى كانت برقة فى إيالته — ثبتت فيه امتيازات السنوسية ، وأضيف إليها أن اعتبرت الزوايا السنوسية « حمى » يمكن أن يلجأ الناس إليه [4] .

وفى عهد السيد المهدى حرصت السنوسية على حسن العلاقة مع الدولة العثمانية

---

(١) مصطفى بعيو . المرجع السابق ص ٦٩ .
(٢) د . نقولا زيادة . ليبيا . ص ٧٧
(٣) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٧١ .
(٤) د . نقولا زيادة : ليبيا ص ٧٦ .

دون الانغماس فى مشكلات الدولة العثمانية الخارجية ، فبينما اشتعلت الحرب بين تركيا وروسيا عام ١٨٧٧ م وطلب السلطان العثمانى من السيد المهدى إمداده بقوات لمساعدة الدولة فى حربها ، لم يرفض السيد المهدى طلب السلطان ولكنه لم يشأ التدخل فى هذا النزاع المسلح ومن ثم انتهت الحرب بين الطرفين الروسى والعثمانى دون أن تصل نجدات عسكرية سنوسية .

وفى نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد الذى اعتلى العرش عام ١٨٧٦م على بقاء علاقات المودة مع السنوسية انطلاقا من رغبة السلطان فى احتواء الامارة السنوسية وغيرها من الامارات فى الوطن العربى تحت شعار الجامعة الاسلامية التى كانت هدفا لسياسته نحو الأقطار العربية والشرقية فى مواجهة المد الاستعمارى المحيط بالدولة العثمانية التى نظر إليها الأوروبيون كرجل مريض يحتضر سرعان مايفارق الحياة .

استمرت العلاقات طيبة بين السنوسية والعثمانيين حتى عام ١٨٨٨ م . وكان من آثار دعم هذه الروابط بين السلطان والسيد المهدى أن وجدت الدعوة السنوسية أتباعا أقوياء لها فى الآستانة وفى بلاط السلطان بصفة خاصة ، وكذلك وجدت السنوسية أتباعا لها بين كبار رجال الدولة الآخرين ، كما لم يلبث أن عظم شأن شيوخها ومقدمى زواياها فى الأقطار الليبية ، بل صار بعض الولاة العثمانيين من الاخوان السنوسيين . وكان من أثر ازدياد سطوة السنوسية فى برقة وطرابلس أن الأخوان فى الزوايا الساحلية صاروا معفين رسميا من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية ، بينما كانوا لايقدمون إلى الحكومة فى الزوايا الأخرى الكبيرة فى طرابلس والخمس وبنغازى إلا مايرونه ملائما لمصالحهم (١) . هذا بالاضافة إلى

(١) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٧٩ .

أن السلطة الفعلية فى برقة بصفة خاصة دينية وزمنية صارت بيد شيوخ الزوايا السنوسية .

ولكن منذ عام ١٨٠٨ م بدأت الشكوك تساور السلطان عبد الحميد فى نوايا وأغراض السيد المهدى وكان السلطان فى ذلك واقعا تحت تأثير دعايات الدول الاوربية التى رأت فى إمتداد السنوسية إلى وسط وغرب أفريقيا ونشر الدين الاسلامى بين الافارقة على يد السنوسيين ما يعارض ويعطل نشاط المبشرين المسيحيين وهم فى الواقع فرق استطلاع للدول الاستعمارية الأوروبية .

ونتيجة لوشايات الأوروبيين عند السلطان عبد الحميد أرسل الوفود إلى مركز السيد المهدى فى الجغبوب للوقوف على مدى استعداده العسكرى ونشاطه الحربى ورغم أن هذه الوفود عادت إلى السلطان تطمئنه إلا أن السيد المهدى رأى من الصواب ترك الجغبوب والانتقال إلى الكفرة فى يونيو عام ١٨٩٥ م خصوصا بعد أن اتجهت إليه أنظار الدول الاستعمارية ، وكثرت شكاياتها من السنوسية ونشطت فى الآستانة مساعيها ضده ، كما أن السيد المهدى ساءته معاملة بعض مأمورى الترك والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية فى الجبل الاخضر ، وشاع أن الدولة أخذت تشتبه فى أمره وتتوجس خفية ادعائه الخلافة (١) .

ولم يكن الصفاء كاملا بين العثمانيين والسنوسيين . إذ رأينا الدولة العثمانية تصدر أوامرها إلى موظفيها فى ليبيا لجمع ضرائب على ما تنتجه أرض الزوايا خلال عام ١٩٠٤ وعام ١٩٠٨ م ، ولكن السنوسيين رفضوا بقوة مما جعل الدولة تعدل عن ذلك . وعندما حدثت الثورة التركية التى انتهت بخلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ م والتى قادها « جماعة الاتحاد والترقى » لم تكن السنوسية ترضى

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٨٥ .

بما كانت ترمى إليه جمعية « تركيا الفتاة » من محاولة تتريك العرب أو إمكان الغاء الخلافة (١) .

وعندما حدث الغزو الايطالى لليبيا وقبول تركيا لمعاهدة أوشى (لوزان) مع إيطاليا عام ١٩١٢ م التى سحبت تركيا بموجبها جنودها من ليبيا ، أذاع السلطان العثمانى منشورا يمنح فيه الليبيين استقلالهم وهو استقلال لا يملكه السلطان العثمانى بعد ان اعترف بالوجود الايطالى فى ليبيا ، رفض السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية آنذاك هذا الصلح وأعلن عدم قبول صلح يكون تسليم البلاد إلى العدو ثمنا له ، معنى هذا إظهار الغضب من تصرف الدولة العثمانية .. وحاول العثمانيون تخفيف صدمة موقفهم المتخاذل هذا أمام الايطاليين بايفاد أنور باشا القائد العثمانى إلى السيد أحمد الشريف فى الجغبوب ليبلغه إسناد أمر الامة الليبية إلى سيادته وإخباره بأن الخليفة قد منح الامة الطرابلسية استقلالها تاركا لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها (٢) .

ولكن عندما صدرت الاوامر العثمانية إلى القائدعزيز المصرى للانسحاب من برقة بجنوده إلى السلوم حيث تنتظرهم باخرة تنقلهم إلى تركيا ، عارض السنوسيون هذا الانسحاب واشتبكوا مع عزيز المصرى ، وكاد يحدث التحام كبير لولا أن عزيز المصرى استطاع الوصول إلى السلوم وفى ١٦ يوليه ١٩١٣م بلغ الاسكندرية ومنها ذهب إلى الآستانة .(١) .

ومما تجب الاشارة إليه أن محمد أحمد المهدى صاحب الثورة المعروفة فى السودان

---

(١) د . نقولا زيادة : المرجع السابق ص ٧٨ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١٤٦ :

(٣) نفس المرجع ص ١٥٦ .

منذ عام ١٨٨١ م حاول أن يجذب إليه السيد محمد المهدى زعيم السنوسية واعدا إياه بوضعه فى مقام الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) فى نظير أن يشترك زعيم السنوسية فى محاربة الانجليز فى مصر والسودان . إلا أن السيد المهدي رفض التعاون مع محمد أحمد المهدى ولا مع خليفته لانه - الزعيم السنوسى - يعنى بالدعوة إلى إصلاح الدين الحنيف سلما لا حربا بينما تنفر الملة التى يراد إحياؤها نفورا عظيما بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التى يهدرها والجرائم التى يرتكبها فى السودان مثل هذ المتمهدى ، ولذلك فانه لا يريد ولا يفكر فى أن يتدخل فى شىء مما يحدث(١).

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤٠٣ — ٤٠٤

السنوسية والقوى الأجنبية

كانت للسنوسية مواقف من القوى الأجنبية تتفق مع أطماع هذه القوى فى الأقطار العربية والاسلامية ، من ذلك موقفها من الفرنسيين فى الجزائر وغرب أفريقيا ، وموقفها من الايطاليين فى ليبيا ، ومن الانجليز فى مصر ثم ليبيا . . أما موقف السنوسية من فرنسا فبدأ منذ احتلت القوات الفرنسية الجزائر أرض وبلد صاحب الدعوة نفسه - محمد بن على السنوسى - الذى شعر بالغضب عند ما عاد من الحجاز ليجد الاحتلال الفرنسى قد أكتمل بالجزائر فآثر الانسحاب وعدم الاصطدام مع الاحتلال الفرنسى لأن عدم الحيطة والتعجل بإجراء حركة قبل حلولها تنسف صروح أعماله العظيمة التى بناها وأنفق عليها جهوده الجبارة وعلق عليها آماله نسفا لا تقوم لها بعده قائمة . ولذلك أجل ذلك - مقاومة الفرنسيين - إلى أن يصل العالم الاسلامى إلى درجة الانتباه التام[1] .

ولقد أبدى من مشاعر السخط على الدولة العثمانية الشىء الكثير بسبب ضعفها وتخاذلها فى مقاومة الغزو الفرنسى لبلاده الجزائر ، ومن ثم رأيناه فى زواياه يعد أتباعه إعدادا حربيا إلى جانب الاعداد الدينى حتى يكون المسلمون على استعداد لمقاومة امتداد الأطماع الفرنسية خارج الجزائر ولمقاومة أية أطماع لأية دولة أوروبية أخرى . وعندما احتلت القوات الفرنسية تونس عام ١٨٨١م وصارت تتوغل من غرب أفريقيا إلى وسطها حتى وصل نفوذها إلى « واداى » التى كان للسنوسية فيها نفوذ كبير بفضل انتشار الزوايا السنوسية والاتباع الكثيرون هناك ، بات الصدام وشيكا بين السنوسيين من جهة وبين الفرنسيين من جهة أخرى .

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى: السنوسية دين ودولة ص ٥٤ .

ذلك أنه بعد أن انتصر الفرنسيون على رابح السودانى - عام ١٩٠٠ م - الذى أقام له ملكا مستقلا منذ عام ١٨٩٥ م حول بحيرة تشاد ، أدرك السنوسيون الخطر الفرنسى على نشاطهم فى واداى وغيرها من البلاد المجاورة وبسبب اقتراب الفرنسيين من الاراضى الليبية ، ومن ثم دارت الحرب بين السنوسيين والفرنسيين ، وقاد السنوسيين سيدى محمد البرانى والسيد عمر المختار إلا أنه ظهر منذ اللحظة الأولى أن الكفاح لم يكن متكافئا ، ولذا سرعان ما سقطت المراكز السنوسية فى أيدى الفرنسيين خلال سنتى ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، وانتهى الأمر بانسحاب السنوسيين نحو الشمال تاركين الجنوب غنيمة للفرنسيين[1] .

وقد استمر الصراع بين السنوسيين والفرنسيين طويلا ومريرا بعد وفاة السيد المهدى وتسلم السيد أحمد الشريف إمارة السنوسية فى عام ١٩٠٢ م ، وحتى عام ١٩١١ م عندما انشغلت السنوسية بالغزو الايطالى لليبيا ، وتوقف الغزو الفرنسى عند حدود برقة الجنوبية بسبب الاتفاقات بين فرنسا وانجلترا منذ عام ١٨٩٨م والتى تحدد الممتلكات الفرنسية والانجليزية فى غرب ووسط القارة الأفريقية .

أما بالنسبة للايطاليين فقد اشتبكت السنوسية مع قواتهم عندما نزلت إلى الأرض الليبية عام ١٩١١ م وكانت مقاومة السنوسية للايطاليين مقاومة منظمة بحكم تنظيم الزوايا السنوسية ، فقد كان لبوادر اليقظة الشعبية التى بذر السنوسى بزواياه وتعاليمها وجهود شيوخها بذرتها الاولى ، فقد هب الشعب الليبى ومنذ الوهلة الأولى للدفاع عن أرض الوطن[2] ، تحت زعامة السنوسية فى برقة بصفة خاصة .

---

(١) د . زاهر رياض . استعمار أفريقيا ص ١٥٩ .

(٢) محمد مصطفى بازامة : العدوان أو الحرب بين إيطاليا وتركيا فى ليبيا ص ١٦١ .

وكانت إيطاليا تدرك أن انتشار الزوايا السنوسية فى أنحاء من ليبيا عدة وغيرها من الأقطار العربية والافريقية مما سيزيد من مقاومة السنوسيين للغزو الايطالى، وقد أوضحت تقارير عملاء وجواسيس السنيور جوليتى GIOLITTI رئيس الوزارة الايطالية ـ فى ليبيا أن السنوسية عقيدة دينية قوية تتغلغل فى أعماق نفوس الليبيين فتطهرها لتجعل منها نفوسا سامية شامخة الهمة قوية العزيمة لا تعرف الخوف ولا التردد وتضحى بكل شىء فى سبيل الله والوطن، وهى تتميز بالنظام والدقة فى تنظيماتها القوية المتينة التى تشبه التنظيمات العسكرية الحديثة (١).

وإذا كانت تركيا قد عقدت مع ايطاليا معاهدة صلح فى لوزان بسويسرا عام ١٩١٢ م تركت بمقتضاها الليبيين لمواجهة الغزو الإيطالى الغاشم، فان اخواننا الطرابلسيين ـ يقصد الليبيين ـ وعلى الخصوص السنوسيين منهم قد تحالفوا على مقاومة العدو ومقاتلته إلى آخر رمق، وقد تواترت الاخبار بأنهم حشدوا زهاء العشرين ألف مقاتل مع مايلزمهم من الزاد والذخيرة (٢). ومن ثم أدار السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية آنذاك الحرب ضد الايطاليين، وحتى عندما أصبح زعيم السنوسية السيد محمد إدريس عام ١٩١٨ واصل السنوسيون الجهاد المنظم ضد قوات الاحتلال الايطالى فى برقة.

وقد بلغ من قوة وتنظيم السنوسية فى مقاومتها للاحتلال الايطالى أن هذه المقاومة استمرت بقيادتهم فى برقة حتى عام ١٩٣١م بعد أن عهد زعيم السنوسية بأمر قيادة الجهاد للقائد عمر المختار وانتقل هو إلى مصر عام ١٩٢٢م، فى الوقت الذى توقف فيه الجهاد أو كاد فى طرابلس بعد سنوات قليلة من بدايته، إذ أن المقاومة فى طرابلس كانت تتولاها القبائل الطرابلسية الكثيرة الخلافات والمنازعات فيما

( ) خليفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها ص ٧٩.

(٢) صفحات خالدة للمجاهد الليبى سليمان البارونى ص ٢١٣.

بينها . وخلال مقاومة السنوسية للايطاليين استطاعت السنوسية أن تحصل من ايطاليا على اعتراف بقيام الامارة السنوسية فى برقة خلال المفاوضات التى أدت إلى اتفاق الرجمة فى أكتوبر ١٩٢٠ م .

ورغم نقض الايطاليين للاتفاق فانه كان دليلا على اعتراف سلطات الاحتلال بمكانة السنوسية كقوة عسكرية وسياسية ، وقد ظلت القوات السنوسية تحارب القوات الايطالية فى برقة حتى استشهد قائد السنوسيين عمر المختار عام ١٩٣١ م وظل عداء السنوسية للايطاليين حتى اشتعلت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ م وأصبحت ليبيا مسرحا للمعارك التى شارك فيها الليبيون مع قوات الحلفاء ضد القوات الايطالية الالمانية المشتركة ، حتى جلت هذه القوات المشتركة عن الارض الليبية عام ١٩٤٣ م .

أما بالنسبة لانجلترا وموقف السنوسية منها فقد كانت تقف من السنوسية وانتشارها فى أفريقيا موقفا عدائيا وان لم يكن عداءها صريحا أو مباشرا كالعداء الفرنسى ، ومن ذلك أن انجلترا سهلت لفرنسا أثناء صدامها مع رابح السودانى والسنوسيين فى واداى الانتقال فى مستعمراتها الافريقية وقفل طريق السودان فى وجه أعداء فرنسا ، هذا على الرغم من أن السيد المهدى رفض التحالف مع محمد أحمد المهدى ضد انجلترا . وعندما أثارت تركيا السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية أثناء الحرب العالمية الاولى لتدبير حملة سنوسية ضد الانجليز فى مصر وفشلت هذه الحملة ، أدرك السيد محمد إدريس منذ عام ١٩١٦ م ضرورة عقد صلح بين السنوسية وبين انجلترا حتى تتفرغ السنوسية لمواجهة الخطر الايطالى وحده .

ومن ثم اتصل السيد محمد إدريس بانجلترا التى طلبت أن يكون هناك فى نفس الوقت تفاوض بين السنوسيين وكل من إيطاليا وانجلترا ، وبالفعل تم عقد اتفاقية الرجمة مع إيطاليا ، وعقد اتفاق بين السيد محمد إدريس وتالبوت الكولونيل

الانجازى، ونص الاتفاق على أن يسلم السنوسيون جميع الرعايا البريطانيين والمصريين والتابعين لدول الحلفاء لبريطانيا ، وأن يقصى جميع الأشخاص الذين من شأنهم أن يعكروا صفو الاتفاق عن أفريقيا ، وأن يخرج جميع السنوسيين المسلحين من مصر وأن تفتح طريق السلوم — الاسكندرية (١) .

وكان أبرز مواقف السنوسية من انجلترا عندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية وشاركت فيها انجلترا ضد ألمانيا وإيطاليا ، وفى ميدان شمال أفريقيا ساهم السنوسيون مساهمة كبيرة إلى جانب قوات الحلفاء الذين تتزعمهم انجلترا فى محاربة قوات المحور - ألمانيا وإيطاليا - لدرجة أشاد بها الانجليز أنفسهم واعترفوا بأنه لولا مساعدة السنوسيين فى برقة للحلفاء لما استطاع هؤلاء الحلفاء أن يتغلبوا على قوات المحور بالصورة التى تمت بها .

هذا إلى جانب اشراف ضباط انجليز على تكوين الجيش السنوسى فى مصر منذ عام ١٩٤٠ م ، الذى شارك مع القوات البريطانية فى مطاردة العدو -قوات إيطاليا وألمانيا — واحتلال المواقع فى برقة الشمالية ، حتى اعترف المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية فى ٨ يناير ١٩٤٢ م بأن الجيش السنوسى قام بمساعدات قيمة أثناء القيـــام بتلك العمليات الحربية الموفقة فى الصحراء الغربية فى شتاء عام ١٩٤٠ وعام ١٩٤١ م ، وهو الآن يقوم أيضاً بنصيب قيم فى الحملة العسكرية الحالية فأنتهز هذه الفرصة لأعبر عن التقدير التام الذى تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذى قام به ومازال يقوم به السيد إدريس السنوسى وأتباعه فى المجهود البريطانى الحربى ، وإننا نرحب بتعاونهم مع قوات صاحب الجلالة البريطانية فى مهمة سحق العدو المشترك ، وقد وطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنه متى انتهت الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين

---

(١) د . نقولا زيادة : ليبيا ص ٩١ .

فى برقة تحت النير الإيطالى مرة أخرى بأى حال من الأحوال (١) .

وبعد خروج الإيطاليين من ليبيا عام ١١٤٣ م بقيت القوات الانجليزية فى كل من برقة وطرابلس والقوات الفرنسية فى فزان حتى حصلت ليبيا على استقلالها فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م ، وبهذا استمرت صلة السنوسية بانجلترا ، وهى الصلة التى ساعدت الأمير محمد إدريس على إعلان استقلال برقة فى يونيو عام ١٩٤٩ م عندما تعثرت المفاوضات بين الطرابلسيين والسنوسيين حول وحدة ليبيا واستقلالها تحت زعامة الأمير محمد إدريس .. وعندما اتفقت كلمة معظم الليبيين على وحدة ليبيا وامارة محمد إدريس استمرت علاقة الدولة الجديدة التى يتزعمها الملك محمد ادريس السنوسى مع انجلترا علاقة طيبة ومتينة .

تقييم الدعوة السنوسية

بدأت الدعوة السنوسية كما عرفنـــا على يد مؤسسها السيد محمد بن على السنوسى الذى وضع التنظيم الذى سارت عليه فى أيامه وفى عهود خلفائه ، وقد ظل مؤسس الدعوة يشرف عليها حتى انتهت حياته فى اليوم السابع من شهر سبتمبر عام ١٨٥٩ م ودفن بزاوية الجغبوب ، وخلفه ابنه السيد محمد المهدى فى زعامة السنوسية يعاونه شقيقه السيد محمد الشريف ، وعندما توفى السيد المهدى عام ١٩٠٢ م خلفه السيد أحمد الشريف بن السيد محمد الشريف وصيا على الزعيم الشرعى السيد محمد إدريس بن السيد المهدى لصغر سنه ، وحصلت ليبيا على استقلالها وحكمت بيد السيد محمد إدريس الذى أطاحت به ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ م .

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

وفى تقييمنا للدعوة السنوسية يمكن أن نقول أنها كانت أنجح الحركات الدينية الاصلاحية فى الأقطار العربية والاسلامية لأنها دعت إلى الرجوع إلى الدين الاسلامى بأصوله دون تطرف أو شطط ، كما أنها لم تصطدم بالقوة الاسلامية المسيطرة فى العالم العربى آنذاك وأعنى الدولة العثمانية ، بالاضافة إلى أنها كانت طريقة عمل بمعنى أنها وضعت مبادئها موضع التطبيق سواء فى التعليم أو نشر الدين الاسلامى صحيحا بين القبائل العربية والأفريقية ، واحلال الصلح والسلام محل البغضاء والحروب ومواجهة أعداء الاسلام سواء كانوا فرنسيين أو إيطاليين .

لقد استفاد محمد بن على السنوسى من رحلاته واحتكاكه بمختلف الفئات فى الأقطار التى زارها ، كما استفاد من أخطاء محمد بن عبد الوهاب فنأى بنفسه وبدعوته عن الخوض فى خلافات جانبية تعوقه عن تحقيق أهداف دعوته ، فلم يستطع المهديون فى السودان جر السنوسية إلى المشاركة فى ثورتهم الدموية والعدائية ضد مصر وتركيا ، وحافظت السنوسية على قوتها انتظارا للوقوف أمام العدو الطبيعى للأمة العربية والشعوب الاسلامية وهو الاستعمار الأوروبى الذى نزل بالجزائر عام ١٨٣٠ كمقدمة لزحفه إلى أجزاء أخرى من الأقطار العربية والاسلامية كما تنبأ بذلك صاحب الدعوة السنوسية نفسه . :

ومبعث نجاح الدعوة السنوسية أنها نشرت دعوتها عن طريق أداتها - الزوايا فى الحجاز - بالقرب من الدعوة الوهابية - وفى مصر وفى السودان الغربى - بالقرب من الخلوات المهدوية - دون أن تصطدم بأى طرف ، كما أن الوهابية تعرضت للمحاربة وكاد يقضى عليها بالقضاء على الدولة السعودية الأولى على يد إبراهيم

ابن محمد على عام ١٨١٨ م كما أن المهدية فى السودان كما سنرى ستقوم وتنهار أثناء استمرار الدعوة السنوسية فى زواياها المنتشرة . أما السنوسية فلم يقدر لها الإنهيار رغم كثرة الضربات التى وجهت إليها من قبل الفرنسيين ثم الايطاليين . وإنما استمرت مؤسساتها قائمة تؤدى رسالتها ، وما ذلك إلا لأن السنوسية تغلغت فى النفوس وجعلت من البرقاويين خصوصا حماتها والمدافعين عنها .

الفصل الثاني عشر

الثورة المهدية

- السودان
- محمد أحمد
- أسس المهدية .
- أسلوب الثورة .
- الثورة المهدية والقوى الخارجية .
- تقييم الثورة .

ولد محمد أحمد صاحب الحركة المهدية فى جزيرة لبب إلى الجنوب من مدينة دنقلة بنحو ١٥ كيلو متر ، فى ١٢ أغسطس ١٨٤٤ م ، ودنقلة مدينة تقع فى السودان الشمالى على نهر النيل ، وهى تقع فى إقليم صحراوى نادر المطر ، وتسكنه الجماعات الحامية كالنوبيين الذين اختلطوا بالعرب وتأثروا بهم ، وإلى الجنوب من دنقلة نجد السودان الاوسط حيث المناخ الصحراوى يسود أيضا مع سقوط أمطار فى شهرى يوليو وأغسطس ويسكنه العرب الذين يحتلون دارفور وكردفان والخرطوم والنيل الازرق والاجزاء الجنوبية من كسلا[1] ويشتغل هؤلاء العرب بالزراعة حول النيل ورعى الابل والبقر فى كردفان ودارفور ومن أشهر القبائل الرعوية البقارة فى وسط وجنوب كردفان .

تلك ظروف السودان الذى ظهر فيه محمد أحمد وعلى أرضه أعلن ثورته ، وتنقل بين أجزائه من دنقلة إلى جزيرة آبا فى النيل الابيض إلى جبل قدير بجنوب كردفان ، فوسط كردفان فـــدارفور ثم الخرطوم ومعظمها أرض صحراوية تسكنها قبائل عربية بصفاتها الاجتماعية والانتاجية ، وهذه القبائل العربية جاءت إلى السودان من طريقين : الطريق الاول هو الباب الشمالى الذى يفضى إلى مجرى النيل متابعا النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو ثم مخترقا صحراء العطمور مباشرة إلى أبى حمد، ثم متابعا النهر مرة أخرى منتهيا إلى الجنوب[2] والطريق الثانى هو الباب الشرقى المنحدر من ساحل البحر الاحمر عبرته الهجرات من جزيرة العرب فى طريقها

(١) د فيليب رفله : الجغرافية الشياسية لافريقية ص ٢٩٢

(٢) د حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٣٠٤ .

صوب الغرب إلى السودان الأوسط[1].

وقد انقسمت هذه القبائل العربية الوافدة إلى ثلاثة مجموعات : المجموعة الأولى هي مجموعة الجعليين وهي أكثر المجموعات العربية نفوذا وعددا . فقد انتشرت في المنطقة الممتدة من وادي حلفا حتى جنوب أم درمان . والمجموعة الثانية هي مجموعة جهينة ، وهم عرب وفدوا إلى مصر أولا حتى إذا كان القرن الرابع عشر الميلادي اتجهوا جنوبا نحو السودان حيث استقروا في شرق السودان وعلى حدود الحبشة وفي الجهات الشرقية والوسطى من كردفان ، ومن أشهر قبائل هذه المجموعة الشكرية ، البقارة، الكبابيش . والمجموعة الثالثة تعرف بالكواهلة ومنازلهم في العطبرة والنيل الأزرق وحول النيل الابيض وكردفان في الغرب .

وقد شاركت هـــذه المجموعات القبلية في أحداث السودان الاجتماعية والسياسية ، فكونت بعض الامارات العربية الخاضعة لنفوذ غيرها أكثر قوة أو المستقلة بأمرها ، وكان أشهر هذه الامارات والسلطنات الاسلامية العربية سلطنتان إحداهما على النيل الأزرق أسسها الفونج في سنار ومؤسس هذه السلطنة وعاصمتها زعيم الفونج « عمارة دو نقس » أول القرن العاشر سنة عشر بعد التسعمائة (٩١٠ هـ [2] ١٥٠٥ م والسلطنة الأخرى عرفت بسلطنة دارفور في السودان الغربي . وقد ظل الفونج يعتمدون على مصر في غذائهم الروحي ، فدرس نخبة من أبناء هذه الدولة في الجامع الأزهر وعادوا إلى بلادهم ينشرون بها ما تلقوه من علوم ومعارف دينية إسلامية [3] .

ومما يلفت النظر أن القبائل العربية التي دخلت السودان لم تكن وسيلتها في

---

(١) د محمد عوض : السودان الشمالي ص ١٥٩

(٢) د مكي شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية ص ٢٢ .

(٣) د . السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ص ٢٤٨

نشر الاسلام بين أهل البلاد التبشير أو الدعوة إلى الدين . إنا توسلت بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى ، بالاصهار إلى الشعوب المحلية ، ثم إفناء هذه الشعوب فى الدماء العربية الوافدة ، ثم اندماج هذه القبائل فى الحياة القبلية الجديدة(١) . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعى اعتناق جيل المولدين دين الأمهات ودين القبيلة صاحبة النفوذ ، ثم ازدياد التيار الاسلامى عمقا بمضى الزمن(٢) . وقد ساعد على ذلك أن العرب لم يكونوا طبقة حاكمة متعالية ومنعزلة عن السكان الأصليين ، ولم يطالبوا بحكم ذاتى أو مملكة خاصة ولكن كانت لهم أحياؤهم الخاصة فى المدن الكبيرة ولهم قراهم الخاصة ، والدلائل واضحة على أنهم فى بعض المناطق خضعوا لحكام البلاد(٣) .

ظل السودان مجزءا حتى الفتح المصرى على يد محمد على أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر ، ورغم محاولات سلطنة الفونج الاسلامية لتوحيد السودان تحت سيطرتها إلا أنها فشلت أمام قوة سلطنة دارفور فى الغرب ، التى لم تستطع هى الأخرى ابتلاع مملكة الفونج وتوحيد السودان تحت سيطرتها هذا بالاضافة إلى ظهور زعامات دينية صوفية متنافسة دون الاهتمام بأصول الدين وقواعده الاساسية ، ومن ثم سادت حياة السودانيين الاسلامية العاطفة والخرافات ، ونسب السودانيون إلى رجال الدين المعجزات بل وقد سوهم أكثر من تقديس الانبياء ، فى الوقت الذى ضعف فيه مستواهم العلمى فلم يكن باستطاعتهم

---

(١) عبد العزيز عبدالمجيد : التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها جـ ١ ص ٢٥

(٢) د حسن محمود : المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٣) د مكى شبيكة : مملكة الفونج . ص ١٩ .

التمييز بين الخرافات والعقيدة الصحيحة(١) .

لم تكن مجيء قوات محمد على إلى السودان عام ١٨٢ م بداية الاهتمام المصرى بالسودان، بل إن العثمانيين فى مصر احتلوا بلاد النوبة بعد احتلالهم لمصر واستقرارهم فيها ، بالاضافة إلى احتلالهم لما أطلقوا عليه « إيالة الحبش » فى نفس الفترة تقريبا أى فى النصف الأول من القرن السادس عشر وألحقوها بباشوية جدة كما أن المماليك فروا من مصر بعد مذبحة القلعة عام ١٨١١ م إلى السودان ، وحاولوا السيطرة على دنقلة والانتقال منها تدريجيا نحو الجنوب حتى تتم لهم الزعامة الكاملة(٢).

تم فتح أهم أجزاء السودان تقريبا عام ١٨٢٥ م، ومنذ ذلك التاريخ استمرت عمليات الفتح فى عهد محمد على وخلفائه حتى استكمل فى عهد الخديوى إسماعيل وفى ظل الحكم المصرى أنشئت عاصمة للسودان هى مدينة الخرطوم عام ١٨٣٠ م وغيرها من المدن ، كما استقر الأمن فى ربوع السودان مما جعل الناس ينصرفون إلى أعمالهم فى الزراعة والتجارة والرعى ، كما أن الحكم المصرى شجع العلماء والمستكشفين للقيام بالرحلات العلمية لكشف منابع النيل وهى أمنية كانت تجول بخاطر محمد على وابنه إبراهيم وحققت أمل علماء الجغرافيا فى أوروبا، ولكن استعانة الحكم المصرى وخاصة فى عهد الخديوى إسماعيل بالاجانب فى عمليات الكشف وفى حكم أقاليم السودان كان له تأثير سيء على السودانيين وعلى الحكم المصرى ومما أدى فى النهاية إلى حدوث تلك الثورة التى قادها الفقيه محمد أحمد .

ورغم الجهود التى بذلها الحكم المصرى فى السودان من أجل النهوض

---

(١) Hilleson, Anglo — Egyptian Sudan. p. 101.

(٢) د حسن محمود : المرجع السابق ص ٣٨٣ .

بالسودانيين فى مجالات التعليم والزراعة والصناعة واستخدام وسائل منظمة للنقل كخطوط السكك الحديدية ، وتوفير اصلاح إدارى ومالى يخدم السودانيين ، كل ذلك على نفس النسق الذى طبق فى مصر ، الا أن هذه الجهود كانت تسير بخطى وئيدة تدريجية فى عهد محمد على، ثم نجدها تكاد تتوقف فى عهد عباس وتعود لتنتعش فى أواخر عهد سعيد ثم تزدهر فى عهد اسماعيل الذى أسس ما عرف بالامبراطورية المصرية فى أفريقيا بعد أن استكمل فتح بقية أقاليم السودان وضم الصومال وسواحل البحر الأحمر العثمانية إلى الحكم المصرى فى السودان.

ولكن مما قلل من الدور والمجهود المصرى فى السودان تدفق الأوروبيين إلى هذا الإقليم لاحكام السيطرة الاستعمارية عليه وليحققوا أهداف دولهم هناك ، فرأينا السير « صمويل بيكر » الانجليزى يعينه إسماعيل مديرا لمديرية خط الاستواء لمدة خمس سنوات من ١٨٦٩ — ١٨٧٤ م يستثمرها لمصلحته مع ضم الأراضى المجاورة المديرية ، وحل محله الجنرال غوردون Gordon الانجيلزى أيضا الذى استولى باسم اسماعيل على منطقة حوض منابع النيل الابيض بأسرها ، وصحب معه زمرة كبيرة من المغامرين الاوروبيين كالإيطالى « روملوجيسى » والالمانى دكتور « شنيتزر » الذى أسلم وسمى نفسه أمين ، والفرنسى ليئان والأمريكى « شاييه لونج » ، والسويسرى « منزنجر » الذى قاد التوسع المصرى فى أثيوبيا، واستولى على مناطق هرروزيلع وبربرة، والدانمارك « أندروب » الذى اصطدم بقواته المصرية مع الأحباش واستولى على بعض الاقاليم الساحلية من أثيوبيا » .

وعندما عهد الخديوى اسماعيل بمنصب حاكم عام السودان لجنرال «غوردون» عام ١٨٧٧ م ، عين غوردون مكانه فى مديرية خط الاستواء أمين باشا « دكتور شنيتزر » حاكما عليها، وعين زملاءه الاوروبيين حكاما على مديريات السودان الاخرى، فأصبح الايطالى «روملوجيسى» حاكما على مديرية كردفان، والنمساوى

« سلاطين » Slatin حاكما على مديرية دارفور ، والإنجليزى « ابتون» حاكما لمديرية بحر الغزال ، وأصبح الالمانى «جيجلر» أقرب مساعد لغوردون .

وهكذا أصبح السودان قبيل اشتعال الثورة المهدية ، والذى كان رسميا تحت سلطة الحكومة المصرية ملكا لفئة من المغامرين الدوليين الطامعين في الكسب ، ففرضوا على أهل السودان ضرائب باهظة لاتحتمل، واتبعوا سياسة عنيفة في محاربة تجارة الرقيق بصورة ساعدت على أنتشار السخط على الحكم المصرى الذى أتى بالاجانب « الكفار » إلى بلاد المسلمين في السودان والتحكم في رقاب أهل البلاد خاصة والسودانيين مسلمين متمسكين أشد التمسك بدينهم وكانوا بطبيعة الحال لايعترفون لغير المسلم بأى حق في ولاية أمورهم [1] ومن الطبيعى أن ينتج عن ذلك تجاوب السودانيين مع دعوة محمد أحمد الذى أعلن أنه جاء بصفته المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما .

---

(١) د جلال يحيى : الثورة المهدية : ص ٩

محمد أحمد

هو محمد أحمد[1] بن عبد الله ، والده عبد الله كان نجارا يشتغل بصناعة السفن فى جزيرة « لبب » التى تبعد بنحو ١٥ كيلو مترا جنوب مدينة دنقلة[2] ، حيث ولد هناك محمد أحمد فى ١٢ أغسطس عام ١٨٤٤ م ، وتنقل مع والده من دنقلة إلى شندى حتى حط بهم الرحال « بكررى » شمالى أم درمان بقليل حيث توفى الوالد واستمر أبناؤه فى مزاولة صناعة بناء السفن فيما عدا محمد أحمد الذى مال نحو التعليم الدينى فدخل خلوة[3] القرية حيث تعلم القرآن الكريم ، ثم تنقل من « كررى » إلى الخرطوم للاستزادة من العلم ، حتى سمع عن حلقات الشيخ محمد الخير الدينية فى بربر فالتحق بها وأظهر تفوقا على أقرانه فى هذه الحلقات .

وكانت حياة محمد أحمد لا تقتصر على تلقى الدروس وانتظار مايقدمه أهل الاحسان لطلاب العلم ، بل آلى على نفسه منذ البدء أن ينقى النفس والبدن مما من الأدران وما يشتبه فيه فشيخه يتناول مرتبا حكوميا من الذرة والمال ، ومثل هذا الرزق لا يضمن خلوه من الظلم والمحرمات فهو لا يبنى خلايا جسمه بالمشتبه فيه وما عليه إلا أن يذهب فى بهيم الليل للصيد الحلال على شاطىء النهر لاصطياد

---

(١) الاسم مكون من كلمتين محمد وأحمد والاب اسمه عبد الله .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٩٠ .

(٣) الخلوة تعنى المدرسة القرآنية : أو الزاوية التى يحفظ بها طلاب العلم القرآن الكريم وبعض العلوم النقلية واللغوية .

السمك ، ويلقى فى سبيل ذلك من النصب ما يلاقى قبل أن يقع السمك فى سنارته(1) كما أنه اشتغل بجمع الخشب وبيعه وذلك إلى جانب دراسته الدينية(2) . كل ذلك إلى جانب دراسته الدينية . كل ذلك إلى جانب قضاء فترة من الليل فى التأمل والصلاة وتلاوة الاوراد ثم انضم إلى السيد محمد الشريف نور الدايم شيخ الطريقة السمانية(3) الذى سمح له بتكوين مريدين له رغم صغر سنه ، وكان ذلك مما ساعده على التمرن فى الوعظ والارشاد(4) .

وانطلاقا من اتجاه محمد أحمد الانعزالى فقد آثر الابتعاد عن جو الخرطوم للاختلاء بعيدا للتأمل والتعبد فاتجه فى النيل الابيض حتى جزيرة « آبا » عام ١٨٧١م ذات الغابات المتشابكة وكان يسكنها عدد قليل من العرب الرحل وأنفار قلائل من « الشلك » وهم سكانها الاصليون(5) ، وكان هذا الجو ملائما لمحمد أحمد لكى يتعمق فى أمور الدين والدنيا ويفكر فى الكيفية التى تصلح بها أحوال المسلمين فى الاتجاهين الدينى والدنيوى ، واختيار جزيرة آبا اختيار مناسب لكى تنطلق منه دعوة محمد أحمد التى عرفت باسم « المهدية » فهى جزيرة بعيدة عن سلطة حكمدارية الخرطوم وأهلها يعيشون حياة قبلية وتنتشر بينهم الخرافات والبدع إلى جانب تفشى الجهل والفقر بينهم مما يساعد صاحب الدعوة على نشر دعوته ويهيء لها مناخ النجاح ، خاصة إذا ارتبطت هذه الظروف بمكونات شخصية

---

(1) د. مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٥٠ .

(2) د. ابراهيم العدوى : يقظة السودان ص ٤٩ .

(3) إحدى الطرق الصوفية التى ظهرت فى المدينة المنورة ونقلها إلى السودان جد الشيخ محمد الشريف .

(4) د. جلال يحيى : الثورة المهدية . . . ص ٢١ .

(5) د. مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٥٣ .

محمد أحمد الذى إذا صلى بكى واستبكى وأطال الوقوف والركوع والسجود وإذا وعظ أثر فى النفس ، وعيشه عيش من زهدوا زخرف الدنيا واتجهوا بأنفسهم إلى الآخرى[1] .

ذاع صيت محمد أحمد فى جزيرة « آبا » حتى أصبح ذاكره على ألسنة كل من يتخذ من نهر النيل مجالا لعمله أو يسمع ممن زاروا « آبا » وكانت السفن النيلية المارة فى النيل الأبيض تتوقف عند الجزيرة حيث يسعى ركابها إلى « الشيخ » لنوال بركاته ولتقديم الهدايا ليصرف منها على خلواته التى كثر عددها وعلى مريديه الذين ازداد عددهم ، مما ساعد على انتشار صيت هذا العابد المتصوف وسرت الاشاعات من أنه يرى الرؤيا ويسمع الاصوات ، وكان هذا كافيا فى نظر العامة من الاهالى الذين وجدوا فيه « المختار » من العناية الإلهية لخلاصهم[2] .

استفاد محمد أحمد فى تعليمه الدينى من المشايخ الذين اتصل بهم وأخذ عليهم الدرس والطريقة ، وكما يذكر المثل « كل شيخ له طريقة » فقد تعلم على يد الشيخ محمد الخير ما استطاع أن ينهله من علوم النحو والتوحيد والفقه والتصوف ، وأخذ عن الشيخ محمد شريف ولد نور الدايم مزيدا من الدروس فى العلوم الشرعية والتصوف على الطريقـــة السمانية واستمر محمد أحمد متصلا بشيخه محمد شريف بعد انتقال الاول إلى آبا حتى حدثت جفوة بين الرجلين بسبب ازدياد شهرة التلميذ عن أستاذه ، فدخل محمد أحمد فى طريقة الشيخ القرشى ود الزين بأرض الجزيرة - بين النيلين الابيض والازرق - وكان الشيخ القرشى من أتباع الطريقة السمانية ولكنه كان فى نظر محمد أحمد قائم بشروط الطريقة دون شبهة .

ورغم أن شهرة محمد أحمد آنذاك لم تكن فى حاجة إلى شيخ غير أنه رأى

---

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٢ .

من مستلزمات الطريق وهو لا يزال شابا دون الأربعين أن يعتمد على شيخ له قدم راسخ فى الحياة الصوفية ، وأبدى بالرغم من ذيوع صيته من الخضوع والانكسار لشيخه الجديد مثلما كان يبديه لأستاذه الأول[1] .. ولم تطل إقامة محمد أحمد كثيرا مع أستاذه الشيخ القرشى بسبب وفاة الأستاذ فعاد محمد أحمد إلى جزيرة آبا لكى يستكمل بناء أسس دعوته . ولا شك أن هذا الترحال ودخوله فى إحدى الطرق الصوفية ثم خروجه منها كان أحسن وسيلة للدعاية له ولفكرته وللعمل على تكوين جماعة جديدة تأتمر بأمره وتنفذ إرشاداته[2] .

وكانت إرشادات محمد أحمد وأوامره هى ما يمكن أن نسميه أسس دعوته أو ثورته ضد الحكمدارية - أى ضد الحكم المصرى الخاضع لنفوذ الأجانب فى السودان - وتلك الأسس لم تكن بدعة ابتدعها محمد أحمد وإنما سبقه إليها أصحاب الحركات السلفية الأخرى : الوهابية والسنوسية ، وأعنى .. دعوة دينية ودنيوية فى نفس الوقت أى تنقية الدين الاسلامى مما شابه من خرافات وبدع وفى نفس الوقت إشاعة نوع من الحكم العادل فى ظل إمام عادل تفرزه الدعوة أو الطريقة ، أو بعبارة أخرى تصبح الدعوة دين ودولة .

---

(١) د . مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٢) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٢ .

أسس المهدية

ظل محمد أحمد يلقب بالفقيه حتى ذاع صيته بجزيرة آبا حيث أعلن أختيار لقب « المهدى المنتظر » وصار يعرف به منذ ذلك الحين ، وهذا اللقب استند فى رأى المهدى إلى الآية الكريمة « يهدى الله لنوره من يشاء » فهو المهدى من عند الله أى شاء الله له الهدى ، ولا جدال فى أن لقب المهدى ينطبق تمام الانطباق على الإمام محمد أحمد فى جهاده للعودة إلى بساطة الاسلام وللقيام باصلاحات سياسية بين أهالى السودان فى تلك الفترة . ولكن اعتباره على أنه هو المهدى المنتظر كان شيئا آخر مختلفا تمام الاختلاف (١) . ذلك أنه بهذا الادعاء الذى يصور نفسه بأنه الشخصية المتواتر فى الاخبار نزولها فى آخر الزمان بعد أن تمتلىء الارض فسقا وظلما وشرا ليملأ الارض من جديد بالعدل والخير والرحمة والامان، قد صور دعوته بصورة تبعدها عن جوهرها الاصلى وتثير ثائرة المسلمين خارج السودان وتتهمه بالكفر والخروج عن الاسلام الذى يدعى أنه إنما جاء لحمايته وإصلاح أحوال المسلمين .

وقد تمثلت أسس الدعوة المهدية فى الاصلاح الدينى ، والاصلاح السياسى والاصـــلاح الاجتماعى للمسلمين فى السودان وخارج السودان ، نسوقها فيما يلى .

---

(١) د . جلال يحى : المرجع السابق ص ٢٥ .

أولا : الاصلاح الديني .

تتمثل المهدية فى العودة بالتشريع إلى عهوده الزاهرة ، إلى عصر الاجتهاد الأول قبل افتراق الكلمة وظهور المذاهب الأربعة . وقال فى ذلك إن الاجتهاد هو الوسيلة الوحيدة لتقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه من الانطباعات الزمنية (١). أى أنه هاجم توزع المسلمين بين أربعة مذاهب شافعية ومالكية وحنفية وحنابلة ثم تفرقهم بعد ذلك بين طرق صوفية مختلفة لم يؤد إلا إلى إضعاف الإسلام ، ووجد أن الطريق إلى الله واضح جلى فى كل من القرآن والسنة وأن معرفتهما كافية للمؤمن الحق (٢) . ومن ثم دعا إلا الاجتهاد فى الاسلام قائلا : وما العبد إلا الاعمال الموافقة للسنة والكتاب ، من لم يجتهد على ذلك بشق الأنفس خسر الدارين (٣).

وأضاف المهدى إلى فتح باب الاجتهاد فى الاسلام إقامة الحدود الشرعية مثل قطع يد السارق ، ورجم الزانى ، بل ينتهج طريقة المرابطين حين يعاقب على ترك الصلاة (٤) . وهاجم الفقهاء من رجال الدين وأحرق كل كتب الفقه والتفسير ، وحرم على أنصاره استخدام فاحش القول وشرب الخمر وتدخين الطباق والحشيش وكذلك الرقص والاستماع إلى الموسيقى وأوصى بتبسيط حفلات الزواج (٥) . وبمعنى أوسع كانت المهدية تدعو إلى تطبيق الشريعة الاسلامية فى السودان ، وأن الكفر بالمهدية كفر حيث قال : من شك فى مهديتنا وأنكر وخالف فهو

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان . جـ ٣ ص ١٣٧ .

(٢) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٣ .

(٣) نعوم شقير : المرجع السابق جـ٣ ص ١٤٥ .

(٤) عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية فى السودان ص ١٢٤ .

(٥) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٤ .

كافر ودمه هدر وماله غنيمة (١) .

وقد اتفقت المهدية مع الوهابية فى ضرورة فرض الاصلاحات الدينية ولا تترك اختيارا للناس وقد تجلى ذلك فى نص البيعة التى يبايعه بها مريدوه حيث تقول كلماتها : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله ، أما بعد فقد بايعنا الله رسوله وبايعناك على توحيد الله ، وألا تشرك به أحدا ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نأتى ببهتان ولا تعطيل فى معروف، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة ، وعلى أن تفرض الجهاد (٢) .

معنى هذا أن المهدى تشبه بمحمد بن عبد الوهاب فى التشدد فى مبادىء التوحيد، وجعل التعبد لله وحده ، وتحريم التطلع للأولياء وزيارة قبورهم ، والامتناع عن شرب الدخان ، وتوجيه الناس إلى الكتاب والسنة ومحاربة البدع ، وغير ذلك كفرض الزكاة والعشور وتوزيع الغنيمة والفيىء توزيعا شرعيا، وتعيين القضاة للفصل فى الأمور الشرعية ، وهذه كلها محاولات مخلصة للاصلاح لكنها كانت تتطلب الاستعانة بالعلم الأصيل والدراسة الفقهية العميقة ، والتعمق فى فهم النصوص التى وردت فى القرآن والسنة ، ومحاولة الاستنباط استنباطا يفوق جمهرة التابعين (٣) .

ثانياً الاصلاح السياسى :

آمن المهدى بارتباط الدين بالسياسة أى بين الظواهر الدينية والأمور السياسية

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق جـ٣ ص ١٣٧ .

(٢) نعوم شقير : نفس المرجع جـ ٣ ص ١٣٩ .

(٣) د . حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ٤٠٨ .

إذ أنه قد اعتبر هذين الميدانين متصلين ومرتبطين أحدهما بالآخر تمام الارتباط كما كان عليه الحال فى العصور الإسلامية الأولى فكان رأس الدولة هو أمير المؤمنين وإمامهم ، وكان على هذا الشعب أن يطيعه مالم يوصه بمعصية الخالق. وكان يهدف إلى هدم الحكومة القائمة أولا ثم إقامة حكومة أخرى دينية فى مكانها تعمل على تطبيق الشريعة ، ويصبح هو رئيسها الدينى والزمنى(١) .

ولم يتوجه محمد أحمد إلى الحكومة القائمة بمبادئه الاصلاحية لأنه أخذ على رجال الحكم ابتعادهم عن تعاليم الإسلام ، وصار مقتنعا بأن النقمة تسود البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، فقد كان ثمة استياء من انغماس السلطات المصرية ـ الحاكمة فى السودان ــ فى الرشوة ، ومن توزيع الضرائب الثقيلة إلى أبعـــد الحدود توزيعا غير عادل وجبايتها بالقوة وبالعنف ــ على يد الموظفين الاوروبيين والأتراك ــ أضف إلى ذلك أن الحكومة المصرية كانت قد أعلنت إلغاء الرقيق تحت ضغط الحكومة البريطانية الوصية عليها ، وبذلك أصيبت الحياة الاقتصادية كلها بالاضطراب(٢) . وهكذا استغل المهدى هذه الظروف لتحقيق أهدافه ، فانه مهما تكن ادعاءات المهدى الدينية ــ كما ذكر لورد دوفرين السفير الانجليزى فى القسطنطينية إلى اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٣ م ــ فإن قوته الرئيسية إنما جاءت من بؤس ويأس السكان الوطنيين (٣).

---

(١) د . جلال يحي : المرجع السابق ص ٢٤ ــ ٢٥ .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٤١ ــ ٦٤٢ .

(٣) Hamilton, The Anglo — Egyptian Sudan, p. 67.

كان على المهدى إذن أن يستغل الحماسة الدينية للأهالى المتعصبين بشجاعة للمهدية، وكراهيتهم العنيدة — للحكم المصرى — التى نشأت بسبب سوء الادارة لفترة طويلة[1] وبسبب استخدام البريطانيين فى عمليات التوسع والحكم المصرى فى السودان[2]، فى الاطاحة بهذا الحكم وإقامة الامامة السياسية والدينية بزعامته وتحت لوائه ، ولقد أوضح تأثير النفوذ الاوروبى على الحكم بما أساء إلى المسلمين فى السودان كتبه التى وجهها إلى زعماء الاقطار العربية والإسلامية . فقد ذكر للخديوى توفيق ما نصه : وإماتة ما حدث من البدع والضلال والانابة إليه تعالى فى كل الاحوال وقد تأكد فى هذا الزمان الذى عم فيه الفساد سائر البلدان، فإن دسائس أهل الكفر التى أدخلوها على أهل الإسلام وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الانام ، قد أفضت إلى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين ، فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الانام ، وتراكمت الظلمات، وانتشرت البدع ، وأبيحت محارم الإسلام[3] .

ومعنى هذا أن المهدى يلقى باللائمة على الاوروبيين فيما حدث للدين الإسلامى والمسلمين من أحداث بدلت أحوالهم إلى الاسواء ، وخاصة الانجليز الذين سيطروا على الامور حتى فى مصر ذاتها وهاجم توفيق باشا لانه أحل الانجليز الذين جاءوا بكبرهم وخيلائهم ، الدماء والاموال والاعراض ، وهذا ليس من صفات الحاكم العادل المسلم الحق . . وأن الإسلام يدعو إلى طرد هذا العدو، وأن يكون المسلمون يدا واحدة على إقامة الدين وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين

(١) Cromer, Modern Egypt, Chap XIX, p. 276.

(٢) Sudan Notes & Recods; Vol. XL, 1959, p. 79.

(٣) Holt, Mahdiya, p. 184.

لأن هؤلاء الاعداء قد ظلموا أمة محمد ، وأن رد الظلم لا يتم إلا بالقضاء عليه(١).

ولم يكتف المهدى بالدعوة لطرد الأوروبيين بل طالب بطرد المصريين من السودان باعتبار ذلك الوسيلة التى يمكن عن طريقها تقرير العدالة ورفع الظلم وليملأ السودانيون المناصب التى كان الأوروبيون والمصريون يشغلونها ، ومن ثم أعلن وجوب الامتناع عن دفع أية ضريبة غير العشور أو الزكاة فقط التى نص عليها الكتاب الكريم . ثم دعا إلى شيوع الملكية فلا يستأثر مؤمن بمال أو عقار دون أخيه المؤمن ، بل يجرى توزيع الثروة على الجميع بالتساوى(٢).

ولا شك أن هذه الاصلاحات والمطالب تستهوى كثيرين من السودانيين وخاصة الفقراء الذين رأوا فى الدعوة المهدية تحقيقا لآمالهم وإصلاحا لشأنهم ، وإن كان الأغنياء من السودانيين قد ساءتهم دعوته لشيوع الملكية ، إلا أن الخلاص من الحكم المصرى كان معناه الخلاص من سيطرة الأجانب والأتراك فى محاربة تجارة الرقيق واحتكار الاتجار فى السلع المهمة بالسودان ، وخلو المناصب والوظائف ليشغلها أبناء السودانيين ، وغير ذلك من المكاسب المعنوية التى ستعود على السودانيين من انتهاء الحكم المصرى وإقامة حكم يتزعمه محمد أحمد المهدى .

وكان من الزعماء القبليين الذين استجابوا لدعوة المهدى وأقبلوا عليه بجزيرة آبا عبد الله التعايشى أخطر زعماء قبائل البقارة شأنا وأشدهم بأسا، وهذه القبائل تسكن فى كردفان ، وهى قبائل عربية ساخطة على الحكم المصرى بسبب ملاحقة الحكومة لهم بالمطاردة والمصادرة لتجارتهم فى الرقيق وهم أكبر من يملكون الرقيق

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ح ٣ ص ٣٧٤ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٩١ .

ويتاجرون فيه ، ومن ثم كانوا مستعدين للثورة أكثر من غيرهم ، وعندما قدم المهدى إلى كردفان والتقى بزعماء القبائل هناك وعلى رأسهم زعماء قبائل البقارة عاد مقتنعا بتأييد هذه القبائل لدعوته ، ولقى تأييدا قويا من عبد الله التعايشى الذى حاول أن يجعل محمد أحمد يعلن أنه « المهدى المنتظر » على شريطة أن يستوزره[1] .

ورغم وجود ساخطين على الحكم المصرى إلا أن المهـــدى لم يستطع أن يدفع بكل السودانيين للثورة ضد هذا الحكم ، لأن من السودانيين من كان يعزو ما أصابهم من أذى وضرر إلى عمال الحكومة الاجانب والأوروبيين « الكفار » وأذنابهم والضالعين معهم من مواطنيهم أنفسهم ، مما عدوا حكومة المصريين براء منه ، ولا يسوغ شرعا الثورة عليها ، وتمسك كثيرون من كبار السودانيين بالولاء لها ، وكان لهؤلاء نفوذ ملحوظ على أتباعهم وكانت كلمتهم مسموعة[2] .

ولكن المهدى استطاع أن يتغلب على معارضة هؤلاء لثورته بالقاء تبعات تلك المظالم والمصائب على عاتق الحكومة المصرية لأنها استخدمت أولئك الاجانب والدخلاء وولتهم أمور العباد فحكموا سيوفهم فى رقابهم وأتوا ما أتوه من الظلم وقتل النفوس وهتك الاعراض ، وهب أنها لا تسىء الظن فيهم ولا تعتقد أنهم يتطوحون مثل ذلك التطوح ويأتون كل تلك المنكرات والموبقات ، فهل لم يكن من الواجب أن تتجسس أعمالهم وتتنسم أخبارهم ، حاسبة السودان عضوا من أعضائها يؤلمها ما يؤلمه ، لاريب فى ذلك ولا مراء ، لكنها أهملت هذا الواجب ،

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٩٢ .

(٢) نفس المرجع : ونفس الصفحة .

كان إهمالها دليلا على تركها حبلها على غاربها ، وترك مقادير السودان تجرى فى أعنتها ، إذن ليس بدعا انتقاض أهل السوادن عليها ، بل البدع والغرابة أن لا ينتقضوا ويثوروا لخلع ذلك النير القاسى، وقلب تلك الهيئة الحاكمة التى أبلغت أرواحهم حناجرهم وأحرجتهم فأخرجتهم ، ولم تعمل عملا يصلح دنياهم ويستجلب رضاهم بل وكلت أمورهم إلى أناس يعتبرون السود أرقاء ولا يفرقونهم عن العجماوات ، ومن العبث أن يرضى المرء بالهوان والشقاء إذا كان قادرا على إصلاح حاله وإسعاد ماله[1] .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن دعوة المهدية كانت حركة عالمية تريد أن تمد يد الاصلاح إلى الاقطار الإسلامية كلها، ويظهر ذلك من كتب المهدى ثم كتب خليفته عبدالله التعايشى إلى الملوك والزعماء فى الأقطار العربية والإسلامية، وقد اهتز لحركته المسلمون جميعا ورأوا فيها رغبة مخلصة لاصلاح أحوال المسلمين ، وقد جاءته الوفود من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب[2] . كما تظهر تلك الدعوة العالمية من فكرته بتأسيس دولة اسلامية مترامية الأطراف تكون عاصمتها مكة المكرمة .

ثالثا الاصلاح الاجتماعى :

ينتسب محمد أحمد إلى القبائل العربية الذين اختلطوا بالدماء النوبية، ويذهب البعض إلى أن أصله مصرى ، وأن موطن أسلافه فى مديرية أسوان[3] ، وعلى أية حال فان انتماءه إلى قبائل الكنوز النوبيين ، وانحداره من الكنوز كان له أهمية خاصة فى حياته ، فالكنوز ينتمون إلى آل البيت ، ومن هنا كان انتساب

---

(١) محمود القبانى : السودان المصرى والانجليز ص ٣٦ .

(٢) د . حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٩ .

( ) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١١٥

المهدى إلى البيت النبوى ، وكان لنسبه هذا أثر كبير فى نجاح دعوته وتأليف القلوب حوله[1] . والمهم فى ذلك أنه لم ينتسب لاحدى المجموعتين القبليتين العربيتين الكبيرتين فى السودان وهما الجهينية والجعلية فتجنب بذلك عداء من مجموعة لم ينتسب إليها ، واتجه بدعوته إلى التنظيمات القبلية التى سارعت إلى تأييده كما رأينا بالنسبة لموقف قبائل البقارة فى كردفان .

وانطلاقا من اختلاطه بالناس على جميع المستويات أثناء ترحاله فى طلب العلم أدرك مدى ما يقاسونه من مظالم وفقر وبؤس ، ومدى ماهم فيه ضلالة وخرافات ، فشارك الدعوة السنوسية فى تبسيطها لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية مثل خفض المهر — عند الزواج — ومنع النساء من لبس الذهب والفضة، والنهى عن شعر العارية أى خروج النسوه مكشوفات الرأس وعدم الاحتفال بالاعراس ومنع البكاء وراء الميت وإبطال السحر والتعذيم[2] ، وكل تلك مبادىء اجتماعية رأى أنها تنقى المجتمع من الخرافات وتقوى من عوده لكى يواجه الحكام الظالمين .

اعتمد محمد أحمد منذ البداية على التنظيمات القبيلية لإنجاح دعوته ، ومن بعده سار خليفته عبد الله التعايش على نفس السياسة . ومن ثم وجدنا المهدى لكى يزيد من أنصاره يحاول استرضاء القبائل كما باحة تجارة الرقيق بعد أن كانت الحكومة تحرم هذه التجارة ، لان تجار الرقيق كانوا يمثلون فى البلاد طبقة قوية من الاعيان والتجار الذين كانوا سادة السودانيين الحقيقيين ، والذين رأو وافى الدعوة المهدية ما يحقق مصالحهم ، هذا بالاضافة إلى جهل الاهالى وسرعة تصديقهم للخرافات والاوهام واعتقادهم من قبل بقرب ظهور المهدى المنتظر ، فأقبلوا على دعاوى

---

(١) د . حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٠٨ .

محمد أحمد يصدقونها ويؤمنون بها دون تفكير ولا تحقيق(1) .

كان هذا هو الأساس الاجتماعى للمهدية ، وهو أساس يستند إلى جهل الناس وتصديقهم لما يلقى إليهم من الفقهاء أمثال محمد أحمد ، وإلى التنظيمات القبلية التى ساءها محاربة الحكومة لأرزاقها فى تجارة الرقيق واحتكار تجارة السلع الأخرى المهمة كالعاج مما زاد من سخط زعماء هذه القبائل على الحكومة ، ومن ثم يمكن انضمامها إلى دعوة محمد أحمد للثورة على الحكومة .

---

(1) عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق ص ١١١ .

أسلوب الثورة

عول محمد أحمد من البداية استخدام أسلوب الثورة لتحقيق مبادئه وأهدافه الدينية والسياسية والشخصية ، فاعتبر الجهاد ضد الحكومة وموظفيها جهاد فى سبيل الدين ، وهو فى هذا يتفق مع الحركة الوهابية . وكان محمد أحمد قد بدأ فى يوليو ١٨٨٠م دعوته بطريقة سرية بالكتابة إلى رجال الدين من مشايخ الطرق الصوفية بأسلوب غير صريح ، وإنما لمح لهم فى كتبه إلى أسس دعوته ، فبعضهم آمن واستعد إلى حين صدور الأمر ، وبعضهم كفر بالدعوى ولم يعرها اهتماما .

ولكنه فى العالم التالى - يونيو ١٨٨١ م - وجه كتبا صريحة إلى رجال الدين يدعوهم لنصرة الدين والقيام لتأييد المهدية الكبرى التى خصه الله تعالى بها وعلى نصرة الكتاب والسنة ، وأخبرهم أنه أمر باعلانها وسيمضى النصر بين يديه(٢) وكتب إلى المشايخ من مريديه وأصدقائه أنه رأى النبى الكريم عليه الصلاة والسلام فى المنام ، وأنه عهد إليه إحياء الاسلام ودعاهم إلى الحضور إليه فى جزيرة « آبا » (٢) :

وعندما بدأت دعوة المهدية إلى المشايخ والعلماء وشى به أستاذه السابق الشيخ محمد شريف شيخ الطريقة السمانية إلى رءوف باشا حكمدار السودان الذى لم يعر الموضوع اهتماما جديا لأنه لم يتعود ولا من كانوا قبله من الحكام أن يقوم درويش فقير ضعيف القوة والعون بمناصبة الحكومة العداء بنفوذها

---

(١) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٦ .

وسيطرتها أو لعل هذا الشيخ إن صح مانسب إليه كتب ما كتب وادعى ما أدعى في حالة جذب قد تعترى مثله من الدراويش أحيانا(1) ومع ذلك أرسل رءوف باشا رسولا يستطلع حقيقة الأمر ويستدعى هذا الفقيه لمقابلة الحكمدار ، ولكن المهدى رفض الحضور إلى الخرطوم .

أدرك محمد أحمد أن دعوته في خطر بعد موقفه هذا من الحكومة ، وتيقن أنها لكى تنجح عليه أن يعلن الثورة ضد الحكومة ويستعد لمقاومة رجال الحكم المصريين ، ومن هنا انتقلت الدعوة المهدية من المكاتبات إلى الزعماء والمشايخ إلى الثورة ضد الحكومة وتشكيل فرق الأنصار للمقاومة التى تبدأ بما عرف بموقعة آبا في ١٢ أغسطس ١٨٨١ م والتى وقعت بين مائتين من جند الحكومة وبين حوالى أربعة آلاف من أنصار المهدى الذين عرفوا بالدراويش وكانت النتيجة هلاك معظم جند الحكومة . .

كانت معركة آبا أول صدام بين الطرفين ، وحينما جاءت نتيجته لصالح المهدية وضد الحكومة فقد استغله المهدى في إنجاح دعوته وزيادة أنصاره ، كما ساعد هذا الانتصار على قوات الحكومة بدون شك على أن يزداد ولاء أنصار المهدى له واعتقادهم بأنه مبعوث العناية الالهية ، وأنه مؤيد منها في انتصاره على الحكومة(2) ، وأن عليه مواصلة السير لتخليص السودان من الحكومة القائمة لتحل محلها حكومة المهدية بمبادئها المؤيدة من الله .

---

(1) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(2) د . جلال يحيى : الثورة المهدية ص ٢٧ .

كانت موقعة آبا[1] أول أحداث الثورية المهدية ضد الحكم المصرى هناك ، وقد نبهت هذه الموقعة الحكومة المصرية فى القاهرة إلى حدوث ثورة ـ لم يعرفوا حقيقة قوتها[2] ـ فى السودان وأنه يجب على حكمدار السودان القضاء عليها بسرعة لأن القاهرة مشغولة بالحركة العرابية ، كما نبهت هذه الموقعة محمد أحمد بأن الحكومة لن تتركه يستقر فى جزيرة آبا ، ومن ثم عول على الهجرة إلى جبال النوبة فى جنوب كردفان حيث يكون هناك بعيدا عن متناول يد الحكومة ، وإذا ما قصدته أية قوة تلاقى نصبا فى الوصول إليه ، والهجرة إلى مكان يكون فيه قوام الدين ورد فى كل خطاباته سواء منها الأولى بالتلميح أو الصريحة بإعلان مهديته[1] .

---

(١) كان جند المهدى فى المعركة يحملون خمس رايات كتب على كل منها عبارة « لا إله الا الله محمد رسول الله » وعلى احداها أضيف « الجيلانى ولى الله » والثانية « الرفاعى ولى الله » والثالثة « ابراهيم الدسوقى ولى الله » والرابعة « أحمد البدوى ولى الله » والخامسة كتب عليها وعلى الرايات الاربع : محمد المهدى خليفة رسول الله » فكانت تلك اللحظة الفارق بين الطريقة والمهدية وما بين المسالمة والجهاد ، وقد أصبح اسمه بعدها محمد المهدى بدلا من الشيخ محمد أحمد مكى شبيكة .. ص ٢٥٨ .

(٢) روى رءوف باشا قصة الواقعة مختصرة فى تلغراف الحكومة المصرية جاء فيه « قصدت القوة محل اقامته ـ المهدى ـ لضبطه فوجدوا بعض أشخاص بهيئة دراويش ينفون عن المائتين نفر مجتمعين وشاهرين بوارقهم ، فعند ذلك أمرهم الريس بضربهم بالرصاص فلم يمتثلوا لأمره وقالوا له هؤلاء دراويش فقراء لا يصح ضربهم ولما قربوا منهم فهموا عليهم الدراويش وتمكنوا منهم وقتلوا مائة وعشرين عسكرى وستة ضباط .

وقد أدى هذا الانسحاب إلى جبال النوبة - وخاصة إلى جبل قدير أوعر المناطق فى تلك الجبال - إلى زيادة نفوذ المهدى لأنه وقع بعد انتصاره على الحكومة واعتبره المهديون هجرة تشبه هجرة الرسول من مكة إلى المدينة، وأعطى المهدى لقب «الأنصار» إلى أعوانه الذين استقبلوه عند وصوله تشبها بالرسول فى هجرته وسمى [1] من صحبه فى هجرته باسم المهاجرين وفى مكمنه الجديد انتصر على قوة حكومية أخرى بقيادة راشد بك مدير فاشودة فى ٩ ديسمبر ١٨٨١ م، وقد انتشر خبر هذا الانتصار أيضا ليقضى على تردد بعض السودانيين فى الانضمام إلى المهدية المؤيدة من الله والمحققة لمعجزات انتصار هؤلاء الدراويش على جند الحكومة النظاميين، بينما أدت هذه المعركة إلى انزعاج حكمدارية السودان المترددة.

لم تكن حكومة القاهرة على استعداد للتضحية بقوات ترسلها إلى السودان مددا فى الوقت الذى تتهدد فيه مصر نفسها أخطار غزو أجنبى، فاكتفت الحكومة المصرية بعزل رءوف باشا من الحكمدارية وتعيين عبدالقادر باشا حلمى مكانه الذى وصل إلى الخرطوم فى ١١ مايو ١٨٨٢م ليجد جيجلر Giegler النمساوى يصرف أمور حكمدارية السودان بعد مغادرة رءوف باشا الخرطوم فى أوائل مارس، ووصل عبدالقادر ليجد حملة عسكرية أخرى يقودها يوسف باشا الشلالى مدير سنار تتجه لمقاتلة المهدى فى جبل قدير، وقد لقيت هذه الحملة هزيمة كبرى فى ٢٩ مايو ١٨٨٢ م وقتل يوسف باشا نفسه، وغنم المهدى أسلحة الجيش وذخائره، فازداد بها قوة، وذاعت سطوته فى مختلف الأرجاء، وخاصة فى

(١) مكى شبيكة المرجع السابق ص ٢٦٠.
(٢) د. جلال يحيى: المرجع السابق ص ٢٧.

كردفان ، وتضعضعت هيبة الحكومة ، وصدق الأهلون دعوة محمد أحمد ، بعد هذه الانتصارات المتوالية[1] ، التي أحرزها المهدى بجيوشه غير النظامية ضد جيوش الحكومة النظاميين المسلحين .

كانت انتصارات المهدى المتتالية على قوات الحكومة مثار دهشة المراقبين ، فان الجيش المصرى هو هو الذى فتح النيل الابيض وكردفان ودارفور ، وبحر الغزال وخط الاستواء . ودان له السودان من أدناه إلى أقصاه مدة ستين سنة متوالية ، فكيف به ينهزم أمام شراذم مجردة من السلاح والنظام ؟ إن هذا حقا يدعو إلى العجب ، ولكن سوء إدارة الحكام وتعاقب المديرين وعدم كفايتهم وقلة إخلاصهم ، وافتقار الجيش إلى قواد أكفاء كل ذلك كان له أثره فى أختلال نظام الجند وانهزامهم أمام جموع المهدى . ثم انشخصية المهدى كان لها بلامراء أثر كبير فى انتصار جموعه ، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة ، ولولا ذلك لما استطاع أن يجمع حوله الانصار والاعوان ، ويبعث فيهم روح الطاعة لاوامره ، والاستخفاف بالموت فى سبيل تأييد دعوته ، ولقد كان لمزاياه الشخصية وماعرف عنه من الزهد والصلاة والتقوى ، وإيمانه بدعوته وذكائه وحزمه ، كل أولئك كان له أثره فى نجاحه وانتصاره على قوات الحكومة (1) .

تم تعيين عبد القادر باشا حلمى ناظرا للسودان وملحقاته وحاكم عام السودان وملحقاته فى نفس الوقت ، بمعنى توحيد الإدارة والحكم فى الاقاليم السودانية بانشاء وحدة إدارية تخضع لها كل هذه المناطق بما فى ذلك مديريات شرق السودان ومحافظات البحر الاحمر وحكمدارية هرر وزيلع وبربرة وتاجورا (3) . وكان

( ) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٩

(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٣) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٩ .

عليه مواجهة الثورة المهدية فى الوقت الذى كانت أحداث الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لمصر تشغل الحكومه المصرية عن الامور فى السودان ، وفى الوقت الذى أصدر فيه الخديوى بعد الاحتلال أمرا عملا بنصيحة إنجلترا بحل الجيش المصرى جيش العرابيين — وبيع أسلحته أو تدميرها .

وكان عبد القادر باشا له من مقدرته وكفاءته ما يجعل منه رجل الساعة فى السودان — وما كانت الوزارة لتجد رجلا أجدر بمثل تلك المهمة ، وما كان كغيره من الحكمداريين السابقين .. إذ كانت ثقته فى نجاح مهمته بالقضاء على الثورة المهدية كبيرة ، فبعث إلى القاهرة يقول : ومأمول إن شاء الله الحصول على الغرض المقصود ، وبعد زمن قريب منظور حضور البوستة بالاخبار المبشرة بالظفر والنجاح (١) . وبالفعل استطاع إخماد الثورة فى سنار والجزيرة كلها (الواقعة بين النيلين الازرق والابيض) ونكل بالثوار ، وملأ قلوبهم رعبا فانكمشوا أمام هيبته وسطوته ، وضيق على المهدى المسالك ، وشعر المهدى بخطره ، فكان يدعو الله هو وأصحابه عقب كل صلاة بقوله : اللهم ياقوى ياقادر اكفنا عبد القادر (٢) .

ولكن عبد القادر حلمى لم يلبث أن صدر أمر خديوى باستدعائه وإلغاء نظارة السودان فغادر الخرطوم فى أواخر أبريل عام ١٨٨٣ م وسط استياء السودانيين فى الخرطوم والجزيرة والمصريين وقناصل الدول الاوروبية ورعاياها لان الكل موقنون بأن الطريقة التى اتبعها عبد القادر باشا — بترك المهدى وأتباعه فى صحارى كردفان وحصارهم هناك حتى يتفرق شملهم — كانت هى

---

(١) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٢٦٦ .
( ) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٢٤ .

السبب الوحيد فى نجاة الخرطوم وسنار والجزيرة كلها ، وكان من وراء أعماله ماقنط المهدى من التغلب على الخرطوم وأصدر منشورات لكل دعاته فى الجزيرة يأمرهم بكتمان الدعوة مادام عبد القادر باشا حاكما على السودان [1] .

استمر الصراع بين المهديين وبين قوات الحكومة بعد استدعاء عبد القادر بدسيسة انجليزية عند الخديوى توفيق ، وأدرك المهدى أن استمرار الثورة وتقدمها من كردفان أصبح ممكنا بعد رحيل عبد القادر ورغم انتصار قوات الحكومة على الدراويش فى المرابيع بتاريخ ٢٩ أبريل ١٨٨٣ م ، فإن الدراويش مالبثوا أن سيطروا على كردفان وهزموا قوات الحكومة بقيادة جنرال هيكس Hicks الانجليزى هزيمة منكرة فى شيكان فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ م. وأصبح المهدى بعد هذا الانتصار مسيطرا على كل السودان الغربى دون أى منازع ، وانقطعت مواصلات حامية الخرطوم الصغيرة مع حامية بحر الغزال التى كانت تحت قيادة «لبتون بك» الانجليزى وحامية دارفور التى كانت تحت قيادة «سلاتين بك»[2] النمساوى. كما سيطرت المهدية على السودان الشرقى بقيادة زعيم المهديين هناك عثمان دقنة .

وهكذا استمرت أسلوب الثورة المهدية للسيطرة على السودان حتى تم لها ذلك بسقوط الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥م ومقتل جنرال غوردون الانجليزى الذى كانت الحكومة البريطانية قد اختارته لتنفيذ إجلاء المصريين من السودان .. واستمرت الثورة المهدية فى حركتها العسكرية حتى بعد موت المهدى فى يونيو ١٨٨٥م وتولى عبد الله التعايشى زعامة المهدية بعده الذى قاد الجيوش لغزو مصر بدعوى تخليصها من الاحتلال الانجليزى المسيطر على مقدرات الأمور فيها ، حتى تم

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: السودان بين يدى غوردون وكتشنر ج١ ص١٣١ .
(٢) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٩٨ .

استرجاع السودان بقوات مصرية انجليزية مشتركة من عام ١٨٩٦ إلى عام ١٨٩٨م حيث قضى على دولة المهدية ليقام حكم ثنائى فى السودان يصبح بمقتضاه السودان المصرى الانجليزى .

الثورة المهدية والقوى الخارجية

وكان على المهدى وأنصاره التعامل مع قوى أخرى غير الشعب السودانى ، تمثلت هذه القوى فى المصريين والانجليز وغيرهم من الأوربيين أما بالنسبة للمصريين فقد انتقد المهدى بشدة موقف الحكم المصرى فى السودان بسبب استعانته بالاتراك والاوروبيين فى حكم البلاد وهؤلاء أساءوا إلى أهل البلاد ولم يراعوا أية مبادىء فى تعاملهم مع السودانيين ، لأنهم كانوا خليطا من الترك والشراكة والأوروبيين إلى جانب المصريين. وإذا كان منهم من كان يرعى العدل وينصف المظلومين . فلقد زاد فى ارتكاب المظالم أن السودان كان يعتبر منفى للحكام ، ولم تكن الحكومة ترسل إليه فى الغالب إلا الموظفين المغضوب عليهم ، أضف إلى هذا أن حكام مصر فى ذلك العصر لم يكونوا فى الغالب مثال العدل والصلاح ورعاية مصالح المحكومين ، بل إن مظالمهم كانت كذلك من أسباب الثورة العرابية (١) . وعلى هذا هاجم المهدى الحكم المصرى فى السودان وانتقل هجومه إلى أنصاره الذين ساهموا فى إقامة حمامات دم للمصريين المقيمين بالسودان ، ونسى المهدى فى غمرة معاداته وأنصاره للمصريين الأهداف الدينية لدعوته وانجر إلى عمليات عسكرية ودموية ضد الحكم المصرى والمصريين المقيمين فى السودان .

ورغم ما أصاب المصريين الموجودين بالسودان على يد المهديين ، فقد كان

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٠٩ .

المهدى يتطلع نحو مصر لتخليصها كما قال من حكم الترك والأوروبيين اليهود والنصارى ، فأرسل حسين باشا خليفة مدير « بربر » السابق وصاحب النفوذ الواسع فى قبيلته العبابدة فى صعيد مصر وصحرائها بمنشور إلى أهله وبقية أبناء الشعب المصرى يقول فيه: ولما كان موضوع أمرنا القيام بأمر الدين وجهاد أعداء الكافرين ، وقد انتهى أمرهم بالسودان ، وعزمنا بارادة الله على التفرغ لغيرها من البلدان فقد اخترنا الله تعالى ووجهناك أمامنا عاملا عموميا على كافة قبائل جماعتك العبابدة الذين بالجهات البحرية (مصر) وعلى كافة من يرغب الانضمام عليك من القبائل الآخرى [1] .

كما وجه المهدى رسالة إلى الخديوى توفيق ينعى عليه تسلط الاجانب على أحوال المصريين وتسلط البدع والخرافات وتعطيل أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأنه بعث بالمهدية الكبرى لاحياء السنة ، وأن الواجب عدم موالاة اليهود والنصارى وأعداء الدين ، وطالبه بالهداية والايمان بالمهدية وإلا . فأنا قادم على جهتك بجنود الله وعن قريب إن شاء الله تعالى فان أمر السودان قد انتهى ، فان بادرتنى بالتسليم لامر المهدية والانابة إلى الله رب البرية فقد حزت السعادة الابدية وأمنت على نفسك ومالك وعرضك أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك وإن أبيت بعد هذا إلا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد فانما عليك وإثمك وإثم من معك ولابد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة . وهذا إنذار منى إليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية والسلام على من اتبع الهدى[2]

وإذا كان المهدى لم يوجه حملة عسكرية فى حياته لغزو مصر فقد كان ذلك فى

---

(١) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٦٥ — ٣٦٦ .

نيته ، ومن ثم حرص خليفته عبد الله التعايشى على تحقيق نية المهدى ، فنجده فى مارس عام ١٨٨٧ م يرسل ثلاثة رسائل إلى كل من السلطان عبد الحميد والملكة فيكتوريا والخديوى توفيق ، يدعوهم فيها الخليفة إلى اعتناق المهدية قبل أن تطأ جيوشه بلادهم، وتنتقم منهم ، وكان غرضه خصوصا من الكتابة إلى هؤلاء الثلاثة الحصول على اعترافهم بحكومته[1] حتى يأمن على بقاء السلطة فى يده وانتقالها إلى ذريته من بعده ، ويحقق فى نفس الوقت أمل المهدية فى السيطرة على كل وادى النيل شماله وجنوبه .

وتنفيذا لتوجيهات الخليفة بغزو مصر قاد حملة الغزو عبد الرحمن النجومى من دنقلة فى ٣ مايو ١٨٨٩ م واتجه بقواته شمالا حتى بلدة بلانة شمالى وادى حلفا وهناك تبودلت الرسائل بين النجومى وقائد القوات المصرية المكلفة بالدفاع عن الحدود الجنوبية وهو سير جرنفيل Grenfell فبينما طالب الأخير من النجومى الاستسلام ، طالب النجومى منه التسليم واعتناق الدين الاسلامى وإلا فمصيره سوف يكون مصير هيكس وغوردون لأن المهدية تعتزم الاستيلاء على مصر بأكملها . ومن ثم تهيأت الامور لوقوع معركة عند « طوشكى » فى ٣ أغسطس ١٨٨٩ م التى انهزم فيها الدراويش هزيمة ساحقة وقتل فى المعركة عبد الرحمن النجومى نفسه ، وبهذه الهزيمة توقفت مشروعات المهدية لغزو مصر حتى يتم استرجاع السودان بقوات مصرية انجليزية مشتركة عام ١٨٩٦ م .

وفى مجال العلاقات بين المهدية ومصر لابد أن نذكر توضيحا لموضوع الصلة بين المهدى وعرابى ذلك أن حدوث الثورتين فى وقت واحد ولهدف يكاد يكون واحدا قد أوحى إلى البعض أن الثورتين من تدبير الانجليز لأنه نتج عن الثورتين تحقيق للمطامع الانجليزية، ولكن انطلاقا من الحقيقة القائلة بأن الشعبين

---

(١) د محمد فؤاد شكرى : مصر السودان . ص ٤٢٥

المصرى والسودانى كانا يعيشان حالة سيئة وكانوا فى البلوى سواء ، تطلع أهل الشمال إلى زعيم ينقذهم مما كانوا فيه فوجدوه فى صورة زعيم عسكرى هو عرابى باشا ، وتطلع أهل المنبع إلى زعيم ينقذهم مما حل فوجدوه فى صورة زعيم دينى هو محمد أحمد المهدى (١) فإنه كان هناك تعاطف بين الرجلين وإن لم يتلاقيا .

كان العرابيون يفكرون فى التحالف مع المهدى ، ولم يخف عرابى وهو فى منفاه تأييده وميله إلى المهدى ، وأعلن أنه كان ينوى تعيينه حاكما عاما على السودان(٢) . وكان المهدى يعطف على عرابى ولعل قيام عرابى ضد الحكومة المصرية قد صادف هوى فى نفسه مما شجعه على تقليده ، وجعله موضع عطفه وتقديره(٣) . ويذكر البعض أن المهدى أثناء حصار الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ م أمر رجاله بالمحافظة على حياة جنرال غوردون ، قائلا : أنى أريد أن أفتدى به أحمد عرابى باشا(٤) .

ولم تكن علاقة المهدية بالدولة العثمانية بطبيعة الحال علاقة طيبة لأن السلطان العثمانى وخليفة المسلمين ساءه ظهور هذه الدعوة وثورتها على السيادة التركية ، ومن ثم نجد السلطان يصف المهدى بأنه بنى مزيف وأنه متمهدى وأنه شقى دنقلة . . كل هذه الصفات لأن دعوة المهدى فيها خروج على فكرة الخلافة العثمانية وأن ثورة السودان كانت تهدف — بمحاولتها تغيير الوضع القائم — إلى رفع كل سيادة لتركيا على السودان . ومن ثم شعر السلطان العثمانى بأنه قد أهين فى شخصه كخليفة للمسلمين ، ومن الطبيعى أن يهاجم الخديوى فى مصر المهدية

---

(١) د . جلال يحيى . المرجع السابق ص ٤٠ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٤ .
(٣) إبرهيم فوزى : المرجع السابق ج ١ ص ٣٩٨ .
(٤) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٤١ .

ويصفها بالتمرد على سلطة خليفة المسلمين وصاحب السيادة الشرعية على كل من مصر والسودان .

وأما علاقة المهدية بانجلترا فقد بدأت منذ كان بعض الموظفين الخديويين الانجليز يتولون وظائف الادارة والحكم فى السودان منذ عهد الخديوى اسماعيل وقد كره السودانيون شطط هؤلاء الموظفين الانجليز فى محاربة تجار الرقيق بشكل فيه قسوة وظلم صارخ ، إلى جانب الروح الاستعمارية التى عمل بها هؤلاء الموظفون فى مديرياتهم: غوردون فى خط الاستواء ثم حكمدارا للسودان بأكمله، لبتون فى بحر الغزال ، ومن قبلهم صمويل بيكر . وغيرهم الذين أساءوا إلى وجه الحكم المصرى عند السودانيين فكرههم هؤلاء وكرهوا معهم الحكم المصرى وشملت الثورة دعوة لانهاء الحكم المصرى فى السودان الذى أتى بالاجانب ليسيئوا معاملة السودانيين .

وعندما احتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢ م كانت ثورة المهدى مشتعلة فى السودان ، فاتخذت الحكومة الانجليزية قرارين — أصدرها الخديوى بناء على نصيحة انجلترا — يقضيان بحل الجيش المصرى (جيش العرابيين الثائر على الخديوى) وبيع أسلحته أو تدميرها . وكان لهذين القرارين أثرهما الخطير على الموقف فى مصر والسودان فى الوقت الذى تحتاج فيه حكمدارية الخرطوم إلى قوات مسلحة لتقضى بها على الثورة المهدية . ولكن انجلترا التى سيطرت على مقدرات الأمور فى مصر والسودان كان لها رأى آخر :

اكتفت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر بمعرفة حقيقة مايدور فى السودان فارسلت بعثة برئاسة الكولونيل « ستيوارت » منذ ديسمبر ١٨٠٢ م ، فى الوقت الذى كان فيه عبد القادر باشا حلمى بالخرطوم ، فارسل إلى الخديوى تقريرا فى ٣٠ ديسمبر عن تصرفات ستيوارت جاء فيه : من اختبار أحوال المومى

إليه - ستيوارت - تبين لنا أنه يريد إظهار سطوتهم بهذه الجهات ، وبناء عليه قد نصحناه بالمحسوس بتعريفه أن الحركات الحاصلة هى تحركات دينية ، وأن ذلك يفتح بابا للشق — المهدى — لتأييد مايوهم به على العربان ويوجههم للثبات على تصديقه واتباعه(1) .. فكلف الخديوى ياوره أحمد حمدى بالتوجه إلى الخرطوم ومعه تعليمات للحكمدار « بالاتحاد مع الكولونيل استاورت — ستيوارت — فى الآراء النافعة وأن يجاريه فى طلباته ولايحصل له منه مايتظاهر منه النفور أو التقصير(2) .

وفى الوقت الذى أظهرت فيه سلطات الاحتلال الإنجليزية رغبتها فى عدم التدخل فى السودان سمحت لضباط انجليز بالعمل فى السودان ، وإن وكان جنرال هيكسى أحد هؤلاء الضباط الذين استفاد المهديون من وجودهم على رأس القوات المصرية فى إثارة الروح الوطنية والدينية عند السودانيين ، فى الوقت الذى انغمس فيه هيكسى فى خلافات مع القادة المصريين فى السودان من أجل أن ينفرد بالقيادة والسيطرة ، فكان مصيره كما رأينا فى موقعة شيكان فى نوفمبر ١٨٨٣ م فكان هذا الموقف الانجليزى مبعث الكارثة التى وقعت لجنرال هيكسى ، كما كان كذلك مبعث الكارثة الادهى الاخرى التى وقعت بمقتل جنرال غوردون فى يناير ١٨٨٥ م(3)

وكانت كارثة هيكسى سببا فى أن الحكومة البريطانية تقرر سياسة إخلاء السودان وإرسال غوردون إلى السودان لتنفيذ هذه السياسة ، وإجبار الحكومة

---

(1) وثائق السودان /1 تلغرافات حكمدارية السودان .
(2) وثائق السودان/1 مأمورية أحمد حمدى بك إلى السودان /1 بخصوص بعثة ستيوارت .
(3) Shibeiha, British Policy in the Sudan, p. 79.

المصرية على قبولها فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة المصرية قد وصلت إلى قرار بالمحافظة على الخرطوم وإعادة فتح الطريق بين سواكن وبربر(١) ، ولكن اختيار غوردون لم يكن اختيارا موفقا ذلك أن « جراهام » الذى كان يلازم غوردون أثناء وجوده بالقاهرة أوضح أن غوردون اعتقد أن المهدى مجرد رمز وأنه ليس فى استطاعته الهجوم طالما أن أتباعه لن يتقدموا بعد حدودهم القبلية وربما كان هذا أكبر عدم إدراك وتقدير للموقف الذى قاسى منه غوردون(٢).

وعندما كان غوردون فى الخرطوم ويتعرض لحصار من المهديين أرسل مدير دنقلة برقية إلى المعية السنية - بلاط الخديوى- بأن المسموع عن الخرطوم أن العدو — المهديين — محاصرها وممنوع وصول المئونة إليها، وأن المتمهدى مؤكد على جيوشه المحاصرين بضبط غوردون باشا حيا لإجماله أسير مقابلة أسر الانكليز إلى عرابى ، وأبلغه أن غردون باشا قال بأنه ان لم تحضر إليه امدادية من دولة الانجليز يسلم ويسلم للمتمهدى، والمأمول انه اذا حضرت قوة كافية فيكون متكفل بانقاذهم بشرط أن يكون هو قايدهم (٣) »

وبعد سقوط الخرطوم فى يد المهدى وظهرت نوايا الدول الاوروبية وأطماعها فى اقتطاع اجزاء من السودان وملحقاته اتخذت انجلترا سياسة متناقضة ، فبينما كان الانجليز يحاولون رد عدوان بعض الدول الاوروبية التى تطمع فى اقتطاع أجزاء من جنوبى السودان زاعمة أن تلك الاصقاع لم تكن ملكا لاحد Res Nullius أو أرضا فضاء يستطيع أن يستحوذ عليها من يشاء (وكانت خاضعة للسيادة المصرية) كانوا فى الوقت نفسه يحاولون أن يتخذوا حقوق مصر فى السيادة على السودان رغم إخلائه تكئة يستندون إليها فى عقد اتفاقيات مع بعض الدول

---

(١) Cromer, Modern Egypt, p. 291.

(٢) Shibeiha, Ibid, p. 168.

(٣) وثائق السودان- تلغرافات ومكاتبات تتعلق بثورة المهدى ٢/٢/٤ .

الأخرى لتقسيم الممتلكات المصرية ذاتها فى السودان الشرقى وعلى طول الساحل الصومالى(١) .

وعندما تم استرجاع السودان بقوات مصرية انجليزية مشتركة وبقيادة جنرال كتشنر الانجليزى أمر القائد بتدمير قبة المهدى فى أم درمان وتعقب المهديين ومصادرة أموالهم ، وهو يقصد بذلك أن يثير نفوس السودانيين من المصريين ، رغم أن الضباط المصريين استاءوا جدا لرفع العلم الانجليزى - على سراى الحكومة بالخرطوم إلى جانب العلم المصرى - واحتجوا على ذلك(٢) ثم لم تلبث الحكومة البريطانية أن أبلغت الحكومة المصرية أن لانجلترا حق الاشتراك فى حكم السودان بما ضحت فيه من المال والرجال .

كان على المهدية - بعد وفاة المهدى بصفة خاصة - مواجهة الاطماع الاستعمارية فدارت المعارك بين الدراويش والأحباش والايطاليين وهى معارك غيرها حاسمة فى الوقت الذى ظهرت فيه أطماع ليوبولد ملك بلجيكا وصاحب دولة الكنغو فى بحر الغزال ، وفرنسا فى أعالى النيل . وقد عبر الرئيس الفرنسى « كارنو » لوزير المستعمرات الفرنسى وذكر له : انى سأكون مسرورا لاثارة المسألة المصرية ، فالسودان المصرى إنما هو أرض خلاء ، وأن فرنسا فى حاجة إلى منفذ على النيل لاملاكها فى « أوبانجى » ، وأطلعهم على تقرير حول التقدم نحو فاشودة التى تقرب من رافد السوباط والنيل ، وبواسطة هذا الموقع فان فى استطاعة فرنسا أن تعوق البلجيكيين ، وفى نفس والوقت تخيف البريطانيين خارج مصر بالتهديد بقطع مياه النيل عن مصر(٣) .

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان ص ٦١ .

(٢) أحمد شفيق بك : مذكراتى فى نصف قرن - ٢ ص ٢٨٨ .

(٣) Langer, Diplomacy of Imperialisn, p. 129.

وفى فاشودة يحدث الصدام بين القوات الفرنسية التى سبقت واحتلت البلدة فى ١٠ يوليو ١٨٩٨ م ورفعت العلم الفرنسى عليها ؛ والقوات المصرية بقيادة كتشنر الانجليزى التى وصلت إلى البلدة فى ٢١ سبتمبر بعد استرجاع الخرطوم ، لولا تراجع فرنسا فتأمر بسحب قواتها — خلافات بين الاستعمار لمصلحة استعمارية لامصلحة المصريين أو السودانيين — ووجه الاهمية فى حادث فاشودة أنه كان أحد مظاهر المنافسة الشديدة وقتئذ بين انجلترا وفرنسا على الاستعمار فى أفريقيا عموما وحوض النيـــل خصوصا على حساب حكومة المهديين ، وهى كذلك مظهر للنزاع الفرنسى والانجلزى حول المسألة المصرية مسألة الاحتلال الانجليزى وحادث فاشودة كذلك أثار مسألة حقوق السيادة للفصل فيما إذا كان الخليفة عبد الله قد أمام دولة لها كل حقوق السيادة على الاراض الداخلة فى نطاقها ، وفيما إذا كانت نظرية الملك المباح هذه إنما تنطبق على كل السودان بما فى ذلك الاقاليم موضع النزاع فى حوض النيل الاعلى وبحر الغزال ، أو فيما إذا كان لا يمكن مطلقا اعتبارا السودان ملكا مباحا لان المهدية حركة ثورية اغتصبت السلطة من الحكومة الشرعية فى البلاد ، وأن كل الاثر الذى ترتب على إخلاء المصريين للسودان أن حقوقهم فى السيادة عليه صارت معطلة فقط ، وفيما إذا كانت مصر قد عادت فقط تمارس حقوقا فى السيادة على السودان بسبب استرجاعها لهذه البلاد نتيجة للعمليات العسكرية التى انتهت بالفتح الجديد .

ومنذ أنهت موقعة أم درمان حكومة الخليفة عبد الله التعايشى استأثر السودان باهتام الانجليز كمجال لاستعمارهم ، وذلك بتنظيم حكم هذا الاقليم بصورة تتيح لهم السيطرة الكاملة على إدارته ، وإبعاد تركيا عن ممارسة حقوق السيادة القديمة التى كانت لها ، والسماح لمصر بالمشاركة فى

الحكم على أساس ان مصر صاحبة سيادة قديمة منذ الفتح وجديدة باشتراك قواتها فى حملات الاسترجاع . ولقد توصل المسئولون الانجليز إلى تدبير هذا النظام الذى يكفل كل الاغراض التى ذكرناها والذى عرفت باسم النظام الثنائى للحكم فى السودان عام ١٨٩٩ م ، وكان اللورد كرومر — المعتمد البريطانى فى مصر — هو المسئول الأول عن ابتكار هذا النظام(١)

ويدافع كرومر عن نظامه بقوله : إن مصر جنت فوائد ليس فى الاستطاعة تقديرها بالأرقام فقد زال خطر الغزو لمصر من الجنوب نهائيا وبذا تخلصت مصر من نفقات عسكرية باهظة. وكذلك ضمنت موارد مياهها، وكان من المحتمل أن تقام مشروعات رى كبرى فى السودان تجعل حياة مصر الزراعية فى خطر ، كذلك انتعشت التجارة بين القطرين ، وبعد ذلك كله يحق لمصر أن تفخر كما لبريطانيا أيضا بأن أعادت السودان إلى حظيرة المدنية والحضارة(٢) . وهو دفاع لا يستند على أسس منطقية فضلا عن أنه يكشف النوايا الاستعمارية التى رأت أن الادارة الجديدة فى السودان يجب أن تسيطر عليها أيادى بريطانية حتى لا تعود المظالم التى ارتكبت فى العهد الماضى والتى يرى أنها رمت بالبلاد فى أتون الثورة المهدية (٣) .

(١) د محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص٥٤٤ .
(٢) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص٤٧٥ .
(٣) نفس المرجع ص ٤٦٣ .

انطلقت دعوة محمد أحمد من البداية منطلقا دينيا شأنها شأن غيرها من الحركات السلفية ، ولكنها سارت شوطا أبعد من غيرها في عدائها للقوى المختلفة صاحبة السلطة الشرعية ، فاذا كانت الدعوة المهدية قد شاركت الدعوة الوهابية في أسلوب انتشارها وهو الأسلوب الثورى وبالحروب ، فأنها إختلفت مع الدعوة السنوسية في الأسلوب كما اختلفت مع الدعوتين الوهابية والسنوسية في الظهور بفكرة المهدى المنتظر وتكفير كل من لم يؤمن بها ، بل وإشاعة اتصال المهدى بالنبى في المنام وتحويل الخليفة قبة المهدى إلى مكان يحج إليه السودانيون ويستعيضون به عن الحج إلى مكة المكرمة .

لقد انشغل المهدى بالعمليات العسكرية عن التفرغ للناحية الدينية ، فلم يتفرغ لوضعها وشرحها ولم يتواجد من أتباعه من يستطيع حمل هذه الامانة كما أرادها المهدى ، فالعلماء ظـــاهرت غالبيتهم المهدية خوفا على أرواحهم وأرزاقهم ، والمؤمنون بها لم يكونوا بأهل علم ومعرفة ، هذا على عكس الدعوة الوهابية التى أسسها رجل علم ودين وقدر لابن عبد الوهاب أن يتوالى علماء من المذهب يتوافرون على شرحه وتفسيره وتأليف الكتب عنه (١) . وحتى خليفته لم يفعل مايزيد المهدية وضوحا بل اكتفى بما تركه المهدى من تراث في منشوراته ، ورسائله وتعاليمه .

---

(١) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

ومما يؤخذ على المهدية ما يلى :

أولا : الادعاء بفكرة المهدى المنتظر ، وهو ادعاء يجد له صدى فى نفوس المسلمين الذين يتناقلون عن الأجيال السابقة قصة ظهور المهدى المنتظر فى هذه الفترة من الزمان ، ورغم أن المهدى استطاع أن يلهب نفوس مواطنيه السذج بدعواه أنه إنما جاء مبعوثا من أجل تخليص البلاد من الشرور والآثام وإقامة صرح حكومة جديدة على أسس من الدين القويم ، فقد كان من المستبعد أن يكون محمد أحمد هو ذلك المهدى ، وكان السنوسيون أعظم الناس ريبة فى ذلك [1] .

وقد استنكر السنوسيون دعوى محمد أحمد هذه ورفض السيد محمد المهدى السنوسى زعيم السنوسية الاستجابة لنداءات محمد أحمد وخليفته من بعده بالانضمام إلى الثورة السودانية لغزو مصر ، ولكن المهدى السنوسى الذى سمع عن عنف المهدية فى السودان بقتل الانفس وسلب الأموال وهتك الأعراض عند الانتصار فى المعارك طلب إلى الشعوب الاسلامية خصوصا فى وادای وبرنو والبلاد المجاورة أن تمتنع عن تأييد مدعى المهدية محمد أحمد الذى لم يكن إلا مخادعا كاذبا [2].

ثانياً : التشبه بمحمد عليه الصلاة والسلام :

خالف المهدى كلا من محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن على السنوسى فى هذه الناحية أيضاً ، ذلك أنه إدعى أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم يأتيه فى المنام ، وعندما انتقل من « آبا » إلى جبال النوبا جنوب كردفان أطلق على هذا الانتقال هجرة ومن صحبه مهاجرين ، كما أطلق على أهل كردفان الذين استقبلوه فى أرضهم وسمحوا له بالبقاء فيها اسم الانصار ، ثم أنه أخذ يرسل الكتب إلى

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٣ .

زعماء القبائل والدول الأخرى يطلب منهم اعتناق المهدية والدخول في طاعتها حتى يفوزوا بالدارين الدنيا والآخرى . بل أكثر من هذا اتخذ له أربعة خلفاء أولهم عبد الله التعايشي — تشبها بالخلفاء الراشدين وقد اختارهم من بين صحابته وعرض على السيد محمد المهدي السنوسي أن يضعه في مقام الخليفة الثالث ـ عثمان بن عفان ـ في نظير أن يقوم السيد السنوسي من جهته بشن الحرب على الانجليز في مصر ، ولكن السيد السنوسي رد على مهدي السودان بان مقام عثمان لايناله لا أنا ولا أنت (١) .

ثالثا : عجز المهدي عن تحقيق الدعوة الدينية :

يذكر مكي شبيكة (٢) أن الانتصارات الحربية للمهدي طغت على الناحية الدينية من رسالته ، وهو نفسه لم يتفرغ لوضعها وشرحها ، وكان ينوي ذلك بعد سقوط الخرطوم لولا أن عاجلته المنية قبل أن يقطع شوطا في ذلك ، وإذا كان خلفاؤه وأنصاره قاموا بأعباء الرسالة من وجهتها الحربية فان الناحية الدينية لم تجد من يخصص جهوده ووقته لها .

فنحن وإن كنا نؤمن بأن وفاة المهدي أول نذير باخفاق الثورة المهدية ، إذ كان هو بلا مراء روحها وقوامها ، وكانت الانتصارات التي نالها قد رفعت شأنه وزادت مهابته في النفوس ، فكانت شخصيته هي دعامة الدولة المهدية المترامية الأطراف التي أسسها في السودان (٣) ، فإننا رأينا كثيراً من إدعاءات

---

(١) د . محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة ص ٧٢ .

(٢) مكي شبيكة : السودان في قرن ص ٢٧٠ .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ١٥٩ - ١٦٠ .

المهدية لم يتحقق فى حياة محمد أحمد ، فلا هو غزا مصر ، ولا هو فتح مكة ، بل إن نفوذ المهدى كان قد بدأ يضعف فى الشهور الأخيرة من حياته لأسباب متعددة ، ومنها منها أنه ترك حياة الزهد والتقشف الأولى لينغمس فى حياة الترف والبذخ ، منها أنه ترك الأمور تفلت من يده فاستأثر بالسلطة الفعلية خليفته عبد الله التعايشى ، ومنها أنه لم يفعل شيئاً بعد سقوط الخرطوم والاطمئنان إلى زوال كل آثار الحكومة المصرية القديمة فى السودان ليبنى الدولة الجديدة التى كان من واجب المهدية المبادرة بوضع أسسها من الآن ، وعجز المهدى عن استبدال سياسة التعمير والانشاء بأساليب العنف وإثارة شعور التعصب الدينى [1] .

وحقيقى أن الثورة المهدية فى عهد محمد أحمد لم تكن إلا فورات دينية متتابعة وتعتمد فى انتشارها على سمعة المهدى وشهرته الشخصية كزعيم دينى قبل أى اعتبار آخر وأن زعامة المهدى كفت عندئذ لتوجيه الثورة ، فعاشت هذه من غير تنظيم لأن زعامة المهدى أغنت عن التنظيم فى هذه المرحلة ، ولأن النزاع كان لايزال قائما بين المهديين وبين السلطات الحكومية الشرعية [2] . فقد كان على الخليفة عبد الله التعايشى أن ينشىء نظاما حكوميا لمواجهة مشكلات الحكم والادارة والحرب ، إلا أن الخليفة لم يكن له المقام الذى كان للمهدى ولا نفوذه المعنوى وكان ينقصه كثير من المزايا والصفات التى اجتذب بها المهدى قلوب أنصاره ، فلا غرو أن كانت ولايته إيذانا بتداعى الدولة المهدية ، ولم يكن يطمع إلا فى استبقاء نفوذه فى البلاد التى دانت للمهدى [3] .

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤١٥ .

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٦٠ .

هذا بالإضافة إلى عجز المهدية عن صد تيار الأطماع الاستعمارية الأوروبية الزاحف لاقتطاع أجزاء من السودان وملحقاته ، ففى عهد الخليفية — حكومة الخليفة عبد الله التعايشى — انتزعت أملاك مصر فى الصومال وساحل البحر الأحمر وفى السودان لتلتهمها القوى الاوروبية المتسابقة والمتنافسة .. فقد احتل الأحباش كلا من إقليمى بوغوص وهرر ، واقتسم الانجليز والفرنسيون والطليان بلاد الصومال فيما بينهم ، وأخلى الدراويش بحر الغزال ودارفور ، وتوغل الانجليز فى أوغنده ، والفرنسيون والبلجيكيون فى إقليم بحر الغزال حتى وصلوا إلى حوض النيل الأعلى فى السنوات التالية . أى ان الدراويش عجزوا كل العجز عن الاحتفاظ بتلك الامبراطورية التى أسسها المصريون خلال ستين عاما فى شرق ووسط أفريقية (١) .

كل ذلك كان من الطبيعى أن يحقق إنهيار المهدية تماما دون أن يكون هناك أمل فى قيامها مرة أخرى ، وعلى ذلك فانه بمجرد استرجاع السودان وفرض اتفاقية الحكم الثنائى لم يدافع عن المهدية الكثيرين من السودانيين الذين عاشوا فى كنفها وتحت سلطتها ، ولعل سبب ذلك أن المهدية لم تجد من رجالها فلاسفة يؤصلون أفكارها ويشرحون تعاليمها ويكونون صفوفا من أنصارها يحملون رسالتها ويتناقلونها جيلا بعد جيل ، كما أن المهدية بعد موت صاحبها عاشت فترة من الخلافات والانقسامات بين القبائل وبين حكومة الخليفة حتى صار السودانيون يأسفون على زوال عهد الحكم المصرى .

وكان يمكن للثورة المهدية أن تصبح حركة وطنية ناجحة لولا ما شابها من عنف وبطش ليس فقط بالأوروبيين والاتراك والمصريين بل وبالسودانيين

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤١٤ .

أيضا ، ولولا إدعـــاء أمور لاتجد قبولا حتى من السودانيين أنفسهم الذين كان معظمهم يدخلون فى طاعة المهدية رغبة فى مغنم أو خوفا من بطش رجالها . وقد كان وقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ م من الكوارث التى حلت بمصر والسودان ، حيث عمل الانجليز على التفرقة بين أبناء وادى النيل شماله عن جنوبه .

الباب الرابع

الاستعمار والأقطار العربية



توفرت ظروف وعوامل ساعدت على زحف الدول الاستعمارية نحو أقطار الوطن العربي أثناء الحكم العثماني لهذه الأقطار . فكما توفرت ظروف وعوامل أدت إلى قيام الحركات الاستقلالية في أنحـــاء من الوطن العربي متفرقة ، وكما توفرت كذلك ظروف وعوامل ساعدت على ظهور دعوات الاصلاح الديني المعروفة بالحركات السلفية ، فكان من الطبيعي أن نجد الزحف الاستعماري في أقطار الوطن العربي نتيجة ظروف وعوامل يمكن تصنيفها على النحو الآتي :

أولا : عوامل تتعلق بالدولة العثمانية صاحبة السيادة ونظام حكمها في الأقطار العربية ، فقد كانت الدولة العثمانية ذات الامبراطورية المترامية الأطراف في الغرب والشرق ـ في أوروبا وآسيا وأفريقيا ـ تضم شعوبا مختلفة عنها وفيما بينها من النواحي الجنسية والثقافية ، ومن الطبيعي أن يحدث تحلل لهذه الامبراطورية عندما تضعف وعندما تنضج الشعوب الداخلة في حوزة الامبراطورية ، ومن ثم وجدنا أنه في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية في القرن السادس عشر أقوى دول أوروبا والعالم من الناحية الحربية أخذت هذه القوة في الاضمحلال لانحلال نظمها الداخلية من ناحية وعدم مجاراتها روح العصر ولظهور الروح القومي ونموه وللحروب الكثيرة التي خاضتها وللعداء المقيم بينها وبين الروسيا والنمسا(1)

---

(1) د . محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره في البـــلاد العربية ص ٥ .

وعلى هذا أصبحت الدولة العثمانية منذ النصف الثانى للقرن الثامن عشر رجل أوروبا المريض ، وأصبحت معظم ولاياتها شبه مستقلة عن الدولة أو خاضعة للنفوذ الأجنبى حتى يمكن القول أنه لم يكن للدولة من سلطة فعلية إلا فى العاصمة (الآستانة) وما حولها فى كل من أوروبا وآسيا الصغرى .

ولقد ساعدت الدولة العثمانية بضعفها على انتزاع أقاليم من ولاياتها لصالح النفوذ الأجنبى اقتصاديا وثقافيا وذلك نتيجة لما منحته للقوى الأوروبية من امتيازات فى الولايات العثمانية حققت قدرا كبيرا من السيطرة فى تلك الولايات وبالتالى حققت لهذه القوى الأوروبية مصالحها على حساب المصالح العثمانية للدولة أو الولايات .

ثانياً : عوامل تتعلق بالأقطار العربية ، ذلك أن أقطار الوطن العربى معظمها المطلق إن لم يكن كلها خضعت للسيطرة العثمانية منذ أوائل القرن السادس عشر أثناء قوة الدولة ، فلما ضعفت ظهرت حركات استقلالية فى أنحاء من الوطن العربى ساهم بعضها إلى جانب التنظيمات العثمانية الحكم فى وقوع الأقطار العربية كلها فى النهاية فى يد القوى الأوروبية الاستعمارية ، كما أن العزلة التى فرضتها الدولة العثمانية على الأقطار العربية وخاصة العزلة الثقافية قد خلقت سلبية عند الشعوب العربية فلم ينضج فيها الوعى القومى العربى إلا متأخرا جدا وبعد أن سقطت أقطار الوطن العربى الواحد بعد الآخر فى أيدى الاستعمار الأوروبى .

ثالثا : عوامل تتعلق بالدول الأوروبية الاستعمارية : فقد كانت الدول الأوروبية تتخذ فى مبدأ الأمر عند ضعف الدولة العثمانية سياسة المحافظة على الامبراطورية العثمانية ضد القوى الطامعة فيها أو الخارجة على سلطتها . وذلك تحقيقا لمبدأ التوازن الدولى ، فى الوقت الذى تناصب فيه بعض الدول الأوروبية

الدولة العثمانية العداء ، فلقد كانت سياسة روسيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عاملة على تقويض ملك آل عثمان وتقسيم دولتهم[1] . وكذلك النمسا التي تريد أن تثأر من الدولة العثمانية التي توسعت في أوروبا على حساب الممتلكات النمسوية المجرية . بل أنه بعد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م تخلت كل من انجلترا وفرنسا صاحبتا التاريخ الطويل في سياسة التكامل السياسي للدولة العثمانية بصفة واضحة عن هذه السياسة فأخذت هاتان الدولتان تنتزعان من الدولة نفسها ولاياتها وأقاليمها[2] ، وبالتالي لم تنقطع الاعتداءات الأوروبية على الممتلكات العثمانية حتى تم التهام كل هذه الممتلكات لمصلحة الدول الأوروبية الاستعمارية .

وكان مما شجع الدول الأوروبية إلى المسارعة باقتسام الممتلكات العثمانية، سيطرة الدولة العثمانية على ولايات ذات موقع استراتيجى واقتصادى مهم كمصر التي تمر في أرضها قناة السويس ذات الأهمية الكبرى في ربط الشرق بالغرب ، وسيطرة الدولة العثمانية على المنطقة العربية الجنوبية المطلة على المحيط الهندى والخليج العربي ، والمنطقة العربية في شمال أفريقيا المواجهة لأوروبا على الشاطىء الجنوبي للبحر المتوسط ، بالاضافة إلى سيطرة الدولة العثمانية على مضيقي البسفور والدردنيل وكل تلك المناطق تستهوى القوى الاستعمارية لتحل سيطرتها محل السيطرة العثمانية .

---

(١) المرجع السابق ص ٥ .

(٢) د . محمد أنيس ، د : رجب حراز : الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٧٧ .

وكانت صورة أقطار الوطن العربى السياسية عقب الحرب العالمية الأولى على النحو التالى .

— مصر تخضع لا حتلال انجليزى منذ عام ١٨٨٢م ثم فرضت عليها الحماية الانجليزية عام ١٩١٤ م بسبب اشتراك تركيا صاحبة السيادة الشرعية على مصر فى الحرب إلى جانب ألمانيا .

— السودان يخضع لاتفاقية الحكم الثنائى المصرى الانجليزى إسما والانجليزى فعلا منذ عام ١٨٩٩ م ، عام توقيع الاتفاقية عقب استرجاع السودان من المهديين .

— العراق يخضع لا نتداب انجليزى رغم وجود نظام ملكى على رأسه فيصل بن حسين . وذلك تحقيقا لا تفاق سايكس - بيكو بين انجلترا وفرنسا . وقرارات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ .

— فلسطين تخضع لا نتداب انجليزى بعد طرد الأتراك منها فى معارك الحرب العالمية الأولى ، ومن ثم مساعدة اليهود على إقامة وطن فى فلسطين .

— اليمن الجنوبية تخضع لا حتلال انجليزى منذ عام ١٨٣٩ م .

— امارات ومشيخات الخليج تخضع لسيطرة انجليزية .

— خلقت انجلترا إمارة شرقى نهر الأردن ارضاء للشريف حسين وضعت على رأسها الأمير عبد الله بن حسين - تحت النفوذ الانجليزى .

— أقتسمت كل من انجلترا وفرنسا وإيطاليا الصومال منذ أواخر القرن التاسع عشر واستمرت تجزئة الصومال تحت السيطرة الثلاثية .

— الجزائر تخضع لا حتلال فرنسى منذ عام ١٨٣٠ م .

— وتونس تخضع أيضا لا حتلال فرنسى منذ عام ١٨٨١ م .

— ومراكش (المغرب) تخضع لا حتلال فرنسى منذ عام ١٩١٢ م .

— سوريا ولبنان تخضعان لا نتداب فرنسى تحقيقا لا تفاق سايكس -

بيكو ، وذلك عقب معارك الحرب العالمية الأولى ، وطبقا لقرارات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ م .

— ليبيا تخضع لا حتلال إيطالى منذ عام ١٩١١ م .

— وبقيت كل من المملكة العربية السعودية واليمن تعيش مستقلة دون أن يكون للاستعمار فيهما نفوذ كبير .

هذه هى الصورة السياسية لأقطار الوطن العربى فى أعقاب معارك الحرب العالمية الأولى ، ولكن كيف تكونت هذه الصورة ؟ . الاجابه على هذا السؤال نجدها فى الصفحات التالية .

الفصل الثالث عشر

الاستعمار الانجليزى

- فى مصر والسودان .
- فى العراق والخليج والجنوب العربى .
- فى فلسطين وشرقى الأردن .

فى مصر والسودان

كانت انجلترا أسبق الدول الأوربية اهتماما بالمنطقة العربية وبالتالى فرض السيطرة الاستعمارية على أجزاء كثيرة فى الوطن العربى . ففى مصر تم تعيين أول قنصل لانجلترا عام ١٦٩٧ بالقاهرة ووكيلا له بالاسكندرية ، وحصل الانجليز على امتيازات من السلطان العثمانى فى مصر ، ومن ثم دخل الانجليز فى منافسة مع الفرنسيين فى مصر . وفى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ازداد اهتمام انجلترا بمصر لا على أنها سوق تجارية ولكن لعاملين جديدين الاول ضعف الدولة العثمانية وهزائمها المتكررة فى البلقان وظهور الأطماع الفرنسية فى مصر بما يوحى بقرب غزو فرنسى لمصر ، والعامل الثانى هو ظهور أهمية مصر كحلقة فى طريق المواصلات البرية البحرية بين أوربا والهند ، فقد انتزعت انجلترا من فرنسا أكبر مستعمراتها فى الهند فى صلح باريس عام ١٧٦٣ م ، واتجه الاهتمام إلى تيسير المواصلات بين انجلترا وامبراطوريتها الهندية ، ومن هنا انبعث التفكير إلى إحياء الطرق البرية القديمة وأهمها طريق البحر الأحمر ومصر ، وطريق الخليج والفرات (١) .

وقد حاول الانجليز إحياء طريق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر ، وقاموا بمحاولات متعددة لذلك بعضها مع الباب العالى وبعضها مع أمراء المماليك ، وبصفة

---

(١) د. عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ، ص ٢٢١

خاصة على بك الكبير الذى كان قد استولى على الحجاز فرحب بالفكرة لأنها ستدر عليه دخلا كبيرا بوصول السفن التجارية الهندية إلى السويس ثم تمر عبر الأراضى المصرية إلى الاسكندرية حيث تحملها السفن إلى انجلترا . . وهذا المرور سوف ينعش مصر بعد أن تحولت التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح منذ أوائل القرن السادس عشر .

وهكذا تحكم فى السياسة الانجليزية نحو مصر والبحر الأحمر ما عرف بالعامل الهندى Indian Factor الذى يعنى استخدام الطريق البرى عبر مصر إلى الهند . وقد كان ذلك سببا يدفع السياسة الخارجية الانجليزية إلى تقدير أهمية مصر من الناحية الجغرافية وتقدير أهمية موقعها بالنسبة للامبراطورية البريطانية فى الهند(1). ولكن اضطراب الأحوال فى مصر فى عهد سيطرة الأميرين إبراهيم بك ومراد بك على الأمور دفع الانجليز إلى التخلى مؤقتا عن الاهتمام بمصر وبالطريق البرى عبرها .

ولكن حدوث الغزو الفرنسى لمصر عام ١٧٩٨ إلى عام ١٨٠١ م قد نبه انجلترا إلى ضرورة الاهتمام بمصر ، وكلنا يذكر موقف انجلترا من هذا الغزو ومشاركتها فى إجلاء الفرنسيين عن مصر بالقوة عام ١٨٠١ م ، ثم محاولتها أن يكون لها النفوذ الأعلى فى مصر أوائل القرن التاسع عشر لدرجة تحتضن فيها فريقا من الأمراء المماليك على رأسهم محمد بك الألفى ليكونوا رجالها وعملاءها فى مصر . وقد حاول الانجليز مع السلطان العثمانى أن يعهد بالحكم فى مصر لمحمد بك الألفى ، ولكن دون جدوى حتى توفى الألفى فى يناير ١٨٠٧م ، ثم محاولة انجلترا

(1) Dr. M. Anis : England and the Suez-Route in the 18th Century, p. 16.

إحتلال مصر فيما عرف بحملة فريزر عام ١٨٠٧م أيضا التى فشلت وانسحبت تحت ضغط المقاومة الشعبية المصرية ، ولكنها لم تقف مكتوفة اليدين أو وقفت موقف المتفرج للبناء الحديث الذى يشيده محمد على معتمدا على الخبرة الفرنسية فى المقام الاول ، إذ أنها أخذت ترقب الموقف إلى أن تتهيأ لها الفرصة لتضرب ضربتها .

ورغم أن محمد على شجع انجلترا على إعادة فتح الطريق عبر مصر والبحر الأحمر إلى الهند ، فإن ابراهيم باشا عارض مشروعا انجليزيا عام ١٨٣٦ م باستخدام السفن الانجليزية فى نهر الفرات لان ذلك سوف يحد من إمتداد الحكم المصرى إلى العراق ، وكان ذلك من عوامل سوء العلاقة بين انجلترا ومحمد على ، كما زاد العلاقة سوءا اتصال ابراهيم باشا بأمراء المشيخات العربية فى الخليج والجنوب العربى وحثه إياهم على توثيق العلاقات السياسية والحربية والاقتصادية مع مصر. ومن ثم توترت العلاقات بين الطرفين حتى أنذرت الحكومة الانجليزية بأنها لن تقف مكتوفة اليدين إزاء أى زحف من جانب محمد على تجاه بغداد والخليج. وأن أى إعتداء على عدن ـ التى احتلتها انجلترا عام ١٨٢٩ ـ يعد اعتداء على جزء من الأملاك البريطانية (١) .

واستمرت محاولات انجلترا من أجل فرض النفوذ فى مصر ، ولم تكن هذه المحاولات تستقيم مع مشروعات محمد على الداخلية والخارجية ، ولذلك اتخذت انجلترا موقف المعارض لفكرة محمد على باعلان الاستقلال بمصر والانفصال عن الدولة العثمانية وأنها ترى من المستحيل تنفيذ هذه الفكرة وترى من نتائجها

---

(١) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١٢٢ .

المحققة الدمار للباشا(١). وقداستطاعت انجلترا أن تستغل رغبة محمد على فى تحسين علاقته معها فى توسيع تجارتها مع مصر ، ذلك أن المصانع الإنجليزية اعتمدت على القطن المصرى منذ عام ١٨٢١ م . وقد أصبحت تجارة مصر مع انجلترا منذ عام ٨٢٠ م تفوق تجارتها مع أى بلاد أخرى ، حتى أنه فى سنة ١٨٤٩ م ، التى توفى فيها محمد على بلغ ما استوردته مصر من بريطانيا ٤١ ٪ من وارداتها ، وما أرسلته إليها ٤٩ ٪ من صادراتها(٢) .

ورغم ذلك وقفت انجلترا موقفا عدائيا ضد مصر فى معركة نوارين البحرية، وفى حروب الشام إلى جانب السلطان العثمانى، وعملت على تأليب الدول الاوروبية ضد مشروعات محد على حتى انتهى الأمر بفرض معاهدة لندن عام ٨٤٠' م على محمد على والى أفقدته جهوده ومشروعاته العربية بل والداخلية بتخليه عن بلاد الشام والحجاز وكريت ، وبقتل التجربة الصناعية المصرية الحديثة والنهضة التعليمية والعسكرية .

واقد استطاعت انجلترا فى عهد عباس باشا أن تحصل على امتياز مد خط حديدى بين القاهرة وكل من الاسكندرية والسويس ، رغم كراهية الباشا للنفوذ الاوروبى، وواضح من هذا الامتياز المواقع التى تهتم بها انجلترا فى مصر لتشجيع تجارتها وتسويق صناعتها . . ولكنها فقدت هذا النفوذ فى عهد محمد سعيد باشا ، ولكنها استطاعت إغراق الباشا فى الديون حتى تحكم السيطرة على مصر كما استغلت حاجة الخديوى اسماعيل إلى الأموال لتحقيق مشروعات طموحه فى مصر فزادت من إقراضه حتى جاء الوقت لتتحكم اللجان المالية الانجليزية الفرنسية خاصة فى

---

(١) محمد رفعت: تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة ص ١٢١ .
(٢) جورج كيرك : نفس المرجع ص ١٢٣ .

شئون الحكم ، ذلك التحكم الذى أفضى فى النهاية إلى حدوث الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ م .

حدث الاحتلال الانجليزى لمصر بدعوى إنقاذ مصر من الفوضى التى ضربت أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، وإعادة حياة الاستقرار والاطمئنان ، وإدخال أساليب المدنية الحديثة إلى مصر ذات الحضارة القديمة ، وحماية الأقليات والجاليات الأجنبية فى مصر والمحافظة على مصالحهم ثم وهو الأهم حماية المصالح الانجليزية الخاصة السياسية والاقتصادية والاستراتيجية ، هذه المصالح الناشئة من وقوع مصر فى ملتقى الطرق العالمية البرية والبحرية ، ثم المحافظة على قناة السويس ومصالح البريطانيين التجارية والمالية(1)

وسياسة الاحتلال البريطانى فى مصر قامت على قاعدتين متناقضتين فى الظاهر القاعدة الأولى أن الاحتلال مؤقت وسوف تجلو القوات البريطانية فى أقرب وقت تتهيأ الفرص لاستقرار الأمور فى مصر ، والقاعدة الثانية إحكام السيطرة على كل الأمور فى مصر . ففيما يتعلق بالقاعدة الأولى لم تقم انجلترا بإلحاق مصر إليها أو فرض حمايتها عليها ، ولم تقم بتغيير وضع مصر الدولى والشرعى حتى عام ١٩١٤ م بسبب التناقضات بين الدول الاستعمارية ، وبقاء مصر جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وبقى الخديوى يترأس هيئات السلطة الرسمية فى مصر .

وفيما يتعلق بالقاعدة الثانية ألغت إنجلترا المراقبة الثنائية على شئون مصر المالية ولم تعد تسمح بوجود مراقبين ماليين فرنسيين بعد أن أصبحت سيطرة الانجليز على البلاد كاملة ، وحولت مصر إلى قاعدة لتزويد الصناعة البريطانية

---

(1) د . محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه ص ٢١٥ .

بالقطن ، وزاد عدد الموظفين الانجليز وزاد نفوذهم فى مصر لدرجة التعالى وممارسة الضغط بصورة وصفها اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فى تقريره سنة ١٩٠٣ م بقوله : يحسن بكل بريطانى موظف فى الحكومة المصرية أن يعرف الظروف الخاصة التى يعمل بها فى هذه البلاد ، هذه الظروف ينتج عنها بالضرورة أن يكون الاوروبى متقدما والمصرى تابعا له حتى ولو كان منصب الاوروبى دون منصب المصرى اسما ، وأن القيادة للموظف الاوروبى بالضرورة(1) .

وكانت سيطرة لورد كرومر (سير إيفلن بارنج) على مقدرات الأمور فى مصر شديدة فقد حرم المصريين من كل سلطة واتخذ مواقف متشددة من الحركة الوطنية المصرية ، ورسم سياسة إجلاء المصريين من السودان وإحلال السيطرة الانجليزية محلها ، ولعل معنى تقديمه تقارير سنوية دورية عن الحالة فى مصر والسودان لوزير الخارجية الانجليزية - لا للسلطان العثمانى أو الخديوى - خير دليل على مدى سيطرة سلطات الاحتلال الانجليزى على مقدرات الامور فى مصر لمصلحة الدولة التى تحتل قواتها أرض مصر .

وفى مصر عملت انجلترا على فصل السودان عن مصر منتهزة فرصة الثورة المهدية عام ١٨٨١ م وقد اتبعت أو فرضت على مصر سياسة إخلاء السودان عام ١٨٨٤ م من المصريين عسكريين ومدنيين ، ثم فرضت استرجاع السودان عام ١٨٩٦ م بقوات مصرية انجليزية مشتركة ، انتهت بعقد ما عرف باتفاق

---

(1) تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩٠٣ رفعه الإيرل كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها السياسى فى مصر إلى جناب المركيز لنسدون ناظر خارجيتها . .

الحكم الثنائى الذى جعل السودان تحت السيطرة الكاملة للانجليز .

وقد نصت الاتفاقية على تعيين حاكم عام السودان تختاره انجلترا ويصدر قرار تعيينه من الخديوى ، وتوضع فى يد هذا الحاكم جميع السلطات المدنية والعسكرية والتشريعية والتنفيذية . ووضع موظفون انجليز على رأس جميع مديريات السودان ، وشغل عدد من الموظفين المصريين وظائف ثانوية واحتفظت مصر بكتيبة عسكرية فى السودان إلى جانب القوات الانجليزية كرمز للمشاركة فى الحكم نظير أن تدفع مصر ٧٥٠ ألف جنيه سنوياً لسد نفقات إدارة السودان .. وظلت السيطرة الانجليزية على السودان حتى حصل على استقلاله بضغط وجهد من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بمصر ..

وقد استمرت الدعاوى الانجليزية بأن الاحتلال مؤقت حتى شبت الحرب العالمية الأولى فانتهزت انجلترا فرصة اشتراك تركيا إلى جانب ألمانيا فى الحرب ضد الحلفاء وأعلنت الحماية البريطانية على مصر وفصلت مصر عن تركيا أى إلغاء السيادة التركية على مصر وعزلت الخديوى عباس حلمى الذى كان موجودا فى تركيا والمعين بفرمان سلطانى منذ عام ١٨٩٢ م وعينت مكانه عام ١٩١٤ السلطان حسين كامل حتى عام ١٩١٧ ثم السلطان أحمد فؤاد ، وكلا الاثنين كانا ألعوبة فى يد السلطات الانجليزية صاحبة الفضل فى تعيينهما ..

وعندما انتهت معارك الحرب العالمية الأولى وشبت ثورة ١٩١٩ م فى مصر بسبب تعنت سلطات الاحتلال الانجليزى فى رفض سفر مندوبين عن الشعب المصرى للمطالبة بالغاء الحماية الانجليزية وخروج قوات الاحتلال واستقلال مصر والسودان كدولة واحدة ، لجأت انجلترا إلى المراوغة حتى صدر ما عرف بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م الذى ألغى الحماية واعترف باستقلال مصر دون السودان مع عدة تحفظات تنتقص من الاستقلال ..

يمثل العراق بحكم موقعه على طريق الهند مركز اهتمام كبير ومتزايد لانجلترا منذ وطئت أقدام الانجليز الأرض الهندية واستغلال شعبها بصورة وصفها أهل البلاد من التجار أواخر القرن ١٨ بقولهم إن مصانع السادة الانجليز كثيرة كما أن كثيرا من مخازنهم التجارية موجودة فى كل مكان بكل قرية ، بل تكاد تكون موجودة بكل أرجاء البنغال ، وهم يتجرون فى جميع أنواع الحبوب والمنسوجات وكل نوع آخر من أنواع السلع يوجد بالبلاد(١) .

ومن الطبيعى أن ينطلق الانجليز من سيطرتهم على الهند التى استغرقت حوالى مائة عام من ١٧٤٨ — ١٨٤٨ م والتى أسسوها بحد السيف ولا ينازعهم فيها منازع ، وأصبحت شركة الهند الشرقية البريطانية هى المسيطر حتى عام ١٨٥٨م عندما اضطلعت الحكومة البريطانية بالإدارة المباشرة لبلاد الهند(٢) . ولما كانت حكومة شركة الهنـــد الشرقية البريطانية قد وزعت ممتلكاتها على الحكومات الرئيسية الثلاث التى أقامتها فى الهند وهى حكومات البنغال ومدراس وبومباى ، فقد كان من الطبيعى أن يدخل النشاط البريطانى فى الخليج العربى ضمن اختصاص حكومة بومباى(٣) .

وكان النشاط الأوروبى بصفة عامة يسعى إلى فتح أسواق تجارية فى أقطار الخليج العربى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكن ما أن نشبت الحرب الطويلة بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٧٩٣ م بقيام الثورة الفرنسية حتى تسابق الفريقان

---

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ١٠٤ .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٧ .

(٣) د . محمد أنيس ود . رجب حراز : المرجع السابق ص ٩٨ .

المتحاربان إلى اكتساب نفوذ سياسى وعسكرى فى بعض هذه الاقطار ، واتضح هذا الاتجاه بصفة خاصة عند غزو الفرنسيين لمصر[1] .

ويمكن القول أن أول نشاط دبلوماسى بريطانى مع عرب الخليج ومسقط بالذات جاء حيث كان يتنافس على مركز الصدارة فيها الفرنسيون والانجليز ، أى حين صار الخطر الفرنسى واضحا على طريق الهند وعلى الهند ذاتها فى الفترة النابليونية ١٧٩٨ — ١٨١٠ م وتمثل فى سفن القرصنة الفرنسية التى كانت تعمل فى أعالى البحار فى طريق الهند ، ومحاولات فرنسا لكسب نفوذ سياسى ظهر فى كتابات نابليون من مصر — ١٧ يناير ١٧٩٩ م — إلى كل من صاحب مسقط سلطان بن أحمد ، وإلى تبو صاحب فى الجنوب العربى[2] .

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد أنشأت خطوطا بريدية منتظمة عبر العراق ، وكان البريد ينقل بواسطة السفن البحرية من بومباى إلى البصرة ومن هناك يمر بمدن بغداد فحلب حتى يصل إلى استانبول عن طريق البر على ظهور الدواب . ومن ثم اهتم الانجليز بأن يكون لهم النفوذ الأعلى فى العراق . واستطاعوا بالفعل منافسة النفوذ الفرنسى هناك ورغموا الباشوات المماليك فى العراق على إعطاء الشركة امتيازات واسعة بل وعدم التدخل فى نشاطها فى العراق .

ومنذ عام ١٧٦١ انتقل المركز الرئيسى للتجارة الانجليزية فى الخليج إلى البصرة حيث رفع مركز المقيم الممثل لشركة الهند الشرقية إلى مرتبة قنصل . وقد أصبح

---

(١) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٦٠ .

(٢) د . أحمد أبو حاكمة : تاريخ شرق الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ص ١٨٠ .

مركز بريطانيا التجارى فى الخليج لا يضارع وأخذت تجنى من ورائه نفوذا سياسيا أيضا ازداد على مر الايام[1] . وهى فى هذا قد ورثت النفوذ البرتغالى والهولندى والفرنسى، وقد وجد الانجليز فى العراق والخليج وبلادالعرب الجنوبية الخط الأمامى الذى يمكن بالمحافظة عليه أن يدرءوا به الخطر عن الهند كما يمكن أن يكون نقطة خطر عليها إذ كان النفوذ فيه لأمة أخرى تطمع أن تنتزع تلك الدرة - الهند - من التاج البريطانى[2] .

وكان مما ساعد على تقوية نفوذ شركة الهند الشرقية البريطانية فى العراق والخليج والهند أيضا أفول نجم الامبراطورية الهولندية وانحسار نفوذهافى جزر الهند الشرقية ، وكذلك انهيار النفوذ الفرنسى فى الهنـــد بمعاهدة باريس عام ١٧٦٣ م وهى المعاهدة التى تخلت بمقتضاها فرنسا عن أغلب ممتلكاتهافى الهند(٣). حتى أن نائب الملك فى الهند يكتب بعد مائة عام - ١٨٦٢ م يقول : تدخل بغداد بصورة غير مباشرة ضمن قواعـــد الخليج ، ويجب أن تضم إلى منطقة النفوذ البريطانى المطلق[4] .

وكتبت جريدة الديلى ميل الانجليزية فى ٢٩ مارس عام ١٩١٥ م تقول: أن حوض مابين النهرين يجب أن يكون ملكا لبريطانياومنفذاطبيعيا للانتقال من الهند . وعندما ظهرت المشاريع الالمانية فى العراق ذكرت صحيفة التايمز فى نفس الشهر ونفس العام تقول أن من الواجبات الأولى علينا لأجل المحافظة على

---

(١) جورج كيرك : المرجع السابق ص ١٠٦ .
(٢) د عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦١ .
(٣) د . محمد أنيس ود . رجب حراز : المرجع السابق ص ٩٩ .
(٤) د . حسين فوزى النجار : الشرق العربى بين حربين ص ٥٤ .

الهند ألا ترى فى الخليج قوة مسلحة ماعدا القوة البريطانية ، ويجب أن نعلم أن جميع الدلائل تهدينا إلى أن نوايا خط بغداد ليست اقتصادية وإنما هى سياسية صرفة[1] .

وبهذا الفهم دخلت كل مناطق العراق لا البصرة فقط فى نطـــاق الاهتمام الاستراتيجى لانجلترا ومن ثم حرصت على أن تؤكد فى اتفاق سايكس - بيكو مع فرنسا عام ١٩١٦ على دخول العراق تحت الانتداب الانجليزى بعد انتهاء معارك الحرب العالمية الأولى - لأن العراق بموقعه مركز هام فى شبكة المواصلات البرية والجوية بين الشرق والغرب ، ثم كان ظهور البترول وماله من أهمية استراتيجية كمادة أولى فى تسيير آلة الحرب الميكانيكية الحديثة ، وأهمية اقتصادية فى استثمار رءوس الأموال الانجليزية ، والعراق خزان هائل لهذه المادة الهامة التى تعتبر وحدها عصب الحضارة فى القرن العشرين . وكان اهتمام انجلترا بالعراق بعد الحرب العالمية الأولى قائما على تقديرهم لهذه العوامل الجديدة مجتمعة فعملوا على أن يمتد نفوذهم الجديد على العراق كله[2] .

وقد أخذ الانجليز منذ أواخر القرن الثامن عشر يمارسون أنواعا من التدخل فى شئون إمارات الخليج ، وجعلوا من مكافحة القرصنة وسيلة لعقد معاهدات مع شيوخ المقاطعات هناك ، وأهم ما يذكر فيها أنهم لا يتنازلون عن شبر من أرضهم لأية دولة كانت ولا يسمحون باعطاء أى حق فى أراضيهم لأحد ما عدا بريطانيا[3]. من أمثلة تلك المعاهدات المعاهدتين اللتين وقعتهما انجلترا مع سلطان

---

(١) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦٦ .
(٢) د . حسين النجار : المرجع السابق ص ٥٥ .
(٣) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦٥ .

إبن أحمد صاحب مسقط فى أكتوبر ١٧٩٨ م ، ويناير ١٨٠٠ م اللتين نصتا على إنشاء وكالة تجارية فى بندر عباس (وكانت تابعة لحاكم مسقط) ، وتخلى مسقط عن أى اتصال بالفرنسيين أو السماح لهم أو لسفنهم بالنزول فيها فى حالة نشوب الحرب بين فرنسا وانجلترا ، وسماح سلطان بن أحمد للانجليز بارسال وكيل سياسى لهم فى مسقط ، وعلى هذا يكون سلطان بن أحمد أول أمير عربى يدخل فى معاهدة مع الانجليز(١) .

وقد اتخذ الانجليز فى الخليج سياسة عنيفة لمقاومة « القرصنة » العربية هناك ضد السفن الأوروبية ، من أمثلة ذلك إرسال حملة بحرية إلى الخليج أجبرت القواسم فى رأس الخيمة على توقيع معاهدة مجحفة بهم فى ٦ فبراير ١٨٠٦ م تضمن عدم مهاجمتهم السفن الانجليزية ، ومن أمثلة ذلك أيضا الحملة البريطانية التى هدفت إلى تدمير رأس الخيمة والقضاء كليا على نشاط القواسم فى مياه الخليج عام ١٨٠٩ م ، وحملة عام ١٨١٨ م على رأس الخيمة وكان هدفها القضاء على القرصنة أولا فى الظاهر ثم مراقبة التحركات المصرية فى الباطن ، وإبرام معاهدة ١٨٢ م مع رأس الخيمة وغيرها من موانىء الخليج ، ثم أعقب ذلك توقيع اتفاقيات الهدنة البحرية وغيرها فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وكل ذلك دليل على خشية الانجليز من الخطر المصرى فى الجزيرة(٢) .

وطوال القرن التاسع عشر أخذ النفوذ البريطانى يتدعم فى الخليج فى ثلاثة

---

(١) د . أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ شرقى الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ص ١٨١ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩٠ .

صور هى : محاربة القرصنة التى كانت القواسم تمارسها من الساحل الداخلى لعمان، ومحاربة تجارة الرقيق التى وجدت لها سوقا رائجة فى شبه الجزيرة العربية ، وفرض الحماية البريطانية على أهم المشيخات العربية فى الخليج وهى مسقط والبحرين والكويت . فبدأت مشروعات انجلترا الاستعمارية مع مسقط منذ عام ١٨٥٤ م بحصولها من سعيد بن سلطان شيخ مسقط على جزائر كوريا موريا ، ولم يأت عام ١٨٩٠ م حتى وقعت المعاهدة المشهورة التى حددت بشكل نهائى الحماية البريطانية على مسقط وعمان ، وتعرف بمعاهدة الصداقة والتجارة والملاحة ، وهى تنص صراحة على أن يلتزم حاكم مسقط — فيصل بن تركى - هو وخلفاؤه بعدم التنازل عن أى أرض من أملاك مسقط إلا للحكومة البريطانية (١) .

وكانت المشيخة الثانية التى خضعت للحماية هى البحرين التى شاركت منذ عام ١٨٢٠م مع انجلترا فى عقد معاهدات لمحاربة تجارة الرقيق وأعمال القرصنة، وأمام رغبة تركيا ضم البحرين عام ١٨٧١ م بعد استيلائها على الاحساء أعلن الانجليز فرض الحماية على البحرين ، وتم توقيع معاهدتين مع الشيخ عيسى فى عامى ١٨٨٠م، ١٨٩٢ م تضع البحرين بمقتضاها تحت الحماية الانجليزية حيث تعهد الشيخ بالامتناع عن عقد معاهدات مع أية دولة أخرى إلا بموافقة الحكومة البريطانية، وألا يتنازل عن أية أرض فى البحرين إلا للحكومة البريطانية .

وكانت المشيخة الثالثة التى فرضت انجلترا عليها حمايتها هى الكويت ، التى وصل إليها آل الصباح لأول مرة عام ١٧٥٠ م قادمين من الجنوب بعد أن أمضوا على شاطىء الخليج بقطر والاحساء نحو نصف قرن (٢) . ولقد كان لآل

---

(١) د . أنيس ، د . حراز : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٢) د . أحمد أبو حاكمة، المرجع السابق ص ٦٧ .

صباح علاقة طيبة مع الانجليز من ممثلى شركة الهند الشرقية الانجليزية الذين استفادوا من الكويت منذ عام ١٧٧٥ م فى إرسال واستلام مراسلات الشركة، واستمرت العلاقات طيبة حتى نقلت وكالة الشركة من البصرة إلى الكويت ، وساعدت الشركة آل صباح فى صد غارات الوهابيين على الكويت وأظهر شيخ الكويت استعداده للمشاركة مع الانجليز فى حملاتهم ضد القواسم .

واتساقا مع هذه العلاقات عرض الشيخ مبارك آل صباح منذ أن وصل إلى السلطة فى الكويت عام ١٨٩٦ أن يدخل فى حماية انجلترا ورغم تردد انجلترا فى قبول هذا العرض حرصا على علاقتها مع تركيا، إلا أنها سارعت عام ١٨٩٩ م إلى عقد معاهدة مع أمير الكويت على نفس نسق المعاهدات مع كل من مسقط والبحرين، تضع الكويت تحت حماية انجلترا، وجاءت هذه المسارعة الانجليزية بسبب ظهور نشاط روسى فى الخليج عام ١٨٩٨ م لمد خط حديدى من البحر المتوسط إلى الخليج ، وبناء محطة للفحم وميناء فى الكويت .

كما كان لظهور النشاط الالمانى فى العراق وتوقع امتداده إلى الخليج ، والمتمثل فى الامتياز الذى حصلت عليه ألمانيا من الدولة العثمانية بمد خط حديد من برلين إلى بغداد فالبصرة ، كان لذلك أثره فى تدعيم الوجود الانجليزى فى الخليج والعراق ، فعقدت انجلترا مع الكويت عدة اتفاقيات أحكمت النفوذ الانجليزى هنـــاك نظير اعتراف انجلترا بامارة الكويت بحدودها الحالية . واعترافها كذلك بآل الصباح حكاما يتوارثون السلطة هناك . وظل الحال كذلك أثناء الحرب العالمية الاولى وما بعدها .

وكان نشاط انجلترا فى الجنوب العربى قد بدأ منذ عام ١٦١٨ م بتأسيس مركز تجارى فى « مخا » وفى عام ١٧٧٠ م هاجم الانجليز عدن انتقاما لإهانة

لحقت بقائد سفينة تجارية انجليزية ، وفى عام ١٧٩٩ م احتل الانجليز جزيرة بريم ، وفى عام ١٨٠٢ م عقدت انجلترا مع سلطان عدن ـ أحمد بن عبدالكريم ـ معاهدة صداقة وتجارة ، وكانت هذه المعاهدة القنطرة الأولى للسيطرة على هذه المدينة التى تمت عام ١٨٣٩ م بعد مقاومة عنيفة من أهلها وقصف بحرى شديد من قبل البريطانيين (١) . وجاء احتلال عدن كخطوة مضادة للنفوذ المصرى فى اليمن على أيام محمد على (٢) .

ومن عدن انطلق الانجليز للسيطرة على بقية أجزاء الجنوب العربى باللين تارة وبالشدة تارة أخرى وأخذوا يعقدون المعاهدات التى تضع هذه الاجزاء تحت الحماية البريطانية . ولم يأت عام ١٨٩٥ م حتى فرضت الحماية البريطانية على ميناءى المكلا وشحر، ولحج وحضرموت، والضالع، والعوالق السفلى والحواشب وغيرها ، واستولت انجلترا على جزيرة سوقطرى عند مدخل البحر الاحمر الجنوبى، وهكذا أصبح الجنوب العربى ملتحما مع مسقط وعمان ممتدا مع مشيخات الخليج خاضعة كلها للسيطرة الانجليزية لا إلى نهاية الحرب العالمية الأولى فقط بل إلى أن حصلت على استقلالها مؤخرا .

فى فلسطين وشرقى الاردن

كان نشاط البعثات التبشيرية الدينية أسلوبا من أساليب التغلغل الأجنبى فى الاقطار العربية ، وقد ساهمت انجلترا فى حماية هذه البعثات التى تنتسب إليها ومساعدتها على فتح المؤسسات المتعددة مثل المدارس والكنائس وغيرها . فنجد أسقفية انجليزية بروسية تنشأ فى القدس عام ١٨٤١ م ، وتشجع انجلترا خطط

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦٣ .
(٢) د أنيس ، د . حراز : المرجع السابق ص ١١٢ .

الاستعمار اليهودى لفلسطين ، ورغم أن عدد اليهود فى منتصف القرن التاسع عشر الموجودين بفلسطين يزيد قليلا عن عشرة آلاف يهودى كثيرون منهم جاءوا لممارسة شعائر دينية فى القدس فان القنصل الانجليزى فى القدس اهتم بمشروعات من شأنها المساعدة على هجرة يهودية كبيرة إلى فلسطين وإقامة دولة صهيونية تحت الحماية الانجليزية ، ولقد أيدت الحكومة البريطانية هذه المشروعات التى اعتبرتها ضمانا لأمن مواصلات الامبراطورية البريطانية . كما لقيت هذه المشروعات صدى عند موسى مونتفيورى رجل المال اليهودى الانجليزى وقريب أسرة روتشلد الذى ذهب إلى فلسطين وحاول استمالة المستوطنين اليهود هناك دون جدوى .

واندفع المليونير الصهيونى الانجليزى روتشلد يدفع فكرة إقامة وطن فى فلسطين لليهود ، وحث أثرياء العالم للتبرع لانشاء هذا الوطن ، حتى انعقد فى لندن مؤتمر من أعلام الدول الأوروبية فى السياسة والاقتصاد والتاريخ والاجتماع وشئون الاستعمار عام ١٩٠٧ م افتتحه سير هنرى كامبل بانرمان Sir Henry Campbell Bannerman رئيس حزب الأحرار البريطانى ورئيس الوزارة البريطانية ، وانتهى المؤتمر إلى عدة توصيات كان أهمها بالنسبة لفلسطين: العمل على فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة - العربية - عن جزئها الاسيوى، بإقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا، ويربطهما معا بالبحر المتوسط ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة (١) .

وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى تركز النشاط الصهيونى فى لندن أكثر من أية عاصمة أوروبية أخرى ، على اعتبار التقاء الاهداف الصهيونية مع الاستراتيجية

---

(١) د . حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين . ص ١١٦ .

البريطانية فى المنطقة العربية ، ورأى أقطاب الصهيونية أن انتصار بريطانيا على تركيا سيؤدى إلى ضم فلسطين إلى حوزتها الأمر الذى يساعد على تحقيق حلم الصهيونية نتيجة تقسيم أملاك الدولة العثمانية بعد الحرب كما هى الحال بالنسبة لباقى الحروب ، خصوصا لو وضعنا فى الاعتبار سابق أفضال بريطانيا التى غمرت بها الصهيونية (١) .

وأثناء الحرب تألفت لجنة بريطانية لفلسطين أصدرت صحيفة دورية شعارها إعادة أمجاد الأمة اليهودية القديمة فى ظلال الحرية التى تكفلها حكومة دومنيون بريطانية جديدة فى فلسطين (٢) . حتى تم توقيع الاتفاق المعروف باتفاق سايكس — بيكو بين انجلترا وفرنسا والروسيا من أجل تقسيم أملاك الدولة العثمانية بين الدول الثلاث عام ١٩١٦ م ، فيكون نصيب فرنسا الجزء الأكبر من سوريا وجانب كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى العراق ، ويكون لانجلترا البلاد الواقعة بين الخليج والمنطقة الفرنسية (العراق وشرق الأردن) ثم حيفا وعكا ونص الاتفاق على إنشاء إدارة دولية فى فلسطين بسبب وجود الأماكن المقدسة فيها ، كما نص على بعض حقوق أخرى لروسيا فى الأناضول والمضايق .

ولم تتوقف محاولات الصهيونية للضغط على انجلترا لتحقيق قيام الدولة اليهودية فى فلسطين ، كما تطور الموقف الانجليزى لصالح الأهداف الصهيونية ، لنجد اللورد بلفور Balfour وزير الخارجية البريطانية يوجه إلى اللورد الصهيونى الانجليزى روتشلد رسالة بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩١٧ م بعد مباحثات بين الرجلين استمرت عامين ولعب فيها المال دوره ، وجاء فى الرسالة :

---

(١) نفس المرجع ص ١١٩ .
(٢) جورج كيرك : المرجع السابق ص ٢٣١ .

عزيزى اللورد روتشلد :

لى مزيد السرور أن أزف إليكم باسم حكومة صاحب الجلالة الوعد التالى بتأييدها الحركة اليهودية الصهيونية وأمانيها التى عرضت على مجلس الوزراء ووافق عليها ، وإن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين التأييد إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى وستستخدم أفضل وسائلها وأقصى جهودها لتسهيل تحقيق هذه المهمة . ومفهوم بوضوح أنه لن تتخذ أية إجراءات من شأنها الاضرار بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية المقيمة فى فلسطين أو الحقوق والنظم السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد يعيشون ، وأكـــون شاكرا لو تفضلتم باعلان هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيونى[1] .

لقد جاء وعد بلفور بعد أنقضاء عامين على إرسال خطاب مكماهون إلى الشريف حسين والذى حوى التعهدات التى دخل العرب على أساسها الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها ، وثمانية عشر شهرا على قيام الثورة العربية حين انضم الشريف حسين علنا إلى صف الحلفاء معتمدا على تعهدات بريطانيا بتأييد استقلال البلاد العربية ، تلك التعهدات التى كانت تشمل قطعا فلسطين [2] . ولهذا صدر الوعد الذى راعى أن يكون لليهود وطن قومى فى فلسطين لا أن تكون فلسطين وطنا قوميا لهم كما كانوا يريدون .

ولعل الدوافع الحقيقية لصدور هذا الوعد هى :

أولا : عامل سياسى وهدفه استمالة اليهود فى ألمانيا والنمسا والولايات المتحدة الأمريكية لتأييد الحلفاء .

ثانيا : وعامل آخر يتعلق بأطماع بريطانيا الاستعمارية فى البلاد العربية ،

---

(١) د عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص٣٨٣ .

(٢) دمحمد أنيس ود حراز : المرجع السابق ص ٤٠ .

ففى مقابل الوعد يؤيد اليهود ماتهدف إليه بريطانيا من الانفراد بالسيطرة على فلسطين بعد أن نص اتفاق سايكس - بيكو على دوليتها ، فكأن إصدار الوعد كان فى نظر بريطانيا للتخلص من التزامها بقبول الادارة الدولية فى فلسطين.

ثالثا : وثمة عامل آخر لابد أنه كان موضع تقدير السياسة البريطانية هو خلق قوة مناوئة للعرب تفسح لبريطانيا مجال التدخل بين الطرفين وفق سياستها التقليدية فرق تسد (١) .

كان وعد بلفور إذن بداية المأساة الدامية فى أبشع مؤامرة عرفها التاريخ ، وخلق تأييد انجلترا للمشروعات الصهيونية فى فلسطين عداءا مريرا لها فى البلاد وقد حققت انجلترا هذا الوعد منذ أن تم لقواتها احتلال فلسطين عام ١٩١٧ م وأخضعتها لادارة عسكرية بريطانية تتلقى تعليماتها من سلطات الاحتلال ، وقد أسهمت هذه الإدارة فى إغراق فلسطين بالمهاجرين اليهود ، حتى إذا جاءت قرارات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ م التى قضت بانتداب انجلترا على فلسطين حكمت فلسطين إدارة مدنية برئاسة السير هربرت صموئيل كمندوب سامى بريطانى ، وقد ساعد بحكم تعصبه لإقامة دولة يهودية فى فلسطين على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين والاعتراف بالوكالة اليهودية فى فلسطين كهيئة يهودية هامة حتى أصبحت قوة لها شأنها فى فلسطين ، ومنح هربرت صموئيل الوكالة اليهودية امتيازات اقتصادية وسياسية وإدارية ، فأصبحت هذه الوكالة تمثل دولة داخل الدولة . فأنشأ اليهود الجامعة العبرية فى القدس ١٩١٨ وهى القاعدة الأولى فى الاستعمار الصهيونى الذى تتكتل حوله سائر السياسات ومرت أعوام وإذا أفضل البقاع الفلسطينية التى يملكها ذووها من أهل البلاد وماجاورها تغدو ملكا لليهود وفيها

---

(١) د حسين فوزى النجار : المرجع السابق ص ٢٧ - ٢٨ .

البساتين الخصبة والمزارع الواسعة والعمارات الشاهقة[1] . كل ذلك بفضل سياسة الانتداب البريطانى .

أما شرقى الاردن فلم تكن قبل عام ١٩٢٠ سوى تعبير جغرافى يطلق على البلاد الواقعة إلى الشرق من نهر الاردن ، وكانت تابعة فى إدارتها للحكومة العثمانية بصفة تكاد تكون اسمية ثم انتقلت إدارتها ابتداء من سنة ١٩١٨م إلى يد حكومة فيصل العربية بدمشق [2] وكان الحلفاء قد رأوا أن يستولوا على تلك البلاد لقطع الطريق على جيش تركيا إذ كان يريد الهجوم على مصر فدخل الكولونيل لورنس العقبة عام ١٩١٧ م ، وفى العام التالى نقل الأمير فيصل - وكان يقود جيشا يمثل الثورة العربية - إلى العقبة وتمكن مع أعوانه باحتلال قسم كبير من الاردن ، وذلك بعد معارك عديدة منها تخريب الخط الحجازى ، وزحف الانجليز للفتك بالجيش التركى حتى احتلوا الاردن فى ٩ ديسمبر ١٩١٩م[3]

وفى مؤتمر سان ريمو المنعقد فى أبريل عام ١٩٢٠م جعلت منطقة شرقى الاردن من نصيب بريطانيا كجزء من دائرة الوصاية على فلسطين مع الاحتفاظ بشرط أساسى هو أنه فى الأراضى الواقعة بين نهر الاردن والحدود الشرقية لفلسطين حسب تحديدها النهائى ، يكون للدولة المنتدبة — انجلترا — الحق بموافقة مجلس عصبة الامم فى تأجيل أو وقف تنفيذ شروط الانتداب التى ترى سريانها غير ملائم للظروف المحلية بهذه الجهات ، وأن تعد تدابير الحكم التى

---

(١) د عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٣٨٤ .

(٢) جورج كيرك : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٣) د عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

تراها ملائمة لهذه الظروف [1]

وعندما وصل الامير عبد الله بن الحسين إلى معان يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٠م قادما من مكة ، وفى نيته التقدم نحو عمان، ومن معان بعث لاهل سوريا بمنشور هاجم فيه الغزو الفرنسى ويعضد السوريين فى كفاحهم ضد الفرنسيين . وعندما وصل إلى عمان رحبت به المجالس المحلية التى أقامها الانجليز والتى سيطر عليها الموظفين الانجليز ، وقد عبر المندوب الانجليزى لرؤساء القبائل وشيوخ الشعب لاردنى حين زار السلط بقوله : تسألونى عن نوع المساعدة التى تريد انجلترا أن تقدمها لكم فأجيبكم بأنها لا تريد أن تضمكم إلى الادارة الموجودة الآن بفلسطين بل تنشىء لكم إدارة منفردة تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم [2] .

وتحقيقا لنصوص الانتداب الذى صور فى مؤتمر سان ريمو فقد اتفق الامير عبد الله مع تشرشل وزير الخارجية عندما اجتمعا فى القدس على الاسس التى تقوم عليها إدارة شرق الاردن ، وهى إقامة حكومة عربية وطنية هناك برئاسة الامير عبد الله تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالا إداريا مع الاسترشاد برأى مندوب سامى بريطانى يقيم فى عمان ، وأن يتعهد الامير بالمحافظة على حدود سوريا وفلسطين من كل اعتداء على أن تتوسط بريطانيا لتحسين العلاقات بين الامير وبين سلطات الاحتلال الفرنسى فى سوريا، وأن تنشىء بريطانيا قاعدتين للطيران فى عمان والكرك

ورغم اشتمال قرار الانتداب على شرق الاردن إلى جانب فلسطين ، فقد استثنت بريطانيا شرق الاردن من التزامات الوطن القومى لليهود فى فلسطين بحصولها على هذا الاستثناء من عصبة الامم فى سبتمبر ١٩٢٢ م ثم اعترمت

---

(١) جورك كيرك : المرجع السابق ص ٢٤٧.

(٢) د. عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٤٦٢ .

انجلترا فى العام التالى — ١٩٢٣ م — بقيام حكومة مستقلة فى شرقى الاردن يرأسها الأمير عبد الله تحت الانتداب الانجليزى .

لقد أقامت انجلترا إمارة شرق الاردن تحقيقا لمآرب سياسية واستراتيجية تخصها من أهمها تأمين القطاع العربى فى الطريق البرى إلى الهند ، فيما بين الخليج والبحر المتوسط خاصة بعد أن أثبتت وسائل المواصلات السريعة أهمية الوطن العربى بالنسبة لاتصالات انجلترا بالهند ، وأيضا إنشاء قاعدة لنفوذها السياسى والاستراتيجى فى هذه المنطقة تشرف منها على بقية أجزاء الوطن العربى خاصة المشرقية وخاصة بعد ظهور البترول وازدياد المصالح البريطانية فى أقطار الوطن العربى.

واهتمت الحكومة البريطانية بتحديد كيان مستقل لإمارة شرق الاردن فحثت الأمير عبد الله على أن يطلب من أبيه الملك حسين فى الحجاز ضم عمان والعقبه إلى إمارته وكانتا تابعتين للحجاز ، كما استطاعت نفس الحكومة أن تقنع الملك عبد العزيز آل سعود بعد استيلائه على الحجاز بقبول الوضع القائم بهما . بل وأقنعته بالتنازل عن ممر أرضى من شمال نجد يضم إلى إمارة شرق الاردن يصل بينها وبين العراق ويفصل بين نجد وسوريا وحققت بريطانيا بذلك الوحدة الاستراتيجية التى تنشرها فى منطقة انتدابها فى البلاد العربية ، وأصبح إشرافها على الطريق البرى بين الخليج والبحر المتوسط تاما كاملا [١] .

---

(١) د. حسين النجار : المرجع السابق ص ٦٥ .

الفصل الرابع عشر

الاستعمار الفرنسي

- فى سوريا ولبنان .
- فى الجزائر .
- فى تونس .
- فى المغرب .



فى سوريا ولبنان

يعتقد البعض أن فرنسا كانت أسبق من انجلترا فى عملية الغزو الاستعمارى، وهذا الاعتقاد له وجاهته ، لأن فرنسا شاركت بدور كبير إن لم يكن أكبر دور فى الحروب الصليبية ، وما حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر وأسره فى دار ابن لقمان فى المنصورة إلا دليل آخر على هذا الغزو الاستعمارى الفرنسى الذى سبق انجلترا فى مصر وبقية أقطار الوطن العربى ، بل وما الحملة الفرنسية على مصر والشام إلا دليل ثالث على صحة هذا الرأى .

وبمعنى آخر لم يكن فرض الانتداب الفرنسى على كل من سوريا ولبنان بمقتضى قرارات مؤتمر « سان ريمو » فى أبريل ١٩٢٠ م الاجراء الاستعمارى الفرنسى الأول فى سوريا ولبنان ، بل هناك نشاطات استعمارية فرنسية فى بلاد الشام سبقت ذلك ومهدت له ، فقد حددت معاهدة التحالف الفرنسى العثمانى فى عام ١٥٣٥ م الامتيازات الفرنسية فى الشرق العربى بصفة خاصة ، ولذلك كانت تجارة الحوض الشرقى للبحر المتوسط فى صالح فرنسا بصفة عامة حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت فرنسا الدولة الأوروبيـــة الأولى لدى البلاط العثمانى ، ولها حق حماية الرعايا الكاثوليك داخل الامبرطورية العثمانية[1] .

واستنادا إلى الامتيازات التى حصلت عليها فرنسا فى الامبراطورية العثمانية عمدت الحكومة الفرنسية إلى التدخل فى أقطار المشرق العربى لصالح قوافل

---

(١) د . أنيس ، د . حراز : المرجع السابق ص ٩٥ .

الحج إلى بيت المقدس الكاثوليكية ، ثم تبنى لويس الرابع عشر فى عام ١٦٤٦م قضية الجالية المارونية فى لبنان فى أعقاب زيارة الأساقفة المارونيين لفرنسا ، وقد رافق هذا الاتجاه ازدياد عدد الكاثوليك فى بلاد الشام بسبب امتداد نشاط الجزويت والفرنسسكان وغيرهما من المؤسسات الكاثوليكية إلى الشرق[١] . وبسبب إنشاء مدارس فرنسية لتعليم الموارنة ، وبسبب احتكار الفرنسيين لتجارة الصادر والوارد فى جنوب سورية ، حتى صار التفوق — فى النفوذ السياسى والتجارى — للفرنسيين وتغلبوا على منافسة التجار من الشعوب الأخرى[٢] .

ونتيجة لذلك وجدنا الموارنة بصفة خاصة يميلون إلى فرنسا ، ويرحبون بالبعثات التبشيرية الفرنسية ، بل ويتخذون من رجال هذه البعثات مستشارين لمشايخهم . واستغلت فرنسا هذا الوضع للتقرب إلى أصحاب العصبيات فى لبنان وخاصة المشايخ الموارنة ، كما استغلت بعض الأسر المارونية لتحقيق منافع خاصة ، كما كانت البعثات التبشيرية الفرنسية من أهم الدعائم التى بنت عليها فرنسا نفوذها الأدبى فى لبنان فى تلك الأيام[٣] . وبلغ من الصلة الوثيقة بين الموارنة والفرنسيين أن تعين شيخ مارونى نائبا لقنصل فرنسا فى بيروت عام ١٦٥٥ م ثم قنصلا لها عام ١٦٦٢ م .

وعندما بدأت الأحداث الدامية بين الموارنة والدروز اعتبارا من عام ١٨٥٧م بذلت الدولة العثمانية كل ما فى وسعها لإضعاف قوة الموارنة الذين كانوا يحظون

---

(١) نفس المرجع ص ١١٥ .

(٢) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٤٩ .

بحماية فرنســـا ، فشجع الاتراك الدروز على مهاجمة الموارنة وبدأت سلسلة الاضطرابات التى انتهت بمذابح سنة ١٨٦٠[1] بين الطرفين وامتدت لتشمل المسلمين والمسيحيين فى كل من سوريا ولبنان . وزادت وطأة الفتنة بينهما بما قام به عملاء الفرنسيين والبريطانيين من أعمـال الدس فى اتجاهين مختلفين ،[2] حتى حدثت المذابح بين الطرفين التى راح ضحيتها الآلاف من كلا الجانبين والتى تدخل فيها بعض الزعماء العرب لإيقافها وتهدئة الامور بين المتقاتلين ، وكان على رأس هؤلاء الزعماء العرب الامير عبد القادر الجزائرى المقيم بدمشق منذ فشل المقاومة الجزائرية للغزو الفرنسى . .

ولقد كان للقنصل الفرنسى يد كبرى فى إثارة هذه المذابح التى قوبلت فى فرنسا بترحاب لما تتيحه لهـا من الفرص لمغامرة حربية فى لبنان[3] ، إذ شعر الامبراطور الفرنسى نابليون الثالث بأن اللحظة المناسبة لتثبيت الاقدام الفرنسية فى سوريا قد أتت أخيرا ، فأعلن فى يوليو عام ١٨٦٠ م عن عزمه إرسال قوات إلى سوريا لحماية الكاثوليك ، ورغم أن السلطان العثمانى أوفد أحد رجاله لإقرار الامور فى سوريا ، وقد استطاع بالفعل بعد أن أعـدم رميا بالرصاص وشنقا وسجن وأبعد مئات من المسلمين إرضاء لفرنسا ، فإن فرنسا لم تقبل أن تفلت من يدها هذه الفرصة ، ومن ثم عقد مؤتمر دولى فى باريس ضم كلا من انجلترا وفرنسا والنمسا وبروسيا والروسيا وتركيا درس الموقف فى سوريا وموقف فرنسا وأصدر قراراته فى سبتمبر ١٨٦٠ م بالسماح لقوات فرنسية لا تتجاوز ١٢ ألف جندى بالنزول فى بيروت وألا تزيد مدة بقائها عن ستة شهور .

---

(١) د . أنيس د حراز : المرجع السابع ص ١١٦ .
(٢) كانت بريطانيا تؤيد الدروز فى مواجهة تأييد فرنسا للموارنة .
(٣) جورج كيرك : المرجع السابق ص ١٢٨ .

وقد نزلت القوات الفرنسية بالفعل فى بيروت فى آخر أغسطس ١٨٦٠ م فى الوقت الذى أوفد المؤتمر لجنة لتقصى الحقائق عن أسباب الأحداث الدامية ، وتبحث إمكانية تلافى هذه الأحداث بوضع نظام جديد للبنان . ورغم أن الهدوء والنظام قد عادا إلى سوريا فان فرنسا رغبت فى بقاء قواتها هناك إلى أجل غير مسمى بحجة ضمان عدم تكرار الاضطرابات ، إلا أن الحكومة البريطانية تمسكت بقرارات مؤتمر باريس القاضى بجلاء القوات الفرنسية خاصة وأن هذه القوات قد تجاوزت المدة المقررة لبقائها ، ومن ثم انسحبت هذه القوات فى يونيو ١٨٦١ م دون أن تحقق أهدافهـــا حتى قيل إن الحملة أخفقت فى تحقيق ما كانت الدولة الحامية تصبو إليه[1] ، من فرض سيطرتها ونفوذها على سوريا ولبنان .

عادت اللجنة الدولية من سوريا ولبنان فى مايو ١٨٦١ م ووضعت تقريرا عرض على السلطان العثمانى فى شكل إتفاقية وقع عليها وزير الخارجية التركية وسفراء الدول الأوروبية الخمس فى يوليو ١٨٦١ تقضى بمنح الحكم الذاتى لسنجق لبنان على رأسه حاكم مسيحى غير لبنانى يتم تعيينه من قبل الدولة العثمانية بالتشاور مع الدول الأوروبية الخمس . وفى عام ١٨٦٤م استقر وضع لبنان كسنجق مستقل ذاتيا بمقتضى الاتفاقية السابقة التى صارت دستورا دائما للبنان حتى عام ١٩١٤م وتم تنظيم لبنان بحيث يساعد الحاكم ١٢ شخصا منهم ٤ من الموارنة ، و٣ من الدروز ، و ٣ من الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك ، وسنى واحد ، وشيعى واحد . وصارت أقسام لبنان الإدارية سبعة مديريات يترأس كل مديرية منها مدير أربعة منهم موارنة وواحد درزى وواحد من الروم الأرثوذكس ،

---

(١) نفس المرجع ص ١٢٨ .

ومدير من الروم الكاثوليك ، ويخضع لهؤلاء المديرين شيوخ النواحى والقرى والقضاة والكتبة الذين حدد الدستور نسبة توزيع مناصبهم بين الطوائف الدينية المختلفة . .

وقد أسفرت هذه الاتفاقية عن استقرار الأمن والنظام فى سوريا ولبنان حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، وفى تلك الفترة باشرت البعثات العلمية الفرنسية أعمالها العلمية ، حتى لقد قيل أنه فى سنة ١٩١٤ كان أكثر من نصف تلاميذ المدارس فى سوريا وفلسطين يتعلمون بمعاهد فرنسية[١] . وحصلت فرنسا على اعتراف الدول الأوروبيـــة المجتمعة فى مؤتمر دعقد ببرلين عام ١٨٧٨ م على الاحتفاظ بالحقوق التى تملكها فرنسا - فى حماية الأماكن المقدسة فى فلسطين - وعلى أنه من المفهوم أنه لن يجرى أى تعديل فى وضعية الأماكن المقدسة[٢] .

ظهرت المطامع الفرنسية جلية فى سوريا ولبنان أثناء معارك الحرب العالمية الأولى فيما عرف باتفاق « سايكس - بيكو »[٣] لعام ١٩١٦ م الذى نص على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بحيث يكون نصيب فرنسا الجزء الأكبر من سوريا وجانب كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى العراق . وهذه المنطقة تشمل الشريط الساحلى لسوريا بما فى ذلك لبنان ثم ولاية أطنة ومرسين والأقاليم المعروفة إجمالا باسم كيليكيا ، وتدخل فى هذه المنطقة اسكندرونة .

---

(١) جورج كيرك : المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٢) د . محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وأثره فى البلاد العربية ، ص ٤٨ .

(٣) شارك فى هذا الاتفاق مسيو جورج بيكو ، وسير مارك سايكس مندوبا فرنسا وانجلترا فى القاهرة وقنصل روسيا فى القاهرة كذلك ، وظل هذا الاتفاق سريا حتى أذاعته الثورة الروسية عام ١٩١٧ م .

ولم يأت فى هذا الاتفاق ما يدل على أن فرنسا كانت ممنوعة من ضم هذه المنطقة إليها إذا أرادت ، كما لم يذكر الاتفاق أن من حق فرنسا ضمها إلى ممتلكاتها مباشرة هذا بالإضافة إلى المنطقة التى تشمل الموصل ثم مدن دمشق وحمص وحماه وحلب[1] . .

ولقد أكد الفرنسيون منذ هذا الاتفاق أن هناك وصاية أو حماية على سوريا ولبنان ، فإن جورج بيكو خطب فى جمع من السوريين واللبنانيين فى فندق شبرد بالقاهرة فى ٢٥ إبريل ١٩١٧ قائلا إن جميع دول الحلفاء قد انتخبوا فرنسا وصية على لبنان ، وأن الحكم سيكون فى البلاد التى كان لها امتيازها ، والتى كانت محرومة من الامتياز سيمنح لها الامتياز والحكم العام الداخلى سيكون باستشارة الأهالى . وأشار إلى قيام حماية فرنسية على سوريا[2] .

وأثناء الحرب صدر تصريح الرئيس الأمريكى ولسون فى أوائل عام ١٩١٨م الذى يقضى بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وعقب انتهاء الحرب سيطرت القوات الفرنسية على المنطقة الساحلية فى سوريا من الناقورة جنوبا إلى كيليكيا شمالا وتديرها فرنسا ، فى الوقت الذى احتلت القوات البريطانية فيه جنوب سوريا ، وتسيطر حكومة فيصل العربية بقواتها العربية على سوريا الداخلية .. وقد ظهرت النوايا الفرنسية واضحة فى موقفها من حضور مندوبين عرب جلسات مؤتمر الصلح فى باريس ، فقد استقبلت الحكومة الفرنسية الأمير فيصل كزائر كبير ، ليس له صفة الممثل السياسى أو المندوب الرسمى لحكومة معينة ، وكان

---

(١) د . أنيس ود حراز : المرجع السابق ص ٣٣٨ .
(٢) د. أنيس ود. حراز المرجع السابق ص ٣٥٢ .

لهذا مغزاه ، فإن الحكومة الفرنسية لم تشأ أن تفترض للعرب حقوقا فى مؤتمر الصلح [1] .

ونتيجة لفشل فيصل فى مؤتمر الصلح وعودته إلى دمشق فى أوائل مايو ١٩١٩م تشكل ماعرف بالمؤتمر السورى العام فى الشهر التالى . وفى خريف نفس العام كان الاتفاق قد تم بين « لويد جورج » و « وكليمنصو » باحلال الجيوش الفرنسية محل الجيوش البريطانية فى كيليكيا والساحل السورى على أن تبقى فلسطين فى عهدة الجيش البريطانى ، وحصر سيادة العرب بالمنطقة الداخلية من سوريا ، واشتراط كليمنصو ألا تؤثر موافقته هذه فى التسوية النهائية المتعلقة بالانتدابات والحدود تأمينا لاستيلاء فرنسا على كامل سوريا [2] .

وفى ٨ مارس عام ١٩٢٠ م انعقد المؤتمر السورى العام وحضره مندوبون عن العراق، واتخذ عدة قرارات تقضى باستقلال سوريا بحدودها الطبيعية وارتقاء فيصل عرش المملكة فى دمشق ، واستقلال العراق ، وشجب القرارات الاستعمارية والصهيونية كاتفاق سايكس بيكو ووعد بلفور ، ورفض الوصاية السياسية التى تحاول الدول الاستعمارية فرضها باسم الانتداب ، ورفض معونة فرنسا تماما . ولكن هذه القرارات لم يكن لها صدى عند الدول الاستعمارية فقررت فرض الانتداب الفرنسى على كل سوريا ولبنان فى مؤتمر سان ريمو المنعقد فى ٢٥ أبريل ١٩٢٠ ، والانتداب الانجليزى على العراق وفلسطين .

---

(١) د . حسين النجار . المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

وكان معنى ذلك اشتعال الثورة فى كل من سوريا ولبنان ضد الانتداب الفرنسى، وبالثورة يستمر الصراع بين السوريين واللبنانيين من جهة، وبين قوات الاستعمار الفرنسى من جهة أخرى حتى تنجح المقاومة العربية فى جعل الوجود الاستعمارى على الأرض العربية مستحيلا ومن ثم يسلم فى النهاية بانهاء هذا الوجود، وبحصول سوريا ولبنان على استقلالها عقب إنتهاء الحرب العالمية الثانية .

فى الجزائر

كانت الجزائر جزءا من الامبراطورية العثمانية منذ عام ١٥١٨ م ، ولكن سلطة الدايات جعلت من البلاد دولة مستقلة استقلا لا يكاد يكون تاما حيث كان لهم حق عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى السلطان العثمانى كما كان الداى ينتخب ويعين ويباشر سلطته دون الرجوع إلى السلطان، وايرادات البلاد — وإن كانت كلها من القرصنة — تصرف على مصارف الحكم وإن كانت غير منظمة ، ولم تكن ترسل شيئا من الجزية إلى السلطان(١).

ورغم هذا الإستقلال فان الجزائر شهدت خلال القرن الثامن عشر انهيارا فى الاقتصاد بسبب كساد الحركة التجارية ومقاومة الدول الأوروبية للقرصنة الجزائرية ، كما شهدت فوضى سياسية بسبب النزاع بين الدايات بعضهم وبعض ومع رجال الجيش ومع القراصنة حتى فقدت البلاد تقدمها واضطرب الأمن فيها وأصبحت بفضل المعاهدات مع الدول الأوروبية مجالا للنفوذ الاوروبى على حساب استقلال البلاد وعلى حساب مصلحة أهلها.

كانت تلك ظروف الجزائر التى هيأت للغزو الفرنسى الفرصة لتحقيق أهدافه أما ظروف فرنسا نفسها فقد كانت تتمثل فى اضطراب الاحوال الداخلية منذ تولى الملك شارك العاشر العرش عام ١٨٢٤، نتيجة لما امتاز به هذا الملك من روح رجعية حتى أحس بسخط الشعب عليه وعدم محبته ، وخاصة أن الشعب

---

(١) د زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث ص ١٦٩ .

الفرنسى كان ينظر إليه على أنه أتى إلى الحكم بتأييد من الاجانب ، وقد كان اختيار الملك « لبولينياك » رئيسا لوزرائه رغم سخط الناس عليه لموقفه الرجعى من الدستور والحياة النيابية دافعا لمزيد من تبرم الشعب الفرنسى من الحكم ومن ثم عمل الحكم فى فرنسا على إحراز نصر فى الخارج لتغطية الموقف الداخلى وقدر أن المغامرة الحربية فى الجزائر سوف تزيد من الشعور الوطنى عند الفرنسيين وتعطل انفجار الثورة.

هذا على الرغم من أنه كانت لكبار الملاك الفرنسيين رغبة شديدة فى امتلاك أراض جديدة تدر عليهم دخلا يعوضهم عما فقدوه أثناء الثورة وحكم نابليون إلى جانب رغبة الحكومة الفرنسية فى تعويض ما فقدته فرنسا أثناء حروب الثورة ونابليون وفى معاهدة باريس عام ١٨١ م وهى معظم أجزاء امبراطوريتها الاولى التى تنازلت لانجلترا عن معظمها(1) إلى جانب استمرار الخلاف بين دايات الجزائر ومعظم الدول الاوروبية وخاصة انجلترا وفرنسا حول قضيتى القرصنة والرق . فالدول الاوروبية تضغط من أجل أن يصدر إعلان رسمى فى الجزائر بالغاء الرق ، ومن أجل أن توقف الجزائر عمليات القرصنة ، ولكن دايات الجزائر تمسكوا بموقفهم بامتلاك الرقيق وممارسة عمليات قرصنة فى البحر المتوسط ولم ترهبهم تهديدات الاساطيل الحربية الإنجليزية وغيرها ، بل زاد الدايات من عدائهم الرعايا انجلترا وغيرها من الدول الحليفه لها كاسبانيا والبرتغال .

وكانت العلاقات بين الجزائر وفرنسا قبل عام ١٨٢٦ لا يشوبها الجو العدائى الذى كان بين الجزائر وانجلترا . وكانت الجزائر تتزعم الجناح الاسلامى فى شمال أفريقيا وفرنسا تتزعم الجناح المسيحى الكاثوليكى فى أوروبا ، والصدام

---

(1) د . صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ص٣ .

قائم ومستمر بين الجناحين فى البحر المتوسط كنوع من الحروب الصليبية . وكانت ذكرى فرنسا النابليونية المعادية لأوروبا قد أخذت تنحى بالتدريج ، فلما جاء دورها لتسوى مشاكلها بطريقتها مع الجزائر لم تصطدم بمعارضة فعالة [1] من دول أوروبا ، هذا على الرغم من أن الرأى العام الفرنسى كان معاديا للتوسع الاستعمارى لأنه كان يرى فيه بعثرة لجهود الأمة التى يجب أن تتركز لمحو العار الذى لحقها بسبب الهزيمة فى أوروبا .

ومهما قيل عن أسباب الغزو الفرنسى للجزائر الذى بدأ بحصار بحرى منذ مايو ١٨٢٧ م فإن حدوثه بصورة تدريجية لم يثر معارضة أوروبية أمام انفراد فرنسا به ، وقد تذرعت فرنسا بعدة أعذار لتوهم الرأى العام الأوروبى والحكومات الأوروبية بأنها تدافع عن قضية أوروبية بقضائها على تهديدات الجزائر للأوروبيين ومعاداتها للمسيحيين ، واستمرار الرق فى أراضيها . وغير ذلك مما يمكن أن يخفف من تأثير انفراد فرنسا بالغزو ويقنع الفرنسيين أنفسهم بأن حكومتهم تدافع عن العدالة والحرية والمسيحية .

ولقد كان العامل الدينى أثره القوى فى احتلال فرنسا للجزائر ، فبعد ماعرف عن حادثة صفع الداى للقنصل الفرنسى فى الجزائر [2]. ذكر تقرير قدمه وزير الحربية الفرنسية للملك شارل العاشر قوله : لقد أرادت العناية الإلهية أن تستثار

---

(١) د . صلاح العقاد : المغرب العربى ص ٨٥ .

(٢) تذكر المصادر أن الداى سأل القنصل الفرنسى عن سبب عدم الرد على رسالته الموجهة لوزير الخارجية الفرنسية فلما رد عليه القنصل بجفاء أشاح بنشة كانت فى يده فى وجه القنصل الذى بالغ وصور لحكومته أنه ضرب أو صفع على وجهه ، رغم أن الداى أكد أن ذلك لم يحدث .

جلالتكم بشدة فى شخص قنصلكم بواسطة ألد أعداء المسيحية ، ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يدعى ابن اويس التقى لكى ينتقم للدين وللانسانية ولإهانته الشخصية فى نفس الوقت ، ولعل الزمن يسعدنا بأن نقتنص هذه الفرصة لنشر المدنية بين السكان الأصليين ونتصرهم . بل أنه عند احتلال الجزائر أقيمت صلوات قال فيها قسيس الجيش لقائد الحملة : لقد فتحت بابا للمسيحية فى افريقية (١) .

لقد استغرق قرار غزو الجزائر حوالى ثلاثة سنوات ، فرغم أن الحكومة الفرنسية قررت ضرب حصار بحرى على الجزائر منذ صيف عام ١٨٢٧ م ، فانها ترددت فى اتخاذ القرار ومرجع ترددها إلى تخبط الحكم الفرنسى حول الطريقة والهدف من عملية الغزو للجزائر ، وهل تكتفى بالحصار لتأديب الداى أو تحتل الجزائر وتدخل فى صراع مع الجزائريين لا تعرف له نهاية ، كما أن الاحتلال سوف يزيد من النفقات العسكرية ، حتى ولو كان الاحتلال قاصرا على الشريط الساحلى ، وهو أمر — الاحتلال والنفقات — يلاقى معارضة كبيرة فى البرلمان الفرنسى .

وفى عام ١٨٢٩ م عرضت فرنسا كحل لترددها أن يقوم « محمد على » باشا مصر وحليفها القوى فى الشرق باحتلال الجزائر ويضمها إلى ملكه فى الشرق على أن يكون لحليفته — فرنسا — امتيازات واسعة فى الجزائر ، إلا أن العرض لم يكن مغريا لمحمد على فى الوقت الذى كان أسطوله القديم قد تحطم فى معركة نوارين عام ١٨٢٧ م ، ويعمل على بناء أسطول آخر لم يكتمل آنذاك ، إلى جانب معارضة كل من انجلترا والسلطان العثمانى للعرض الفرنسى .

---

(١) د . صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ص ٤ — ٥ .

وعلى هذا اتخذت الحكومة الفرنسية التى تزعمها بولينياك قرارا باحتلال الجزائر ، وأعلن الملك شارل العاشر عن اعتزامه انشاء مستعمرة هامة فى شمال أفريقيا تكون نواتها الجزائر وفى ١٤ يونيه ١٨٣٠م نزل الجيش الفرنسى المكون من حوالى ٣٥ ألف مقاتل إلى أرض الجزائر وأخذ يصطدم بالمقاومة التى يتزعمها الداى ، وقد دافع الجزائريون دفاعا قويا حصر الزحف الفرنسى فى شريط ساحلى لا يشمل كل الشاطىء الجزائرى . ومرت ثلاث سنوات على الاحتلال الفرنسى دون أن يستطيع فرض سلطته على أكثر من بضع موانى ساحلية بينما أصبح الداخل فى يد بعض الزعماء الذين أعلن بعضهم ولاءهم لتركيا ورفضهم الاعتراف بأى سلطة للمسيحيين (١) ، ومن بين هؤلاء الرافضين الأمير عبد القادر (٢) الذى اتخذ من غرب الجزائر مقرا لإمارته ،

وخلال الأعوام من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٩ م قامت سياسة فرنسا فى الجزائر على فكرة الاحتلال المحدود المقتصر على الساحل دون الداخل ، وفى هذه الفترة اصطدمت قوات الاحتلال الفرنسى فى غرب الجزائر بالأمير عبد القادر ، وفى شرق الجزائر بأحمد باشا باى قسنطينة الذى أطلق عليه الناس آنذاك لقب بطل الاسلام ولعدم وجود تعاون بين القوتين استطاعت قوات الاحتلال مصالحة

---

(١) زاهر رياض : المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٢) ينتسب إلى قبيلة هاشم العربية النازلة فى إقليم وهران ، وكان لها استقلالها الداخلى أثناء الحكم العثمانى ، وكان عبد القادر ينتمى الى الطريقة القادرية فى التصوف ذات النفوذ فى شمال أفريقيا ، وقد حج إلى مكة قبل الغزو الفرنسى للجزائر وزار بغداد فمصر حيث تركت إصلاحات محمد على تأثيرا كثيرا لديه كل هذا إلى جانب ثقافته الدينية والعربية ، مما جعله يتزعم القبائل ويسعى لبناء دولة فى الجزائر على نفس أسس الدولة المصرية باستخدام خبراء فرنسيين أيضا .

عبد القادر ومهادنته ريثما يتم لها القضاء على أحمد باشا المتحصن فى قسنطينة .

تزعم عبد القادر النضال فى غرب الجزائر ضد قوات الاحتلال الفرنسية ، وقد انقسم هذا النضال إلى ثلاثة مراحل تنتهى كل منها بمعاهدة ، فالمرحلة الأولى تنتهى بعقد معاهدة بين الطرفين عام ١٨٣٤ م انصبت على الاعتراف بكل غرب الجزائر ما عدا ثلاث مدن ساحلية خاضع للدولة العربية الجديدة ذات السيادة برئاسة عبد القادر . والمرحلة الثانية من النضال تستمر حتى عام ١٨٣٧ م حيث عقدت معاهدة « التافنا » - نسبة إلى نهر بهذا الاسم - التى اعترف فيها الفرنسيون لا بسلطة عبد القادر فى غربى الجزائر فقط بل وفى أواسطها كذلك ، وتوضح هذه المعاهدة بدقة الحدود الفاصلة بين الدولتين فى وهران - دولة عبد القادر - وفى الجزائر حيث توجد سلطات الاحتلال الفرنسى ، ويلاحظ من صياغة المعاهدة أنها تتحدث عن مسلمين وفرنسيين ولا تذكر كلمة جزائريين ، فالقبائل التى تخضع للحكم الفرنسى كانت تعرف باسم القبائل المتمصرة . كما تدل الصياغة على أن الأمير عبد القادر يعامل ملك فرنسا على قدم المساواة كرئيس دولة وطنية أمام رئيس دولة أخرى(١) .

وأما المرحلة الثالثة من النضال فقد استمرت منذ عام ١٨٤٠ إلى عام ١٨٤٧م ، وذلك عندما أخذت فرنسا تطبق فى الجزائر سياسة الاحتلال الشامل ، وكان صاحب هذه السياسة المارشال « سولت » رئيس الحكومة الفرنسية منذ سنة ١٨٤٠م فاختار لتنفيذها الجنرال « بيجو » الذى قامت سياسته على أساس إخضاع الشعب الجزائرى بأسره لا عن طريق مواجهة عسكرية بين القوات الفرنسية وقوات

---

(١) د . صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ص ١٠ - ١١

عبد القادر ولكن باتباع أسلوب الارهاب المتمثل فى إحراق الحقول واختطاف قطعان الاغنام - وهى رأس مال القبائل - إلى جانب إحراق القرى بأهلها ومعاقبة كل من له صلة بالأمير عبد القادر . كما عمل « بيجو » على مصادرة أراضى جميع القبائل التى شاركت فى المقاومة وتوزيعها على جنوده والمستوطنين الفرنسيين الذين تدفقوا على الجزائر لزراعتها لمصلحتهم ومصلحة فرنسا .

وإزاء تحركات « بيجو » هذه بقواته فى أنحاء الجزائر دارت صدامات دموية بين قوات الاحتلال الفرنسى وعبد القادر انتهت عام ١٨٤٣ م بلجوء الأمير إلى مراكش وبقى بها إلى عام ١٨٤٥ م حيث تركها مرغما أمام ضربات الإنتقام الفرنسية لمراكش ، وواصل النضال فى الجزائر لمدة عامين انتهت باستسلامه فى ديسمبر عام ١٨٤٧ م ونصح لأنصاره بأن يفعلوا مثله . وقد تم استسلام الأمير على أساس السماح له بالسفر إلى الاسكندرية فقبلت سلطات الاحتلال هذا الشرط واستقبلوه استقبالا يليق بخصم شريف . وباستسلامه انتهت المقاومة الجزائرية - المنظمة الرئيسية - وأصبحت البلاد خاضعة للحكم الفرنسى[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن رجال القبائل البربر وزعماء الطرق الصوفية قد ظلوا غير معترفين بالاحتلال الفرنسى ، ومن ثم دارت معارك عنيفة بين القوات الفرنسية والمحاربين الجزائريين فى بلاد القبائل انتهت باخضاع هذه البلاد عام ١٨٥٧ م ، ومع ذلك فقد كانت تقوم بين الحين والآخر ثورات محلية لاتلبث أن تختفى أمام القوة الفرنسية من أمثلتها ثورة الشيخ محمد المقرانى عام ١٨٧١ م فى شرق الجزائر التى استغل صاحبها هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ، وبدأت فى الموانى الشرقية حيث رفض بعض المجندين الجزائريين ركوب السفن الفرنسية إلى ميدان القتال بأوروبا فكانت الشرارة الأولى لاندلاع ثورة عامة تبلورت عندما

---

(١) د. زاهر رياض : المرجع السابق ص ١٨٢ .

وجدت زعيما لها فى شخص محمد المقرانى ومساعده الشيخ حداد - من الطريقة الرحمانية - مما يدل على أن البواعث الدينية كانت ما تزال تلعب الدور الرئيسى[1].

ورغم أن هذه الثورة نجحت فى أول الأمر إلا أن مساعدة بسمارك للحكومة الفرنسية باطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وإرسالهم إلى الجزائر قد أنهى الثورة وأعاد إلى الجزائر السيطرة الفرنسية الكاملة ، رغم حدوث ثورة بعيدة فى الصحراء الجزائرية عام ١٨٨١ م[2] انتهت كما حدث لسابقاتها ، وفى تلك السنة صدر مرسوم بالحاق الجزائر إداريا بفرنسا ، وحكمت فرنسا الجزائر حكما استعماريا بمعنى الكلمة حيث استغل الجزائريون فى حروب فرنسا ومصانعها ومزارعها دون المشاركة فى الحكم حتى بدأت تظهر حركة وطنية جزائرية عمالية بعد الحرب العالمية الأولى .

---

(١) د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٨ .
(٢) د . صلاح العقاد : الجزائر المعاصرة ص ٧ .

فى تونس

كان احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ م نتيجة منطقية بعد احتلال الجزائر وبعد أن حصلت فرنسا على كثير من الامتيازات مثل امتياز احتكار مد الخطوط التلغرافية وإصلاح القناطر وغير ذلك من الامتيازات المتعلقة بحماية الرعايا الفرنسيين فى احتكاراتهم واستغلالهم ومعتقداتهم مما كان ينتقص من سلطات البايات فى تونس أمام قوة النفوذ الفرنسى المتزايدة .

وقد انتهزت إيطاليا فرصة تحقيق وحدتها القومية عام ١٨٧٠ م وهزيمة فرنسا أمام بروسيا فى نفس العام وحاولت - أمام النفوذ الانجليزى المنافس - أن يكون لها النفوذ الأعلى فى تونس بل أن ترث نفوذ فرنسا هناك . وقد حصل القنصل الإيطالى على امتيازات هامة كثيرة لمواطنيه مما جعل إيطاليا تكاد تكون وصية على تونس[1]. ولكن إيطاليا لم يكن باستطاعتها السير فى الشوط إلى آخره بسبب مشكلاتها الداخلية وعلاقتها غير الطيبة بالنمسا بسبب تطلع الإيطاليين إلى ضم إقليم « ترنتينو » و « تريستا » .

ومنذ عام ١٨٧١ م وبسمارك المستشار الألمانى يعمل على تشجيع فرنسا على التوسع فى أفريقيا ضمانا لإبعاد تفكير فرنسا عن الثأر لهزيمتها فى الحرب السبعينية ، وقد قبلت فرنسا العرض الألمانى المؤيد بموافقة انجلترا ، وكان أمامها إما ضم تونس نهائيا للمتلكات الفرنسية أو فرض حماية عليها ، وكان الميل متجها

---

(١) د . زاهر رياض : شمال أفريقيا ص ١٨٩ .

إلى الرأى الثانى ، فتستطيع فرنسا بالتدريج العمل على تفوق نفوذها فى تونس إلى حد لا تستطيع معه أية دولة أخرى منافستها(١) .

ورغم معارضة كل من إيطاليا وتركيا لاتجاه فرنسا الاستعمارى نحو تونس فقد زحفت القوات الفرنسية من الجزائر عبر الحدود وغزت تونس بدعوى إحلال الأمن فى ١٢ أبريل ١٨٨١ م ، ولم يمض شهر حتى طوقت هذه القوات قصر سعيد مقر باى تونس الواقع فى « باردو » وهى إحدى ضواحى مدينة تونس، وأجبرت الباى توقيع معاهدة قصر سعيد أو باردو ، التى نصت على اعتراف الباى باحتلال القوات الفرنسية لتونس، وأن تنظم فرنسا العلاقات الخارجية، والشئون المالية لتونس ، والتزمت فرنسا بحماية الباى من أى خطر ، وحددت علاقتها بتونس بتعيين وزير مقيم فى تونس . .

ورغم أن هذه المعاهدة ، لم تذكر كلمة الحماية صراحة ، إلا أنها كانت حماية فعلية ، إذ كانت تونس أول تجربة لنظام الحماية فى تاريخ الاستعمار الفرنسى ، وقد استهدف واضع هذا النظام أمرين : أولا : إسكات المعارضة الدولية بحجة أن فرنسا لم تقض على كيان الدولة المحمية بالضم ، ثانيا : إقناع المعارضة الداخلية - فى فرنسا - بأن الحكومة لن تتورط فى أعباء مالية جديدة لأن من مميزات الحماية أنها تحمل الدولة المحمية نفقـــات الاحتلال وجميع ما يترتب على الاصلاحات الادارية والاقتصادية المفروض إدخالها بواسطة الدولة الحامية(٢) .

ولم تكتف فرنسا بقيود معاهدة باردو ، بل عرضت على الباى معاهدة جديدة فى ٨ يونيو ١٨٨٣م حملت فيها المادة الأولى نص رضاء الباى عن الحماية الفرنسية

---

(١) د : محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ م ص ٥٦ .
(٢) د . صلاح العقاد : المغرب العربى ص ٢٠٥ .

المصالح التونسية وخاصة المحافظة على الأمن الداخلى والتمثيل الخارجى بينما يحتفظ الباى بسيادته المطلقة وله إدارة الإقليم بموظفين وطنيين[1]. وكانت حجة فرنسا فى فرض الحماية هو قيام ثورة وطنية مسلحة ضد قوات الاحتلال بمجرد أن أفاق التونسيون من غفوتهم[2].

تشجع التونسيون على القيام بالثورة بما رأوه من تخاذل الباى أمام الغزو الفرنسى، فى الوقت الذى حدثت فيه ثورة جزائرية فى وهران فى صيف عام ١٨٨١م، وحدوث مظاهرات فى طرابلس الغرب ضد الاحتلال الفرنسى لتونس، وموقف إيطاليا وتركيا المعادى لهذا الاحتلال. ومما يلفت النظر أن الثورة فى تونس ضد الاحتلال الفرنسى تزعمها رجال الدين وأصحاب الطرق الصوفية الذين اعتبروا الثورة ضد الفرنسيين جهادا إسلاميا، واتخذت الثورة من مدينة القيروان ذات التاريخ الاسلامى العتيد مركزا لها.

وقد هاجم الثوار القوات الفرنسية واتهموا الباى محمد الصادق - من الأسرة الحسينية - بالتواطؤ والخيانة، واشتدت اتهاماتهم للباى على أخى الباى السابق الذى نصبه الفرنسيون بايا عند وفاة محمد الصادق عام ١٨٨٢، بسبب ضعفه وخضوعه للفرنسيين، وسيطرة المقيم العام الفرنسى على الأمور حيث وقع الباى مع الفرنسيين معاهدة جديدة تعرف بمعاهدة «المرسى» وهى تهدف إلى توسيع سلطات فرنسا فى تونس بشل يد الباى وموظفيه الوطنيين عن التصرف فى الأمور الإدارية والمالية والقضاء وغيرها من الأمور الداخلية.

استمرت المقاومة بأسلوب سياسى حتى ظهر حزب «تونس الفتاة» عام

---

(١) د. زاهر رياض: المرجع السابق ص ٢٠٠.

(٢) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ٢٠٧.

١٩٠٥ م الذى سعى إلى الاصلاحات الدستورية الواسعة وإلى الاستقلال ، كما سعى إلى تحقيق شعار « الامة الجزائرية - التونسية » أى دعا إلى وحدة المغرب العربى ، وظهر الزعماء على باش جمعة وعبد العزيز الثعالبى اللذين استمرا فى المطالبة بالاستقلال والحياة الدستورية وتعرضا للنفى والحجر على نشاطهما ، حتى إذا قامت الحرب العالمية الاولى قامت ثورة فى تونس بتأييد من تركيا وألمانيا تزعمها حزب « تونس الفتاة » . ولكن هذه الثورة لم تحقق الاهداف القومية فى شمال أفريقيا .

لقد استغلت فرنسا اليد العاملة التونسية ، ومناجم الحديد والزنك والفوسفات المتوفرة فى تونس ، وامتلاك الاراضى الزاعية التى سيطر عليهـــا المستوطنون الفرنسيون ، واحتكار الشركات الفرنسية لجميع الاعمال البحرية والبرية ، ولم يغفل الفرنسيون وضع النظم التى تضمن سيطرتهم على المجالس البلدية والوظائف الحكومية .. وأعفى المستوطنون الفرنسيون من الضرائب التصاعدية ، وتمتعوا بالحماية الكاملة من قوات الاحتلال . كل ذلك الاستغلال لابد أن يثير كوامن الثورة الوطنية فى تونس خاصة وقد رأى التونسيون فرنسا تنهزم أمام ألمانيا فى الحرب العالمية الاولى .

فى مراكش (المغرب)

اختلفت مراكش عن كل من الجزائر وتونس فى أنها تمتعت باستقلال شكلى طوال القرن التاسع عشر ، إذ لم تدخل فى حوزة الامبراطورية العثمانية ، وبقيت علاقاتها مع الدول الأجنبية تسير على قدم المساواة ، لذلك تطلب التمهيد لاحتلال فرنسا لها وقتا طويلا وسياسة معقدة ، هذا إلى جانب كثرة الطامعين فيها مثل أسبانيا ، وانجلترا ، وألمانيا ، وإيطاليا وغيرها من الدول الاوروبية التى مارست سياسة الامتيازات فى مراكش حتى أصبحت البلاد مسرحا للقوى الأجنبية التى تحاول بسط نفوذها هناك .

وكانت فرنسا منذ وطئت قدمها الجزائر عام ١٨٣٠ م قد اتخذت من مراكش — حيث توجد سلطنة العلويين — موقفا عدائيا ، فقد احتجت الحكومة الفرنسية على وجود السلطة المراكشية فى تلمسان وأرسلت بعثة خاصة إلى فاس للاحتجاج فى أوائل سنة ١٨٣٢ م ، فسارع مولاى عبد الرحمن بالانسحاب (١) ، كما أن فرنسا اعتدت على مراكش اعتداءات عسكرية بسبب تأييد القبائل المراكشية والسلطان لحركة الأمير عبد القادر الجزائرى ، ضد الغزو الفرنسى للجزائر ، حتى أن السلطان لقى هزيمة مروعة على يد القوات الفرنسية عام ١٨٤٤ م وقبل معاهدة مع فرنسا تقضى بتسريح جيشه من منطقة الحدود وطرد عبدالقادر من البلاد أو القبض عليه ، وتخطيط الحدود بين الجزائر ومراكش وإعطاء فرنسا حق الدولة الأولى بالرعاية فى النشاط التجارى بمراكش .

---

(١) د صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٢٢ .

وبهذه المعاهدة ظهرت أطماع فرنسا فى مراكش وتأكدت نية فرنسا نحو مراكش وأن تحقيقها يتطلب الوقت المناسب والظروف الدولية المهيأة . وقد أخذت فرنسا تمهد لسياستها التوسعية فى مراكش بسلسلة من المعاهدات الدولية . ففى عام ١٩٠٢ م عقدت فرنسا مع إيطاليا اتفاقا تؤيد فيه اليد الايطالية المطلقة فى ليبيا نظير إطلاق اليد الفرنسية فى مراكش . وفى عام ١٩٠٤ م تم توقيع الاتفاق الودى بين كل من انجلترا وفرنسا الذى وافقت فيه انجلترا على إطلاق اليد الفرنسية فى مراكش نظير عدم اعتراض فرنسا على بقاء الاحتلال الانجليزى بمصر . وفى أكتوبر من نفس العام صادقت أسبانيا على الاتفاق الفرنسى البريطانى وحصلت نظير ذلك على الركن الشمالى الغربى ليكون منطقة نفوذ لها (١) .

ورغم محاولة سلطان مراكش استغلال معارضة ألمانيا لمشروعات فرنسا الاستعمارية فى مراكش، ورغم زيارة امبراطور ألمانيا لميناء طنجة فى مارس ١٩٠٥ م، ورغم عقد مؤتمر دولى فى أبريل ١٩٠٦ م بمدينة الجزيرة بأسبانيا لبحث السيادة المستقلة لمراكش مع انفتاحها على جميع الدول وهو المؤتمر الذى ساندت فيه ألمانيا مراكش، فان قرارات المؤتمر اعترفت بمركز فرنسا الممتاز فى مراكش، مع تأييد موقف السلطان المدافع عن استقلال بلاده .

وانطلاقا من هذا الموقف دفعت فرنسا شقيق السلطان المدعو عبد الحفيظ إلى الثورة ضد أخيه السلطان عبد العزيز سنة ١٩٠٨ وتنحيته عن الحكم ، وقد نجح عبد الحفيظ فى ذلك ووضع نفسه تحت الحماية الفرنسية بصورة فعلية وليست رسمية . وقد تأيدت هذه الحماية عندما استنجد عبد الحفيظ فى عام ١٩١١ م بالقوات الفرنسية لاخماد ثورات القبائل ضده، وقد نجحت هذه القوات فى إخماد

---

(١) د زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢١٦ .

الثائرين ضد السلطان وبقيت هناك تمارس احتلالا عسكريا وسيطرة على الحكم مما دفع ألمانيا إلى الاحتجاج على بقاء القوات الفرنسية فى مراكش ، ولكن مالبثت فرنسا وألمانيا أن توصلتا إلى اتفاق بينهما فى نوفمبر ١٩١١ م نص على إطلاق يد فرنسا فى مراكش نظير تنازل فرنسا لألمانيا عن جزء من الكمرون الفرنسى .

ونتيجة لذلك رأت فرنسا جعل حمايتها على مراكش رسمية ، فتم توقيع معاهدة الحماية فى ٣٠ مارس ١٩١٢ م قبل السلطان بموجبها حماية فرنسا على مراكش ماعدا منطقة طنجة والمنطقة الاسبانية . وفى نوفمبر من نفس العام عقد اتفاق فرنسى أسبانى جديد من أجل تحديد المنطقة الأسبانية التى أطلق عليها لفظ الريف فأصبح يتولاها خليفة يعينه سلطان مراكش من بين اثنين ترشحهما أسبانيا على أن يخضع هذا الخليفة لتوجيهات المندوب الأسبانى (١) .

لم تمكن الحماية الفرنسية على مراكش لتثنى المراكشيين عن النضال ضد الاحتلال الفرنسى ، خاصة وأن الظروف الطبيعية للبلاد تساعد على هذا النضال ، حيث تنتشر الجبال الوعرة المسالك والتى اعتاد أهلها من البربر الاحتفاظ باستقلالهم الداخلى أمام جميع الحكومات المركزية ، ومن ثم لم يتم إخضاع البلاد إلا بعد مضى أكثر من عشرين عاما ، وتلعب شخصية الامير عبد الكريم الخطابى الدور الرئيسى فى تاريخ المقاومة (٢) .

استنادا إلى معاهدة الحماية مارس الفرنسيون استغلالا متنوعا فى البلاد ، وعملوا على التفرقة بين العرب والبربر ، وكونوا لهم صنائع من كبار الإقطاعيين الباشوات الذين مارسوا سلطات قضائية فى

---

(١) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

مقاطعاتهم ، كما سمحوا للشركات الامريكية والانجليزية أن تستثمر أموالها فى البلاد الى جانب الشركات الفرنسية . وعلى أية حال فقد كانت مراكش أقل أقطار شمال أفريقيا العربية تأثرا بالاستعمار الفرنسى بسبب تأخر احتلالها عن الجزائر وتونس ، ثم بسبب اشتعال الحرب العالمية الاولى بعد الاحتلال بعامين . حتى يمكن القول إن مراكش أقل هذه الاقطار نسبيا التى تغلغل فيها النفوذ الفرنسى اقتصاديا وثقافيا .

الفصل الخامس عشر

الاستعمار الإيطالى

- فى ليبيا
- فى الصومال



فى ليبيا

كان خروج إيطاليا إلى الاستعمار متأخرا عن غيرها من الدول الأوربية ، وذلك بسبب تأخر وحدتها القومية ، وضعف إمكانياتها ، ومشكلاتها الداخلية المعقدة . . وليس معنى هذا أن إيطاليا لم يفكر أهلها فى إقامة مستعمرات لهم خارج حدودهم قبل الوحدة القومية إذ أن الايطاليين كانوا يرجون قبل إتمام الوحدة القومية أن تستطيع مملكة نابولى — النابلطان كما سماهم السنوسيون الأوائل — الاضطلاع بمهمة هذا التوسع الخارجى ، وكان كل ما يعنيهم مجرد التوسع لذاته فحسب سواء جرى هذا فى القارة الأوروبية ذاتها أو فى بعض جزر البحر الأبيض أو فى قطر من أقطار أفريقية الشمالية (١) .

ولعل من المفيد هنا أن نسجل الدوافع التى حدت بإيطاليا غزو ليبيا ، ذلك أن إيطاليا خرجت من جهودها لتحقيق الوحدة القومية منهوكة القوى ومحملة بأعباء ومشكلات داخلية كالفقر وكثرة عدد العاطلين عن العمل (٢) ، إلى جانب الشعور بالنقص إزاء الدول الكبرى ذات المستعمرات (٣) ، بالإضافة إلى رغبة الايطاليين فى استخدام رءوس أموالهم واستثمارها فى مشروعات تعود عليهم بالنفع ويتدرب الشباب الايطالى على الأعمال المنتجة .

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ١٠٣ .

(٢) د . محمد السروجى : العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية إلى الاستقلال ص ٧٢ .

(٣) د . زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث ص ٢٢١ .

ومما يجب ملاحظته أن اهتمام الايطاليين باقامة مستعمرات انصب فى المقام الأول على تونس أولا ثم طرابلس الغرب (ليبيا) ثانيا ، لاسيما وأن تونس جعلها قربها من إيطاليا تتمتع بميزة لاتضارعها فيها طرابلس . هذا التقارب الذى أدى فى العصور القديمة إلى وجود علاقات اقتصادية وسياسية هامة بين هذا الجزء من شمال أفريقية الذى كان يطلق عليه اسم قرطاجنة وبين إيطاليا . ومنذ ذلك الوقت أخذ كل من شمال أفريقية وإيطاليا يؤثر فى الآخر ويتأثر به (١) .

ولكن احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ م قد وجه ضربة لأطماع إيطاليا فى تونس مما أساء العلاقة بين فرنسا وإيطاليا لدرجة جعلت الإيطاليين يتجهون صوب دول وسط أوروبا ويتناسون العداء التقليدى مع النمسا بل ويدخلون فى تحالف مع ألمانيا والنمسا كان الفضل فى إبرامه لبسمارك المستشار الألمانى الذى كان من المحبذين لفرنسا لكى تحتل تونس فتنصرف عن التفكير فى إقليمى الالزاس واللورين ، وقد كسب بسمارك إيطاليا إلى جانبه مع النمسا فى تحالف ثلاثى (٢) .

اتجه الإيطاليون إلى تحقيق مشروعات استعمارية فى شرق القارة الافريقية بعد أن ضاع أملهم فى تونس ورغم ما صادفوه من نجاح فى أول الامر باستيلائهم على إقليم ارتريا إلا أن هزيمتهم فى موقعة عدوة على يد الاحباش قد جعلهم يعيدون التفكير فى امتلاك أراض جديدة فى شمال أفريقيا وخصوصا فى ولاية طرابلس الغرب ، وهى الولاية الوحيدة التى بقيت خاضعة للدولة العثمانية فى

---

(١) د . محمد السروجى : الموقف الدولى والاحتلال الايطالى لطرابلس — مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد ٢٢ ١٩٦٨ م . ص ٢٧ .

(٢) د . رأفت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ص ١٧٦ .

شمال أفريقيا (١) . وهكذا استغرقت جهود إيطاليا بعيدا عن ليبيا منذ عام ١٨٨٥ حين احتلت مصوع إلى عام ١٩٠٢ حين عقدت مع فرنسا اتفاقية تحقق بها أهدافها الاستعمارية فى ليبيا .

وبعقد معاهدة ١٩٠٢ بين فرنسا وإيطاليا التى قضت باطلاق يد إيطاليا فى ليبيا ويد فرنسا فى مراكش تبدأ سلسلة من الجهود الإيطالية فى ليبيا من أجل السيطرة عليها ، بدأت بفتح المدارس فى طرابلس وبنى غازى، وإرسال الجماعات التبشيرية ، ولكن أهم من ذلك فتح فروع لبنك دى روما الذى أخذ يقرض الأهلين أموالا كثيرة بفوائد وشروط مجحفة ، إلى جانب أن القنصلية الإيطالية فى كل من طرابلس وبنى غازى كانت مركزا للنشاط السياسى والدعاية الإيطالية والتجسس على أهل البلاد ومراكز الدفاع عنها ووسائله (٢) .

هذا إلى جانب وجود سياسيين إيطاليين يرسمون سياسة إيطاليا الاستعمارية ويتحمسون لها أمثال السنيور «كرسى» رئيس الوزارة الإيطالية فى المدة من ١٨٨٧ - ١٨٩١ م ، ثم عودته للحكم من ١٨٩٣ - ١٨٩٦ م حيث سقط بسبب الفشل فى الحرب ضد الحبشة (٣) ، ومثل السنيور جوليتى الذى تولى الوزارة من عام ١٨٩٢ إلى عام ١٨٩٣ م ثم عاد للحكم مرة أخرى عام ١٩١١ م حيث تم الغزو الإيطالى لليبيا فى عهد وزارته (٤) .

وكل هذا هيأ الأذهان سواء فى إيطاليا أو خارجها لفكرة استيلاء إيطاليا على ليبيا ، بل بلغ من قوة الدعاية الإيطالية أن صورت ليبيا بأن أراضيها مصدر

---

(١) نفس المرجع ص ١٧٧ .
(٢) د . نقولا زيادة : ليبيا . ص ٨٠
(٣) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٨ .
(٤) خليفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها ص ١٠ .

خير وفير حتى بات الشباب الإيطالي يتغنى بطرابلس الجميلة ، والعاطلون الإيطاليون يتمنون الانتقال إليها في ظل امتلاك إيطاليا لها ، ولذلك لا نعجب أن نرى الحكومة الإيطالية تعلن الحرب على تركيا في سبتمبر ١٩١١ م بحجة أن الضباط ورجال جمعية الاتحاد والترقي الجهلة المتعصبين عرضوا للخطر الشديد أمن الرعايا الإيطاليين بتحريضهم أهالي طرابلس الغرب وبني غازي ضدهم (١) .

لم يكن الغزو الإيطالي لليبيا إذن مفاجئا لأن الأطماع الإيطالية في ليبيا لم تكن خافية على الليبيين والأتراك ، وقد بادر الليبيون منذ عام ١٩١٠م بالإبراق إلى الصدر الأعظم إبراهيم حقي باشا يعلمونه بعزمهم على رد كل هجوم وطلبوا إرسال وسائط تحصينات طرابلس المهملة والذخائر الحربية والبحرية وأطعمة لمدة عام ، وأنهم سيدافعون عن وطنهم حتى آخر نقطة من دمائهم(٢) . ولكن ابراهيم حقي لم يفعل شيئا ، ولعل موقفه هذا يفسره أنه كان يعمل سفيرا لبلاده في إيطاليا وزوجته إيطالية، ومن ثم فهو متهم بالتواطؤ مع الطليان لتسليمهم الولاية(٣).

ويمكن القول أن تولي جماعة الاتحاد والترقي في تركيا قد عجل بضياع طرابلس الغرب، فسياسة التتريك التي سارت عليها تلك الحكومة في الولايات العربية لم تلق ترحيبا من قبل السنوسية في طرابلس الغرب ، بل إنها وقفت موقف عدم التأييد من إنشاء جمعية الاتحاد والترقي في بني غازي (٤) ، بسبب رأي الاتحاديين في بعض الأمور الدينية التي كان السنوسيون يخالفونهم فيها ، مما نفر الليبيين من الحكم العثماني ، وجعل العثمانيين مسئولين عن حدوث الغزو الايطالي لليبيا .

---

(١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ص ٢١٤ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٢١ .
(٣) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٤ .
(٤) د . محمد السروجي : المرجع السابق ص ٣٧ .

حدث الغزو الإيطالى لليبيا فى سبتمبر ١٩١١ م، ولكن الليبيين لم يستسلموا بل قاوموا حتى بعد أن اضطرت تركيا المتهالكة إلى استجدا ، الصلح مع إيطاليا ، والذى تم بوساطة انجلـــترا فى لوزان بسويسرا فى أكتوبر ١٩١٢ م ، وإذا كانت القوات التركية قد شاركت فى صد الغزو فى أوله إلا أن هذه القوات كانت مبعثرة هنا وهناك ، وكانت تجهيزاتها الحربية وتدريباتها العسكرية ضعيفة وقليلة بحيث حمل المواطنون العرب فى ليبيا عبء القتال وحدهم بمساعدات مادية ومعنوية من الدول العربية والاسلامية وعلى رأسها مصر وتونس(١) .

ونتيجة لمعاهدة لوزان منح السلطان العثمانى أهل ليبيا الاستقلال الذاتى فى الوقت الذى لا يملك فيه هذا الحق ، ولكنه منشور دعائى يحفظ به ماء وجهه أمام الشعوب العربية والاسلامية ، ذلك أن ملك إيطاليا أصدر فى الوقت نفسه منشورا إلى الليبيين يذكر لهم فيه بأن بلادهم خاضعة خضوعا تاما للسيادة الملكية الإيطالية ، ويعفو فيه عن الليبيين ، ويعدهم بالمحافظة على الشعائر الدينية الإسلامية ويسمح لهم فيه بذكر اسم جلالة السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين فى الصلوات العامة(٢) . بل وسرعان ماصار الإيطاليون يعتبرون المجاهدين الليبيين مجرد عصاة وثوار خارجين على الحكومة الشرعية — الحكومة الإيطالية - فى مقاومتهم ، يستحقون لذلك الاعدام شنقا أو رميا بالرصاص إذا ما وقعوا فى أيديهم(٣) .

ولكن الليبيين لم يرهبهم ما حدث لهم من مذابح دموية أو إحراق

---

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٨٣ .

(٢) د . نقولا زيادة ، : ليبيا . ص ٨٣ — ٨٤ .

(٣) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١٣١ .

مساكنهم ومزارعهم ومواشيهم ومن ثم استمر كفاحهم ضـــد قوات الغزو الإيطالى الغاشم رغم انسحاب القوات التركية ، وتحمل السنوسيون عبء النضال فى برقة بأسلوب حرب العصابات فى الجبل الأخضر الذى سيطر الإيطاليون على قسم كبير منه خاصة مدنه ، والذين صمموا على المضى فى الغزو رغم تكبدهم نفقات ودماء كثيرة ، فى الوقت الذى عملت فيه السنوسية خصوصا حين تزعمها السيد محمد إدريس على عقد اتفاق مع إيطاليا لإقرار الامور فى برقة لصالح أهلها الذين طحنتهم المعارك الحربية وسياسة التجويع والتشريد والإبادة التى اتبعتها قوات الاحتلال .

وقد تم بالفعل عقد عدة اتفاقيات بين السنوسية وإيطاليا فى السنوات من ١٩١٧ إلى ١٩٢١ م أمنت للبرقاويين عبادتهم وملكيتهم الفردية وإنشاء المدارس واحترام لغة البلاد إلى جانب انتخاب مجلس نيابى يساعد الأمير السنوسى الذى اعترفت به كل من إيطاليا وانجلترا أميرا لبرقة . . ولكن إيطاليا لم تكن مخلصة فى هذه الاتفاقات بل سعت إلى الوقيعة بين أهل البلاد حتى تضرب ضربتها بالتخلص من الحركة الوطنية الليبية ، وقد ضيقت حكومة الاحتلال على الأمير السنوسى حتى ترك برقة وانتقل إلى مصر عام ١٩٢٢ م تاركا قيادة الجهاد فى برقة للسيد عمر المختار أحد شيوخ الزوايا ، خاصة وأن الحزب الفاشستى كان قدا ستولى على الحكم فى إيطاليا فى خريف هذا العام ، وسياسة اتباع العنف بصورة أشد مع الليبيين .

وأما فى طرابلس فقد استمر الكفاح يقوده زعماء القبائل أمام زحف القوات الإيطالية وإرهابها للاهالى حتى تم اختيار سليمان البارونى رئيسا لحكومة وطنية فى طرابلس ولكنه اضطر أمام ضغط الإيطاليين إلى ترك البلاد إلى الآستانة ، ولكن الكفاح ظل مستمرا وتدفق المتطوعون إلى ميادين القتال

والتحقوا بالمعسكر العثمانى بضواحى طرابلس وقلوبهم تلتهب حماسة وغيرة وإخلاصا ، وإن الهمة مبذولة فى تأليف جيش كبير من المتطوعين تحت رئاسة ضباط مصر المتقاعدين وأكدت الصحف المصريه سفر قوافل عديدة من مطروح وبرانى وأولاد على تحمل معها الذخيرة والزاد مدججة بالسلاح الحديث[1] .

وحاول الطرابلسيون تنظيم صفوفهم أثناء انشغال إيطاليا بمعارك الحرب العالمية الأولى ورغبتها فى تسكين جبهة القتال فى طرابلس حتى تنتهى الحرب ، ومن ثم حصل الطرابلسيون على اعتراف من إيطاليا فى ٢١ أبريل ١٩١٩ م بموجب صلح « بنى آدم » بالجمهورية الطرابلسية التى أقيمت منذ نوفمبر ١٩١١ والتى اختير كل من سليمان البارونى ورمضان السويحلى وأحمد المريض وعبد النبى بلخير لرئاستها ، والتى عمل لها المجاهد المصرى عبد الرحمن عزام مستشارا بعد أن أسهم فى قيامها .

ولكن النزاعات الداخلية قد فتت فى وحدة المجاهدين وأعطت الفرصة للإيطاليين ، وكان أهم هذه النزاعات النزاع بين السنوسية ورمضان السويحلى زعيم مصراتة التى اتخذت شكل التعصب القبلى . هذا إلى جانب الخلافات بين زعماء الجهاد فى طرابلس مثل الخلاف بين رمضان السويحلى فى مصراتة وعبد النبى بلخير فى أورفلة وغيرهم[2] . وبسبب عدم وجود الزعيم القوى كما هو الحال فى برقة جعل الحكومة الإيطالية تتدخل فى كل كبيرة وصغيرة ، فوجد الزعماء من صالحهم الاعتراف لزعيم واحد بالسلطة العليا ورأوا فى السيد إدريس السنوسى أمير برقة الزعيم المسلم القوى[3] ، فاتجهوا إليه يبايعونه

(١) صفحات خالدة من الجهاد للمجاهد الليبى سليمان البارونى ص ٢١٤ .
(٢) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٨٤ .
(٣) د . زاهر رياض : المرجع ص ٢٤٤ .

بالزعامة فى نوفبر ١٩٢٢ م بوجود مجلس شورى من ٢٢ عضوا يمثلون الجهات المختلفة . . وقد اعترفت إيطاليا بذلك فى بادىء الأمر ثم لم تلبث أن بدلت سياستها بسيطرة الفاشست على الحكم فى روما وطرابلس .

ولكن الليبيين لم يستسلموا للضغط والإرهاب الفاشستى، بل استمر كفاحهم حتى انتهى تقريبا عام ١٩٣١ م بالتخلص من قائد النضال فى برقة عمر المختار ، وإن ظل الأمل يراود الليبيين فى إزاحة الاحتلال الإيطالى حتى انتهت الحرب العالمية الثانية وتنهزم إيطاليا وتجبرها قوات الحلفاء على ترك ليبيا .

فى الصومال

تسابقت كل من انجلترا وفرنسا وإيطاليا حول ممتلكات مصر الأفريقية بصفة خاصة وحول ساحل أفريقيا الشرقى وساحل البحر الأحمر الأفريقى بصفة عامة . فقد تأسست مستعمرة انجليزية على أنقاض الممتلكات المصرية عرفت بالصومال الانجليزى ضمت موانى زيلع وبلهار وبربره على خليج عدن ، وهى التى استولى عليها الانجليز منذ أن أخلاها المصريون بين عامى ١٨٨٥ ، ١٨٨٨ م . وأبلغت بريطانيا الدول الأوروبية - تطبيقا لقرارات مؤتمر برلين - أن الساحل الصومالى إبتداء من رأس جيبوتى إلى بندر زيادة قد وضع تحت الحماية البريطانية(١) وكان هذا التبليغ إيذانا وإعلانا بتأسيس المستعمرة البريطانية فى الصومال فى مواجهة المستعمرة البريطانية فى عدن ، ومعنى ذلك أن أمسكت بريطانيا بباب المندب مدخل البحر الأحمر الجنوبى فى الوقت الذى تسيطر فيه على مصر وقناة السويس شمالا منذ احتلال قواتها لمصر عام ١٨٨٢ م .

وكانت انجلترا تبذل قصارى جهدها لكى تبعد أطماع الدول الأوروبية عن حوض النيل وذلك منذ إخلائه من المصريين وسيطرة المهدية عليه ، وذلك لكى يصبح منطقة نفوذ لها وحدها ، وكانت فرنسا الدولة الأوروبية المعاندة لمشروعات بريطانيا فى مصر والسودان بل وفى شرق ووسط أفريقيا ، فدأبت على مضايقة انجلترا فى مصر ، ورأت أن تدبر حملة عسكرية تغرس العلم الفرنسى فى فاشودة

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ٤٤٧ .

تستعمله سلاحا للضغط على انجلترا سياسيا لإجلائها عن مصر[1] . وكانت انجلترا تدرك أطماع فرنسا ، ولذلك نجد السير « إدوارد جراى » وزير الخارجية البريطانية يرد على سؤال فى مجلس العموم البريطانى فى عام ١٨٩٥ م قائلا : إن انجلترا لها صفة الوصية المكلفة بالدفاع عن مصالح مصر ، وبما أن مصر لها مطالب فى وادى النيل فإن منطقة النفوذ البريطانى تشمل جميع وادى النيل[2] .

وكانت فرنسا قد بدأت تأسيس مستعمرة لها فى الساحل الصومالى منذ أن استولت على ميناء أوبوك عام ١٨٨٥ م وفرضت الحماية على تاجورة وماجاورها وتأسيس ميناء جيبوتى[3] ، ومن ثم تلامست مناطق النفوذ لكل من انجلترا وفرنسا فى الصومال فعقدت بين الدولتين معاهدة عام ١٨٨٨ م . وكان التدخل الفرنسى فى الشئون الداخلية لسلطنة زنجبار وممتلكاتها على الساحل الصومالى عام ١٨٥٩ م من أجل الحصول على مواقع فرنسية على الساحل الصومالى فى مواجهة المركز الاستعمارى الذى كانت بريطانيا قد حصلت عليه فى زنزبار ذاتها منذعام ١٨٤١[4] م . ونتيجة معاهدة ١٨٨٨ م مع انجلترا تأسس الصومال الفرنسى تحت إدارة موحدة جعلت عاصمته ميناء جيبوتى .

كانت انجلترا منذ أن فرضت على مصر سياسة إخلاء السودان تتخذ موقفا متناقضا . فبينما تعلن لمصر أن السودان وأملاك مصر فى أفريقية قد صارت أرض خلاء لا مالك لها ، نجدها تقف أمام تحقيق الأطماع الاستعمارية الاوروبية فى أملاك مصر الافريقية بدعوى أن حقوق السيادة على هذه الأملاك لمصر ، ولا

(١) د . مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٤٢٤ .

(٢) د . محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٢٣٤ .

(٣) د. رأفت الشيخ : أفريقيا فى العلاقات الدولية ص ١٣٠ .

(٤) Coupland, E. Explaitation of East Africa, p. 338.

يعنى أنها معطلة الآن بسبب سيطرة الثورة المهدية انتهاؤها ومن ثم وجدنا انجلترا تتصرف فى هذه الأملاك وكأنها الوصية عليها تعطى لمن تشاء من الدول أجزاء من هذه الأملاك وتقف دون الدول الأخرى .

وكانت إيطاليا تطمع فى أجزاء من ممتلكات مصر على ساحل البحر الأحمر منذ أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر ، وكانت مصر تعارض مشروعات إيطاليا فى هذه الجهات التى اتخذت من النشاط التجارى ستارا تخفى به غرضها، وقد أيدت انجلترا مصر فى معارضتها لنشاط إيطاليا ولكن فى عام ١٨٨١ م انجلترا تغير سياستها نحو إيطاليا ، والسر فى ذلك تكشف عنه مذكرة فى سجلات وزارة الخارجية الانجليزية كتبت فى سبتمبر تقول : إن الفرنسيين يبذلون أقصى جهد لإخراج مصر من قبضة انجلترا[1] . وبناء على موافقة انجلترا تحولت ميناء عصب إلى مستعمرة إيطالية فى يونيو ١٨٨٢ م ، كما احتل الإيطاليون بلدة بيلول الواقعه إلى الشمال من خليج عصب وكانت بها حامية مصرية طردتها السلطات الايطالية وكان ذلك فى يناير ١٨٨٥ م ، وفى الشهر التالى احتلت إيطاليا مصوع، وبذلك سيطرت على كل الساحل من عصب إلى مصوع ،ومن ثم تأسست مستعمرة أرتريا الايطالية على حساب ممتلكات مصر .

تم تحقيق النشاط الإيطالى فى ساحل البحر الأحمر المصرى بموافقة انجلترا ، لا تخشى من إيطاليا كما تخشى من فرنسا ، فمن الطبيعى إذن أن يتفق الطرفان حتى تصبح إيطاليا عونا للانجليز ضد الدراويش ـ المهديين ـ من ناحية والفرنسيين من ناحية أخرى ، لهذه الأسباب أعطيت مصوع لإيطاليا ثم شجعت على تأسيس مستعمرة أرتريا وإرسال بعثات علمية وتجارية إلى إقليم هرر ، كذلك تفاهمت الدولتان سرا على أن جميع الأراضى الحبشية تعتبر دائرة نفوذ لإيطاليا وتستطيع أن تؤسس فيها

---

(١) د . محمد صبرى : المرجع السابق ص ١٦٥ .

أمبراطورية[١] ، كما سمح الانجليز لإيطاليا باحتلال مديرية كسلا السودانيةالتى كانت آنذاك فى دائرة سيطرة المهديين .

وما لبثت إيطاليا بعد أن تأسست مستعمره أرتريا أن اتجهت أنظارها إلى ساحل الصومال الشرقى فأرسلت سفينة حربية إيطالية إلى مياه ساحل الصومال المطل على المحيط الهندى لكشف هذه الأصقاع تمهيدا لاحتلالها وضمها إلى الممتلكات الإيطالية التى كانت حكومة روما تعمل على تكوينها بمساعدة انجلترة فى شرق أفريقيا[٢] . وأعقب ذلك احتلال إيطاليا لبقية الساحل الجنوبى لخليج عدن بعد حدود الصومال الانجليزى . وفى فبراير ١٨٨٩ قبلت سلطنة أوبيا — فى الصومال - الحماية الإيطالية[٣] .

وقد بدأ تأسيس المستعمرة الإيطالية فى الصومال بحصول شركة إيطالية فى عام ١٨٨٦ م على حق استغلال موانى كيسمايو (قسمايو) وبرافا وموكا ومقديشو من شركة شرق أفريقية البريطانية لمدة خمس وعشرين سنة تتجدد لمدة أخرى إذا رغبت الحكومة الايطالية فى ذلك[٤] . وقد توسعت إيطاليا فى استغلالها حتى اصطدمت بالحبشة ، فتم عقد معاهدة « أوتشيالى » بين إيطاليا والحبشة فى ٢ مايو ١٨٨٩ م ، وهى المعاهدة التى أثارت خلافا بين الطرفين بسبب تفسير المادة ١٧ منها التى نصت على أنه يجوز لملك الحبشة أن يعتمد على الحكومة الإيطالية فى مباشر السياسة الخارجية للحبشة . وكان هدف الايطاليين من ذلك هو تحقيق الادعاءات الحبشية على كل الاقليم من هرر حتى النيل[٥] .

---

(١) د . على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ص ١١٠ .

(٢) د . السيد حراز : التوسع الإيطالى فى شرق افريقية . . ص ١٧٨ .

(٣) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤٤٩ .

(٤) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢٢٦ .

(٥) د رأفت الشيخ : أفريقيا فى العلاقات الدولية ص ١٥٧ .

وقد أرادت إيطاليا أن تحصل على تأييد انجلترا وموافقتها على ادعاءاتها فى شرق أفريقيا بصفة عامة ، ومن ثم عقدت اتفاقات بين الطرفين فى مارس وأبريل عام ١٨٩١ م اعترفت فيها انجلترا بخضوع أكبر جزء من أراضى السودان المصرى التى تقع بين هضبة البحيرات ، ورأس جردا فوى ، للنفوذ الايطالى كما اعترفت بكل أثيوبيا وجزء من التاكا وسنار التابعتين لمصر داخل منطقة النفوذ الايطالى فى شرق أفريقية(١). وهذه الاتفاقات تنظم الحدود بين مناطق النفوذ الانجليزى والايطالى فى الصومال بما يبعد عن الصومال الفرنسى وقـد استكمل تخطيط الحدود بين الصومالين الانجليزى والايطالى فى اتفاق ٥ مايو ١٨٩٤ م بين انجلترة وايطاليا(٢) .

انطلقت إيطاليا تحقق ادعاءاتها على الحبشة متخذة من مستعمرة أرتريا مركزا لنشاطها ولكن الاحباش رفضوا التفسير الايطالى لمعاهدة أوتشيالى فدارت معركة حاسمة فى « عدوة » فى أول مارس ١٨٩٦ م كانت نتيجتها فى صالح الايطاليين مما اضطرهم إلى ترك أحلامهم فى شرق أفريقيا ، وعقدت معاهدة بين إيطاليا والحبشة عرفت بمعاهدة أديس أبابا فى أكتوبر من السنة نفسها ، وفيها حددت الحدود نهائيا بين المستعمرة وأثيوبيا ـ الحبشة(٣) .

ونتيجة لمعركة عدوة تحول الاهتمام الايطالى فى شرق أفريقيا من التوسع على حساب الممتلكات الحبشية إلى التوسع فى الساحل الصومالى ، وقد استطاعت إيطاليا بالفعل تدعيم نفوذها فى موانى قسمايو وبرافا وموكا ومقديشو حتى

---

(٣) د . السيد حراز : المرجع ص ٣٤١ .

(٤) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٥١ .

(٢) د زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢٢٧ .

وصلت أملاكها إلى رأس دلجادو فى الشمال ، وكونت من هذه الجهات مستعمرة ثانية فى أفريقيا عرفت بمستعمرة الصومال الايطالى ظهرت للوجود فى بداية القرن العشرين[1] . وهكذا انتهى التنافس الدولى فى شرق أفريقية بخضوع الأجزاء الشمالية منه لسلطة إيطاليا وهى الأجزاء المعروفة بساحل البنادر - الساحل الصومالى - وستظل فى إدارة هذا الموانى حتى الحرب العالمية الثانية[2] .

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٥٨ .
(٢) د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقية ص ٢٨٢ .

المصادر الأجنبية

(1) Anis, M. : England and the Suez - Route in the 18th, Century.

(2) Coupland, R. : Explaitation of East Africa 1856 - 1890. London 1939.

(3) Cromer : Modern Egypt, Vols.

(4) Chirchill : The River War, 2 Vols.

(5) Evans, Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica.

(6) Longer : Diplomacy of Imperialism.

(7) Hamilton : The Anglo - Egyptian Sudan.

(8) Hillelson : Anglo - Egyptian Sudan.

(9) Holt : Mahdiya.

(10) Shibeika : British Policy in the Sudan.

المصادر

أولا : الوثائق :

- وثائق السودان ١ ، ٢ ، ٢ / ٢ / ٤ دار الوثائق القومية .
- وثائق دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ليبيا .

ثانياً : الدوريات :

- مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٥٥ م .

M· Anis : The development of British interestin Egypt in the 18th Century 1775 — 1798.

- مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد ٢٢ لسنة ١٩٦٨ م .

د. محمد محمود السروجى : الموقف الدولى والاحتلال الإيطالى لطرابلس

- مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخيه العدد ٧ .

د . صلاح العقاد : دعوة حركات الإصلاح السفلى .

- مجلة كلية البنات عام ١٩٦٤ م.

د. عبد الحميد البطريق : الوهابية دين ودولة :

- مجلة الهلال مارس ١٩٣٣ م

د طه حسين : الحياة الأدبية فى جزيرة العرب .

- مجلة معهد الدراسات الإفريقية .

Sndan Notes and Records .

المصادر العربية

١ ــ ابن زنبل أحمد الرماں : آخرة المماليك فى مصر

٢ ــ ابن تيمية (تقى الدين أبى العباس أحمد بن تيمية) : كتاب الزيارة من مجلد الجامع الفريد .

٣ ــ د . أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة القاهرة

٤ ــ د . أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ شرق الجزيرة العربية فى العصور الحديثة القاهرة ١٩٦٨

٥ ــ أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٤٨ م

٦ ــ أحمد عسة : معجزة فوق الرمال بيروت ١٩٦٦

٧ ــ د . السيد رجب حراز : التوسع الإيطـــالى فى شرق أفريقية ، القاهرة ١٩٦٠ م

٨ ــ د . السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ، القاهرة ١٩٧٠ م

٩ ــ د . ابراهيم العدوى : يقظة السودان القاهرة ١٩٥٦ م

١٠ ــ ابراهيم فوزى باشا : السودان بين يدى غوردون وكتشنر جزآن . القاهرة ١١٠١ م

١١ ــ أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن جزآن . القاهرة ١٩٣٤ ــ ١٩٣٦

١٢ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٨ أجزاء

١٣ — أحمد حسنين : فى صحراء ليبيا . مطبعة مصر بدون تاريخ .

١٤ — أحمد صدقى الدجانى : أحاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨، ١٩. طرابلس ١٩٦٥ م

١٥ ابن غلبون (أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون) تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار عنى بنشره وتحقيقه الطاهر الزاوى القاهرة ١٣٤٩ هـ .

١٦ — أحمد النائب الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب جزآن ، الآستانة ١٨٩٩ م

١٧ — الظاهر أحمد الزاوى : ولاة طرابلس من بداية الفتح العربى إلى نهاية الحكم التركى بيروت ١٩٧٠ م

١٨ — الطاهر أحمد الزاوى : معجم البلدان الليبية طرابلس ١٩٦٨ م

١٩ — التعليم الدينى فى ليبيا . بحث مقدم لوزراء التربية والتعليم والوزراء المسئولين عن التخطيط الاقتصادى فى الدول العربية المنعقد فى طرابلس أبريل ١٩٦٦ م

٢٠ — جامعة السيد محمد بن على السنوسى الإسلامية ماضيها وحاضرها طرابلس ١٩٦٢ م

٢١ — د. جلال يحيى : الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية القاهرة ١٩٥٩ م

٢٢ — د. جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق أفريقية القاهرة ١٩٥٩

٢٣ ـ د. جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام وأثرها فى الأدب الحديث القاهرة ١٩٥٨

٢٤ ـ جورج كيرك تعريب عمر الاسكندرى : موجـــز تاريخ الشرق الأوسط القاهرة ١٩٥٧

٢٥ ـ حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين القاهرة ١٩٣٥م

٢٦ ـ حسين بن غنام : تاريخ نجد أو روضة الأفكار والإفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام القاهرة ١٩٦١م

٢٧ ـ د. حسن سليمان محمود : المملكة العربية السعودية القاهرة ١٩٦٠م

٢٨ ـ د. حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر القاهرة ١٩٦٢ م

٢٩ ـ د. حسين فوزى النجار : الشرق العربى بين حربين . القاهرة

٣٠ ـ د. حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين القاهرة ١٩٧٠م

٣١ ـ د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية القاهرة ١٩٦٣ م

٣٢ ـ حافظ عوض : فتح مصر الحديث

٣٣ ـ خليفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها طرابلس ١٩٦٠م

٣٤ ـ د. رأفت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة طرابلس ١٩٧٢ م

٣٥ ـ د. رأفت الشيخ ود. محمود متولى : أفريقيا فى العلاقات الدولية القاهرة ١٩٧٥ م

٣٦ — ريتشارد فوللى ترجمة عمر الديراوى : عشر سنوات فى بلاط طربس . طرابس ١٩٦١

٣٧ — رحلة الحشائش إلى ليبيا (عثمان الحشائش التونسى) تحقيق على مطصفى المصرانى بيروت ١٩٦٥ م

٣٨ — رودلفو ميكاكى تعريب طه فوزى : طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى القاهرة ١٩٦١ م

٣٩ — د. زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث القاهرة ١٩٦٧ م

٤٠ — د زاهر رياض : استعمار أفريقيا القاهرة ١٩٦٥ م

٤١ — ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية بيروت ١٩٦٠ م

٤٢ — سليمان البارونى : صفحات خالدة من الجهاد . تحقيق زعيمة سليمان البارونى القاهرة ١٩٦٠م

٤٣ — سردار بانيكار ترجمة عبد العزيز جاويد : آسيا والسيطرة الغربية القاهرة ١٩٦٢ م

٤٤ — د. صلاح العقادر : المغرب العربى القاهرة ١٩٦٩ م

٤٥ — د. صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر القاهرة ١٩٥٩ م

٤٦ — د. صلاح العقاد : الجزائر المعاصر القاهرة ١٩٦٤ م

٤٧ — د. صلاح العقاد . التيارات السياسية فى الخليج العربى القاهرة ١٩٧٤ م

٤٨ — عزيز سامح ترجمة عبد السلام أدهـــم : الاتراك العثمانيون فى أفريقيا الشمالية ١٩٦٩ م

٤٩ — عبد الكريم الخطيب : الدعوة الوهابية طبعة ثانية
القاهرة ١٩٧٤ م

٥٠ — د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى
القاهرة ١٩٦٩ م

٥١ — د. عزت النص : أحوال السكان فى العالم العربى
القاهرة ١٩٥٥ م

٥٢ — عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار

٥٣ — د. على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل
القاهرة ١٩٥٨ م

٥٤ — عبد العزيز عبد المجيد : التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها ٣ أجزاء القاهرة ١٩٤٩ م

٥٥ — عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية فى السودان القاهرة ١٩٥٢ م

٥٦ — عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال
القاهرة ١٩٦٦ م

٥٧ — د. فيليب رفلة : الجغرافيا السياسية لأفريقيا القاهرة ١٩٦٥ م

٥٨ — كارل بروكلمان تعريب انبيه أمين ومنير البعلبكى : تاريخ الشعوب الاسلامية بيروت ١٩٦٥ م

٥٩ — الليدى آن بلنت ترجمة محمد أنعم غالب : رحلة إلى بلاد نجد
الرياض ١٩٦٧ م

٦٠ — لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض : حاضر العالم الإسلامى

٦١ — مصطفى بعيو : المجمل فى تاريخ لوبيا القاهرة ١٩٤٧ م

٦٢ — مصطفى بعيو : دراسات فى التاريخ اللوبى القاهرة ١٩٠٥ م
٦٣ — محمد رشيد رضا : الوهابيون والحجاز القاهرة ١٩٢٥ م
٦٤ — محمود الشنيطى : قضية ليبيا القاهرة ١٩٥١ م
٦٥ — محمد مصطفى بازامة : بداية المأساة أو التمهيد السياسى للاحتلال الإيطالى بنغازى ١٩٦١ م
٦٦ — محمد مصطفى بازامة :العدوان أو الحرب بين إيطاليا وتركيا فى ليبيا طرابلس ١٩٦٥ م
٦٧ — محمد الطيب الأشهب : عمر المختار القاهرة ١٩٥٦ م
٦٨ — محمد الطيب الأشهب : السنوسى الكبير
٦٩ — محمد بن على السنوسى : الدرر السنية الادريسية بنغازى ١٩٦٨ م
٧٠ — د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة القاهرة ١٩٤٨ م
٧١ — د. محمدفؤاد شكرى : مصروالسيادة على السودان ـ الوضع التاريخى للمسألة القاهرة ١٩٤٦
٧٢ — د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن ١٩ القاهرة ١٩٥٧ م
٧٣ د . محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة القاهرة ١٩٢٧ م
٧٤ — د . محمد رفعت رمضان : على بك الكبير القاهرة ١٩٥٠ م
٧٥ — ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيدانى بيروت
٧٦ — محمود القبانى : السودان المصرى والانجليز مجموعة رسائل نشرت أصلا فى الأهرام القاهرة ١٨٩٦ م

٧٧ — د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون بيروت ١٩٦٤ م

٧٨ — د. مكى شبيكة : مملكة الفرنج الاسلامية القاهرة ١٩٦٤ م

٧٩ — د. محمد عوض : السودان الشمالى سكانه وقبائله القاهرة ١٩٥١م

٨٠ — محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد .

٨١ — محمد بن عبد الوهاب : ثلاثة عشر رسالة فى مجلد الجامع الفريد .

٨٢ — محمد بن الوهاب : مختصر سيرة الرسول .

٨٣ — محمد بن الوهاب : كتاب كشف الشبهـــات فى التوحيد فى مجلد الجامع الفريد .

٨٤ — محمد كرد على : القديم والحديث .

٨٥ — د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى القاهرة ١٩٦٥ م

٨٦ — د. محمد أنيس ود. السيد حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٦٧ م

٨٧ — محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٣ أجزاء القاهرة ١٩٥٧ م

٨٨ — د محمد أنيس : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٩ م

٨٩ — د. محمد مصطفى صفوت : الاحتلال البريطانى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه القاهرة ١٩٥٢ م

٩٠ — د محمد صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ م وأثره فى البلاد العربية القاهرة ١٩٥٧ م

٩١ — د. محمد محمود السروجى : العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية
إلى الاستقلال :

٩٢ — د. محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر
القاهرة ١٩٤٨ م

٩٣ — د. نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الايطالى إلى الاستقلال
القاهرة ١٩٥٨م

٩٤ — د. نقولا زيادة : برقة الدوله العربية الثامنة بيروت ١٩٥٠ م

٩٥ — نعوم شقير : تاريخ السودان الحديث وجغرافيته ٣ أجزاء
القاهرة ١٩٠٣ م

٩٦ — كرمر : تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان
سنة ١٩٠٣ رفعه الإيرل كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها
السياسى فى مصر إلى جناب المركيز لنسدون ناظر خارجتها .

الفهارس



محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

استدراك

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٢٠	١٧	أمامها الشرق	أمامها إلا الشرق
٢٣	٧	هيئات	هيأت
٣١	٧	لتدمير المغول	للتدمير المغولى
٣١	الحاشية	التاسع	الثامن
٣٤	٥	أقطا	أقطار
٤٠	٦	لم	لم يكن
٤٣	٧	التصدى	التصدى
٥٠	١٢	أرل	أول
٥٢	١٨	جداً	×
٦١	٢	فتوحاتها	فتوحاتهم
٦١	الحاشية	عسكررية	عسكرية
٧٠	١٤	شاها	شاهات
٨٧	٢	البلاء	البلاد
٨٧	الحاشية	ذكرى	سبق ذكره
٩٩	١٦	لإبقاء	لإلقاء
١٠٠	٣	١٦٧	١٧٦٧
١٠٠	٤	٧٨	١٧٨٥
١٠٣	١٧	مؤازارة	مؤازرة
١٠٣	الأخير	سابقة	سابقه

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطاء	الصواب
١١٦	٧	كانت الحكم	كانت تحت الحكم
١٢١	١٥	القـ فل	القوافل
١٣٢	٩	١٦٩٨ م وعمر	١٦٨٩ وظاهر
١٣٧	١٧	ظا	ظاهر
١٥١	٣	الثاق	الثامن -
١٥١	١٠	شخ	شيخ
١٥١	الحاشية	(١)	(٢)
١٦٢	١٢	حسين	جيش
١٦٢	١٣	لركيا	لتركيا
١٦٩	١٦	٧٠ م	١٧٧٠ م
١٨٩	العنوان	الفصل الحادى عشر	الفصل العاشر
١٩٤	الحاشية	أحمد عسر	أحمد عسه
١٩٨	الحاشية	أحمد عشر	أحمد عسه
١٩٩	٣	العلاقة	العلامة
٢٠٥	٢	المحمقوت	المقوت
٢٠٦	٨	لاتحت الدين	لاتحت إلى الطين
٢٠٨	قبل الأخير	أقول	أقوال
٢٠٩	الحاشية	فني	نفس
٢١٢	١٣	شاه	شاء
٢١٩	٨	بالحرحم	بالرجم
٢١٩	١٦	وصك	وصلك

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٣٦ / ١٩٧٦ م

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت ٩٤٦٠٧٦